الخِرْتيَّة

محمد الفقي

♦ رواية: الخرتية

♦ تأليف: محمد الفقي

ISBN: 978-139-303-369-1

m.a.elfeki@gmail.com

فهرس

سامح

1

في صالة الشقة التي كان يتعين عليه إخلاؤها في صباح اليوم التالي، كان سامح جالساً على كرسي الفوتى المواجه لترابيزة التلفزيون المغلق والملاصقة للحائط الشمالي. على يسار سامح باب الشقة. كل شيء مرتب ونظيف بالرغم من اضطراره لمغادرة المكان غداً. لا فوضى ولا قذارة. أمضى ليلة أمس وجزء من نهار اليوم في حزم أمتعته في حقيبتين من القماش؛ واحدة كبيرة للأشياء التي سيخزنها في بيت أخته مؤقتاً، والثانية أصغر للضرورات التي لا يمكنه الاستغناء عنها.

قميص أبيض سن الفيل بكم طويل فان هاوزن. وآخر رصاصي فاتح بيير كاردان. بلوفر أصفر كناري تريكو هاند ميد مصري ياقة سبعة مسوَّرة بلون أسود. وأخوه أسود وسبعته مسوَّرة بلون أحمر. بنطلون جينز جاب سماوي. ماكينة حلاقة بلاستك جيلت. معجون حلاقة إنجرام أزرق. معجون أسنان سجنال بلس. فرشاة أسنان بشعر متوسط الصلابة. فرشاة حلاقة صنع إنجلترا. زجاجة عطر فهرنهايت كرستيان ديور مائة مل

ممتلئة لأقل قليلاً من نصفها. إشراقات لفالتر بنيامين بالانجليزية. أربعة أزواج جوارب سوداء. باكت أمبرليف أصفر مبرشم. أربعة دفاتر بفرة أوتومان. قاموس المصباح المنير. شريط فياجرا زرقاء خمسون مجم أربعة أقراص ناقصة قرصاً. القصر لكافكا. شريطان ريفو ثلاثمائة وعشرون مجم كل شريط عشرة أقراص. شريط أقراص نصَّار المُسهِّلة ثمانية أقراص. علبة أقراص فوارة ألكا سلتزر تصنيع باير الألمانية مضادة للحموضة ثلاثون قرصاً. خواتم اثنان لأنسي الحاج. مزيل عرق فا بلية برائحة ليمون الجنة خمسون مل ممتلئة لثلثها. علبة أخلة أسنان. علبة َقطِيلات للأذن. إسفنجة تلميع أحذية كراون. كراسة ورق أبيض مسطر بدون سلك واحد وعشرون سم في تسعة وعشرين وسبعة من عشرة سم ثمانون صفحة أحمر سادة. مقص أظافرإنجليزي ستانلستيل. مبرد أظافر إنجليزي ستانلستيل. ملقاط شعر ألماني تِتانيا. قلم حبر جل أسود. قلم حبر جل أحمر. قلم ماركر برتقالي. علبة كريم نيفيا زرقاء مائة مل. قاموس إنجليزي إنجليزي كولنز للجيب. اثنان بوكسر جل أبيض. فانلتان داخليتان حمالات جل أبيض. أصل الأخلاق وفصلها لنيتشه. ترينج سوت أديداس قطعتان أزرق غامق بشريط سماوي على الجانبين من الإبط إلى القدمين مكتوب بالانجليزية على النصف الأيمن من الجاكت بالبرتقالي أدي ثم السوستة ثم النصف الآخر داس. شريط كاتافلام مائة مجم عشرة أقراص. علبة فانجيكان مائة وخمسون مجم بها شريطان كل شريط به قرص واحد. باكو مناديل فلورا بيضاء معطرة برائحة الليمون عشرة مناديل ناعمة ثلاث طبقات.

في العنف لحنة أرندت. باكو واقي ماي سويت هارت أحمر ثلاث قطع لارج.

سامح جالس على الفوتى الجلدي المريح في الصالة الصغيرة والتي هي أيضاً غرفة المعيشة. أمامه فنجان قهوته. بين إصبعيه الأيسرين الوسطى والسبابة سيجارة لف مشتعلة. على يساره على الأرض وبجوار الفوتى عمودان متلاصقان أحدهما لجرائد، والآخر لمجلات أجنبية، تركتهم ميشِل خلفها. في يده عدد قديم لجريدة الجارديان من الخريف الماضي صادر في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ألفين. يقرأ بانتباه ووعي.

أخذ نفسين عميقين متتاليين من السيجارة حتى ينهيها. ثم أطفأها في منفضة السجائر على المنضدة أمامه. تناول فنجان القهوة وارتشف بتلذذ آخر رشفة قهوة. أعاد الفنجان الفارغ لطبقه. وتناول كوب الماء المترع من على يسار الفنجان وشرب نصفه متمضمضاً أربع مرات ليغسل فمه وأسنانه من ثمالة البن.

تناول من على المنضدة، من على يمين فنجان القهوة، كراسة تدويناته التي هي أخت الكراسة الحمراء القابعة في شنطة الضرورات. والقلم الحبر الجل الأسود الذي كان بجوار الكراسة والذي هو أخو القلم الحبر الأسود القابع في شنطة الضرورات.

وضع مأبض ساقه اليمنى على ركبته اليسرى. وسند الكراسة على ركبته اليمنى في وضع مناسب للكتابة. وشرع يكتب ملخصاً

بالعربية لخبر بالجريدة الانجليزية. كتب أولاً في بداية الصفحة رقم عدد الجارديان، ثم اليوم والشهر والسنة التي صدر فيها.

في جزر برمودا اصطدمت نفس سيارة الأجرة بشقيقين فقتلتهما بفارق زمني عام على حادثة كل منهما. ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بالتمام والكمال. نفس سيارة الأجرة كان يقودها في المرتين نفس سائق الأجرة. وكان معه نفس الراكب في المرتين. وكان السائق يقل الراكب من نفس المكان إلى نفس المكان في كلتا الحادثتين. والشقيقان القتيلان كان كلاهما يستقل نفس الدراجة الهوائية عندما وقعت الحادثة. الحادثة الأولى توفي فيها لورانس آيبن وهو في السابعة عشرة من عمره. وتوفي نيفِل آيبن بعده بسنة في نفس المكان وهو في السابعة عشرة من عمره.

المجد لله في الأعالي!

انتهى سامح من الكتابة. أغلق الكراسة. وأنزل ساقه اليمنى. ووضع الكراسة مكانها على المنضدة وفوقها القلم. ومن على سطح المنضدة، بعد فنجان القهوة الفارغ، تناول طبق التبغ المدور الذي به باكت تبغ أمبرليف وبفرة أوتومان وحزمة الفلاتر الكرتونية والولاعة الزيبو الفضية بالبنزين. وضع الطبق على ركبتيه المضمومتين وشرع في لف سيجارة جديدة.

اللف قبل التدخين. التسليك قبل الفتح. هناك دائماً شيء قبل الشيء. هذه هي الحياة. والعيشة والمعيشة والمعايش.

سحب مستطيلاً كرتونياً من حزمة الفلاتر الكرتونية ثلاثة سم في اثنين سم. لفه بسرعة على شكل أسطوانة ضيقة. ثم فتح دفتر البفرة وسحب ورقة أمسكها بين السبابة والوسطى الأيسرين. وفتح باكت التبغ والتقطت يمناه بالسبابة والإبهام والوسطى كمشة مكورة من شعر التبغ المفروم الأشقر الكهرماني. فرد التبغ على طول ثلثي ورقة البفرة بالعدل. ثم وضع أسطوانة الفلتر الكرتوني في الذيل. ولف ورقة البفرة لفة لعوقة بالثلاثة أصابع الأولى لكلتا يديه. لعق بطرف لسانه طول طرف الورقة الخفيفة الخالية من الصمغ. ثم أحكم إقفال السيجارة. ثم لعق لعقة إضافية على طول السيجارة الملفوفة.

رفيعة دائماً. نكهتها أحلى هكذا. بفلتر كرتوني دائماً. نكتها أحلى هكذا. ثمانية ملجرام قطران وستة من عشرة ملجرام نكوتين. واللعقة على طول السيجارة الملفوفة لزوم التطرية والحرق البطيء.

أشعل سامح السيجارة بالولاعة الزيبو الفضية. وسحب نفساً عميقاً احتفظ به لثلاث ثوان في صدره، ثم نفثه من أنفه.

النفث دائماً من الخياشيم. أحلى نفس أول نفس.

في النفس الثاني صلصل جرس الباب. ليست مفاجأة لأنه يعلم من خلف الباب. قام واتجه لباب الشقة. فتحه ورحب برجب مصافحاً إياه. وكامليا مقبلاً إياها على الوجنتين.

ازدادت جاذبية مؤخراً! لم نتقابل منذ أن سافرت للتصييف في فرنسا. وللتبضع أيضاً. خمرية والمصيف الفرنساوي زادها حلاوة! بنطلون جينز أزرق بلون سماء الشتاء محبوك على أردافها. وجاكت كارو أحمر بمربعات أبيض في أسود. جميل. لابد وأنه من باريس.

دخل رجب وكامليا. وأغلق سامح الباب خلفهما والابتسامة على وجوه الثلاثة. رجب صديق لسامح منذ عدة سنوات. في منتصف العشرينيات. ببنطلون جينز كحلي وجاكت أسود جلد منفوخ أمريكاني هدية من صديقته الأمريكية التي يرافقها الآن. ناول رجب سامح شنطة بلاستك. فتحها سامح وهو ممسك بها وألقى نظرة على الثلاث علب بيرة هاينكن خمسمائة مل.

حركة حلوة من رجب! لا يدخل بيديه خاليتين. حتى وإن كان مفلساً. لا تصدر مثل هذه الحركات عن كامليا.

جرت بين الثلاثة مجاملات وتحيات سريعة وهم واقفون. بقالنا كتير ماشفناكيش يا كوكي معلش كنت مسافرة يا سموحة وبعدين انشغلت في الشغل لا ولايهمك يا جميل المهم اننا شفناكي على خير اتفضلوا يا جماعة خدوا راحتكم البيت بتكم ها جيب كوبايات من جوه حد عايز حاجة من المطبخ لا يا باشا ألف شكر ما تتعبش نفسك كامليا لازم تنزل قوام عشان فيه ضيوف جاينلها.

دلف سامح بسرعة إلى الطرقة ناوياً إحضار ثلاث أكواب

زجاجية طويلة لشرب البيرة. رجع وهو يحمل الأكواب متلبسين فوق بعضهم البعض فلم يجدهما في الصالة. رأى باب غرفة النوم مغلقاً فابتسم في تواطؤ.

في مثل هذه المواقف أنا ورجب نفهم بعضنا بشكل ممتاز. دخول المطبخ فسحة للاختفاء عن الأنظار حتي يسحب هو كامليا للسرير. برغم العشرة الطويلة إلا أن بها تصنعاً شرقياً دائماً في البدايات! أعرف أنها متأكدة أننا سنتناوب عليها. لكن ربما ليست متأكدة إن كنا سنفعلها معها أنا ورجب في نفس الوقت أم لا؟ تتمنى بالطبع! كلهن يتمنين يا ولد!

طرأ على بال سامح أن ذاكرته تحتفظ بذكرى تعرف رجب على كامليا بأقوى من ذكرى تعرفه هو شخصياً عليها.

غريب أمر الذاكرة! الاسترجاع اللاإرادي لما لم يحدث لك شخصياً أقوى من الاسترجاع الإرادي لما حدث لك شخصياً. شالله يا بروست!

حدث الأمر مع رجب منذ عام تقريباً. كامليا مشهورة بانتقاء الذكور الذين يعجبونها. ثلاثينية ثرية شهوانية لا تشبع أبداً. فرسة جامحة قادرة على إنهاك فحولة الفحل المستفحل. متزوجة من ثري فاحش الثراء صاحب مصانع ستكرز متواضع الذكورة. بطاقات ذاتية اللصق توضع على كراسات التلاميذ. وأخرى على عبوات الأغذية والحاويات الصناعية والكيميائية والزراعية وهلم

جرا. الستكرز تعمل الثروة دي كلها؟ سبحان الله!

قال أحمد فرحات مرة إن فؤاد منير طلب مقابلته وأرسل له سيارة خاصة بالسائق، وحين ذهب إليه في قصره بعزبة المنصورية، جلست كامليا أمامه بفستان ميكرو جيب يُظهر كامل فخذيها العاريين. قال إنه رأى لباسها وهي تعتدل وتبدل من وضع ساقيها. وأمام زوجك يا كوكي! هل يا ترى هو من أولئك الذين يحبون مشاهدة زوجاتهم يفعلنها مع غريب أمام أعين الزوج؟ ربما.

فؤاد منير الأربعيني النحيل الألدغ في الراء سأل أحمد فرحات عن قوة التيار الإسلامي في مصر. يبدو أن الأمر كان يشغله لسبب ما. سبب عملي بالتأكيد. قال أحمد فرحات إنه قال له ضمن ما قال أن يشكر الرب لأنه لا توجد انتخابات حرة ونزيهة في مصر وإلا لوصل الإسلاميون إلى الحكم. قال إنه أشار إلى وركي كامليا العاريين وقال ضاحكاً ولو مسكوا الحكم ها يغطوا كل ده بالستكرز بتاعة جوزك! قال إنهم ضحكوا كثيراً. وقال إنه اشتهاها لحظتها.

في أواخر الشتاء الماضي كنت أتسكع بلا هدف في باب اللوق متأملاً في أفكار مشوشة بخصوص المستقبل والمال. وهل يوجد غيرهما يشوش مثلي! دخلت مقهى الحرية ولمحت رجب جالساً هناك مع تلفيق شرور. كان يجلس مهموماً مطرق الرأس وهيئته كمن حلت به مصيبة، وتلفيق شرور يضحك قابضاً على

زجاجة بيرة ستلا على المائدة أمامه كأنه يخاف أن يخطفها منه أحد. كان يقول لرجب شيئاً لم أتبينه حين اقتربت، لكن من ملامحه أدركت أنه يسخر من الولد!

سلمت وجلست إلى جوار رجب في مواجهة تلفيق شرور الجالس على كرسي ملاصق لأحد عمدان المقهى. سألت عن الصحة والأحوال ثم سألت رجب عن سبب مظهره اليائس الذي لا يخفى على العيان. سكت رجب، لكن تلفيق شرور بادر بالشرح وابتسامة سخرية تملئ وجهه.

قال إن رجب قابل كامليا لأول مرة منذ يومين في حفلة عيد ميلاد الملحق الصحفي لسفارة فرنسا بالقاهرة، وأن رجب قد أعجبها من النظرة الأولى. وهي نظرتها نظرة خبيرة والحق يقال!

ولم تنقض الحفلة إلا وكان الاثنان قد تواعدا على اللقاء في الصباح التالي في بيتها في جزيرة العرب بالمهندسين بعد أن يكون زوجها قد غادر إلى عمله في مصنع ستة أكتوبر. إلى هنا وكل شيء تمام وعال العال. كامليا مقبلة على مغامرة جديدة مع شاب صغير يبدو فحلاً من هيئته وعينيه الوقحتين اللتين كانتا تعريانها أثناء الحفلة.

صارحني رجب في ما بعد بأنه في تلك الليلة تمادى في الشرب وتجرأ على غرز إصبعه في مؤخرة كامليا وهو يتحرك

ناحية البار لملء كأسه الفارغة. قال إن الإصبع، وفي وسط كل هذا الحشد في الحفلة، قد أهاجها! قالت له في ما بعد إنها قد بالت لحظتها من الشهوة!

من معرفتي بكامليا قسماً عظماً لو وجدت مكاناً آمناً ليلتها ما صبرت حتى الصباح!

بالنسبة لرجب كامليا فرصة كبيرة. هدية من السماء الرحيمة! كهدايا السماء الرحيمة للبطل الصالح في أفلام نجيب الريحاني. زوجة واحد من أكبر أثرياء مصر. وهي نفسها غنية جداً! من عائلة عريقة في الثراء. والسلطة. لابد وأنه فكر بأنه لو استطاع إسعادها قد تصبح صديقته المستديمة ويصبح هو رفيقها السري المستديم. بشرط أن يعرف كيف يجعلها لا تستطيع الاستغناء عنه. وفي ذلك تكمن موهبة الولد الصراحة!

الولد رجب من النوع الذي يعرف قدراته جيداً. يفهم النساء بالفطرة. فطرته عشرة على عشرة! يعرف أن هناك أشياء أخرى غير الجنس تحتاجها المرأة. حتى الشبقيات منهن ككامليا! شهوة الاعتراف. وهو ممتاز في الإصغاء الحقيقة! كاهن اعتراف صغير. معالج نفسي يُطمئن مرضاه. وديلر يحافظ على سرية زبائنه. ومرشد سياحي شاطر. وسمسار طبعاً! وأحياناً يمارس دور وسيط التعارف الجنسي بين الأصدقاء. ولا مانع حتى من تقديم خدماته لصديقته إن طلبت أن تجرب آخرين غيره. وكله على كله لما تشوفه قوله. لكن الرياح الرجبية لم تجر بما تشتهي

السفن الكاميلية!

كان الولد في ما مضى يتحرك ضمن سواح القاهرة. سواح الصدفة! يرافق الأجانب والعرب متواضعي الحال. أنا من أدخلته لمجتمع المثقفين والفنانين الأجانب. الطبقة الوسطى الأجنبية في القاهرة!

يقضون هنا أوقاتاً أطول من سواح اليوم الواحد والأسبوع الواحد، وأحياناً يقيمون لسنوات عديدة. صحيح أنهم يعيشون في شقق أنيقة في وسط البلد، لكن ما شاهدته عينا رجب لما دخل شقة كامليا في المهندسين كان شيئاً مختلفاً لم يره من قبل! ليس اختلافاً كمياً فقط من حيث مساحة الشقة، ولكن الأهم هو الاختلاف الكيفي. النوعية والمستوى. عالم جديد يراه لأول مرة! حالما عبرت قدماه عتبة بابها انتقل من مجتمع الثقافة والفن إلى مجتمع الاقتصاد. دخل حرم رأس المال. وأي رأس مال يا ولد! رأس مال فؤاد منير!

أعرف تماماً بماذا أحس عندما وقف في صالة شقة جزيرة العرب! الصالة الواسعة. الواسعة جداً جداً! ورخام الأرضية الأبيض العاجي اللامع المستورد من إيطاليا. تنعكس صورتك جلية عليه وأنت واقف تقولش نرجس!

والحوائط البيضاء العاجية. كل هذا البياض يذكرني بالكفن، كل هذا يشيع بقلبي الوهن!

والإضاءة الخافتة المنبعثة من كشافات مدفونة في السقف والجدران. ورائحة الهواء المعقم كأنك في مستشفى. أو سفارة دولة عظمى! كل هذا يشيع بقلبي الوهن.

وتمثال هنرى مور الذي يواجهك حالما تعتب باب الشقة! تمثال عاجي لامرأة بلا رأس، جالسة وهي معوجة، وثدييها بالطول فوق بعضهما البعض! كل هذا يشيع بقلبي الوهن.

وعلى يسارك لوحة روكويل الكبيرة لطفلين أمريكيين مشردين. كل هذا يشيع بقلبي الوهن.

والأرائك الجلدية الأمريكية الوثيرة بلونها الأسود اللامع. والستائر السوداء المسدلة على نوافذ وهمية لا تفتح أبداً. كل هذا يشيع بقلبي الوهن. والدامجانات البنية الضخمة على الأرض. قوارير أدوية مضخمة لمائة مرة تخرج من فوهاتها أغصان نباتات محروقة! كل هذا يشيع بقلبي الوهن.

والمنحوتات الصغيرة هنا وهناك لشخوص تشبه إنسان جياكومتي، وكلها ترفع رؤوسها للسماء وأيديها مدلاة لأسفل في تسليم! كل هذا يشيع بقلبي الوهن. كل ده ومش عاوز البلبل يعطل!

هل يا ترى تعرف كامليا تأثير شقتها على أمثالنا من الرجال الغلابة؟ ربما. هل تستمع برؤية الذكور الذين تجلبهم إلى شقتها يتعطلون من رؤية ثرائها! ربما. كايدة كيادة كامليا دي!

طيب! إذا كان الرجال يرتخون من رؤية شقة المهندسين، والتي هي في النهاية مجرد استراحة لها ولزوجها، فما بالك لو قدر لهم الحظ رؤية قصرهما في عزبة المنصورية؟

محب يقول إن فؤاد منير يملك مجموعة نادرة من اللوحات والمنحوتات الأصلية التي لا تقدر بثمن. ورث بعضها عن منير باشا، وأضاف لها مقتنيات جديدة من منشآته هو. محب يقول إن لديه من ضمن المجموعة التي يحتفظ بها في قبو القصر، الذي لا يدخله إلا هو فقط، حتى كامليا نفسها لا تستطيع دخوله إلا برفقته، ثلاث لوحات أصلية لسلفادور دالي، ولوحتان لبيكاسو، وأيقونة للمسيح بملامح تشبه الجيوكاندا من رسم ليوناردو دافنشي. ليوناردو دافنشي حتة واحدة! أو ربما كانت من رسم أحد تلاميذه تحت إشرافه في ورشته الخاصة، من يعلم! محب يقول إن خبراء اللوحات في العالم يعرفون بأمر هذه اللوحة المجهولة لدافنشي والتي يجهلها العامة. قال إنه ألح عدة مرات على كامليا لتسمح له برؤية الأيقونة بأم عينيه، لكنها تخبره في كل مرة بأنه من المستحيل أن يوافق فؤاد منير.

قال تلفيق شرور، وهو يضحك بصفراوية، وكان استه يصفر، إن رجب قد فشل في الصباحية ولم يستطع أن يفعلها مع كامليا. تعطلت آلته. وراحت الجميلة تسخر من عدم قدرته. هكذا! راحت تسخر منه علانية على المكشوف أمام وجهه! فظيعة كامليا في الكيد اسألني أنا!

وطبعاً وكما هو متوقع أدى هذا إلى أن تزداد حالة المسكين بلاءً، ودخل في حالة نفسية سيئة استحوذت عليه، وراحت حالة العدة والسلاح والصولجان تتطين وتتطلسن أكثر وأكثر، ونام الواقف وصار الديك دجاجة وأصبح بوز الإبريق عروته!

قال تلفيق شرور، وكان استه يصفر ثانية، ويعلم الله كان واكل إيه نهاريها، إنه اقترح على رجب استشارة الشيخ محمود.

هه هه ها الشيخ محمود! درويش هائم على وجهه هارب من ثأر قديم في قريته بأقاصي الصعيد الجواني لأن الدور عليه ويظهر دائماً أمام مساجد مصر القديمة بجلابية بيضاء ناصعة ومكوية وبذقن حليقة كإنه هايبوس بالرغم من أنه ينام في قلاية في جبل التونسي ولا يعرف أحد من يغسل له ملابسه ويكويها ولا أين يحلق ذقنه!

قال الشيخ محمود إن لكل داء دواء ولكل علة طبيب واقترح أن يصلوا الفجر في جامع زين العابدين بالمذبح من اليمن جزارين ومن الشمال جزارين ومن فوق جزارين ومن تحت جزارين. ولم يكذبوا خبراً وذهبوا بربطة المعلم لصلاة صلاة الفجر في جامع زين العابدين في المذبح، وبعد انتهاء الصلاة وبعد أن سلموا على بعضهم البعض وعلى من بجوارهم من المصلين رفع الشيخ محمود يديه عالياً في السماء وصدح بأعلى صوته داعياً والجامع مليان جزارين وبين كل جزار وجزار جزار الإير يا رب والنبي يا رب الإير يا رب! وكررها عدة

مرات كانت كافية لأن يستفيق الجزارون من صدمتهم ويهبوا للدفاع عن كرامة المسجد الذي دنسه هؤلاء المجانين!

قال تلفيق شرور وهو يضحك واسته قد كف عن الصفير إنه في اللحظة التالية كانوا كالجزائر يركضون في الشوارع أمام الجزارين الذين طاردوهم في حواري زين العابدين وكل منهم يحمل في يده ما قسم من مطواة أو هراوة أو ساطور. لكن الله سلم وعدت على خير بلا إصابات.

أدركت على الفور سبب نكسة المسكين. حدث معي أنا شخصياً نفس الشيء أول مرة دخلت فيها شقة كامليا في جزيرة العرب بالمهندسين! تعطلت آلتي أنا الآخر! لكنني لحقت نفسي بقرص فياجرا كنت أحمله احتياطياً. طلبت منها قهوة وكان عليها أن تعدها بنفسها لأنها كانت قد صرفت الخدم، وانتهزت الفرصة فدخلت الحمام وابتلعت القرص الخمسين ملي، وشطفت وجهي وجففته وأخذت وقتي، ثم رجعت وشربت القهوة على أقل أقل من مهلي، وأضعت المزيد من الدقائق في المداعبات والملاعبات وحل الأزرار والتملط والتقبيل والتربيق حتى اشتغل القرص وصان سمعتي. وكامليا فضيحتها بجلاجل لما تحب تفضح الصراحة!

سحبت رجب خارج القهوة بعيداً عن تلفيق شرور، ونصحته بأن يتصل بكامليا ويطلب رؤيتها بأسرع ما يمكن، على أن يتم اللقاء في شقة معفنة لأحد أصدقائه، لا في بيتها. وقلت له أن

يتناول قرص فياجرا قبل اللقاء. سمع النصيحة وأخذها لشقة الولد حسين أبو شورت في غيابه. نصحته أيضاً أن يكون عنيفاً، وأن يكون وقحاً، وأن يصفعها صفعة أو اثنتين، لكن ما يزودهاش عشان الست ما تفصلش! لزوم الإثارة فقط. الإثارة لكليهما. قلت له إن كامليا تحب العنف وعليه أن يفعلها معها بقوة. قالت لي مرة إنها تحلم بالنوم تحت سواق ميكروباص يمسح بها بلاط الحمام ويشتمها ويغتصبها! قالت إنها تعتقد أن سائقي الميكروباصات يجيدون النكاح.

بعد كام يوم جاء رجب وشكرني. عمل بالنصيحة! قال إن الصحة أصبحت عال العال وكل شيء تمام التمام. قال إنه عمل بنصيحتى وكان عنيفاً مع كامليا لدرجة أن ركبتيها كانتا تصطكان عندما نزلت من السرير ووقعت على الأرض! قال إنها أحبت ذلك كثيراً وأنها الآن لا تكف عن الاتصال به وهو الذي يسوف ويماطل. ذكي الولد رجب! يعرف بالفطرة كيف يعامل الحريم.

نظرت عينا سامح إلى الثلاث علب هاينكن الخمسمائة مل الموضوعة على المنضدة. أمسك بواحدة، ودس سبابته اليمنى تحت المفتاح القصديري ورفعه لأعلى فنخس مهمازه سطح العلبة وثقبها. رفع علبة البيرة إلى فمه وراح يعب منها مباشرة. رشفها على مرتين.

عطشان!

بدأ صوتها يصل إليه.

هي أيضاً عطشانة! اصبر دقيقة أخرى.

عد سامح في سره ستين ثانية بإيقاع معتدل.

الآن هما عاريان في السرير!

خلع ملابسه على مهل، مبقياً على الفانلة الداخلية والتيشرت البيج فوقها، وشعر ببرد في نصفه السفلي العاري، برغم الدفء الطبيعي للشقة القبلية. اتجه إلى باب غرفة النوم. فتحه وأطل برأسه وخاطب الظلام:

- ممكن أشترك معاكو؟

ولم ينتظر الإجابة ودخل.

شبح رأس رجب بين ساقي كامليا المستلقية عارية على السرير، ينتفض شبحها من الشهوة التي تجتاحها، ورجب يحتضن بذراعيه ساقيها المفتوحتين. رفع شبح رجب نظره لسامح وابتسم.

بالطبع ليس لديه مانع. فعلناها سوياً مع عدة حريم من قبل.

- عاوز إيه يا وسخ؟ أخرج بره!

كعادتها ستبدأ في التصنع!

قهقه سامح وهو يتقدم من السرير بهدوء وثقة وقد بدأت عيناه تعتادان على الظلام وتميز تفاصيل جسديهما أكثر. كانت على حرف السرير القريب منه. اقترب حتى أصبح ملاصقاً لها وهو واقف.

- إيه بس يا دكتور! يعني هيّ أول مرة! قال سامح بهدوء والابتسامة على شفتيه.

- بس مش كده! قالت كامليا وهي تتصنع العزوف بالرغم من أنها قبضت بيمناها على رجله الثالثة.

أبو رجل ثالثة. ليست كامليا هي من أطلقت عليه هذا الوصف. كانت أم زياد. فلاحة ممشوقة القوام من كفر الشيخ. عود خيزران في أوائل الأربعينيات من عمرها. جاءت إلى القاهرة من عدة سنوات للعمل كممرضة. يتذكرها سامح بكل خير، ويردد دائماً مع نفسه بأنها أكثر مرة تمتع فيها مع امرأة. كانت وقتها متزوجة منذ أكثر من عشرين عاماً من زوج ضعيف فتحها بإصبعه ليلة الدخلة. كثيرات ممن قابلهن سامح حكين له نفس قصة الإصبع المحظوظ. كانت أم زياد حيية. يتذكر دائماً صوتها وأداء جسدها المحروم وهي تحته.

- دي هيّ حلاوتها كده يا كوكي! همس سامح برقة.

- آه يا قذر! والتفتت برأسها ناظرة لوجه رجب لتتأكد من أنه متواطئ، واطمأنت.

أخذت كامليا راحتها وتركت جسدها يؤدي على سجيته. ورجب منهمك في العمل ما بين فخذيها. أمسكت كف سامح اليسرى بذقن كامليا ووجهته في وضع مناسب، وبيمناه قبض على رجله الثالثة ودفعه في فمها فاهتز جسدها منتفضاً، وعلت آهاتها المكتومة.

الاطمئنان قبل الاندماج. التسليك قبل الفتح!

لم يتركه سامح في فمها طويلاً. تحرك راكباً السرير مزيحاً رجب بظهر راحته اليسرى برفق. زحفت ركبتا رجب على الفراش مقترباً من رأس كامليا، والتي تناول فمها صولجانه، بينما فشخ سامح ساقيها، واقترب برأسه وبصق، ثم تراجع ناوياً غرزه فيها. أزاحت كامليا رأسها جانباً بعيداً عن سلاح رجب حتى تستطيع أن تهمس لسامح:

- بعينك يا وسخ مش ها تدوقه!

رد سامح بأحن صوت يمكن أن يخرج من فمه وهو يبتسم:

- ليه بس يا دكتور! دعه يعمل، دعه يمر!

انفجرت كامليا ضاحكة بالرغم من أنها كانت تكره الضحك أثناء الممارسة. وضحك رجب بشدة هو الآخر وهو يضع راحته اليمنى على صدره العاري كعادته عندما يضحك من قلبه كأن صدره سيقفز من مكانه. انتهز سامح فرصة الضحك الثنائي

فدخل كامليا متعمداً أن يفعلها بقوة، فصرخت وكفت عن الضحك.

انتقال فجائي بلا تمهيد! من النقيض للنقيض. مفاجأة. صدمة. حلاوتها كده في النكاح!

تعالت ألفاظ كامليا وسبابها.

يعرف سامح مزاجها ويعرف احتياجاتها. اختلس نظرة إلى رجب في الظلام بينما يمزق كامليا. هُيء له أن ابتسامة رجب قد تصلبت على وجهه موشية بشيء وسط بين الاضطراب والإعجاب وهو يراقب أثر فحولته على كامليا.

فجأة شعر سامح بضعف شديد يجتاح كل عضلاته، خصوصاً ركبتيه. أحس أنهما على وشك التهاوي كأنهما من ورق. فقد القدرة على التحكم بهما. شعر بأنه على وشك أن يخر على فراش السرير، ورغبة جارفة لا تقاوم في النوم. أسقط نفسه على جانبه الأيسر وهو يقول بصوت آفل:

- معلش يا جماعة أنا آسف محتاج أنام.

وراح من توه في سبات عميق.

رأى حلماً حياً شديد الوضوح. أمه تلومه قائلة إن أباه قد أتاها في المنام وهو حزين لأنه يشرب خمرة، فعرف من فوره أنها هزت دولاب ملابسه المعدني المغلق بالمفتاح وسمعت صوت

الزجاجات في قعره. طمأن أمه مؤكداً لها بأنه يواظب على شرب كوب واحد فقط من البيرة يومياً، وطلب منها التوقف عن مناداة كامليا يا عروسة عندما تأتي للغداء عندهم لأن ذلك يشعره بالحرج. وعلى مائدة الطعام قال له أبوه إن العجة التي صنعها هي أشهى ما ذاق في حياته، وسأله عن الموعد الذي سيفتتح فيه المطعم مع صديقه عماد فكري، فرد على أبيه قائلاً إن موعد الافتتاح الليلة وأن على الجميع حضور الافتتاح. ثم قام من على المائدة وهو يشعر ببرد شديد، واتجه إلى الحمام وجلس على قاعدة المرحاض وشرع في التبول، ونظر إلى سقف الحمام الذي تساقط ملاطه من مياه صرف الماسورة المثقوبة في الشقة التي فوقهم والتي يظهر بطنها العاري الصدئ بعرض سقف الحمام ورأى سرسوب مياه قذرة يخر من الثقب على رأسه فأحس بقرف شديد، وقام وغسل رأسه في حوض الحمام بالماء والصابون، وأعجبته كثيراً رائحة الياسمين في الصابون فنادى على أمه بصوت عال مثنياً على رائحة صابون الياسمين وهو يعيد غسل رأسه بالماء والصابون مرة أخرى، وخرج ليجد الصالة دافئة وأمه تقول إنها فتحت التكييف الساخن. وراح يقول لنفسه إن العبارة التي كتبها منذ قليل من الأفضل تعديلها لتصبح توفي نيفِل آيين بعده بسنة في عين المكان بدلاً من نفس المكان. وتساءل وهو يشاهد برنامجاً تسجيلياً عن الصين الحديثة في قناة سي إن إن: الصين بطولها وعرضها وعمقها لم يلفت نظركم فيها إلا فرقة الأكروبات التي تسعى لعرض فقراتها في الدول الأوروبية! ورأى وهو يشتري كيس أمبرليف من دكان التبغ في ممر

الأمريكين علب سجائر جيتان بلو الفرنسية المبططة فطلب من البائع واحدة. وفي صالة الإخراج بشركة أفلام أوديون كان يصر لشعبان السباعي على ضرورة أن يكون اسمه موجوداً بجواره على تترات الفيلم، لا تحته، لأنه شريك معه في تأليف الفيلم. وفكر في أن من يقومون بالتنقيب عن الجواهر في باطن الأرض سيكسبون أكثر لو نقبوا في السماء.

أحس سامح بشيء يصعد لجوفه وهو نائم، فسعل. ثم فتح عينيه وهو لا يعلم كم من الوقت مضى على نومه. أحس بجسده مشلولاً عاجزاً عن الحركة. عرف أنه راقد على ظهره بعرض السرير. كانت الغرفة غارقة في الظلام، ولحاف السرير الثقيل على جسده العاري في نصفه السفلي. شعر برأسه ثقيلة فلم يرفعها من على الوسادة. نادى على رجب بصوت خافت. ُأضيئت الغرفة. وسمع صوت رجب يقترب ضاحكاً:

- يا راجل! تنام برضه وانت بتجيب! يعني سمعنا عن اللى بينام بعد ما بيجيب، بس اللى بينام وهوّ بيجيب دي جديدة يا أستاذ! واستمرت ضحكته.

شاهد سامح رأس رجب تقترب أكثر من السرير. قال رجب باهتمام وجدية بعد أن انتهت ضحكته وهو يلمس اللحاف فوق ساق سامح اليمنى المغطاة بحنو:

- مش الأحسن برضه تاخد رأي دكتور؟ عشان نطمن بس.

- لأ اطمن أنا تمام، أنا عارف اللى عندي. رد صوت سامح رائقاً مجلواً.

شهد رجب سامح وهو يصاب بإغماء النوم مرتين من قبل. الأولى من سنة تقريباً، في فورة تبادل قافية بينه وبين محب. في قمة ضحكه قال أشعر برغبة ملحة في النوم، وأسقط رأسه على مخدة ساعديه المتصالبين على منضدة مقهى التكعيبة، وراح من فوره في سبات عميق. والثانية منذ شهرين، أثناء تناولهما الطعام مع ميشِل وآبي وشلي في تونس في الفيوم في بيت إيفيلين. فجأة قال سامح وهو يأكل بشهية على مائدة الطعام أنا آسف يا جماعة محتاج أنام حالاً، وأسقط رأسه على مخدة ساعديه المتصالبين على منضدة غرفة الطعام، وراح من فوره في سبات عميق.

- خير طيب يا أستاذ طمني؟

- يعني لو قلتلك ها تفهم! قال سامح مداعباً.

- جربني طب يا أستاذ المرة دي يمكن أفهم! قال رجب وهو يبتسم ويضع راحته اليمنى على صدره.

بعد إحساسه بلمسة أصابع رجب فوق ساقه، شعر سامح بأنه قد بدأ يتحكم في عضلات جسده من جديد. اعتمد على مرفقيه وشب بصدره. أزاح اللحاف عن نصفه العلوي مكتفياً بتغطية عورته وساقيه. ثم جلس على حافة السرير. ونظر لرجب مبتسماً ابتسامة يشوبها بعض الإحراج.

- لأ اطمن ما فيش حاجة. بسيطة ما تستاهلش.

- ما تستاهلش! ما تستاهلش يا أستاذ! وقهقه رجب ضاحكاً.

ضحك سامح.

ما تستاهلش هي نكتة قالها سامح لرجب الأسبوع الماضي. أراد أحدهم أن يبيع لآخر فياجرا الحبة بخمسين جنيهاً، فقال له الآخر لأ ما تستاهلش. قال له طيب خذها بأربعين. لأ ما تستاهلش. طيب بثلاثين. ما تستاهلش. طيب بعشرين. ما تستاهلش. طيب بعشرة. ما تستاهلش. طيب بخمسة. ما تستاهلش. قال له إزاي بتقول ما تستاهلش وهيّ في بلادها الحباية الواحدة بدولار! قال له مش مهم الحباية بكام المهم إن مراتي ما تستاهلش!

لاحظ وعي سامح أن شعوراً بالانتعاش والانسجام مع العالم قد بدأ يملؤه الآن.

يقولون إن بعض الناس يلجؤن للحجامة للوصول لنفس هذه الإحساس!

وتذكر كامليا فسأل عنها رجب. رد رجب قائلاً بإنها غادرت من بضعة دقائق.

- خافت عليك في الأول بس انا طمنتها وقلتلها إنك مانمتش

من يومين. عشان بتنقل يعني من الشقة وكده. واطمنت أكتر لما بدأت حضرتك تِشخّر! وضحك رجب.

- أنا؟ كنت بشخّر! سأل سامح باستغراب.

- وشخير إيه بقى يا باشا! طب والله العظيم أنا خفت الجيران يخبطوا يشتكوا! وقهقه رجب وهو يضع راحته اليمنى على صدره.

- للدرجة دي! قالها سامح وعلى وجه أمارات المفاجأة.

- وأكتر يا باشا! وضحك رجب.

همهم سامح كعادته حين يرغب في تغيير الموضوع. وصمت لثوان كمن سرح في فكرة مهمة. ثم سأل رجب:

- وعملت إيه مع كامليا؟

- سيبناك نايم وخرجنا كملنا في الصالة، على الأرض بره، ما أنت عارف كامليا بتحب على الأرض! وزفر رجب قهقهتين قصيرتين متتاليتين.

- آه. رد سامح سارحاً في الفرصة التى ضاعت.

وأكمل رجب:

- طب والله العظيم يا أستاذ الإغماء ده كان رحمة ليك!

وقال بجدية وهو يضع راحته اليمنى على صدره:

- أخوك اتبهدل يا باشا!

- السودة يا ابني، ما أنا قايلك! قال سامح وقهقه.

ثم تذكر نصيحة.

- رجب بقولك. خليك واعي هه. خد حباية الليلة دي عشان آبي ما تشكش!

قال رجب وهو يبتسم:

- ها يحصل يا باشا، الواجب المقدس بتاع كل ليلة!

ورجع رجب إلى الموضوع مجدداً وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً:

- بس كامليا إيه ده يا أستاذ! بقت فظيعة!

- وكل مادى ها تزيد! كل الواحد ما بيمارس أكتر كل ما يبقى عايز يمارس أكتر، وكل ما ياكل أكتر كل ما يبقى عايز ياكل أكتر. وكل ما ينام أكتر كل ما يبقى عايز ينام أكتر. فاكر الإفيه بتاع سمير غانم في المسرحية؟ نمت ثلاث أيام صحيت لقيت نفسي تعبان فدخلت أنام! ده مضبوط جداً على فكرة!

- صح. قالها رجب بجدية.

فكر سامح أن رجب ربما خطرت على باله نفس العبارة التي خطرت على باله. آهو كله مصلحة، رزق الذُكرة على كامليا!

- بقولك يا أستاذ كنت على وشك أعمل قهوة تركـ..

وقطع رجب باقي الكلمة لأنه تذكر أن سامح قد أكد له من قبل أن وصفها الصحيح هو قهوة يوناني، لا قهوة تركي.

قال له سامح مرة: لو كنت تجلس على مقهي في اليونان، وطلبت من الجرسون قهوة تركية، فإنه في الغالب سوف يضربك، أو ُتشتَم في أضعف الاحتمالات. كرامة وطنية، شرف قومي! لدى اليونانيين اعتقاد راسخ بأنهم هم أصحاب هذا النوع من القهوة، وأن الأتراك سرقوها منهم. حرامية بن! سرقة بنية.

منذ ذلك الحين أصبح سامح ورجب ينتصران للتاريخ اليوناني؛ لأسباب عاطفية تتعلق بتفضيلهما لليونانيين على الأتراك. لكن لسان رجب لا يزال في بعض الأحيان يزل بالتاريخ الزائف الشائع.

صحح وعي رجب لسانه:

- قهوة يووونااني. أعملك معايا؟

- لأ شكراً، هي أصلاً تلقيمة واحدة اللي باقية! إشرب إنت قهوتك، بس أنا عايزك تعزمني بعد كده على آيس كريم.

واحد آيس كريم يدخل، وهناك واحد لبن أصلاً لم يخرج، وربنا يسترها الليلة دي!

- يا سلام يا أستاذ، طب ده يبقى لينا الشرف والله العظيم! نطقها رجب بمودة وراحته اليمنى على صدره، وكانت أمارات وجهه تعني العبارة فعلاً.

2

أمام محل عبد الرحيم قويدر للحلويات والآيس كريم بشارع طلعت حرب حالياً سليمان باشا الفرنساوي سابقاً وقف سامح ورجب وفي يمين كل منهما قمع بسكويت الآيس كريم الذي طلبه. ثلاث كرات سخية من الشوكولاته والفانِليا والليمون لسامح، وثلاث كرات سخية من الشوكولاته والفانِليا والفراولة لرجب. شعر سامح بالحيوية والنشاط منذ أن غادر الشقة مع رجب، كأنه بعث من جديد، أو انتهى لتوه من حمام بلدي. وشعر كذلك بشهية مفتوحة.

أحب سامح أن يعرف معلومات أكثر عن ترتيبات استضافته في شقة آبي وشلي. كان قد قابلهما بصحبة رجب في بيت إيفيلين في تونس بالفيوم في الصيف الماضي. أمضيا معاً بضعة أيام هناك، وعرف أثناءها أن آبي وشلي الأمريكيتين تدرسان اللغة العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. لكنهما أصلاً باحثتان في مؤسسة راند الأمريكية التي سمع محب يقول عنها ذات مرة بإنها العقل الاستراتيجي لحكام أمريكا. عرف كذلك أن كلتيهما متخصصتان في دراسات الشرق الأوسط. كان محب قد قال له مرة إن الشرق الأوسط هو تعبير أطلقه المستعمر الإنجليزي

تمييزاً له عن الشرق الأقصى؛ الهند والصين. يتعلق الأمر بالنسبة للإنجليز بالمسافة بينهم وبين مستعمراتهم. يحب محب أن يقول للأوروبيين الذين يقابلهم، من باب السخرية: هالو هل أنت من الغرب الأوسط! في حين يقول للأمريكيين الذين يقابلهم من باب السخرية: هالو هل أنت من الغرب الأقصى!

يعرف سامح أن آبي وشلي تقيمان في القاهرة على حساب مؤسسة راند. ويعرف أيضاً أنهما تجريان دراسة ما عن الجماعات الإسلامية في مصر. أدرك من الوهلة الأولى أن شلي هي المسيطرة، وأن آبي تنقاد لها بسهولة، رغم أنهما من نفس العمر تقريباً؛ أواخر العشرينيات، كما قدر، لأنه لم يسأل عن عمرهما من باب اللياقة.

المعلومات الجديدة التي يدلي بها رجب لسامح الآن وهو يلعق كرات الآيس كريم الثلاث بالتتابع الشوكولاته والفانِليا والفراولة وهو على رصيف الشارع أمام قويدر هي: أولاً، سيتوجب على سامح أن يترك المنزل في بعض الليالي. وأول هذه المرات ستكون بعد الغد. لأن شلي وآبي تستضيفان في بعض الأحيان بعض المبحوثين على عشاء خفيف، يعقبه مقابلة طويلة مسجلة صوتياً مع المبحوث المحشو بالعشاء الأمريكي الخفيف. على أن يعود سامح إلى البيت بعد انصراف الضيف. وسيكون على سامح في هذه الحالة أن يتصل تليفونياً أولاً قبل أن يعود إلى البيت، ليعرف إن كان الضيف المبحوث قد انصرف أم لا؟ وسيخبره رجب في كل مرة عن الموعد الذي ينبغي فيه الاتصال للتأكد بأن

الدار أمان وأن بإمكانه أن يعود إلى بيت الأمريكيتين.

ثانياً، الفتاتان اعتذرتا بشكل قاطع عن عدم إمكانية السماح له بالبقاء لأكثر من أسبوع واحد فقط لا غير. وذلك لأن خطيب شلي الأمريكي عليرزا سيصل إلى القاهرة بعد أسبوع، وسيقيم معهما في الشقة، وهو لن يحب أن يرى رجلاً غريباً داخلاً خارجاً محتلاً صالة البيت. ثانياً هذه كان سامح يعرفها من قبل، لأن رجب كان قد أخبره بها وهو يعلمه بموافقة شلي وآبي على طلبه بأن تستضيفاه لعدة أيام في شقتهما. لكن رجب أحب أن يكرر هذه المعلومة المهمة؛ من باب التأكيد والتوكيد والتوكد، لإيمانه بأن التكرار يعلم الشطار.

ألمح رجب بسخرية وهو يلعق بشهية بواقي كريمة الفراولة التي تداخلت مع بواقي كريمة الشوكولاته وبواقي كريمة الفانليا أنه هو شخصياً، وبالرغم من أنه بويفرند آبي، لم يكن محل ترحيب من عليرزا عندما حضر للقاهرة آخر مرة ورآه مع آبي لأول مرة. قال رجب وهو يضحك ضحكة احتقار إن عليرزا إبن الرزيئة عامله بتعال واستخفاف، وأن آبي حاولت تبرير ذلك بالقول بإن عليرزا شخصية محافظة ولا يستسيغ كثيراً رؤية صديقات شلي الإناث بصحبة أصدقاء من الذكور. هذا بالرغم من أن شلي وعليرزا نفسيهما لم يتزوجا بعد.

قال سامح إنه لا توجد أية مشكلة، وأنه سيترك الشقة بعد أسبوع، أو حتى قبل ذلك، لأن محب سوف يعود من مدريد في

غضون بضعة أيام. وقال أيضاً إنه ممتن جداً لرجب لأنه توسط لدى آبي وشلي للسماح له بالمكوث هذه الأيام القليلة معهما حتى يدبر حاله. وتذكر سامح أن ينصح رجب بأن عليه أن يتحمل غطرسة عليرزا عندما يصل للقاهرة حتى تمر العاصفة ويستأنف المركب سيره ويصل إلى مرفأه بسلام، وأن هذه المسائل تؤخذ بالعقلانية والتعقل، وأن اللي تغلب به العب به، وأن الأرزاق تأتي دائماً ومعها أرزاء كعليرزا، ومادام هو سعيد مع آبي وآبي سعيدة معه فليذهب عليرزا إلى جهنم الحمراء.

ثالثاً، أخبر رجب سامح بأنه من المفهوم طبعاً أنه لن يكون باستطاعته استقبال لا ضيوف ولا أصدقاء من أي نوع في البيت. كما أن عليه التزام الهدوء، خصوصاً في الليل، لأن شلي وآبي تنامان مبكراً. وقال سامح لرجب إنه لا توجد أية مشكلة يا صديقي وكل شيء سيسير على ما يرام.

رابعاً، عن الشرب. قال رجب إنه بالرغم من أن عليرزا يرزيه ربنا يا رب قد أثر على شلي بطابعه المحافظ الذي يشمل التحفظ تجاه الكحوليات أيضاً، وبالرغم من أن هذا التحفظ الكحولي العليرزي قد انتقل بالتبعية إلى آبي، خصوصاً وأن صديق آبي القديم كان أمريكياً مدمناً على الشراب، وقد تأثرت به آبي كثيراً، قبل أن تتأثر في ما بعد بشلي، فصارت هي نفسها في تلك الفترة مدمنة على الكحوليات، ولم تتعاف من الإدمان إلا بعد حضورها إلى القاهرة وانفصالها عن الولد الأمريكي السكير، إلا أنه وبالرغم من كل تلك الاعتبارات فنحن نشرب قليلاً في البيت

من حين لآخر، ولكن على نحو معتدل، والوسطية حلوة برضه ما فيش كلام.

كما أكد رجب أنهم يتناولون أفضل الأنواع من كل شيء، لأن أحد أصدقاء شلي الأمريكيين يعمل بالسفارة الأمريكية في القاهرة، ومن الصدف السعيدة أنه هو بدوره صديق للمسؤول الأمريكي عن قبو المشروبات والأغذية بالسفارة. ولذلك فيمكنهم الحصول على نفس ما يحصل عليه أي دبلوماسي أمريكي في القاهرة. سأله سامح بفضول والأسعار يا باشا؟ رد رجب قائلاً إنها تقريباً نفس الأسعار في أمريكا. وأضاف أن الأخ داني مسؤول القبو يأخذ ثمن البضاعة ويدسه في جيبه بدلاً من دسه في خزينة السفارة ولا من شاف ولا من دري. طبعاً بعد أن يستقطع الوسيط الأمريكي صديق شلي نسبته هو أيضاً ويدسها في جيبه. قال سامح ضاحكاً وداني بيقيدها إيه في سجلات السفارة؟ بضاعة أتلفها الهوى! ضحك رجب وقال إن كله بياكل يا أستاذ كله بينبسط، وآهو أكل العيش مر برضه، والواحد لازم يقلب رزقه ويطلع بقرش أبيض من البعثة الدبلوماسية ينفع في اليوم الأسود لما يرجع أمريكا البلد! ضحك كل منهما وقد أتى كليهما على بسكويت الآيس كريم في يده.

ثم أضاف رجب معلومة لوجستية تتعلق بأن القهوة الأمريكية، والنسكافيه، والحليب المجفف، وحبوب السيريل، وزبدة الفول السوداني، والبسكويتات، والشوكولاتات الفاخرة، وخلافه من كل الأصناف الأمريكية الممتازة متوفر أيضاً في

البيت والبركة في قبو داني والصديق القومسيونجي.

من جديد طمأن سامح رجب بأنه لا توجد أدنى مشكلة في أي من هذه الترتيبات على الإطلاق، وأنه سيحرص على أن يكون خفيفاً قدر المستطاع في فترة إقامته القصيرة معهم، وعاد ليكرر ما سبق أن قاله له من قبل عدة مرات؛ من أنه يحتاج فقط لبضعة أيام حتى يعود محب من السفر وينتقل للإقامة معه. ثم عاد ليشكره مجدداً شكراً جزيلاً على شهامته وكرمه لتدخله لدى شلي وآبي وإقناعهما بأن تستضيفاه، وإلا لكان مصيره الشارع والنوم على قارعة الطريق. رد رجب بأريحية، وبدا على ملامح وجهه بأنه فعلاً يعني ما يقول:

- عيب يا أستاذ ما تقولش كده، أنا عنيا الاتنين ليك! إن جيت للحق بقى أنا اللي لازم أشكرك لإنك ها تسمحلي أقضي معاك وقت أطول! ها ستناك من الصبح! أنا ها بقى صاحي من الساعة ثمانية.

قال سامح إنه في الغالب سيصل حوالي العاشرة، لأن عليه أن يمر أولاً على بيت أخته في المنيل ليترك عندها حقيبته الكبيرة. ولم يقل إنه سيحاول اقتراض بعض المال منها، بعد أن أفشل إغماؤه المفاجئ ما كان يخطط له من طلب مال من كامليا. وبرغم علاقة سامح المتينة برجب، إلا أنه طالما استبعد فكرة طلب مال منه، حتى وإن تأكد بأن رجب معه مال هذه الأيام؛ لحرصه على أن يظل اتجاه العلاقة بينهما كما هو عليه، وأن

تظل يده أعلى من يد رجب.

كان اللفظ الذي يستعمله سامح هو نفسه اللفظ الذي يستعمله كل أصدقائه ومعارفه حين يطلب أحدهم نقوداً من الآخرين: سلفني. ممكن تسلفني؟ تقدر تسلفني؟ هذا على الرغم من أنه لم يحدث يوماً أن أعاد أي منهم قرضاً استدانه لأحد. لم يحدث أبداً من قبل، على الإطلاق. لكن الجميع يستعملون هذا اللفظ. ولم يكن أحد في الحقيقة يطالب أحداً بشيء، لأن أحداً لن يرد شيئاً لو ُطلب منه ذلك. وحين يعطي أحدهم مالاً لأحدهم يكون متيقناً بأن ذلك المال لن يعود. وبالتالي فإن ما يُعطى من أحدهم لأحدهم يُصنف منذ البداية في وعي كليهما بوصفه إعانة. مساعدة. يطلق الدراويش في مصر عليها اسم نفحة. ومن باب الإنصاف ينبغي التأكيد على حقيقة أخرى موازية وهي أنهم جميعاً يردون ديونهم بشكل أو بآخر؛ في صورة خدمات متنوعة من كافة الأشكال، وحسب الظروف. كما أن إبداء المستدين الاحترام للدائن أمام الآخرين يعتبر أيضاً من قبيل رد الدين. وحتى وإن وجد عدد من الأنذال الذين ما إن يصبح شيء من المال في جيوبهم حتى ينكروا أصدقاءهم، فإن تلك الخسة لا تقتصر على الخرتية، لأنها موجودة في كل مهنة، وفي كل زمان ومكان.

قارب الوقت على العاشرة، وأراد رجب الرجوع إلى بيته؛ لأن آبي في انتظاره ولن تنام إلا بعد أن يعود ويؤدي واجبه الليلي. آبي تغار عليه بشدة. أداؤه ممتاز في السرير. كما أنه يجيد التعامل نفسياً مع النساء، ولديه خبرة طويلة في هذا المجال

بالرغم من صغر سنه.

ودع رجب سامح بابتسامة لطيفة ومصافحة قوية، قائلاً إنهما على موعدهما بعد بضع ساعات، وأكد عليه أنه تحت أمره إن أراد أي مساعدة في نقل حاجياته في الصباح. شكره سامح، وسأله كيف سيرجع إلى الزمالك؟ قال رجب إنه مستعجل وسيستقل سيارة تاكسي.

سامح، الذي كان اتجاه نظره في مقابل حركة سير السيارات الآتية من الشارع، لمح سيارة تاكسي شاغرة قادمة تسير بحذاء الرصيف، فأشار للسائق، الذي أوقف السيارة أمامهما. فتح رجب الباب بسرعة حتى لا يعطل حركة المرور، وقفز بداخلها. ورفع يسراه، لما استقر بالداخل، ملتفتاً بنصفه الأعلى من وراء النافذة المغلقة محيياً سامح والسيارة تسير.

شعر سامح بمزيد من الانتعاش والحيوية وهو يقف وحده على الرصيف أمام قويدر. وشعر فجأة بأنه جائع جداً. دس يده في جيب بنطلونه الجينز الجاب النيلي. أخرج ما معه من نقود. بسط كفه، ودلى رقبته قليلاً على صدره حتى يرى ما في يده. عدت عيناه سريعاً سبعة جنيهات ونصف. قرر وعيه فوراً أن يترك جنيهان ونصف ليتمكن من الوصول بهما إلى منزل أخته في المنيل في صباح الغد.

إذن يمكن إنفاق خمسة جنيهات كاملة على عشاء الليلة، يا

حلاوة! ولكن ماذا نأكل؟

دس النقود في جيبه. جرى ذهنه سريعاً وهو واقف على الخيارين الأسهل المتاحين دائماً.

كشري أبو طارق في شارع شامبليون. واحد كشري بصلصة الطماطم الطازجة، والحمص، والبصل التقلية الورد، والدقة، والشطة. الإجمالي خمسة جنيهات.

أو طبق فول بالزيت الحار من عند الفقي المقابل لأبي طارق ناصية شارع معروف. مع طبق طعمية مقلية ساخنة، وباذنجان مخلل، وبيض بالبسطرمة. الإجمالي أربعة جنيهات.

لكن شهية الضباع الليلة متلهفة للحوم!

الأحسن نمشي حتى سوق التوفيقية ونشتري ربع كيلو سوسيس خنزير مدخن من عند مرقص بأربعة جنيهات. وبجنيه عيش فينو فرنساوي طويل من المخبز الأفرنجي المقابل للعمارة في محمود بسيوني وأنا راجع.

بدأ يخطو متمهلاً وسط زحام الشارع.

زحام دائم وغير مبرر! لا أحد يشتري ولا أحد يبيع، فلم الزحام؟!

الناس هجّة. في الأزمات الاقتصادية تلاقيهم يملئون

الشوارع. ينامون في النهار، ويستيقظون في الليل. لا يوجد عمل ولا شغلة ولا مشغلة فلماذا نستيقظ مبكراً كباعة اللبن! يخرجون من العرين عند هبوط الليل، ويسيرون في الشوارع بلا هدف. الناس مخنوقة. يصدمون بعضهم بعضاً في الزحام. المصدوم لا يُبدي اعتراضاً على الصدمة للصادم الذي صدمه، ويكمل الجميع سيره. يكمل الجميع الطريق. الطريق الذي ليس هو بطريق.

ما يزال لديّ في الثلاجة بواقي زبد ممتاز ملفوف في ورقته الفضية. ومستردة مستوردة. أصابع سوسيس مقلية في الزبد المقدوح، وفرشة وفيرة من المستردة الحريرية في بطن السندوتش المفتوح تسيح أكثر فور أن ينام عليها السوسيس المقرمش الساخن. ثم صبّة بهريز من الزبد المقدوح المتخلف في الطاسة. ونغلق السندوتش مع ضغطة محكمة بباطن الكفين على جناحي السندوتش لتمتزج المستردة مع البهريز وتبدأ في البروز العشوائي من أطراف السندوتش. ثم أول قضمة، الله يا معلم! كبيرة مترعة تملئ الفم. ونمضغ على مهل. السوسيس لدن من الداخل ومقرمش من الخارج بقشرة جلدية زبدية مستردية!

أصبح الطعم في فم سامح. سالت نسيلة من لعابه أيسر شدقه. لحقها لسانه بسرعة ولعقها وهو يسير. ولاحظت عيناه فتاة محجبة ممتلئة قادمة عكس اتجاهه. نظرت إلى عينيه وابتسمت وهي تتجاوزه.

صيدة سهلة! ظنت حركة لساني معاكسة!

أسف سامح، وهو مستمر في سيره ناظراً أمامه، لأنه لا يحب الممتلئات. لا يسمح لنفسه بالتورط معهن إلا في حالات الضرورة القصوى فقط. لكن إن أتيح له حرية الاختيار لا يقربهن. يظن أن البدانة، إن لم تكن لسبب مرضي، فإنها نتيجة أن شخصاً قد أخذ أكثر من حاجته من العالم.

مخزون زائد عن الحاجة. تهافت. من يراكم الدهون فوق الدهون، مثل رأسمالي جشع يراكم النقود فوق النقود. الامتلاء ابتلاء! خسارة يا ابني لو كانت نحيفة! البنت سهلة ومشتهية. لقمة سائغة. حظ لمحظوظ يحب البدينات!

استمرت قدماه في التقدم على مهل بخطوات متزنة متساوية، وعقله يفكر بأن الحظ ربما يبتسم له فيقابل نصار الفلسطيني على مقهى الشمس وهو في طريقه لمرقص بائع لحوم الخنازير، فيطلب منه نقوداً.

خدمته كثيراً من قبل، وإن طلبت منه مالاً فلن يرفض. سيعطيني أي شيء. سيعطيني وهو متأفف، نعم، لكنه لن يرفض. لا يمكنه أن يرفض. علينا أن ندبر حالنا إلى أن تفرج الأمور ونتوفق في العثور على رفيقة جديدة.

علينا في الأيام القادمة أن نطلب مالاً من الجميع، وإلا كيف سنعيش في هذه المدينة؟

المائة دولار التي تركتها ميشِل خلصت. تبخرت يا ولد

تقولش الفلوس فيها عفريت! أو مقرور عليها!

علينا أن نبدأ في تدبير أحوالنا بأنفسنا الآن. إن أعطاني نصار نقوداً، فسأعرج في طريق العودة على السايبر المجاور لمطعم استوريل. عندهم في الدور الثاني كمبيوتر غريب عجيب مخصص للاتصالات الدولية. لا أحد رآه لكن الجميع يعلمون أنه هناك! ممنوع على زبائن المحل الصعود لأعلى. ربما يخافون من الوشاية. يبيعون الدقيقة لأمريكا بجنيه واحد! في السنترال العمومي بستة.

مر اليوم أسبوعان على رحيلها. قد تكون دبرت حالها هناك واستقرت. إن اتصلت بها فربما ترسل شيئاً بالوسترن يونيون. سأحاول أن أرسل لك شيئاً حالما أستقر وأرتب أموري، هكذا قالت وهي تودعني في صالة اثنين بالمطار.

نعم قد تفعل، لكن كم سترسل؟ مائة دولار أخرى؟ وكل بضعة أشهر مائة دولار! مرة أو مرتين ثم ستنسى. أو تمل. الطبيعة البشرية. وماذا ستفعل المائة دولار يا ولد! صحيح هو في السوق السوداء الآن بستة جنيهات، ولكن في المقابل الأسعار نار! فرن مولع يا ابني! محرقة. البركة في الإصلاح الاقتصادي! دعه يعمل دعه يمر.

لعن في سره الغلاء، والبقالين، والتجار، والإصلاح الاقتصادي، واقتصاد السوق.

يطلق عليه أحمد فرحات اقتصاد السوء. عندما قالها أمامي أول مرة لم أنتبه إلا بعد أن كررها مؤكداً: السوء بالهمزة يا ابني! ضحكت كثيراً. رمية صائبة من رام بارع رشقت في عين الحقيقة! لايمكن إدراك المفارقة اللغوية إلا بالكتابة. نطقها باللهجة المصرية يحجب الإفيه. يا ترى ميزة في اللهجة أم عيب؟ الاثنان وحياتك.

الدكتور أحمد فرحات. حبيبي والله! حاصل على الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة موسكو. في صدر شبابه كان شقياً بلطجياً. وديلر حشيش في المنشية في الإسكندرية. رآه صدفة حسين عبد الرازق أثناء تصييفه هناك، ولا تدري كيف توسم فيه خيراً من النظرة الأولى، فتبناه تقريباً. الناس معادن صحيح! وحسين عبد الرازق عرف معدنه من أول نظرة. بدأ بإكمال تعليمه الذي انقطع بعد الابتدائية. وأصبح الآن واحداً من قادة حزب التجمع. خبير مرموق في اقتصاديات مصر والعالم الثالث!

حبيبي والله! آراؤه دائماً صائبة. قال لي مرة:

- الروس أخدوا أكبر خازوق في حياتهم! افتكروا الاقتصاد الحر حر فعلاً!

- هوّه مش كده؟! تساءلت.

- كده مين يا ابني! رد أحمد فرحات، ثم أكمل:

- كارتلات يا ابني كارتلات! العالم كله بتتحكم فيه الكارتلات. كل سلعة وكل خدمة ليها الكارتل بتاعها اللي بيتحكم في وجودها في السوق. تبقى موجودة في أي سوق؟ وبأي كمية؟ وبأي سعر؟ أربع أو خمس شركات رأسمالية مالتيناشونال هيّ اللي بتتحكم في كل سلعة. بيتفقوا مع بعض الأول على سياسة معينة لتسويق السلعة، واللي يقرروه هوّه اللي يمشي، وما حدش يقدر يبيع ولا يشتري إلا بشروطهم. والكارتلات الكبيرة ليها كارتلات صغيرة محلية، وكلاء كده يعني في كل بلد. وتقولي سوء حرة!

- يعني حاجة كده شبه الجماعات الماسونية؟ تساءلت.

- دي هيّ دي بعينها ذات نفس الماسونية! رد أحمد فرحات.

- يااه، للدرجة دي! قلت.

- أمال إنت فاكر إيه! إنت عارف الروس في الفترة الأخيرة لما حبوا يبيعوا بترولهم إيه اللي حصل؟ ولا شركة عالمية واحدة عرضت تشتري! ولما يأسوا وضربوا كف على كف اتقدمت شركة أمريكاني واحدة بس، وبعرض مجحف جداً! طبعاً الروس دلوقتي فهموا اللعبة. كارتل النفط العالمي اتفق مع بعضه إن روسيا ما تبعش بترولها إلا للشركة دي وبس. طبعاً أنكل سام عاوز يحجّم الدب الروسي ويركعه! ما هو إنت في النهاية لازم تبيع بترولك، أمال ها تعمل بيه إيه يعني، ها تشربه!

- والواحد كان فاكر إن السوء الحرة سوء حرة فعلاً! إنه حقاً عالم كارتلات كارتلات كارتلات!

- والموضوع ده مش ابن النهارده، ده موضوع قديم جداً والرأسمالية العالمية بتمارسه من قديم الأزل! لينِن كان قايل في كتابه..

ما اسم الكتاب الذي ذكره أحمد؟ ما العمل؟ أم الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية؟

عصر سامح ذهنه بقدر استطاعته وهو يمشي، لكنه لم يستطع أن يتذكر.

وكان من عادته في هذا المشوار أن يختصر المسافة من شارع سليمان باشا الفرنساوي إلى شارع ستة وعشرين يوليو بالمروق من ممر الأمريكين، ثم يعبر شارع ستة وعشرين يوليو ليصبح أمام ممر مقهى الشمس، الذي ينتهي بسوق التوفيقية.

يشتري سامح في العادة تبغه الأمبرليف من دكان في أول ممر الأمريكين، من ناحية شارع سليمان باشا الفرنساوي. ومن عادته أيضاً أن يحي أصحاب الدكاكين الصغيرة التي يتعامل معهم في الممر برفع اليد اليمنى فقط وذكر الاسم، إن كان يتذكره، أو باشا! إن تاه الاسم عن باله.

ممر الأمريكين ضيق، ومعتم، ويتسع لمرور شخص واحد،

وإن كان أحدهم يقف أمام دكان ما للفرجة أو للشراء، فعلى المار أن يمر بالورب، وغالباً ما يحدث احتكاك.

هنا تعرفت بالصدفة على بيانكا! هولندية في الثلاثينيات. قضيت معها يومين رائعين! كانت تبحث في الممر عن أشرطة موسيقى شرقية لأنها تحب الرقص، وكنت أشتري باكت أمبرليف من نفس الدكان. ساعدتها في اختيار بعض شرائط الكاسيت. أحبت جداً عبد الباسط حمودة حين وضع مينا صاحب الدكان الشريط في كاسيت المحل. ثم رافقتها لشراء فول سوداني مملح وكاجو من محل المحمصات القريب في سليمان باشا. وجلسنا على المقهى المقابل لفندق كوزموبوليتان، وشربنا اثنين شاي بالنعناع، ودخنت هي شيشة تفاح، وخلال ذلك رتبنا الأمر بسرعة وسلاسة. المناهج سهلة في بيروت! وأسهلين في هولندا!

صعدت بيانكا إلى غرفتها بكوزموبوليتان أولاً. ثم تبعتها بعد دقائق. بيني وبين جميل موظف الاستقبال في رسبشن الفندق منافع. كانت ورديته نهاراً وقتها. حييته وذكرت رقم الغرفة فابتسم في تواطؤ. وفي حسد أيضاً! ظهر جلياً في رفع جميل لزاوية شدقه الأيسر وهو يقول اتفضل يا باشا الفندق كله تحت أمرك! وعندما قصدت الأسانسير الخشبي، الذي يشبه أسانسير عمارتي، التفت خلسة ولمحت في عينيه الحسد واضحاً!

بيانكا قطة لقطة! شقراء بشعر طويل حتى آخر ظهرها. وممشوقة القوام. بوجه طفولي صريح في شهوانيته. كان لحمها

طرياً جداً. وتحفة في السرير! راهنت نفسي عندما رأيت قوامها لأول مرة في دكان مينا أنها غاوية من الخلف. نادراً ما خسرت الرهان! لي نظرة في الغاويات.

لما وصل سامح إلى ممر الأمريكين أخذ بصره يستعرض الغلايين، وولاعات زيبو بأشكالها وموديلاتها المختلفة المعروضة في الواجهات الصغيرة للحوانيت. لم ير أياً من أصحاب الدكاكين الذين يعرفهم. وقف أمام ثالث فترينة على اليمين وقد لفت نظره غليون صغير خفيف منمق من الخشب الأسود. قدَّر أنه تشيكي، وقال في نفسه لو جاءته نقود محترمة فسيشتريه. رفع عينيه عن الغليون وشرع في السير داخل الممر وبصره متجه للأمام. ميز بصره في نهاية الممر المعتم ما يبدو أنه حركة تصوير فيلم أو إعلان أو مسلسل. أشباح تتحرك حاملة أشياء شبحية أكد حدسه له أنها معدات تصوير. يعرف بالغريزة شكل حركة عمال التصوير التي هي مزيج من الدقة التي تميز عملهم كأفراد، والفوضى العارمة التي يحدثونها كمجموعة. مر شبح تحت بقعة ضوء في نهاية الممر فميزت عيناه شكل جسد ربيع مساعد الإنتاج في شركة أفلام أوديون.

أوباا، ليه كده بقى!

لا مشكلة في أن يصادف أياً منهم صدفة في أي مكان، لأنه يعرف كيف يطوع سلوكه ليصبح جافاً غير لطيف وقت اللزوم. لكن ما طرأ فوراً على باله، وهو واقف وقد جمدت حركته، أن

الموقف سيصبح سخيفاً إن قابل عمر محاسب شركة أوديون!

اليوم الخميس موعد قبض الأجور في نهاية يوم التصوير. من الممكن أن يرسل عمر أحد مساعديه لصرف الأجور. ولكن من الممكن أيضاً أن يحضر هو بنفسه!

كان سامح مديناً لعمر بأكثر من ألفي جنيه؛ قيمة ملابس اشتراها على مدار عام كامل من محل موباكو للملابس الجاهزة الذي يملكه عمر في شارع محمود بسيوني. لم يدفع من المبلغ مليماً واحداً حتى الآن. كله على النوتة إلى أن تفرج. عمر معروف بكرمه وتساهله الكبيرين مع زملائه من مساعدي الإخراج والإنتاج بالشركة. يسمح لهم بشراء الملابس على النوتة إن كانوا مفلسين، على أن يسددوا ديونهم حين يحصلوا على مال من تصوير فيلم أو إعلان.

قد نقابل عمر الآن وجهاً لوجه! اللف والرجوع أسلم.

وبعد أن كانت الغريزة قد أوقفته، دفعه الوعي الآن إلى تغيير اتجاهه والدوران للخلف للرجوع من حيث أتى، قبل أن يلمحه أحد من زملائه السابقين. وحالما شرع في الخطو في اتجاهه الجديد، أي القديم، اصطدم بصره بهاني عبد ربه آتياً نحوه رافعاً يمناه لأعلى وصائحاً بصوته الجهوري الفضائحي:

- سامح شكري! يااا راجل! أخيراً ظهرت!

ثم نادى بعلو حسه في الممر على أشباح فريق العمل بالفيلم:

- يا جماعة! سامح شكري ظهر آهو! كله يصقف لسامح شكري!

ورفع كلتا يديه عالياً في الهواء فوق رأسه وراح يصفق بقوة وحماسة. أعقبه صوت تصفيق وصفير عاليين سمعهما سامح من خلفه من الأشباح. شرع سامح في لف جذعه مرتبكاً بابتسامة خجلى لإلقاء نظرة على تلك الأشباح التي تحيه، فلمح بصره في طريقه أحد أصحاب الحوانيت الذي يعرف شكله ولا يتذكر اسمه وقد ظهر للتو، ولم يكن قد ظهر من قبل، مستنداً بمرفقيه على منضدة البيع يراقب الموقف. رفع سامح يمناه محيياً البائع الذي نسى اسمه وتمتم فمه باشا بخفوت. وُهيئ لوعي سامح أن صاحب المحل، الذي لم يرد التحية، ابتسم منتظراً منه رد فعل على الموقف المحرج الذي هو فيه. عاد جذع سامح ليلف حول محوره في عكس الاتجاه حتى أصبح من جديد وجهاً لوجه أمام هاني، وقال بابتسامة مرتبكة متجمدة على وجهه:

- إيه بس يا هاني، ليه الفضايح دي!

ثم مد يده وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً زاماً على شفتيه بلوم ليسلم على هاني عبد ربه، الذي مد له يده وصافحه بعنف متظاهراً بالغضب.

هو تظاهر فقط! أنا أعرف طبيعته ورقة قلبه.

- لا يا شيخ! إنت تسكت خالص لإني هاكلك أكل، إنت فاهم! قال هاني عبد ربه متوعداً.

- ليه بس يا إتش أنا عملت إيه! قال سامح وهو يضحك.

برق له هاني عبد ربه عينيه وقال:

- عملت إيه! لاا! ولا حاجة يا معلم! تعالى معايا.

أمسك هاني بيسراه سامح من رسغه الأيمن بقوة، وسحبه وبدأ يمشي في اتجاه مكان التصوير، مما أجبر سامح على الالتفاف بجسده والسير خلفه. همس سامح وهو يسير خلف هاني عبد ربه بخطوة:

- طب لو مصر تهزأني تعالى نقعد في مكان بعيد عن التصوير طيب!

- خايف من التهزيئ؟ قال هاني عبد ربه بغضب، ولم يتوقف عن السير، بل شد رسغ سامح بمزيد من القوة.

- ماشي يا إتش ماشي بس بالراحة طيب! قال سامح وضحك وقد خف توتره.

وصلا إلى نهاية الممر، فغمرتهما أضواء مصابيح الشارع. مصابيح التصوير كانت مطفأة، وكان عمال الإضاءة منهمكين في نقلها تباعاً من مكان لآخر وتوصيلها بكابلات الكهرباء

المتشابكة الخطوط في فوضى على الأرض. حيا سامح بعض الذين يعرفهم برفع اليد والتمتمة. حيا بعض عمال الكاميرا الذين كانوا مشغولين حول الكاميرا. وحيا من يعرفهم من مساعدي الإنتاج والإخراج حين مر بهم. استعمل في التحيات يده الحرة، بينما هاني عبد ربه مستمر في سحبه خلفه. أسرع قليلاً في خطوته حتى حاذا هاني عبد ربه، فترك هاني عبد ربه رسغه حالما حاذاه. كان هاني يمشي بالقرب من حافة الرصيف المطل على شارع ستة وعشرين يوليو، بينما سامح يسير للداخل محاذياً جدران البنايات وواجهات المحلات. لمح سامح وهو يمشي مدير التصوير سمير بهزان واقفاً في ركن بعيد مظلم يناقش المخرجة أسماء البكري ومعهما الممثل صلاح السعدني، فمد خطوة وسبق هاني عبد ربه ليحجبه بجسده الفارع الربعة عن نظرهم.

جلسا على كرسيين خشبيين من كراسي المقاهي البلدي في ركن مظلم منزو على الرصيف المطل على شارع ستة وعشرين يوليو، وبمسافة فاصلة واسعة نسبياً عن حركة العمال، بما يسمح بمناقشة حميمية وخصوصية. جلس هاني عبد ربه مواجهاً لحركة عمال الفيلم، بينما أعطاهم سامح ظهره. كانت نهاية ممر الأمريكين أمام بصر هاني عبد ربه وعلى بعد بضعة أمتار على يمينه، وخلف سامح وعلى بعد بضعة أمتار على شماله. أخرج سامح باكت الأمبرليف من جيب جاكتته الجلدية السوداء. وسحب دفتر ورق البفرة الأوتومان من طية الباكت، وشرع في لف سيجارة.

- تغيير زاوية مش كده؟ قال سامح.

- أيوه، قدامنا وقت نتكلم براحتنا. رد هاني عبد ربه بصوت هادئ.

تغيير زاوية التصوير. تغيير موضع مصابيح الإضاءة. فرشة نور جديدة. ظل ونور جديدان. قياسات سطوع جديدة.

سيستغرقون على الأقل ساعة. ولكن يا ترى متى بدأوا، حتى نعرف كم بقى من الوقت لهاني لتقريعي؟

- قولي بقى إيه اللي حصل بالضبط؟ سأل هاني عبد ربه مباشرة مقتحماً لب الموضوع.

- هوه إيه اللي حصل؟!

لا فائدة من التملص! لكن المحاولة حلوة برضه.

- بطل استعباط وكلمني عدل! قال هاني عبد ربه بحدة. ثم أعاد تأكيد السؤال بقوة:

- إيه اللي حصل؟

- أبداً يا هاني ما فيش حاجة، ما إنت عارف! إنت كنت شاهد على اللي حصل! رد سامح باستسلام وأسى.

- معلش يا أخي أعذر غبائي! كلمني بصراحة وقولي إيه اللي

خلاك فجأة تختفي وتسيب الشغل؟ حاصره هاني عبد ربه.

بلل سامح طرف ورقة البفرة الأوتومان الخفيفة الخالية من الصمغ بلسانه. أكمل لف السيجارة بإحكام. وضعها بين شفتيه. دس يمناه بسرعة في الجيب الداخلي لجاكتته الجلدية السوداء، وسحب منه الولاعة الزيبو. أشعل السيجارة وسحب نفساً عميقاً. أمهله قليلاً وهو في رئتيه، ثم أخرجه على مهل من أنفه. استغل ذهنه الثواني في تجميع أفكاره وترتيب حججه بسرعة. ثم قال أخيراً في هدوء:

- بص يا هاني، إنت عارف إني اشتغلت في فيلم شعبان من أول ما كان مجرد مشروع كتابة، وعارف إن الكل كان بيتهرب من الشغل معاه عشان المشروع ما كنش لسه ليه تمويل.

أخذ سامح نفساً عميقاً آخر من السيجارة، ونفثه من فوره من فمه بازدراء. وأكمل:

- لمدة سنة كاملة كنت أنا الوحيد اللي قبل يشتغل معاه، كنا أصحاب وقتها، على الأقل أنا كنت فاكر كده! قبلت اشتغل معاه بدون أجر، وكتبنا السيناريو سوا، وإنت عارف وكنت شاهد، قعدنا نعيد الكتابة مش مرة واحدة، لأ أربع مرات! إعادة كتابة كاملة من الجلدة للجلدة. بالبُنى، والشخصيات، والسرد، والحوار، والديكورات، وكل حاجة. سنة كاملة شغل ليل نهار، وإنت عارف برضه إني كنت وقتها المساعد الأول في الفيلم، وعارف

إن أنا اللي كنت بعمل تقريباً كل المعاينات، وأنا اللي بعمل الكاستنج، وبروفات الترابيزة أنا اللي كنت بعملها معظمها لوحدي، وأنا اللي كتبت جدول التصوير، مش مرة واحدة، لأ أربع مرات! وكل ده وإحنا شغالين برضه تعديلات على السيناريو!

أخذ سامح نفساً قوياً طويلاً من السيجارة. رمى ما تبقى منها على الأرض بين قدميه، وسحقها بالفردة اليمنى لحذائه الكلاركس الأسود. ثم نفث خطاً من الدخان من أنفه، أتبعه بغيمة دخانية صغيرة من فمه. وأكمل:

- وبعد ده كله أعرف، وبالصدفة، إن شعبان قدم السيناريو لمهرجان لوكارنو وأخد منحة! تخيل! واسمه هو بس المكتوب في ورق المنحة! هو بس مؤلف الفيلم لوحده! ما قاليش أي حاجة وإحنا ليل نهار شغالين مع بعض! عرفت بالصدفة وأنا ببص في النت على موقع المهرجان! رحت قلت له، يا شعبان عيب ما يصحش اللي انت عملته ده، عيب عليك! قالي أنا عملت كده عشان فرصة الفيلم تبقى أكبر إنه ياخد المنحة! سكت! ما ناقشتوش ساعتها أكتر من كده عشان ما حرجوش، بس قلت له مادام أنا بقى كتبت السيناريو معاك فمن فضلك إديني جزء من المنحة، ما قالش لأ في الأول، بس فضل يماين ويماطل لغاية ما في الآخر قالي على بلاطة كده بص يا سامح فيه أوجه محددة لصرف المنحة مكتوبة في العقد بتاع المنحة، وهي لا تتضمن أي أجور للمساعدين! بعد يومين بالضبط فوجئت بسلمى مطاوع في

المكتب بتقولي سلمني آخر التعديلات على السيناريو، وعايزة جدول التصوير، وصور المعاينات، والكاستنج، والتفريغات، وكل شغلي في الفيلم اللي فضلت أكتر من سنة طلعان عين اللي جابوني فيه، لإن الباشا طلب منها تنزل مساعد أول في الفيلم! تخيل إنت بقى وحط نفسك مطرحي! إزاي واحد عنده كرامة أو ذرة احترام لنفسه ممكن يشتغل ويستمر في جو بالشكل ده! يعني نشارك في المصاريف وتتسرق مننا الأرباح! بالضبط زي أي رأسمالي قذر! وبعدين يعني أي حد عنده مخ ها يفهم إيه من الحركة دي غير إنه بيطفشني! هو عارف إن حاجة زي دي مش ممكن هارضاها على نفسي وها سيب الفيلم علطول ومش ها كمل!

كان جبين هاني عبد ربه مقطباً في جدية. لم يكن ما سمعه جديداً على أذنيه. قال:

- اسمع يا سامح، كلنا في المكتب عارفين إنك اتظلمت، وعارفين إن الفيلم فيلمك زي ما هو فيلم شعبان، يا ابني إنت أكتر واحد اشتغلت في الفيلم ده وحرام تسيب مجهودك يضيع كده وحد ياخده على الجاهز! مش عشان يعني اتظلمت تقوم سايب الدنيا وماشي! كان ممكن جداً نلاقي حل بدل الاستسلام الأهبل اللي انت عملته ده! يا ابني كل حاجة في الدنيا ليها حل ما فيش حاجة مالهاش حل، ولو كل مرة ها تتظلم فيها أو حد يضايقك تقوم سايب الشغل وتتخلى عن مجهودك وتعبك فعمرك ما ها تعمّر في الشغلانة دي!

- ملعون أبوها شغلانة! بلاها يا أخي! عشان إيه يعني الواحد يتحمل قلة القيمة والقرف والإهانات! مقابل إيه يعني! ملعون أبو الدنيا على رأي المعلم نونو! قال سامح بعصبية.

- خلاص اسطفل بقى إنت حر! رد هاني عبد ربه بحدة.

وصل لوعي سامح أن هذه الحدة غضب لأجله لا منه.

سادت لحظة من الصمت بينهما. قطعها صوت هاني عبد ربه قائلاً بهدوء ورزينة:

- بص يا سامح، إنت يا ابني خريج معهد سينما قسم سيناريو، ها تشتغل إيه غير كتابة سيناريوهات وإخراج أفلام! وبعدين يعني هل إنت معتقد إنك الوحيد اللي بتتعرض للسخافات دي! يعني اخترعوا السخافة مخصوص عشانك يعني! إنت يا ابني لسه في أول الطريق! صحيح موهوب وأول دفعتك بس الموهوبين يا ابني قاعدين على القهاوي مش لاقين شغل! سيادتك مش من هنا ولا إيه! شعبان نفسه ياما اتبهدل في الأول وسف التراب أيام ما كان مساعد! إنت عارف إنه ما كانش يحلى للمخرجين ومديرين التصوير إلا تهزيئه هو بالذات دوناً عن باقي الناس! وعلني كده قدام العمال! وأنا نفسي يا ابني ياما شفت في الأول! ولغاية دلوقتي برضه!

- ماشي يا هاني بس برضه ده مش مبرر إن حق الناس يتاكل ويتسرق شقاهم! رد سامح بثبات.

- هه! حق الناس وشقاهم! تعرف إنت إيه عن حق الناس وشقاهم؟ أسكت يا ابني والنبي خلينا ساكتين أحسن! قال صوت هاني عبد ربه بمرارة.

استدعت ذاكرة سامح فوراً يوماً من أواخر أيامه في شركة أفلام أوديون.

دخل هاني إلى المكتب في الصباح الباكر صارخاً منفعلاً. لم أره أبداً في تلك الحالة من قبل! كان يصيح في اللاأحد مقطب الجبين، مشوراً بيديه، كمن ُيشهِّد شبحاً أمامه: الفرق بين الخير والشر أربعين ألف جنيه! الفرق بين الخير والشر أربعين ألف جنيه!

كان أبوه قد توفي من عدة أيام. كان لهم دكان لتجارة الأقمشة في شارع الأزهر. وكان الأب في شراكة مع أخوته، الذين استولوا على أكثر من نصيبهم في الدكان؛ لانشغال هاني في السينما. ظل هاني يصرخ في صالة الإخراج بشركة أفلام أوديون. كان قد عرف لتوه أن أعمامه قد سرقوه.

حاولنا تهدءته، لكنه ظل يصرخ بنفس الجملة مراراً وتكراراً، واحمرت عيناه، ونفرت عروق رقبته من الانفعال، حتى انهار في غيبوبة سكر، واضطررنا لنقله إلى مستشفى الجلاء لإسعافه بحقنة أنسولين. لن ُأذكره بما جرى فأقلب عليه المواجع! لا، لن أقول له إن من ُظلم من قبل أعمامه من الأولى أن يُقدر موقف

عضو آخر في نادي المظلومين!

لكن سامح لم يستطع أن يمنع لسانه من استحضار حجة إضافية ليبرر لهاني عبد ربه صواب سلوكه:

- هاني بص إنت نفسك مش كنت مدير إنتاج الفيلم من الأول! واشتغلنا مع بعض وكتبنا جداول الإنتاج وجداول التصوير مع بعض! وإنت مش إنت اللي كتبت ميزانية الفيلم! إيه اللي حصل بعد كده! أول ما شعبان جاله تمويل من فرنسا كان أول حاجة عملها إنه جاب ابن اخته يحل محلك! مش ده اللي حصل ولا نسيت! على فكرة أنا عارف كل حاجة وعارف إنكم اتخانقتوا مع بعض!

بدا الوجوم على وجه هاني، وتمتم بنبرة قاطعة حازمة:

- طلبت منه يلتزم بتلات تيكات للشُوط عشان نقدر نتحكم في ميزانية الخام، رفض، وأنا أصريت، فقال إن ده موضوع هو لوحده اللي يقرره وأنا ماليش دعوة وما اتدخلش، بس، فطلبت إنه يشوف حد تاني غيري، وعلى فكرة أنا اللي مرشح له كمال مكاني لإنه كان ساعتها المساعد بتاعي.

- أيوه عارف، بس على فكرة بقى شعبان كان عارف إنك ها تتصرف كده! هو أصلاً افتعل الخناقة على التيكات من الأول عشان عارف إنك مش ها تقبل وها تمشي! هو من الأول كان عاوز يجيب ابن اخته مدير إنتاج عشان ما يقدرش يقوله لأ زيك!

رد سامح بثقة. وأكمل:

- طب إنت عارف إنه وهو بيصور ما عدش أي ُشوط إطلاقاً أكتر من تلات مرات! وفي معظم الوقت كان بياخد الـُشوط من أول تيك! يبقى كان إيه لزمته بقى!

- مين اللي قالك على الموضوع ده؟! سأل هاني بابتسامة ساخرة.

- الطابور الخامس.

- الله يلعن الطابور الخامس يا أخي! قال هاني، وقهقه وقد خفت أحزانه.

- فليحيا الطابور الخامس! رد سامح بابتسامة واسعة وقد استراح لروقان هاني عبد ربه.

- طب سيبنا من موضوع الشغل دلوقتي، ها تعمل إيه في الفلوس المكسورة عليك يا باشا؟ ست شهور في ربعمية جنيه، يبقى عليك ألفين وربعمية!

صدم هاني عبد ربه سامح بالانقلاب الحاد في المناقشة.

في الفترة التي كان فيها هاني عبد ربه مديراً لإنتاج الفيلم، كان قد وافق على طلب سامح بأن يقترض مالاً من الشركة على حساب أجره الذي لم يتحدد بعد. مبالغ منتظمة شهرية تعينه على

مواصلة الحياة، لأنه كان، كعادته، مفلساً ولا يستطيع حتى الحضور للمكتب، أو الذهاب لمقابلة ممثل، أو معاينة مكان للتصوير. كان يحتاج إلى نقود للمواصلات، والطعام، والدخان. لم يكن أمر المسكن مشكلة وقتها، لأنه كان يبيت في المكتب في الأوقات التي يتأخر فيها في العمل، أو عند بعض المعارف الطيبين في الأوقات الأخرى. لم تكن لديه صديقة في تلك الفترة، لأنه كان مشغولاً في الفيلم، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو الجهد للبحث. وافق هاني عبد ربه على مسؤوليته الشخصية على أن تخصص له الشركة مبلغ أربعمائة جنيه شهرياً، على أن تخصم تلك المبالغ من أجره حين يتم تحديده بعد توفير تمويل للفيلم. قبض سامح ستة أشهر، ثم اختفى.

رد سامح وهو بعد مأخوذاً بمفاجأة السؤال:

- طيب، بس، طب مش ممكن نعتبر المبلغ ده أجري في الفيلم؟! أنا اشتغلت سنة يا هاني! أكتر من سنة كمان والله! اشتغلت مقاول ومناول وبنا! وعلى إيدك يعني! ده أنا حتى كنت بعمل الشاي والقهوة للممثلين!

- لا يا باشا ما ينفعش! إنت أصلاً ما مضتش عقد لسه مع الشركة! الفلوس دي متقيدة في الميزانية دين عليا أنا شخصياً! رد هاني عبد ربه بهدوء.

اجتاح سامح شعور بالحرج.

- بس، في الحقيقة، بص يا هاني بصراحة كده أنا ما ماعيش حالياً ولا مليم واحد! وحاول أن يداري حرجه بابتسامة في الظلام، لم تفلح كثيراً في مدارة حالته التي فضحتها نبرته.

سمع سامح صوت طق حنك هاني عبد ربه. ثم سمع صوت تنهيدة تأفف طويلة، ثم صوته يقول أخيراً بتعاطف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! طيب يا ابني ها تعيش إزاي! ها تعيش منين؟ تحب اتدخل وأرجعك الشركة تاني؟

- لا يا هاني كتر ألف خيرك، أنا محتاج آخد هدنة من السينما شوية. رد سامح وهو يشعر بمزيج من الكبرياء والندم.

- تاخد هدنة من السينما! لا حول ولا قوة إلا بالله! يا ابني هو انت لسه بدأت عشان تاخد هدنة! قال صوت هاني عبد ربه ممتعضاً في سخرية.

ابتسم سامح في خجل. كان يكن احتراماً كبيراً لهاني عبد ربه، ويحبه.

في وقت قصير تعلمت منه الكثير، وفي مهنة يشح فيها نقل الخبرة الحقيقية من شخص لآخر! المعرفة في السينما تعني الترقي، والمال، والاحترام. ولا أحد على استعداد لمنح خبرته مجاناً للمنافسين. هاني فعل، حتى دون أن أطلب! ويفعل دائماً مع الآخرين الذين ينالون احترامه. إذا قال: الولد ده بتاع شغل، أو

البنت دي بتاعة شغل، فسيمنح بالتأكيد كل خبرته وهو سعيد.

هو طيب جداً، بالرغم من قسوته في العمل؛ لزوم السيطرة على فريق التصوير وسياسة الأمور على نحو يقود لبر الأمان. لا ديمقراطية في السينما، توديك في داهية! هاني هو أنظف من قابلتهم في مكتب أوديون على الإطلاق.

أنقذه نداء عال مُشرَّب بلكنة أرستقراطية من صوت أسماء البكري يطلب حضور هاني عبد ربه لمكان الكاميرا. نهض هاني فوراً بجدية ونشاط، واتجه بخطوات سريعة إلى الكاميرا وهو يصيح:

- حاضر يا أستاذة!

وبعد أن خطا بضع خطوات، التفت لسامح وقال بصوته الجهوري الفضائحي:

- سامح! خلاص اعتبر الموضوع منتهي.

أكمل هاني عبد ربه مشواره إلى الكاميرا.

وبدا وكأن حركته مغناطيس قوي. رأت عينا سامح كل فريق الفيلم من العمال، والمساعدين، وفنيي الصوت والإضاءة والإكسسوار، وكأنهم برادة حديد تتجمع بسرعة لتلتحم بهاني عبد ربه. رأت عيناه من يخرجون من وراء السيارات المركونة على

الرصيف، ومن خلف الجدران، ومن الشقوق المظلمة حيث كانوا يرتاحون أو يدخنون سجائر الحشيش والبانجو أو يشربون الشاي ويثرثرون، ليضموا على هاني عبد ربه في كتلة غير منتظمة.

قام سامح. وَشكرَ لانشغال الخلق عنه، عابراً الطريق إلى ممر الشمس، ومدندناً:

غدٌ بظهر الغيب واليوم لي
وكم يخيب الظن في المقبل
لا توحش النفس بخوف الظنون
واغنم من الحاضر أمن اليقين
فقد تساوى في الثرى راحل غداً
وماض من ألوف السنين
أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب

3

دار القضاء العالي على يسار سامح وهو يعبر شارع ستة وعشرين يوليو؛ شبح شامخ في العتمة. وصل إلى الرصيف العريض، المقابل لرصيف تصوير الفيلم، فاتجه إلى ممر مقهى الشمس، ماراً على محل الخمور على قمة الممر، وإلى يساره. تمهل وهو يمر بالواجهة الزجاجية العريضة المتجهمة للحانوت، وراح بصره يستعرض زجاجات الخمور المحلية وابتسامة هزء على شفتيه المزمومتين.

خمور رديئة الطعم والمفعول. رأس العبد. أربعة وثمانون. عرق اليانسون. رِد لِبل ويسكي تقليد سيء جداً؛ كوبي رديئة مثل المصنعات الصينية التي تغرق الأسواق. عمر الخيام. أوبلِسك. رائحة كحول صريحة تهب من داخل الدكان.

واصل المشي، وبدأت موائد المقهى تظهر مزدحمة بالزبائن الشباب على الصفين.

إن كان نصار الفلسطيني موجوداً الليلة فلن نجده في أول الممر، بل في آخره، على طاولته المفضلة الملاصقة لباب المقهى، وفي مقابل من يغسلون حزم البقدونس، والكسبرة

الخضراء، والكُرات، والبصل الأخضر، لتحضير الطعمية التي يقليها محل الطعمية الذي بلا اسم في نهاية الممر. يجلس نصار هناك مقابل أقفاص الخضرة يدخن الشيشة التفاح ويتفرج على الصبي الذي يرشها بخرطوم المياه. ويحب أيضاً أن يراقب سعيد بائع سندوتشات الكبدة والسجق وهو يعمل على عربته الصغيرة المملوكة للمقهى، والتي تقف ثابتة في نفس المكان في مواجهة الباب الكبير المفتوح للمقهى. في منتصف الليل تماماً، ينادي سعيد على قطط الحي بصفير مميز، فتأتي تباعاً في خيلاء وتأني. بلا عجلة ولا مسارعة. يأخذ في إلقاء لقيمات صغيرة ملتاثة ببهريز الكبدة والمخ والسجق إلى كل منها على حدة، وهي تتلقاها جالسة على قائمتيها الخلفيتين في كبرياء في وضع يماثل تماثيل القطط الفرعونية. آباء هول. في منتهى الهدوء. لا صراع ولا خطف. يوتوبيا! يبدو كما لو أن هناك اتفاق على التزام الأدب في تلك اللحظات. الكل يأكل والكل ينبسط والكل يسعد. وسعيد الطويل النحيف ذو النظارات الطبية يحرص على توزيع لقيماته بالعدل؛ على القطط الكبيرة، والقطط الصغيرة، القطط القوية، والقطط الضعيفة. يستمر طقس الكرم، والعدل، والكبرياء، والسعادة، لنصف ساعة بعد منتصف الليل. كل يوم، في نفس الساعة.

طاف بصر سامح سريعاً على الرواد الجالسين بجوار بوابة المقهى.

نصار الفلسطيني غير موجود، خسارة! لا حظ لنا الليلة!

لمح سامح عماد فكري جالساً على منضدة في الجهة المقابلة لبوابة المقهي، وكرسيه ملاصق للحائط، في مكان وسط بين محل تصوير الورق المملوك لأصحاب المقهى، ودكان الحلاقة المملوك لأصحاب المقهى.

عماد فكري مشغول مع طبق كرتون عامر بالحلويات الشرقية المشكلة. كنافة، وبسبوسة، وجلاش. أكيد من العربة الصغيرة في آخر الممر. عربة صغيرة بالكاد تتسع لصاج واحد مدور من كل صنف، لكن حلوياتها أشهى من أفخر حوانيت الحلوانية! سعرهم زهيد أيضاً. ليست ملكاً لأصحاب المقهى. لكن ما إن تشتري طبق حلويات من العربة وتجلس إلى منضدة على المقهى، حتى تنشق الأرض عن الجرسون وفي يده كوب زجاجي طويل مترع بالماء يضعه أمامك في أدب وصمت. الماء يساعد على البلع. الشيء لزوم الشيء.

لم يلحظ عماد فكري اقتراب سامح من طاولته لانهماكه مع لذة الحلويات. كان لتوه قد حشر في فمه أكثر من طاقته، فتناول كوب الماء وشرب ليسلك زوره. توقف سامح أمام المنضدة ورمى السلام:

- مساء الفل يا عمدة.

سحب عماد فكري رأسه للخلف، ورمى بصره عالياً مدققاً لضعف بصره، وبإبهامه الأيسر دفع قصبة النظارة دفعة رقيقة

لحضن قصبة أنفه:

- هاهاها، سامح شكري! حبيبيبي! قال عماد مبتهجاً.

كانت معه فتاة مصرية، تعرفها سامح، ولكنه تظاهر بعدم معرفتها.

ياسمين الجمل. منين ياسمين ومنين جمل! شاعرة، شعرها نسوي أكثر مما ينبغي، متعال أكثر مما ينبغي. لها بيت شعر تقول فيه أنا أجمل صديقاتي!

مستحيل أن يطلب إنسان عاقل مالاً من عماد! سيحرج نفسه فقط ولن يعطيه عماد شيئاً. حتى لو كان قابض حالاً ومتريش! لم يسلفني يوماً، وكان يكتفي في كل مرة باقتراح اقتراحات كلها مستحيلة! إكتب مسلسل يا سامح المسلسلات ماشي سوقها اليومين دول. بس أنا محتاج فلوس ضروري الآن حالاً فوراً يا عمدة والمسلسل ألف مشهد! طب أكتب مقال لجورنال خليجي، بيدفعوا كويس في الخليج.

من عامين تقريباً طلبت منه سلفة. لم يقبل ولم يرفض. رد بموضوع آخر تماماً. ما تكتب مقال لجورنال الحياة بيدفعوا كويس في الحياة. ما هو أنا فعلاً يا عمدة بكتب ساعات في الحياة، بس الحقيقة ما بيدفعوش كويس ولا حاجة، دول بيدوني متين جنيه في المقال! متين جنيه يا عبيط! يا ابني إبعت المقالات مباشرة للإدارة في لندن، هناك الإدارة بتدفع لغاية ربعمية

سترليني في المقال، أما لو سلمت المقال لمكتب القاهرة فهايدوك ملاليم بس! وسمعت كلامه، وبعثت مقالاً إلى إدارة الجريدة في لندن عن الفيلم الأخير لديفِد لِنش؛ الطريق المفقود لوست هاي وي. نشروه لكنهم لم يدفعوا شيئاً. راسلتهم عدة مرات مطالباً بالمكافأة. طلبوا مني أخيراً أن أراجع مكتبهم في القاهرة. ذهبت لمكتب الحياة في القاهرة فقالوا لا شأن لنا بما أرسلته إلى لندن، أنت أرسلت المقال إلى لندن رح خذ مكافأتك من لندن! اعتبروا مراسلة المكتب الرئيسي تجاوزاً لهم. إهانة. ثم امتنعت الحياة بعدها عن نشر أي شيء لي. لندن، والقاهرة، الاثنتان كلتاهما. وآدي أخرة المشي ورا اقتراحات عم عماد!

بخله ليس جديداً عليّ، أعرفه من أيام المعهد! كنت في السنة الأولى، وعماد في سنته الأخيرة بقسم السيناريو. كان يجمع الطلبة حوله مبكراً في الصباح في حديقة المعهد التي هي ليست بالحديقة ويلقي عليهم تأملاته عن أفلام برجمان، وأنطونيوني، وتاركوفسكي. الواحد لسه ما فقش من النوم وكفران من المواصلات وروحه في مناخيره ويقوم لابس على غيار الريق برجمان وأنطونيوني وتاركوفسكي!

عماد ممتاز في التسليات الفكرية. التسليات الراقية. أكثر من ممتاز الحقيقة! معجم استبصارات مدهشة. لكنه كإنسان لا يمكن الاعتماد عليه. عماد وفي نفس الوقت لا يُعتمد عليه! سبحان مسمي الأسامي وواصف الصفات!

قاتل بالفطرة! شديد القسوة. إن لم ترق له يمكنه بسهولة أن يفعصك بإصبعين كما يفعل مع حشرة دون أن ينتابه أي تأنيب ضمير. نيتشاوي! نيتشه الكاتب، لا نيتشه الإنسان. نيتشه الإنسان خرج في أحد الصباحات للتريض فرأي عربجياً يضرب حصانه بالسوط، فعاد إلى بيته مغموماً ولازم الفراش مريضاً لعدة أشهر قبل أن يموت. نيتشه الإنسان بهذه الرقة! كاتب هو ذا الإنسان، وعدو المسيح، وما وراء الخير والشر! بس لو ماكنتش رقيق وحنين! تحدث دُستويفسكي مرة في إحدى رواياته عن أن كبار الكتاب الإنسانيين يحبون الإنسانية ويدافعون عنها ككل كامل متكامل، لكنهم يكرهون البشر كأفراد فرادى فرائد. خصوصاً الأقربون إليهم. الأولى بالمعروف، أولى بالكراهية. أذكر ذلك في رواية الشياطين، أم المراهق، أم الإخوة كارامازوف، أم رواية أخرى؟ نسيت. هل يمكن إذن اعتبار حالة نيتشه هي النقيض؟ يكره الكل ويحب الفرد.

- إنت فين يا ابني وحشني مختفي بقالك فترة! قال عماد فكري بفرحة بدت في ابتسامته الطفولية العريضة.

دعاه عماد فكري للجلوس. عرفه على ياسمين الجمل. وتظاهر سامح بأنه لا يعرفها. يعرف عنها أيضاً أنها تنشر دواوينها الشعرية في دار شرقيات. عماد فكري أيضاً ينشر رواياته في دار شرقيات. هنأه سامح على روايته الأخيرة، التي صدرت من عدة أيام، وأثنى بصدق عليها. السرور يذبح القلب. شكره عماد فكري وخفض رأسه خجلاً. مد سامح يده وأخذ قطعة

جلاش بالمكسرات من طبق عماد فكري الكرتوني، ودسها سريعاً في فمه.

لذيذة جداً!

عماد يقول للجميع، وفي كل مكان، إنه قطع علاقته نهائياً بالسينما بعد فيلمه الأخير رحلة السيد المرحوم. لكن فتحي عبد السلام قال إنه يكتب حالياً سيناريو فيلم قصير لقناة الجزيرة عن عمالة الأطفال.

راقبه عماد فكري وهو يأخذ قطعة الجلاش ويدسها في فمه. لم يدعه لأخذ المزيد. نقصت الحلويات واحدة.

- وانت أخبارك إيه؟ تمتم عماد.

- عال ماشي الحال، وإنت يا باشا عامل إيه إيه الأخبار، ياترى فيه مشاريع سينما جديدة؟ رد سامح.

- سينما مين يا ابني، هي فين السينما دي، ما خلاص راح اللي راح! قال عماد فكري.

خسارة! سيناريست شاطر جداً وواع. كاتب متين مثله ويبطل في أول الطريق! الليبيون يقولون على القوي المتين بلهجتهم: صنْحَيِّحْ. الشركتان الكبرتان احتكرتا السوق، وذبحتا الشركات الصغيرة والمبادرات الفنية الحقيقية. سمك كبير يأكل السمك

الصغير. تصنعان الأفلام كمصانع السجائر. صيف بقى وخلي العيال تنبسط! هكذا قال ماجد مراد مدير الشركة العربية حين أبديت له امتعاضي من مستوى الأفلام التي تنتجها شركته.

- بالمناسبة يا سَموّحة، مقالك عن تشابلن عظيم! التشريح الهادي لحركاته الجسمانية وتفسيرها المنطقي هايل يا ابني! وظهر تفسيرك الماركسي للنفاية اللي بيستعملها باعتبارها سلعة، وعملت ده بشاعرية لا يعترض عليها أو يلاحظها حتى الماركسيين نفسهم! ودرة التأويل عندك بقى هيّ موضوع النسيان! ينسى تشابلن الضغينة اللي اتكلم عنها نيتشه واللي سممت الحضارة الغربية من أول المسيح، مش غريب إن تشابلن يكون أبعد ما يكون عن الدين، هايل يا سامح والله! عبقري يا ابني والمقال يحتاج لمكالمة طويلة!

- ألف شكر يا عماد دي شهادة والله! وما تطلعش إلا من فنان كبير زيك! أكيد ها نتكلم الليلة، بنا مكالمة طويلة. قالها سامح وهو يشعر بمزيج من الفخر والخجل لمدح عماد فكري له أمام ياسمين.

عماد عظيم! إنسان رائع. إن أعجبه فيلم أو كتابة لا يتردد في مدحها ومدح صاحبها أمام الجميع. ليس لديه عُقد المثقفين. الغيرة غير موجودة. وأبعد ما يكون عن الضغينة. يعتبر نفسه أكبر من ذلك بكثير. أنا تلميذ صغير، والمعلم لا يغير من مدح تلميذه.

إذن، ُنشر المقال في عدد هذا الشهر من الفن السابع! بعد مرقص أعدي عليهم آخذ نسخة. وإن وجدت فتحي عبد السلام موجود فسيعطيني خمس نسخ. لكنهم لا يدفعون المكافآت إلا بعد أسبوع على الأقل من النشر! مائة وخمسون جنيهاً. حلوين برضه ينفعوا. المجلة مفلسة أصلاً، ومحمود حميدة يدفع مصاريفها من جيبه الخاص. إلى متى سيتحمل جيبه؟ مصاريف بلا أرباح. أشياء كثيرة توشك على الإقفال هذه الأيام. خراب. تفاليس. الخصخصة وخفض قيمة الجنيه أمام الدولار لأجل خاطر السوء الحرة! كله يهون لأجل خاطر الكارتلات وممثلهم صندوق النكد الدولي. دعه يعمل دعه يمر دعه يلعب في أستاه الناس.

وقف سامح ورفع كلتا ساعديه لأعلى:

- طيب يا عمدة بقى أستأذن أنا.

- يا ابني خليك قاعد إنت لحقت، أقعد معنا شوية! كنا في شرقيات وقلنا نقعد ساعة كده قبل ما نروَّح. أقعد معانا شوية! قال عماد فكري.

- معلش يا عمدة بس مدي ناس ميعاد والله وزمانهم مستنين في الشارع، معلش يا باشا ملحوقة. رد سامح.

- طب كلمني بقى في التلفون لما تروَّح. قال عماد فكري.

- حاضر يا زعيم، أكيد والله بنا تلفون النهارده أول مارجع

البيت، على اتناشر كده ماشي؟! قال سامح وهو يصافح عماد الجالس.

- آه اتناشر حلو.

صافح سامح ياسمين.

- فرصة سعيدة قوي يا ياسمين.

- أنا اللي أسعد يا سامح. ردت ياسمين.

تحرك سامح ناحية نهاية ممر الشمس باتجاه سوق التوفيقية.

من الممكن فعلاً أن أهاتف عماد فكري ونتحدث طيلة الليل حتى الصباح. عندنا تليفون أرضي في الشقة متاح حتى الصباح. وعماد غاوي أحاديث التليفون مثلي تماماً. إن لم يكن هناك تسلية أفضل هذه الليلة فسأهاتفه ونرغي للصباح. في ليالينا التليفونية نذهب كلينا للمطبخ ونعد القهوة ونعود لنكمل الحديث. ثم نذهب للمطبخ ونعد عشاء آخر الليل ونعود لنكمل الحديث. المكالمات التليفونية مع عماد متعة! متعة عقلية. المكالمات دائماً على حسابي، ولا مرة واحدة كانت على حسابه! على حسابي من الناحية النظرية لأنني لا أدفع فواتير التليفون. ولا مرة دفعت فاتورة تليفون. إن لم أجد تسلية أفضل سأكلم عماد. بالتأكيد لن أستطيع النوم الليلة. ربما ساعتان فقط أو ثلاث ساعات. عموماً لا حاجة للكثير من النوم. ولا قصَّر في الأعمار طول السهر!

تشرشل كان يعمل حتى الرابعة فجراً، ثم يدخل لسريره، ويجده مساعدوه على مكتبه في الثامنة صباحاً! أنا لا أعمل شيئاً، فلماذا أنام أطول منه؟ ونابليون كان ينام في منتصف الليل، وينهض في الثانية صباحاً، ويظل يعمل في مكتبه إلى الخامسة صباحاً، ثم يأوي للفراش وينهض في السابعة صباحاً ليبدأ العمل من جديد حتى منتصف الليل. أنا لا أعمل شيئاً، فلماذا أنام أطول منه؟ نابليون قال إن الرجل الذي ينام أكثر من أربع ساعات يومياً هو إما أبله، أو مريض!

خطا سامح سريعاً الخطوات الباقية على نهاية الممر، ثم انحرف يساراً متجهاً لمحل مرقص للحوم ومصنعات الخنزير. نزل من على الرصيف، ومشى في بطن الشارع المترب بعيداً عن محلات البقالين. على الصفين فرش خضار، وأكوام فاكهة شتوية متنوعة؛ برتقال، ويوسفندي، وكانتلوب، وفراولة، وتفاح، وموز، وبلح زغلول، ورمان، وأبو فروة. ظهر محل مرقص للحوم على بعد عدة خطوات إلى اليمين. صعد الرصيف، وتجاوز عتبة المحل متقدماً وئيداً وقد لمح روماني بقامته الطويلة وكفيه الضخمين المعتمدين على النضد. حياه:

- مساء الخير يا روماني إزيك.

- وعليكم السلام ورحمة الله، إزيك يا باشا. رد روماني بابتسامة ترحيب ودودة.

- عال الحمد لله، وإنت إزيك عامل إيه. سأل سامح بابتسامة ودودة أيضاً.

- الحمد لله في نعمة. رد روماني وهو يومئ برأسه.

لحظة صمت غير مريحة في انتظار سؤال روماني الذي لم يتأخر كثيراً:

- أؤمر حضرتك، أجيبلك إيه؟

- ربع سوسيس وحياتك. رد سامح.

- حاجة تاني؟! سأل روماني.

- ألف شكر ما نتحرمش. رد سامح.

حاجة تاني؟! أجبلك إيه تاني؟! دائماً نفس سؤال البقالين! يُعوِّدونهم على ذلك منذ الصغر. أجبلك إيه تاني؟ وشيئاً فشيئاً يروقهم الأمر فيما بعد! لذة إحراج الزبون إحراجاً طفيفاً غير محسوس غير ملموس. غمزة مهماز خفيفة في خاصرة الزبون. وقد يطلب شيئاً إضافياً منسياً، أو حتى لا يحتاجه!

لاحظت عينا سامح أصابع كف روماني الغليظة وهي تمسك بجدائل حبال السوسيس. فصل روماني الوزن المطلوب بمجرد لمسة بنصل سكين اللحوم لمفصل الموضع الذي قدره بين قطعتين متصلتين.

سيضع الآن السوسيس على ورقة بيضاء خفيفة، ثم على الميزان الذي سيعلن مائتين وخمسين جراماً بالضبط. ربما جرام أو اثنان زيادة لزوم الكرم. روماني يده ميزان!

لما كنا في المحلة الكبرى، كانت ماما ترسلني لشراء حلاوة طحينية وجبن اسطانبولي من عم أحمد البقال في شارع البحر. كان مسطولاً على الدوام. أفيونجي! يقف على النضد بالجلابية المكوية الناصعة البياض وهو في عالم آخر. في منتهى السكينة. أطلب منه ُثمن حلاوة، فيتناول السكين الكبير ويفصل من قرص الحلاوة الضخم الوزن المضبوط بالجرام؛ لا جرام زيادة، ولا جرام ناقص! يده ميزان، حتى وهو مسطول! البقال بقال ولو مسطول.

ابتسم روماني لسامح وهو يضع اللحم الذي قطعه على الميزان.

مئتان وثلاثة وخمسون جراماً. كريم يا روماني! ربنا يخليك يا ابني.

قال محب إن روماني سأله مرة باستغراب كيف يأكل الأستاذ سامح لحم الخنزير وهو عندهم حرام؟ رد محب بأنني عشت لسنوات في أوروبا واعتدت هناك على أكل لحم الخنزير. ضحكت عندما حكي لي.

لف روماني الورقة البيضاء بإحكام حول السوسيس. ثم في

كيس نايلون أزرق، ناوله لسامح.

- بألف هنا يا أستاذ.

ناوله سامح الخمسة جنيهات وهو يقول:

- ألف شكر يا روماني ما نتحرمش يا رب.

أخذ روماني الخمسة جنيهات، ودس يده في جيب البالطو الأبيض الذي يرتديه وأخرج جنيهاً ناوله لسامح. أخذ سامح الجنيه ودسه في الجيب الأيمن للجاكت الجلدي الأسود.

انتقل الجنيه من جيب إلى جيب، هو نفس الجنيه**!** حركة النقود. جوهر التجارة.

- العفو شرفت يا أستاذ، مع ألف سلامة. رد روماني مودعاً.

- الله يسلمك.

استدار سامح خارجاً من المحل. تجاوز العتبة، وهبط من الرصيف وظهره لمحل مرقص للحوم الخنزير. وقف ثابتاً في مكانه لدقيقة، أو أقل، مفكراً في أسلم سكة إلى شارع محمود بسيوني.

علينا تجنب مقهى الشمس، لأن عماد لايزال هناك مع ياسمين. قد يكون نصار قد حضر للمقهى الآن. لا، من الأفضل

انتظار فرصة أخرى. أو تدبير نقود من مكان آخر. سأحاول مع مريم غداً. يجب أيضاً تجنب ممر الأمريكين والتصوير هناك. إذن نكمل في سوق التوفيقية، ثم ننحرف يساراً في حارة الشواربي لنخرج إلى ستة وعشرين يوليو، ثم نكمل حتى شارع رمسيس، ثم معروف، ومن معروف نأخذ أول يمين ونخرج إلى محمود بسيوني، ثم بضع خطوات إلى اليسار وندخل عمارة الفن السابع.

دخل سامح البهو الكبير للعمارة الستينية، وارتقى بضعة سلالم، ومن على يمينه دلف إلى باب مكتب مجلة الفن السابع المفتوح. حيت يمناه شخصاً، لم يسبق أن رآه من قبل، كان جالساً إلى مكتب الاستقبال. أشارت سبابة نفس اليد إلى غرفة مكتب فتحي عبد السلام، وتوقفت اليد وسبابتها في وضعهما معلقين في الهواء، مع شرح باللسان، واستمرار في المشي بلا توقف، وثبات للعينين في اتجاه محدثه لزوم اللياقة:

- الأستاذ فتحي عبد السلام هو في انتظاري.

- اتفضل حضرتك. قال المجهول الجالس إلى مكتب الاستقبال.

- متشكرين. رد سامح وهو يؤكد حروف الكلمة.

أنزل إصبعه، وعدل رأسه للأمام وهو مستمر في خطوه، حتى توقف على عتبة مكتب إلى يمينه. أطل برأسه من فتحة

الباب الموارب فرأى فتحي عبد السلام جالساً إلى مكتبه في عمق الغرفة على يسار الداخل. أربعيني، ممتلئ قليلاً، يرتدي قميصاً أزرق ملكياً.

مصممو المكاتب المخضرمون يصممون باب المكتب في إحدى الزاويتين، لا في منتصف الحائط؛ حتى يخففوا من صدمة الداخل للمكتب، فلا يواجه مباشرة الموظف الجالس إلى مكتبه. كانوا يجيدون عملهم في الستينيات!

- فتحي! صاح سامح ببهجة.

قميص فقط يا فتحي في هذا البرد! على اللحم! وأزراره مفتوحة حتى البطن تقريباً! لحمه أجرد. بعضهم ينتف شعر صدره بالحلاوة الحريمي، أو ينزعه بنازع طبي. أكيد أفرط في الشرب فسخن جسده. عيناه الناعستان تؤكدان حالة السكر. الدفء في عز البرد! فك أزرار القميص. فك أزرار الروح. ربنا يوعدنا! الكحول مطهر.

رفع فتحي عبد السلام عينيه عن كتاب مفتوح أمامه، ونظر ناحية الصوت.

- سامح شكري! مساء الجمال يا فنان، إتفضل. قال صوت فتحي عبد السلام ببطء وهو يحاول أن ينطق الحروف سليمة حتى لا يظهر سكره.

خطا سامح للداخل. سلم على فتحي عبد السلام الجالس. ثم جلس على كرسي إلى يسار فتحي؛ حتى تكون زاوية رؤية الباب ومن يتحرك خارجه مفتوحة أمامه.

- يا علاء! نادى فتحي عبد السلام وقد فاق وعيه قليلاً.

ثم قال لسامح:

- تاخد شاي ولا قهوة؟

طب اسقنا مما أسقاك الله يا أخي! قال سامح في نفسه. لكن لسانه رد:

- قهوة يعني إذا كان ممكن.

أشرب عشرين فنجان قهوة في اليوم دون أن أفعل شيئاً ذا بال! يا ترى متى سنفعل شيئاً يستحق كل هذه القهاوي؟

- مقالك عن شابلن اتنشر في العدد الجديد! قال فتحي عبد السلام وهو ينظر لرأس سامح.

- آه عرفت، قابلت عماد فكري من شوية وقالي. رد سامح.

- فعلاً! إبن الإيه، الندل! شفته فين؟ سأل فتحي عبد السلام.

- على قهوة الشمس من شوية. قال سامح.

همهمت شفتا فتحي عبد السلام، ثم ثبتت عيناه في الفراغ.

سرح! غالباً في اللاشيء. تاه. هدنة من عناء الطريق. ماذا شرب يا ترى؟ تكيلا؟ فودكا؟ أم شيء آخر أثقل؟ مشروب سكندنافي يصل تركيز الكحول فيه إلى ثمانين بالمائة! يا عيني. وهناك مشروبات تركيزها الكحولي أعلى! إفر كلير الأمريكاني يصل تركيز الكحول فيه إلى أكثر من تسعين بالمائة! كحول صاف يا معلم! مشروبات يحتاجونها في الأجواء الباردة. عندنا هنا حار جاف صيفاً، دافئ ممطر شتاءً. لكن لا بأس من شرب كأس منها من حين لآخر، من باب المغامرات.

- كنت بقولك يا فتحي! قال سامح بصوت أعلى من المعتاد.

فتحي انتبه. فاق. رجع للطريق!

التفت فتحي عبد السلام برأسه وعينيه ببطء إلى يساره.

- لو ممكن يعني من فضلك خمس نسخ من العدد الجديد يبقى كتر ألف خيرك يا باشا. قال سامح.

- آه آه، طبعاً طبعاً، حالاً، يا علاء! نادى فتحي عبد السلام بصوت قوي.

حضر علاء هذه المرة. لم يحضر عند النداء السابق. لازم النداء يكون بقوة!

وقف علاء على عتبة باب الغرفة مستفهماً بعينيه وناظراً ناحية فتحي عبد السلام. عشريني، متوسط القامة، نحيف، ببشرة بنية داكنة، وقميص وبنطلون بنيين داكنين.

- علاء هات خمس نسخ من العدد الأخراني للأستاذ سامح. قال صوت فتحي عبد السلام.

ثم تذكر:

- واعملنا اتنين قهوة. والتفتت عيناه لسامح وسأل:

- قهوتك مضبوطة مش كده؟

- تمام. رد سامح مبتسماً ابتسامة واسعة لفتحي عبد السلام.

ظلت رقبة فتحي على وضع السؤال الأخير، ولكن عيناه كانت تنظران في الفراغ، لا إلى سامح. نظرت عينا سامح إلى وجهه في حنان. ثم حسده على حالة الطفو الخفيف للروح على الوعي. ثم نزلتا من رأس فتحي عبد السلام إلى ما كان يقرأه على سطح المكتب قبل دخوله. اشرأب سامح بعنقه، ومال بجذعه إلى الأمام. ثم لوى رقبته عكس اتجاه عقارب الساعة ليتمكن من قنص بعض الكلمات. وأخيراً مد يمناه وأدار الكتاب على محوره ناحيته فقرأت عيناه التالي:

"ثم أجرى بعض التغييرات عليها قبل تقديمها إلى الجريدة

لأنه كان يعرف بالضبط كيف ينبغي تعديلها لتصبح قصصاً تشتريها المجلات. صدمني ذلك وقلت إنني أظنه نوعاً من البغاء. قال هو البغاء. ولكنني مضطر لذلك."

طوى سامح دفة الكتاب بأصابعه اليمنى، مع الحرص على عدم غلقه بالكامل. وقرأ على الغلاف:

الوليمة المتنقلة. إرنست هِمنجواي. ترجمة علي القاسمي. دار المدى. دمشق.

لام نفسه لأنه لم يخمن هِمنجواي من أسلوبه. لكن وعيه عاد ليطمئنه بأنه لو كان أعطى نفسه فرصة أطول للقراءة لكان سيخمن بالتأكيد أسلوب هِمنجواي.

استعجلت يا باشا في اكتشاف المعلومة من الغلاف! عماد فكري دائماً يقول: الأسلوب شرف الكاتب. يا سلام لو قال عاهة مستديمة! لو نيتشه كان قالها. نيتشه أستاذ القلب.

- إمتى صدر ده يا فتحي؟! إشتريته ولا هدية؟! سأل سامح بفرحة تعتريها دهشة.

عادت عينا فتحي عبد السلام إلى الوعي. قال في بطء:

- لأ اشتريته من مدبولي، شفته قبل ماجي المكتب.

- كان في المكتبة ولا في المخزن؟! سأل سامح باهتمام.

- لأ في المخزن، لسه ما نزلهوش المكتبة. تمتمت شفتا فتحي عبد السلام.

أحس سامح من صوته أنه يحن للعودة لحالة الطفو.

إذن لابد من المرور على مخزن مدبولي قبل الرجوع للشقة!

دخل علاء حاملاً خمس نسخ من المجلة وسادة على راحتيه. قدمهم لسامح.

- اتفضل حضرتك. قال علاء بأدب.

- متشكرين يا علاء. رد سامح وهو يتناول أعداد المجلة من وسادة راحتي علاء إلى وسادة راحتيه.

خرج علاء من الغرفة. وضع سامح نسخ المجلة على حجره. فتح أولاها وبحثت عيناه في الفهرس عن رقم صفحة مقاله المنشور. ومبتسماً فرحاً راح يقلب صفحات المجلة حتى وصل إلى مكان الصفحة. استعرضت عيناه بسرعة بدايات الفقرات، والصور المرفقة التي أوصى بنشرها مع المقال. اطمأن أن كل شيء قدُنشر كما ينبغي. ناولته يمنى فتحي مظروفاً كبيراً مقاس إيه ثري. تناولته يسرى سامح وشكره صوته:

- متشكرين يا باشا!

فتح سامح المظروف، وأدخل فيه نسخ المجلة، وطوى رقبته،

ثم أراحه على ركبتيه. والتفت إلى فتحي عبد السلام وقد قرر أن يفتح الموضوع:

- فتحي كنت بقولك، الـ، المكافأة بتاعة المقال، هل ممكن يا ترى نستعجلها شوية؟! أصلي الحقيقة يعني على الحديدة!

اتسعت عينا فتحي عبد السلام وارتفع حاجباه.

فاق الآن! لا شيء يفيق مثل المال. رجوع من ملكوت السماء إلى أرض الواقع. هبوط اضطراري! هبوط خشن. آسف يا صديقي حقك عليّ!

- والله يا سامح يعني فعلاً الأحوال سيئة جداً، جداً يعني فوق ما تتخيل! قال فتحي بنبرة حزن. وأكمل:

- للأسف يعني الدنيا اليومين دول أسوأ من كل مرة! تصدق إن إحنا ماقبضناش مرتبات من شهرين وأكتر!

- يااه! معقول! للدرجة دي؟! تسائل سامح مندهشاً.

- مصيبة الحقيقة! مصيبة فعلاً! ها نقف خلاص مش ها نقدر نكمّل بالشكل ده! مضطرين غصبن عننا نقف للأسف! قال صوت فتحي عبد السلام بأسى.

إذن أفلسوا أخيراً!

دخل علاء حاملاً صينية القهوة. وضع أولاً فنجاناً أمام سامح على المكتب، ثم فنجاناً على يمين فتحي، ثم كوباً مترعاً بالماء بجوار فنجان سامح، وكوباً مترعاً بالماء بجوار فنجان فتحي. تمتم سامح شاكراً، فرد علاء بجدية:

- العفو يا أستاذ.

استدار علاء وخرج من الغرفة ويسراه تحمل الصينية الفارغة بالطول ملاصقة لجذعه كالكتاب.

كتاب صبي البوفيه.

- إحنا في انتظار حميدة بس يمضي عقد الفيلم الجديد ويقبض العربون عشان نسدد المستحقات المالية المتأخرة على المجلة، ما تقلقش مش ها تستنى كتير يعني هو غالباً ها يمضي العقد خلال اليومين تلاتة الجايين. أكمل فتحي عبد السلام شارحاً.

- فيلم إيه اللي داخله حميدة؟! تسائل صوت سامح باهتمام.

- فيلم اسمه بحب السيما، كتابة هاني فوزي وإخراج أسامة فوزي. رد فتحي عبد السلام.

- حلو قوي، ألف مبروك، يا مسهل الحال! قال سامح.

أمسك سامح بأذن فنجان القهوة بالسبابة والإبهام الأيمنين. رفع الفنجان لشفتيه ورشف أول رشفة.

لذيذة! بن يمني غامق محوج. هذا بن عبد المعبود! المحل الأول الأصلي في شارع مظلوم التالي لمحلهم المجاور لمقهى الحرية.

عبد الله جرسون قهوة الفيشاوي العجوز أخبرني مرة بأن نجيب محفوظ كان يكثر من شرب القهوة حين يجلس عندهم، لكنه يشرب الوش فقط ويترك باقي الفنجان.

قال فتحي عبد السلام بنبرة أسى أشد من الأولى:

- أفتكر مش ها نقدر نكمل السنة دي! يمكن نقف في خلال شهرين أو تلاتة!

- خسارة! خسارة فعلاً! رد سامح.

رشف سامح رشفات متتالية من قهوته حتى أكملها. أعاد وضع الفنجان وطبقه على المكتب. تناول كوب الماء وشرب نصفه، ثم أعاده لمكانه.

المجلة فاخرة الطباعة. يطبعها حميدة في مطابع بيروت. والدولار زاد يا ولد! والجنيه قل يا ولد! يبقى التكاليف زادت يا ولد! خراب. لا توجد عندنا مجلة سينمائية مثلها، خسارة! شيء يبكي.

- طبعاً سعر الدولار ليه يد في الموضوع! قال سامح.

- ده هو ده ُأس الموضوع! عندك الورق والحبر والطباعة كله اضرب في اتنين! واضرب تكاليف الشحن من بيروت برضه في اتنين، وأصلاً الدولار ما حدش لاقيه حتى بالأسعار الجديدة! وانت عارف الإعلانات عندنا ضعيفة جداً! والتوزيع برضه قليل مايغركش يعني السينمائيين والنقاد اللي بيشتروا المجلة دول لوحدهم ما يعملوش توزيع! قال فتحي عبد السلام وقد فتحت المأساة شهيته للحديث.

- خسارة فعلاً! الله يلعن اقتصاد السوء. وشدد سامح نطقه للسوء.

- ألف مرة! لعنة الله عليه ألف مرة! أكد فتحي عبد السلام بحماس.

لم يأخذ باله. ليست غلطته. المفارقة اللفظية تتضح كتابة، لا شفاهة. العامية المصرية تنطق الاثنين واحداً. ميزة وعيب. لكن عموماً وفي كل الأحوال الله يلعنه!

دعه يعمل دعه يمر! كذب، الحقيقة أن الأمور تتوقف عن العمل وتتوقف عن المرور. حقيقة مرة لكنها واضحة كالشمس، ومع ذلك يستمر بيع الوهم يا ولد! سَقَّع وبيع! والحداية مابتحدفش كتاكيت!

- طب يا فتحي أمر عليكم بقى اا. وسكت سامح.

- إدينا إسبوعين بس كده يكون حميدة قبض! رد فتحي عبد السلام بسرعة لكي لا يُضطر سامح للتوضيح أكثر.

يعني على أوائل مارس والدنيا ربيع والجو بديع قفل لي على كل المواضيع!

- ماشي الحال، ماشي يا ريس أستأذن أنا بقى. قال سامح.

وقام واقفاً، ووضعت يده اليسرى بحركة آلية مظروف المجلات على مقعده الفارغ، وهو يمد يده اليمنى بالسلام على فتحي عبد السلام.

- تؤمر بأي حاجة يا باشا؟ قال سامح وهو واقف أمام مكتب فتحي عبد السلام.

- ألف شكر يا فنان، بس خلينا نشوفك بقى ما تغطس كتير كده! قالها فتحي عبد السلام وهو ينهض عن مقعده بجهد، متعكزاً بيديه على المسندين. ثم مد يده اليمنى بالسلام على اليد اليمنى الممدودة لسامح.

ساقاه تنملتا من طول القعدة لأنه يعتمد براحته اليسرى على المكتب ويميل بجذعه للأمام كمن على وشك السقوط!

- يا باشا إنت تؤمر، لا ها بقى اعدي والله! ألف شكر يا فتحي. قال سامح ويمناه تصافح يمنى فتحي عبد السلام الممدودة.

واستدار وخطا خارجاً من باب الغرفة.

4

خرج سامح من بناية الفن السابع واتجه يساراً، ومشى الهوينا مضيقاً من خطواته ومستمتعاً بخلو الشارع وظلامه ولسعة برودة منعشة في الجو.

وحيد ولكن بلا حزن. في الوحدة المسرة. غريب أن يصفو مزاج الإنسان وهو مفلس! كأن النقود عبء على الكاهل! محب قال لي مرة ضاحكاً: إيه يا ابني إنت فلوسك تعباك، بتاكلك! لا أذكر السبب.

أحلى طعم للأكل وأنت مفلس. أحلى جنس وأنت مفلس. أحلى تبغ وأنت مفلس. أحلى كل حاجة وأنت مفلس. سبحان الله يا أخى!

الآن آخر لفة في مشوار الليلة. لف لفة وانا أنط نطة. إلى آخر محمود بسيوني ثم لليمين حتى ناصية سليمان باشا ومخزن مدبولي.

بنايات ترابية. هبابية. تقف شامخة. حزينة. في حالة حداد غامض. طراز بلجيكي. بلكونات طائرة في الهواء لا يمسكها ماسك من الجانبين. بلكونات حرة. دايرة على حل شعرها. حبلها على غاربها.

هل أنا الآن فقير أم مسكين؟ الفقير من يملك قوت يومه، والمسكين من لا شيء له على الإطلاق. كنا فقراء من ساعة، والآن نحن مساكين. سنحاول أن نرجع لنكون فقراء في صباح الغد. سبحان مغير الأحوال! على الله مريم يكون معاها فلوس. على العموم حالنا أحسن من حال غيرنا. ألف حمد وشكر. يجب الحمد دائماً.

درويش، لا أعرفه، استلم أذني مرة في الحسين، وكان يلبس بيجامة مخططة قطعتين. قال إنه كان مديراً عاماً في مصلحة الضرائب قبل أن يُحال للمعاش. قال إنه يجب الشكر دائماً وفي كل الأحوال. من أصابته مصيبة وصَبر فهو صَبْرٌ، ومن أصابته مصيبة وَشكر فهو ُشكرٌ. مدرستا الصوفية الكبيرتان؛ الصبر والشكر. الشكر والصبر. نظرياً وحسب، لكن عملياً كل الطرق الصوفية تأخذ من هذا وذاك بنسب مختلفة. حضرتك صبر ولا شكر؟

البنايات الهبابية البلجيكية حالها أفضل من حالنا؛ فالبناية ليست في حاجة لبناية تسكن فيها. مكتفية ذاتياً. هي الحاوي والمحتوى. آوت دور وإن دور.

يا إلهي غرفة واحدة! أربعة جدران لمسكين مثلي كان يحب الخارجي في ما مضي حتى شَرَّمته الشوارع، وأصبح الآن مدمن داخلي! غرفة يا رب آوي إليها! حقوق الإنسان. رقم واحد الطعام، رقم اثنين المأوى. ألف شكر على رأي درويش مصلحة

الضرائب. لدينا الليلة واحد واثنان، وغداً يعدلها ربنا. اليوم خمر وغداً أمر. ولو إن الخمرة ناقصة اليومين دول!

رفع بصره للسماء وهو يمشي الهوينا.

سماء وسط البلد الخديوية غاب عنها القمر! لكن هناك بضعة نجوم لامعة. لآلئ السماء. هناك واحد لمعته أشد من أقرانه. يبدو أبعد بعيداً. النجم البعيد ضوؤه لامع، والشيخ البعيد سره باتع.

لا أعرف شيئاً عن أسماء النجوم. كم المسافة بين هذا النجم وبيننا؟ قد تكون خمسة آلاف سنة، أو خمسون ألف سنة. المسافة بالسنة! شاعرية جداً. التعبير عن المكان بالزمان. خان يفعل العكس؛ يعبر عن الزمان بالمكان.

هذا النجم ضوؤه قد يستغرق في رحلته، ليصل إلينا ونراه، أكثر حتى من خمسين ألف سنة. صدق أو لا تصدق، نشاهده في ماضيه لا في حاضره! كما كان يبدو من خمسين ألف سنة خلت! ماضيه حاضرنا، وحاضره مستقبلنا. يقولون إن الشمس عندما تنطفئ في النهاية لن نعرف بالأمر إلا بعد مرور ثمان دقائق. زمن وصول الظلام إلينا. والأضواء التي تصل إلينا من نجوم ومجرات وتكون قد بارحتها منذ ملايين السنين، هل يا ترى تلك النجوم والمجرات مازالت موجودة، أم احترقت وفنت منذ قديم الزمن؟ ستعلم الأجيال القادمة بعد ملايين السنين؛ حين يكف ضوؤها عن الوصول.

أمور عالية متعالية، التفكير فيها يجعل العقل يهدأ ويتعالى، ولا يعود يقلق كثيراً على الغثيث. حرب الثلاث وجبات والسجائر توافه أمام سمن النجوم والكون. والمكان والزمان.

النقود، والطعام، والمأوى، والتبغ. وجشع البقالين، وغلاء الأسعار. وزحام المواصلات. والطعام المعطوب، ومياه الشرب الملوثة، وقذارة الشوارع. وغلاسة الشرطة.

العقول الكبيرة تفكر في الكبير، والصغيرة تفكر في الصغير. الكبير كبير، والنصنص نصنص، والصغير ما نعرفوش.

الأذكياء يعرفون من الحيل العقلية ما يجعلهم يكفون عن القلق بشأن حرب الثلاث وجبات والسجائر. نفعل ما يجب علينا فعله لكي نحيا. واجب الإنسان الأخلاقي أن يظل على قيد الحياة. هذه هي مهمة الإنسان على الأرض. مهمة شريفة. لا يوجد أشرف منها. مهما َلسَّن الضعفاء عنها. إن كان أمام المرء بدائل متاحة فمن الواجب أن يختار أرقاها، أنبلها، لكن إن لم يكن هناك إلا سبيل واحد، فماذا يفعل! الغاية تبرر الوسيلة. كشخوص سِرجيو ليوني. وكحيوانات الغابة.

يُقال إن عمر الإنسان على الأرض مليون عام، قضى منهم تسعمائة وثمانين ألف سنة داخل الغابة، وخرج منها منذ عشرين ألف سنة فقط. ثم مرت ثلاث عشرة ألف سنة قبل أن تبدأ بشائر أول حضارة بدائية. كل المنجزات التقنية هذه بدأت فقط من مائة

وخمسين سنة. لكن الإنسان تعلم أيضاً الضغينة خارج الغابة. الضواري لا تحمل ضغينة. الأسد لا يحقد على الجاموس البري الذي يقتله. نيتشه قال إن الضغينة هي التي سممت الحضارة الأوروبية. والقلق يسمم حياة الإنسان في كل لحظة. رائحة العيش الفينو تجنن! وسنحصل على كتاب جيد لسهرة الليلة أيضاً! مع هِمنجواي ذلك أفضل.

وصل سامح إلى ناصية مكتبة مدبولي المطلة على ميدان سليمان باشا الفرنساوي.

مخزن مدبولي أوفغ ذيغ ماي ديغ أوفغ ذيغ!

سرَّع سامح من خطوه، ووضع يديه في جيبي سترته الجلدية السوداء، فشعر بالأمان والغنى حالما لامست أصابعه اليسرى لفة ربع سوسيس الخنزير المدخن القابع في جيب جاكتته.

ووصل إلى أمام البناية التي تسبق مكتبة مدبولي. فقفز على سلالم العمارة قفزتين طويلتين بينهما سكتة، فتجاوز العتبة وأصبح داخل بهو البناية الكبير. اتجه يساراً إلى باب الشقة المفتوح بالدور الأرضي، ودخل.

بدأ يتجول على مهل بين صفوف الكتب المخزنة على أرفف عالية ُتشكل ممرات بالطول والعرض والورب. يعرف طريقه بينها جيداً. يعرف أين يضعون كل صنف من الكتب؛ التاريخ، والروايات، والشعر، والفنون، والعلوم الاجتماعية. استمر في

التجول بين رفوف الأدب المترجم المستورد، حتى عثرت عيناه على عدة نسخ مسنودة وراء بعضها من الوليمة المتنقلة. تناولت يمناه النسخة الأولى ودستها بسرعة وخفة تحت حزام بنطلونه فوق خاصرته اليمنى بمساعدة اليد اليسرى التي كانت تشد الحزام للخارج وعضلات بطنه التي كانت تنقبض لتفسح مجالاً للوليمة المتنقلة. عدل من ملابسه وتحسس الجاكت الجلدي الأسود براحته اليمنى من فوق مكان الكتاب، فتأكد أن الجاكت يستر الجريمة.

مضى يخطو نحو باب الخروج. لمحت عيناه وسط الكتب نسخة وحيدة نائمة على رف مترب لضجيج الجبل لكاواباتا.

يا حظنا الحلو! ألف ألف شكر!

أخذت ميشِل نسختي، بعد أن مدحت لها الرواية، ولم أستطع أن أقول لا! كيف أرفض وهي التي تصرف! تفضلي طبعاً على الرحب والسعة من عيني يا عيني!

سأعوض الآن أحد كنوزي المفقودة! كنت أحمل هم العثور على نسخة منها! ألف ألف شكر أيتها الأرواح الطيبة الجميلة اللي حواليّا، ألف ألف شكر يا ملاكي الحارس، الكارما الجميلة العظيمة الرائعة ألف ألف شكر، ألف ألف شكر يا روح العالم الجميلة العظيمة الرائعة، ألف رحمة ونور على جميع الأرواح الطيبة الجميلة اللي مافيش حد يترحم عليها دلوقتي. ألف حمد وشكر. الشكر دائماً وفي كل الأحوال.

دس ضجيج الجبل فوق خاصرته اليسرى، واضطر لتوسيع حزامه خرماً إضافياً. تحسس براحتيه مكان الجريمتين فوق الجاكت الجلدي الأسود، واطمأن. اتجه إلى باب الخروج بهدوء. رأى حارس المخزن جالساً على مكتبه في مدخل الشقة.

رضا غالباً كان في الحمام، أو تحت في المكتبة عندما دخلت. رجع الآن. لا مشكلة.

حياه، وسأله عن صحته بابتسامة ودودة، ثم قال:

- بقولك يا رضا، ما تعرفش إذا كانت رواية الحارس في حقل الشوفان نزلت ولا لسه؟!

- الحارس فين؟! سأل رضا باستغراب.

- الحارس في حقل الشوفان. كرر سامح.

غير موجودة طبعاً لأنها لم تترجم للعربية من أصله. لماذا لم تترجم إلى الآن؟! حرام والله!

- إممم لأ ما ظنش! ما سمعتش عنها قبل كده، دي رواية مصرية ولا مترجمة؟! سأل رضا.

- مترجمة. رد سامح.

- دَوَّرت في الروايات المترجمة؟! سأل رضا.

- آه دَوَّرت بس مش موجودة للأسف، على العموم لو جتلك قريب إبقى احجز لي نسخة وحياتك والنبي يا رضا! قال سامح بهزتي رجاء أفقيتين من رأسه وكف رجاء على صدره.

- تؤمر يا أستاذ، لو نزلت حاشِلك نسخة عندي على طول. قال رضا بهزة موافقة عمودية من رأسه.

- ألف شكر ما نتحرمش، يللا تصبح على خير يا باشا. قالها سامح وهو يرفع كفه الأيمن في تحية شبه عسكرية.

رد رضا التحية قائلاً: وحضرتك من أهله يا باشا، بينما قدما سامح تمضيان للخارج.

والآن العيش الفينو ثم البيت. أحمل كتابين وأبحث عن فينو! كان لدينا في المعهد زميل لزج اسمه عبد الرحمن سحالي. سحالي! لماذا يلقبون أنفسهم بهذه الأسماء! ولد بنظارة كعب كبّاية من كثرة القراءة يحتضن دائماً كتباً إلى جذعه وهو يمشي. لا يراك إلا ويلزق بك كدودة لزجة ويُسمعك ما حفظه في الليلة السابقة. كنا نفر منه حين نراه مقبلاً صائحين: إبليس يحملُ كتابين ويبحثُ عن فريسة! تخمة من المعلومات لابد له من تغوطها في توالِت آذاننا، وإلا مرض! عسر هضم معلوماتي. وكلها معلومات لا رابط بينها. حاجات ومحتاجات. وقائع ووقائع ووقائع. صحيحة كلها في حد ذاتها، لكن أين الخيط الذي يربطها فيحولها إلى حقائق؟ فقع صفن. نموذج للمعرفة غير المفيدة.

معرفة مشوشة. بلا هدف، ولا منهج. مضرة جداً بصاحبها. تجعله يظن نفسه شيئاً. يا خسارة أهدر عمره على الفاضي!

نزل سامح سلالم بناية مخزن مدبولي متمهلاً. انحرف يساراً من ناصية ميدان سليمان باشا الفرنساوي، إلى شارع محمود بسيوني، وسار بضع خطوات على الرصيف بتلكؤ. ثم عبر الشارع إلى الرصيف المقابل. مر بواجهة محل العاديات في أول الشارع، فتوقف. استعرض بصره المعروض في واجهة المحل الزجاجية.

لا جديد، نفس الأشياء. نفس الأطباق الخزفية المرسوم عليها مناظر فرعونية. نفس الغلايين. نفس ولاعات السجائر. نفس التماثيل الفرعونية. نفس القلائد الحريمي. لم يبع شيئاً. حاله واقف، مثله مثل الجميع.

استأنف سيره نحو المخبز الفينو. وتوقف مجدداً على ناصية شارع كريم الدولة.

امرأة. ناضجة. ثلاثينية، وافرة الأنوثة. تقف على الرصيف المقابل، تحت الأشجار كثيفة الأغصان التي تزيد الظلمة دموساً، تنتظر رزقها. تبدو جميلة من هنا. بيضاء في الظلمة. وأنيقة أيضاً. تناسق بديع للتضاريس!

بعض الأحيان تجد مومسات جميلات للغاية يقفن بالقرب من حزب التجمع التقدمي الوحدوي الاشتراكي. مفارقة! البغاء يقف

أمام من يدين البغاء ويدافع عن حقوق المرأة!

انتصبت الأشرعة الملكية على عمود الساري الرئيسي! يا لها من ليلة! ومن أين لنا بامرأة الآن! لا ندفع نقوداً في النساء، حتى وإن كان معنا. هن من يدفعن. ليس لنا إلا هذا باباً يمنحنا الكبرياء وعزة النفس. لا مال، ولا جاه، ولا وظيفة، ولا نفوذ. تقدير الحريم لنا هو ما يمنحنا تقديرنا لأنفسنا. وهدوء الروح. والثقة بالنفس. بواقي ثقة بالنفس فَضْلَـة خيرك!

الطبيعة مثل أعلى. الغابة. الأسد يعيش على قفا اللبؤة، ما المشكلة! يسمونه في اللغة العربية المُضْطَـهِد. يا له من اسم! يسلم الدماغ اللي سمى! ماذا رآه يفعل حتى يطلق عليه هذا الاسم؟ اللغة العربية عظيمة. لكن برضه فيها حاجات بضان!

ربما ليس لديها مأوى الليلة. حالها واقف. هل أعرض عليها المبيت عندي؟ لكن يجب أن أكون واضحاً وعلى بلاطة بشأن النقود! إن وافقت ستكون ليلة سعد. أنتظر قليلاً وأتحين الفرصة ربما استطعنا صيدها. يفوز باللذة كل مغامر. محب يقول اللي يلاقي مومس وما يعلقهاش ربنا يحاسبه!

الست جميلة فعلاً! خسارة أنها تفعلها مع الكل! مع أي دافع. دعه يعمل دعه يمر. إدفع ترفع والدفع قبل الرفع يا عنيا! لماذا لا يقترب منها أحد ويلاغيها!

رجل مر من خلفها، ونظر لمحاسنها من فوق لتحت في

جلافة، وأكمل طريقه.

آخر يمر من أمامها، ويهز رأسه ويعض شفتيه في إيماءة واطية! لكنه لم يجرؤ على الإقدام. الجمال يخيف. لو كانت أقل جمالاً لما تعطل حالها!

مغامر أربعيني أصلع وبكرش يقترب من ورائها، متردداً على ما يبدو. يهمس في أذنها بشيء. المبلغ ربما. حركت شفتيها فقط دون أن تلتفت ناحيته. يا نهار أبيض! الرجل فقد أعصابه تماماً! جرى ورمى نفسه أمام مقدمة تاكسي فيات مائة وثمانية وعشرون يسير متمهلاً، ويُشغل سائقها أم كلثوم: أهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم واتجمعوا يا ليل صحبة وانا معهم!

السائق أوقف السيارة بفرملة قوية. بدين بنظارة كعب كبّاية. يتمتم لائماً الزبون العبيط! غالباً الأدرينالين ارتفع لديه ولم يصدق أن الجميلة وافقت!

لمحت عينا سامح بعض الرجال، مبعثرين في الشارع هنا وهناك، يتابعون الموقف في حسد. سحب المغامر الأصلع الأكرش جسده من على مقدمة سيارة التاكسي وأسرع بخطوتين طويلتين بحذاء السيارة، وفتح بابها الخلفي ونظر إلى الجميلة، التي تحركت بسرعة للتخلص من الموقف المحرج. دخلت التاكسي. ومن مكانه لمح بصر سامح ما فسره على أنه أمارة امتعاض على وجه الجميلة من نزق الزبون.

ربما تقول لنفسها الآن من هذا العبيط الذي ورطت نفسي معه! يا حرام! تلاقيها بقالها فترة واقفة، وما صدقت لقت حد يعرض عليها! الزبون الأصلع الأكرش قفز بجوارها وأغلق الباب.

تحركت سيارة التاكسي الفيات وسارت على مهلها، وصوت أم كلثوم صادر من زجاجها المفتوح يطولوك يا ليل من اللي فيهم وانت يا ليل بس اللي عالم بيهم!

استأنفت قدما سامح السير نحو مخبز العيش الفينو وهو آسف على ضياع اللافرصة.

ُكستاليتة راحت ويّا عبيط! مش كان أبوك أولى بالترالملم ده!

بكم همس في أذنها؟! مائة، أم أكثر، أم أقل؟! محب يدفع مائة في البنت من عند أم حازم شارع السودان بالمهندسين. يا دوب، شوف كيلو البتلو بقى سعره كام اليومين دول! خمسة واربعين جنيه كيلو المدبوح يبقى المية في السبعين تمانين كيلو قايم مش كتير!

أم حازم ترسلهن إلى باب العوامة بالتليفون. بنات جميلات صغيرات ونظيفات. قال مرة إنها أرسلت له طالبة في الجامعة الأمريكية، ركنت سيارتها أمام العوامة ودخلت عنده! هل يمكن لمن في وضعها الاجتماعي أن تفتقد الكاش؟ كل شيء جائز!

أغنياء بخلاء لا يعطون بناتهم ما يكفي. ربما مصاريف الجيب قصرت معها. أو ربما غاوية. الكثير من بنات العائلات الراقية يطلبن في الفراش أن تهمس في آذانهن وتسبهن. يثيرهن ذلك. والدليل كامليا! النفس البشرية أغوار سحيقة.

فعلتها مرة عند محب، وعلى حسابه، مع نور. كانت صغيرة وجميلة. ونظيفة جداً. قالت لي عندما سألتها: أنا باخد سبعين وبدي أم حازم تلاتين. واللي أوله شرط آخره نور وبين البايع والشاري يفتح الله.

كانت مؤدبة، ورائعة الجمال. ممشوقة القد ستايل فرنساوي. وجه رائع بجسد صبياني. ضهياء. لسّه بشاير. أعشقهن هكذا! الله يمسيكي بالخير يا نور! اسم على مسمى، يسلم اللي سمى! قال محب، بعد أن غادرت نور العوامة، إنها ذهبت لأول مرة إلى أم حازم من بضعة أشهر طالبة الشغل، لكن أم حازم رفضت قائلة إنها لا تشغل عذراوات، فذهبت نور إلى صديقها وطلبت منه أن يفتحها. ابن المحظوظة!

محب قال إن أم حازم عندما علمت لطمت، وقالت: يا حمارة يا هبلة لو كنتي قولتيلي إنك عاوزة تتفتحي كنت جبتلك فيها خمس تلاف جنيه على الأقل! لكن اللي حصل حصل، ولا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، وخد بالك من اللبن المسكوب!

يقولون إنها تجارة رابحة جداً في اليابان. يدفعون بسخاء

للعذراوات. يُقال إن مومسات اليابان يجرين عدة عمليات ترقيع في السنة الواحدة، لكي يخدعن الزبون الغفل. ورجال اليابان أصحاب هذه الهواية باتوا على دراية واسعة بحيث يعرفون العذراء الأصلي من العذراء الترقيع! عالم عجيب غريب مريب. ما هي المتعة في ذلك! مزاج يا ولد، كيف! والكيف نزاهة طول ما في جيبك تمنه.

الله يمسيكي بالخير يا نور! كانت بديعة في السرير. تأوهاتها الخافتة. من المستحيل أن تمسك نفسك وهي تحتك! بيبي، بيبي صحيح! سألتها عن عمرها فقالت سبعة عشر عاماً. أكيد أصغر من ذلك بعام على الأقل، لكنها ترغب في أن تبدو أكبر. بعد أن فعلناها، استلقيت إلى جوارها وسألتها إن كانت قد أحبت من قبل؟ قالت إنها أحبت شيخاً سعودياً أعور نام معها مرة واحدة فقط، ولم تره بعدها. سبحان الله له في خلقه شؤون! غالباً متعها من الخلف، كما متعتني!

أحبها محب حباً حقيقياً، لفترة، وكان يفضلها على أي من بنات أم حازم شارع السودان بالمهندسين، برغم أنها لم تكن تحفظ اسمه. قالت لي يومها صديقك محي، فصححت لها اسمه.

المرة التي سمح لي محب بفعلها معها كان مضطراً. طبت يومها كلوي دون سابق إنذار. تفتيش! اضطر للقول بإن نور هي صديقتي أنا. وتأكيداً مني لما قاله صديقي أجلست البنت على ركبتي، ورحت أقبلها وأدعك شبه صدرها، وهي بنت الإيه كأنها

ما صدقت! أهاجها الموقف غالباً. لذيذة نور! وحسماً لأية بقايا من شكوك لدى كلوي، سحبت نور إلى إحدى غرفتي النوم، وأغلقت الباب وراءنا. لمحت اللوم في عيني محب والامتعاض على ملامح وجهه. لم أكن أنوي فعل أي شيء، والاقتصار فقط على حديث ودي هامس معها، لكن صوت تأوهات كلوي العالي اقتحم حواسنا الست من غرفة النوم الأخرى المفتوح بابها، فانطلق الوحش غصب عني مهرولاً مسعوراً! أنا متأكد أن كلوي، بنت اللئيمة، تعمدت ترك باب غرفتهما مفتوحاً لنسمع صوتها بوضوح وهو يعلن أن محب لها وحدها فقط.

محب حاول إقناع نور بأن تصبح صديقته، لكنها كانت مركزة فقط على النقود والشغل والزبائن. طفلة، بيبي. لكن بعقل مالي أعمالي بقالي! قال إنه دعاها مرة للعشاء في مطعم فاخر بالزمالك وقال لها إنه يريد الخروج معها وأن يريها الدنيا وكيف يعيش الأغنياء، فقالت: طيب، حاضر، هابقى اكلمك ونضبَّط. لكنها لم تكن تأتي إليه إلا إذا طلبها بالاسم من أم حازم شارع السودان بالمهندسين، وفي شغل فقط!

وحشتني أنا الآخر! سألت عنها محب آخر مرة، فقال إن أم حازم أخبرته بأن ربنا فتح عليها، واشترت شقة في مدينة نصر بفلوس الشغل!

الحق الحق أقول لكم إن الطلب عليها كان شديداً! وقالت أم حازم أيضاً إنها تزوجت. اشترت زوج. شقة وزوج. بفلوسي!

بالتأكيد ما زالت تعمل. ربما على خفيف. مشاوير لزبائن أغنياء. وغالباً بعلم الزوج. وربما في حضوره أيضاً. حلاوة المال السهل يا ريس! إدمان! لا توجد مومس سابقاً، كما لا يوجد رجل مخابرات سابقاً. مهن لا يمكن الاستقالة منها، حتى وإن خرجت من الخدمة، أو أحالك الزمن للتقاعد. المومس إن تابت. يموت الزمار. وديل الكلب.

وصل سامح إلى مخبز العيش الفينو المواجه لعمارته. دخل والتقط رغيفاً فرنساوياً طازجاً مقرمشاً بطول الساعد. تأبطه بساعده الأيسر. وأخرجت يمناه من جيب بنطلونه الجينز الجاب النيلي خمسين قرشاً، ناولها للفران الشاب الأسمر النحيف، الذي كانت تقف إلى جواره فتاة تبدو في الثانية أو الثالثة عشرة.

البنت شكلها خادمة. ربما في بيت أحد الأسر بالجوار. بنطلون منامة بناتي خفيف لا يناسب برد الشتاء، لكنه يبرز مفاتن مؤخرة طرية ربيلة. قمحية، بعينين عسليتين جميلتين ذكيتين. تبتسم في راحة وهي تتحرك حول الفران الشاب وتلتقط قطع الخبز في اطمئنان كصاحبة محل لا زبونة. لا يوجد شيء صريح، لكن إحساسي يقول إن هناك شيء بينها وبين الفران! يا ابن المحظوظة! البنت تؤكل أكل، وأنا أكيل! صبياني، غلامي، ممتلئة المؤخرة، والأرداف أعرض قليلاً من نور، لكنها ضهياء الصدر كصدر نور تماماً. صدر بشاير. خادمة! إذا كان دول خدامين إشحال بقى الأسياد يا سيدي!

حكت منى مرة أن فراناً اغتصبها في الفرن وهي بعد بنت الثالثة عشرة. ثم تبادلها مع زملائه في حجرتهم القذرة في المخبز. كانت هاربة من بيت أهلها، تسرح في الشوارع بلا مأوى. كان شتاءً، وشعرت بالبرد، وقرصها الجوع ليلاً، فلجأت إلى فرن أفرنجي في شارع جانبي مظلم في أرض اللواء لتشحذ رغيفاً من الفران الثلاثيني. عرض عليها الفران الدخول لحجرته الدافئة لتستريح قليلاً وتأكل الرغيف مع كوب شاي. تعالي جوه الشاي على النار وجوه دفا!

قالت إنها فور أن اجتازت عتبة حجرته ثبتها وفعلها معها. قالت إنه قيد يديها بالحبال، ثم عاود فعلها مجدداً. ثم عزم أصحابه عليها. همست مرة وهي تحتي وقالت إنها استمتعت كثيراً باغتصاب الفران وزملائه لها وهي مقيدة.

منى تعشق الجنس. حتى حين كانت في تلك السن! قبل حادثة اغتصاب الفران بعام، كانت قد تشاجرت مع زميلة لها في المدرسة الابتدائية الخاصة باهظة التكاليف، وعزمت البنت الحقودة على الانتقام منها، فدعتها إلى بيتها، وأسقتها شراباً مخدراً، وتركتها لشقيقها الأكبر وأصدقائه ليغتصبوها. علم أبوها قبطان أعالي البحار، فضربها، ثم قدم شكوى في القسم. عرض أهل المغتصب الزواج، لكنها رفضت. ثم راحت علاقتها مع أبيها وأمها في التدهور المستمر. كان أبوها دائم السفر في أعالي البحار، وكانت أمها تناديها يا مومس، وتشجع أختها الصغيرة على مناداتها يا مومس! كانت تكرر القول بإنها عقاب من الله

لأبيها على ما يفعله في بنات الناس! البنت طالعة لأبوها بتحبه وبتموت فيه! ذلك الشبل من ذاك الأسد.

هربت في يوم من البيت، فالتقطتها عينان خبيرتان لقوادة بلدي أدركت من النظرة الأولى أن منى تعشق الجنس. البنت كنز! طفلة شهوانية، وبجسد فرعوني ناضج الأنوثة. وذكاء جسدي لا نظير له في السرير! آوتها في بيتها، وكانت تجلب لها رجالاً من كل صنف ولون وعمر. قالت منى إن معظم الرجال كانوا يستهيفونها لصغر سنها، مفضلين عليها القوادة نفسها، لكن بعضهم كان ذو خبرة بالحريم وعنده نظر!

الظبية الآن في أبو ظبي، مع زوجها شادي طبيب الأسنان. ذهبت لبيته أول مرة على أنه زبون، فصارحها الأخ شادي بأنه سليف. قالت إنها مارست معه كمسترِس. أكد لها بعد أن فعلتها معه بأنه لم يرتو في حياته مثلما ارتوى معها، ثم عرض عليها الزواج، وقال بإنه لن ينفعه أحد آخر غيرها. قبلت العرض وتزوجته، واتصلت بي مرة بالتليفون من شرم الشيخ في شهر العسل وقالت بإنها حكت لشادي عني وإنه متشوق لمقابلتي. ذهبت إلى بيتهما في حدائق القبة، وفعلتها معها أمامه، وكان جالساً على كرسي فوتيه أمام سرير الزوجية يستنمي على منظرنا. زرتهما مراراً، وكنا أسرة صغيرة سعيدة. الزوج والزوجة والعشيق. ثم نجح شادي في الحصول على عمل في أبو ظبي!

الخادمة الصغيرة أهاجتني بنت الذين، وأنا أصلاً هائج الليلة!

بعض شخصيات دُستويفسكي تعشق البنات الصغيرات. في نفس هذا السن. بل وأصغر! يقال إنه هو شخصياً كان كذلك. وتشابلن كان كذلك. وأنا كذياك.

من الذي كتب أن دُستويفسكي قد تورط مرة مع بنت في الثامنة ثم لموا الموضوع؟ ليس كارياكين، لا ليس بالتأكيد كارياكين! غالباً أندرى جيد في محاضراته عن دُستويفسكي.

من المستحسن صرف النظر ونسيان الموضوع، الوقت متأخر أصلاً، ثم من أين لنا بامرأة مجانية الآن؟ لو كنا نهاراً، أو حتى عصراً، لكان من الممكن الاتصال بميساء. أكبر من خادمة الفرن بخمس أو ست سنوات، لكن بنفس الجسد ونفس الحجم. على أنضج. تعشق الجنس هي الأخرى. لم ُتعمِّر طويلاً في الزواج، وهربت من بيت الزوجية بعد سنة من العذاب مع زوج مدمن رفض تطليقها. حمو، أحما. اسكندراني مدمن أقراص صليبة. أحط أنواع الإدمان! الكيمي كيمي كا الكيمي كيمي كي.

حسب آخر إحصاءات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، الإدمان هو أكبر متسبب في حالات الطلاق التي انفجرت معدلاتها.

لجأت للمحاكم، والمحاكم حبالها طويلة يا ولد! ومحاميها يبتزها جنسياً. يأخذ أتعابه مرتين؛ فلوس ولحمة! على هذا الحال

منذ سنتين، مسكينة! تعيش هنا وهناك. مرة في مكتب شركة إنتاج أغاني. مرة في فيللا في مدينة نصر كخادمة. مرة في فندق رخيص على حساب أحدهم. وأحياناً عند زينب أختها الكبيرة. المحمول وسيلة الاتصال الوحيدة. المحمول حل مشاكل لوجستية كثيرة للبنات! لكنها تغير أرقامها باستمرار، ومقتنعة بأن زوجها وراءها يبحث عنها. دائماً تعطيني رقمها الجديد. تثق بي، ولا تأخذ مني شيئاً، وتحب أن تحكي وتفضفض معي. أنا أب اعترافها.

اقترحت عليّ مرة أن أكتب قصص مغامراتها لفيلم أو مسلسل تلفزيوني. قالت إنها مرت بالكثير من تهاويل الأهوال الهائلة المهولة التي لم تحكها أبداً لأحد من قبل. شهوة الاعتراف. إدمان هو الآخر. يا بنتي إنتي فاكرة نفسك فين! إحنا في مصر يا ماما! الرقابة الأخلاقية على المصنعات المرئية. الحاجات دي ممنوع عرضها على الشاشة يا ميسو، إحنا في مجتمع محافظ يا ماما. ومتدين بطبعه على فكرة! محافظ محافظ يعني! أخلاقي أخلاقي. الحب الحب، الشوق الشوق، المَسك المَسك. على بلاطة لأ، بالوشوشة آه! وكله بالوشوشة. الوشي والوشم والوشع. بس الوشح سافر.

لا تفكر في النساء الآن. جعجعة بلا طحن. المتاح الليلة هو متعة الأكل، ومتعة القراءة. حشو المعدة، وحشو الدماغ. ثم تستمر المسيرة. المسيرة الشريفة. أشرف مهمة للإنسان على وجه الأرض. ماذا تعمل؟ أنا أحيا. لن ُترفع الليلة الأشرعة

الملكية على عمود الصاري. ليل ناشف!

5

عَبَر سامح عتبة باب العمارة، متأبطاً الرغيف الفرنساوي الطويل، وعلى خاصرتيه كتابين، وفي الجيب الأيسر لسترته الجلدية السوداء ربع كيلو سوسيس خنزير مدخن ملفوف في ورق خفيف أبيض ملفوف في كيس نايلون أزرق.

معنا تموين الليلة. الليلة أمان وبكرة يحلها الحلال.

قابله علي بواب العمارة أمام عتبة الأسانسير.

أحس ابن الكلب بخطواتي ولا شك. يحسون بدبيب النملة إن أرادوا، ولا يحسون بدبدبة الدبابة إن أرادوا! هو ومزاجه، هو ومصلحته.

يشعر سامح بكراهية شديدة للبوابين، أكثر حتى من البقالين.

جنس واطي!

مهما عطفت عليهم لا يثمر فيهم. كائنات حقودة حسودة، تنمو وهي تراك داخلاً خارجاً ومعك أشياء، فيأخذون في القول لأنفسهم بإنهم أحق منك بهذه النعمة، وأنك لا تتميز عنهم بشيء

لولا الحظ الهباب. تنفيس! بدونه لا يمكن أن يحتمل البواب نفسه ولا شغلته. طبيعة العمل. حكم الشغلانة. البوابون كلهم سواء، لا توجد استثناءات.

قال لي بدر البواب مرة: إنتوا فاكرين نفسكم ساكنين في بيوت! تعالى شوف البيت اللي بانيه عندنا في البلد تمرح فيه الخيل! وعرفت من سمير البواب أن أخينا لم يبن بيتاً في البلد، ولكن عمارة ستة أدوار كاملة! وفتح تحتها دكان بقالة أيضاً! أمال قاعد هنا تقرفنا في عيشتنا ليه! ربنا يوفقك انت وباقي جنسك!

يقترون على أنفسهم، وعلى زوجاتهم، وأبنائهم، ليشتروا طيناً في قراهم! منظر يستحق الفرجة يوم أن ينزل أحدهم البلد في العيد وهو بكامل تأنقه! الجلابية، والعمة، والشال الفواخر! يُعامَلون هناك في قراهم على أنهم بكوات. البيه البواب. ويتزوجون زيجات ثانية من فلاحات صغيرات نقاوة. الملاعين يعرفون كيف يختارون ومن أين تؤكل الكتف! والقرش صياد يصيد الكبير والصغير العظيم والوضيع فما بالك بطفلة بيبي ما شافتش الدنيا ونفسها تعيش!

- حضرتك ماشي بكرة الصبح؟! قال علي البواب.

- آه إن شاء الله يا علي. رد سامح باقتضاب.

أيوه ماشي يا ابن الكلب!

يجب الحفاظ على شعرة معاوية معهم. قد ُنضطر يوماً للعودة والسكن هنا في العمارة. أو حتى قد نأتيها كزوار! من يعلم!

- ها توحشنا والله يا علي. قال سامح.

ها ستريح من خلقتك يا حشرة يا حشري يا معفن يا للي قاعد للسقطة واللاقطة!

لم يعرض المساعدة في العزال، لأنني لا أعطيه شيئاً. هم مناشير طالعة واكلة، نازلة واكلة! إن لم تعطهم يضطهدونك، ويُظهرون لك وجهاً أجارك الله! وإن أعطيتهم، من حين لآخر، ضمنت حذاءً في قدمك تقلعه وقت ما تحب، وتلبسه وقت ما تحب. مطرح ما يحط رأسه يحط رجليه! سياستي مع البوابين لم ولن تتغير؛ التعالي والهدوء. لكن بدون تصادم معهم. وأيضاً بدون إعطائهم قرشاً واحداً. إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم! في ستين داهية. يريد أن يسأل عن المفتاح ابن القديمة!

- طب وحضرتك ها تسيب المفتاح معايا دلوقتي ولاا؟! قال علي البواب.

هاهاها، لو اشتغلنا بالتبصير لجنينا ذهباً! زرقاء اليمامة. يا خسارة مالحقناش ميتران، ونانسي ريجان! نلعب معاه شوية.

دس سامح يمناه في جيب بنطلونه الجينز الجاب النيلي، ثم أخرجها كمن لم يعثر على ما يريد. ثم شرع يتحسس بباطن كفيه

جيوب بنطلونه، وسترته، محاذراً على الرغيف الفينو.

- آه طبعاً طبعاً، ممكن جداً والله، أسيبه معاك دلوقتي عشان مانساش لمااا. قال سامح.

سكت، وتوقفت يداه عن التحسيس على جيوبه. ركز بصره في عيني علي البواب كمن طرأت فكرة مهمة على باله. وابتسم بخبث، وقال:

- ولا أقولك! بص، الأحسن برضه يفضل معايا، وابقى أدهولك الصبح وانا ماشي، إفرض مثلاً حبيت أخرج بالليل ولاحاجة!

بدا الاستياء على وجه علي البواب.

ابن الكلب لم يحاول حتى أن يخفي امتعاضه! تسؤهم جداً مثل هذه التفاصيل الصغيرة، تحرق دمهم. صغار ويفكرون في الصغائر. الكبير يفكر في الكبير، والصغير يفكر في الصغير، والنصنص في النصنص.

- طب إنت ماشي إمتى، ماشي الصبح الساعة كام بالضبط؟! رد علي من بين أسنانه.

إنت! كده من غير حضرتك! رفع البرقع، يا ابني مش قلتلك!

- مش متأكد والله لسه، لكن غالباً يعني ها يبقى الصبح يعني.

قال سامح.

العين بالعين، والسن بالسن، والبادئ أظلم. اتعبه!

ثم قال سامح منهياً المجادلة:

- عموماً ما تقلقش، إن لقيتك نايم ها صحيك قبل مامشي واديك المفتاح، يللا انت ما تعطلش نفسك تصبح على خير.

لم ينتظر سامح الإجابة، وترك علي البواب واقفاً، وفتح باب الأسانسير، الذي كان موجوداً بالطابق الأرضي. دلف داخله، وأغلق بابه. ضغط على زر الطابق الرابعن وشاهد من زجاج الكابينة، التي راحت ترتفع، علي البواب مازال واقفاً مكانه ينظر له نظرة صنفها وعي سامح في باب الحقد.

كابينة من الطراز القديم؛ الزجاج فيها أكثر من الخشب. القول كابينة زجاجية معشقة بالخشب، أدق من القول كابينة خشبية معشقة بالزجاج. زجاج من الجانبين، والواجهة تكشف طوابق البناية المنيرة أثناء الصعود والهبوط. تشاهد حبال الكابلات وهي ترفعها وتنزلها. بئرها غير مُسوَّر، فقط بوابات حديدية مشغولة تفتح عليها في كل طابق. كانوا يحسنون البناء في ما مضى. شركة بلجيكية هي التي بنتها. يمكن تمييز الطراز البلجيكي بسهولة في وسط البلد الخديوية. وفي وسط البلد بالاسكندرية. بلكونات طائرة في الهواء لا يمسكها ماسك من الجانبين.

كانت معظمها بيوتاً لليهود قبل أن يرحلوا. ثم أصبحت بيوتاً للضباط الذين حلوا محل اليهود. حال الدنيا! قلابة. تلف حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة. ما اسم الصحفي اليهودي العجوز الذي قابلته على قهوة الفيشاوي؟ إريك، أم آندرو! غريب أنني أذكر اللقب سولومن ولا أذكر الاسم! فرنسي كان يعمل في قسم الشؤون الخارجية باللوموند. قال إن أباه وأمه التقيا في الاسكندرية أيام الحرب العالمية الثانية؛ أيام كانت ملجأ آمناً للاجئي أوروبا. أحب اليهوديان الشابان بعضهما، وتزوجا، واستقرا في القاهرة. وقال أيضاً إنه لم يشعر في طفولته أبداً بالتمييز، حتى جاء يوم من أيام ترحيل اليهود من مصر، بعد عدوان ستة وخمسين، حين انتحى به جانباً مدرس الرياضيات في ليسيه باب اللوق، وسأله:

- إنتوا ماشيين إمتى يا إريك؟! أو يا آندرو.

المدرس الشاب كانت عيناه على الشقة. وربما على العفش أيضاً! جحا أولى بلحم ثوره. والحي أبقى من الميت!

أذكياء هؤلاء اليهود! كانوا يسكنون على بعد خطوتين من مقار أعمالهم. يقفل الدكان، ويطلع يأكل لقمة ساعة الغداء، وينزل يفتح الدكان ويكمل شغل.

بالقرب أيضاً من المقاهي، والكازينوهات الكبرى. ومحلات الحلوى. ونوادي البلياردو، وكمال الأجسام. والصحف،

والأحزاب. والبنوك، وشركات التأمين. والتوكيلات التجارية، والمتاجر متعددة الأقسام. وأقسام البوليس. تحتي الجريون. وعلى يميني النادي اليوناني، وجروبي، ومكتبة مدبولي. وأمامها، على الناصية المقابلة، مكتبة الشروق. وأمامي حزب التجمع الوحدوي الاشتراكي. وخطوتين من مقهى شيهان، والتكعيبة. وفركة كعب من فندق كوزموبوليتان، وسينمات وسط البلد، وأفتر إيت، والشمس، ونقابة السينمائيين، ومقار الصحف الكبرى.

من الغد ستتغير الخرائط! لن يكون أمامنا إلا المشي. أو سيارات الأجرة. من الزمالك لأي مكان! والجيب لا يتحمل أجور التاكسيات. المشي إذاً. مترو رجل يا باشا!

يُقال أن معظم اليهود المصريين توجهوا إلى أوروبا، وكندا، وأمريكا، أيام الترحيل. قليلون من انتهى بهم المطاف في اسرائيل. غالباً الأفقر، الذين لا بديل آخر أمامهم. نفعل ما نفعله لكي نظل على قيد الحياة، وإن لم يكن هناك بديل فلا بأس.

أحمد فرحات يقول إن المخابرات الانجليزية وَزَّت الإخوان المسلمين للقيام بعمليات إرهابية لتطفيش من تبقى من اليهود في مصر ودفعهم للهجرة إلى اسرائيل. لصالح الصهيونية العالمية. والصهيونية العالمية هي التي دفعت عملاءها في مصر للقيام بعمليات تخريب وتفجير، لإحداث الوقيعة، والتعجيل بطرد باقي اليهود، ليتوجهوا إلى اسرائيل.

سألت مرة نصار الكاشف هل رأيت أو سمعت عن مستوطن يهودي من أصل مصري؟ قال لا! نعرفهم فقط كمهنيين؛ مدرسون، وأطباء، وموسيقيون. وأصحاب دكاكين فلافل. وصحفيون. برضه المصري يفضل طول عمره مصري!

أحمد فرحات قال إن شحاتة هارون استجدى الأمن، أيام سبعة وستين، حتى لا يطردوه من مصر! قال لهم هذا وطني الوحيد الذي أحبه ولا أعرف غيره، ولن أتركه. أرسل رسالة شخصية إلى عبد الناصر طالباً السماح له بالانخراط في صفوف الجيش المصري للدفاع عن مصر ضد اسرائيل. فاعتقلوه! وفي أيام السادات قال أحمد إنه قاد المظاهرات الشعبية المناهضة لاتفاقية السلام مع اسرائيل. رئيس المنظمة المصرية لمكافحة الصهيونية. المجد للرب! حكى أحمد أن شحاتة هارون دعاه مرة للغداء في بيته، ففوجئ بالوليمة الكبيرة التي تنتظره. المحمر، والمشمر، والمشوي، والمقلي. والسلطات، والواين الفرنساوي المفتخر! ارتبك أحمد من المنظر، وأمسك عن الأكل، حتى ضحك شحاتة هارون وصاح إيه يا احمد ما بتاكلش ليه؟ ماتمد إيدك يا ابني، إيه مش مصدق إن فيه يهودي كريم! قال أحمد إن شحاتة هارون كان يصيح فرحاً كمن يؤكد العبارة لنفسه أولاً، قبل أن يؤكدها لضيفه!

يحبهم أحمد فرحات، ويقول إنهم كأفراد ممتازون، ولهم أياد بيضاء على اليسار المصري. وعلى الحركة الشيوعية المصرية. والحركات الشيوعية العربية. هنري كورِل بعد أن دعم الحركة

الوطنية المصرية، دعم الثورة في الجزائر من منفاه في فرنسا كما لم يفعل أي شخص آخر. الأمن الفرنسي هو من اغتاله لهذا السبب. أحمد رأيه أنهم، بالرغم من ذلك، فهم كجماعة بشرية أسوأ مجتمع أنجبته الإنسانية على الإطلاق! نيتشه أيضاً يكرههم كره العمى، ويحملهم مسؤولية انحدار الجنس البشري، وتسميم الحضارة الأوروبية. القيم الكهنوتية. الكراهية، والحقد، والضغينة. والضعف، والخبث. وتجارة الدين. الأخلاق الشعبية. هم من اغتالوا الروح الرومانية!

توقف الأسانسير. فتح سامح البوابة الحديدية للطابق الرابع، وعبر عتبة الأسانسير، وأغلق وراءه درفتي باب الكابينة بحرص، ثم أغلق البوابة الحديدية. مشى بضع خطوات شمالاً، متأبطاً رغيفه الفرنساوي الطويل، وهو ينبش في الجيب الأيمن لبنطلونه الجينز الجاب النيلي. أخرج المفتاح في نفس اللحظة التي صار عندها على عتبة باب الشقة.

نور قوي، نور الطابق، مضاء ككل الطوابق.

فتح سامح الباب. راح يمشط باطن حذائيه رائح جاي عدة مرات على مشاية الأحذية أم وبر ثقيل على العتبة. يحب أن يكون باطن حذائيه في منتهى النظافة حتى يتحرك بحرية في الشقة، دون أن يقلق على توسيخ الأبسطة والاضطرار لتنظيفها. مازالت يمناه ممسكة بالمفتاح في قفل الباب الموارب. اطمأن أخيراً إلى النظافة الحذائية، فأخرج المفتاح من القفل، ووسَّع من

فتحة الباب، ودخل، وأغلق الباب وراءه بهدوء.

وضع الرغيف على الشُفونيرة التي بجوار الباب. أخرج لفة السوسيس من جيبه، ووضعها شمال الرغيف.

تذكر فجأة أنه نسي مظروف نسخ مجلات الفن السابع في مكتب فتحي عبد السلام، فضرب باطن كفه الأيمن بآلية وبسرعة جبهته دون وعي منه.

- يااااه! يااا على الزهايمر! يا اهبل يا بن الاهبل!

ومرجح رأسه مستاءً من خراقته وهو يمصمص شفتيه. وأخذ في فك حزامه، ثم أخرج الكتابين الغنيمة بالتتابع؛ الوليمة المتنقة، ثم ضجيج الجبل، ونظر لكليهما شاعراً بالراحة والغنى، ووضعهما يمين الرغيف. ثم أرجع تشبيك إبزيم الحزام في الخرم المعتاد. وراح يتمتم بهمس وهو يخلع سترته الجلدية السوداء:

فك الحزام عن وسطك شده ما يفيدك
لابد عن يوم برضه ويعدلها سيدك
إن كان شيل الحمول على ضهرك بيكيدك
إوعى تكش يا حلو من مدت إيدك

لاحظ، مجدداً، التشققات في جلد الجاكت الجلدي الأسود، ونحول لونه على الكتفين وتحت الإبطين.

العمر الافتراضي. تاريخ الصلاحية. للكل. الأشياء، والطعام، والإنسان. والأفكار وحياتك! والعلاقات، والمشاعر. هكذا صمم المهندس الكون. أحمق من يحزن على ما هو محتوم! حتمية التصميم الأساسي.

مازال يدفئني في البرد، لكن من المؤكد أننا أصبحنا في حاجة لشراء واحد جديد! في الشتاء القادم إن عشنا وكان لنا عمر. وكان معنا فلوس. ليس أقل من أربعمائة جنيه لمثله الآن بأسعار اليوم! الله يلعن أبو الغلاء على أبو السوء الحرة!

طوى الجاكت بالطول وهو يخطو نحو كرسي الفوتى، ووضعه على المسند القريب منه وهو يكمل:

ما تيلا بينا انت وياه
ونستعان ع الشقى بالله
وآهو اللي في القسمة شِلناه
واللي مافيش إن شاالله ما جا
مادام بتلقى عيش وغموس
يهمك إيه تفضل موحوس
ما تحط راسك بين الروس
لا تقولي لا خيار ولا فاقوس

وأخذ يشاور بيديه الاثنتين، وقد أخذته جلالة الحجاز.

وصعب عليه الفن، فترحم على الشيخ سيد وبديع خيري،

وقرر وعيه أن يدندنها صح:

شد الحزام على وسط غيره ما يفيدك
لابد عن يوم برضه ويعدلها سيدك
إن كان شيل الحمول على ضهرك بيكيدك
أهون عليك يا حر من مدت إيدك
أقولك إيه واعدلك إيه كله له آخر
دي خبطة جامدة وجَت على عينك يا تاجر

وتساءل؛ هل يا ترى الخبطة هي الضربة الشديدة، أم من الممكن أن نعتبرها أيضاً الزكمة؟!

يا ختشي كده ينفع وكده ينفع!

وأكمل:

يا وحستك دلوقتي لا وارد ولا صادر
يحلها ألفين حلال ربك قادر

مازالت رائحتها في الشقة!

سألتها مرة، وقد أعجبتني رائحة العطر، فقالت إنه كرستيان ديور. العطور مهمة للبشرية. خصوصاً هذه الأيام مع انتشار العرق والنتانة! وكانت قديماً مهمة للبشرية أيضاً. ربما كانت أهم. لكن المهم أن الأمر كذلك اليوم. من التي قالت ضع العطر

في المكان الذي تحب أن ُتقبَّل فيه؟ كوكو شانِل، أم سلطانة أخرى من سلاطين الموضة! خمسة سنتيمترات مربعة داخل كل منخار بها ثلاثون مليون خلية شم! وتكنيك الشم معقد جداً. ومتعدد المراحل، حتى تصل الرائحة إلى القشرة الشميّة في الدماغ. سبحان الله! يقال إن أنوف مبتكري العطور قادرة على تمييز عشرة آلاف رائحة مختلفة بدقة شديدة!

تناول سامح الرغيف الفينو الطويل، وتأبطه بساعده الأيسر من جديد. وأمسك لفة السوسيس باليد اليسرى. ودخل الطرقة باتجاه المطبخ. داس على مفتاح النور، المجاور لحلق باب المطبخ من الداخل، ووعيه يخبره بأن الدندنة قد سننت سعار جوعه.

وضع لفافة السوسيس، والرغيف الفرنساوي، على الرخامة البنية الكاسية لسطح دولاب المطبخ. فض اللفافة، وأخرج الأصابع البرتقالية. وفصلتها أصابعه بسهولة عن بعضها البعض. أكل واحدة على قضمتين.

لذيذ حتى بدون تحمير! أفضل غموس يمكن الحصول عليه بأربعة جنيهات في هذه البلد!

تبقى من الربع أحد عشر إصبعاً.

شد مقبض درج دولاب المطبخ، المجاور لفخذه الأيمن، وأخرج سكين التقطيع.

نشرحها بالطريقة الشركسية؛ شرخ بالطول، وشرخين بالعرض!

عمل من راحته اليسرى نفقاً، وأمسك إصبع سوسيس بالإبهام والسبابة والوسطى الأياسر. وبسلاح السكين شرحت يمناه إصبع السويس شرخاً بالطول، ثم قلبته، وشرحت بدقة شرخين بالعرض على مسافتين متساويتين.

يتيح هذا مزيداً من القرمشة، ومزيداً من تغلغل الزبد الساخن في أنسجة اللحم المدخن.

اشتد قرمه وهو يلوك بقايا اللحم بين أسنانه. أكمل تشريح باقي العشرة أصابع بسرعة. وبالسكين شق بطن الرغيف الفينو كله بالطول. ثم قسمه إلى ثلاثة أثلاث متساوية. حجز الثلث الوسطاني على جنب في نهاية زاوية رخامة دولاب المطبخ للصباح، أو لجوع آخر الليل. قرب منه الثلثين الباقيين، اللذين ظلا مع ذلك طويلين، لأن الرغيف فرنساوي.

واحد نحط فيه ستة أصابع، والآخر نحط فيه خمسة أصابع. كالحياة، هي أيضاً ليست عادلة!

لو كنتُ قسمت الرغيف قسمة مجحفة، لأصبح توزيع اللاتساوي متساوياً! نفي النفي إثبات. معلش، فات المِعاد والفاس وقعت في الراس واللي حصل حصل. المرة الجاية إن كان لينا سوسيس!

التفت، وتناول طاسة القلي، المعلقة على المشجب يمين حوض الغسيل، والمعلق على خطاطيفه الألومنيوم أيضاً كنكة القهوة النحاسية مقاس ثلاثة، ومصفاة الشاي الستانلستيل، ومبشرة الثوم، وكسرولة الحليب، وسيخ تقليب واصطياد المقليات، وكوز غلي الماء الستانلستيل ذو العروة الكبيرة.

وضع الطاسة على العين الكبيرة للبوتاجاز ذي الأربع عيون. أشعل العين وضبطها على الهادئ.

اقلي على الهادي تاكل مقرمش، اقلي على العالي تاكل محروق، محروق من بره وني من جوه.

تراجع خطوتين إلى الوراء، ومد يمناه وفتح باب الثلاجة. أخرج بيسراه قطعة الزبد الملفوف في ورقه الفضي من على الرف العلوي. وضعها على الرف الرخامي لدولاب المطبخ. ثم أحنى هامته، وتناولت يمناه من الرف السفلي للثلاجة قارورة المستردة البلاستيكية الكهرمانية. مرجح ساقه اليمنى وغمز بركبته باب الثلاجة، فانغلق بصوت مكتوم لانطباق جوان الباب على حلق الصندوق. أخذ خطوة جانبية لليسار، فأصبح في وسط رخامة دولاب المطبخ. فض الورقة الفضية للزبد، وأخذها معه إلى البوتاجاز في خطوتين. ألقى ما بها في الطاسة الساخنة فطشت. راحت قطعة الزبد تسيح في كريشِندو متسارع وتتصاعد رائحتها. داس بقدمه اليسرى على دواسة صندوق القمامة، القابع يسار البوتاجاز، ففغر فمه. طبّق ورقة الزبد في طيتين، وألقمها

لفم الصندوق، ورفع قدمه عن دواسته فسد فمه. حول بصره إلى الطاسة على النار والزبد يتحول إلى فقاقيع بنية ويتصاعد دخانه.

حان الآن موعد إلقاء السوسيس، وعلى القاطنين في الخارج مراعاة فروق الرائحة! معلش يا اخوانا بنطبخ، عقبال عندكم!

ألقى بالسوسيس المدخن، إصبعاً تلو إصبع، أحد عشر إصبعاً.

كواكب طاسة القلية!

كانت الغريزة تحثه على إلقام فمه بإصبع سوسيس، بدلاً من إلقامه لطاسة القلية. لكن وعيه أمسك يده في اللحظة الأخيرة.

انتصار نادر من انتصاراتنا يا ولد! في آخر لحظة، تغلبت قشرة المخ الأمامية على المنظومة الحوفية!

بقبقت أصابع السوسيس الراقدة فوق فقاقيع الزبد المقدوح، وتصاعدت رائحة اللحم وغزت خياشيمه، أثناء تحول بطون الأصابع من البرتقالي إلى البني وهي توشوش في الطاسة. أدارت أصابعه اليمنى مفتاح البوتاجاز مع حركة عقارب الساعة، بحرص، فزادت حدة النار قليلاً.

بعد حطة كوكبة الكواكب، ينبغي الحفاظ على مستوى حرارة القلي. الحرارة كانت مقسومة على اثنين، وأصبحت الآن مقسومة على ثلاثة عشر.

تقرصعت أصابيع السوسيس المشرحة وفقاقيع الزبد المقدوح تتغلغل في شروخها الشركسية.

نار الطاسة تحتها، والهواء فوقها. فرق حرارة. التقرفص عشوائي. ولا واحدة شبه الأخرى الآن. مثل بصمات الأصابع، وصوابعك مش زي بعضها! الموقع من النار، وكمية الزبد الذي حول كل إصبع، والاختلافات البسيطة في أماكن وعمق الشروخ، هو المسؤول عن الشكل المختلف لمياسة كل منها. ويمكن أيضاً أن يكون هناك عنصر عشوائي آخر ليس في الحسبان. الفوضى! القانون الثاني للديناميكا الحرارية؛ الفوضى الناتجة عن اجتماع عناصر مضطربة أكبر بكثير من حاصل جمع الفوضى في كل منها على حدة.

أطفأ سامح النار، وشال الطاسة قبل أن تشيط، ووضعها على سياج الانتظار وسط البوتاجاز.

نسرع بتقفيل السندوتشين لأن اللعاب يسيل!

فتح بطن الاثنين. رج قارورة المستردة. ثم قلبها، واحتلب ضرعها، فأسالت من سطام سنامها خيطاً دبقاً متماسكاً من سائلها الكهرماني بطول السندوتش الأول. كرر العملية مع السندوتش الثاني. لف بجذعه، وتناول يد الطاسة من على ساحة انتظار البوتاجاز. بدَّل المسكة باليد اليسرى، وباليمنى راح يُشوِّك قطع السجق، ويرقدها بتناسق في بطن السندوتشين.

خمسة هنا، وستة هناك. امتلئا تماماً. ممتاز هكذا! إحش الخبز بسخاء. سجق بالخبز، لا خبزاً بالسجق. ثم سرسوب مستردة إضافية من فوق. الأول كان فرشة، وهذا غطاء. ونقفل السندوتشين. ونضغط براحة اليد بالراحة على الظهر لتطل المستردة من الشقوق. مستردة تسد الشقوق وترُم الخروق. زي واحد صاحبنا هاهاها!

وضع سامح الطاسة في حوض الغسيل. فتح المطبقية التي فوق رأسه، واختار منها طبقاً مسلطحاً وضع عليه السندوتشين. ثم أطفأ نور المطبخ، وخرج.

خسارة ما عندناش بيرة! كانت ها تبقى ملحمة! رغاوي مع اللحم! معلش، عموماً هي أكلة روعة على كل حال.

اتجه سامح إلى كرسي الفوتى في الصالة. وضع الطبق على المنضدة أمامه، واستدار ورجع خطوتين، وفتح التلفزيون، والريسيفر؛ الذي كان مضبوطاً من آخر مرة على قناة السي إن إن.

نشوف إيه اللي حصل في الدنيا النهارده!

من عادته مشاهدة الأخبار التلفزيونية أثناء تناول الطعام.

رجع وجلس على الفوتى، وريموت الريسيفر في يمناه ليتحكم في علو الصوت. رفعه للمستوى المتوسط. ووضعه أمامه، على

المنضدة، على شمال طبق السندوتشين. وقبل أن يجلس، تذكر أنه نسى زجاجة الماء، وخلة الأسنان. توجه إلى المطبخ. وعاد وفي يمناه الزجاجة الزجاجية مطربشة بكوب زجاجي مقلوب، وخلة أسنان بين إبهامه وسبابته الأيسرين. وضعهم على المنضدة بعد طبق السندوتشين، ثم جلس، وأجلس الكوب على سطح المنضدة، وملئه بالماء، ورشف رشفة مترعة.

بل ريق، تسليك زور. التسليك قبل الفتح. مادام مافيش بيرة!

نبدأ بالخماسي، ثم السداسي.

تناول السندوتش بيديه الاثنتين، وراح يقضم، ويلوك، ويجمجم، ويوحوح، وهو يقرم اللحم الطري المشرب بالزبد المقدوح.

الجوع قرصني ورغيف السجق نجاني! ما تبصليش بعين رديّة بص للمدفوع فيّا. وانا يا ما اندفع فيّا يا عنيّا. وادفع بالتي هي أحسن، ويا بخت من بات مدفوع فيه ولا باتش دافع. والدفع قبل الرفع يا عنيّا!

أخذ رشفة ماء مترعة بعد اللقمة لتسهيل البلع. كان من عادته أخذ رشفة مترعة بعد كل لقمة لتسهيل البلع؛ واين، أو بيرة، أو ماء.

كانت السي إن إن تذيع تصريحاً لجورج دبليو بوش، من على

الطائرة رقم واحد لسلاح القوات الجوية الأمريكية، وهو في بهو واسع داخل بطن الطائرة الرئاسية، ومحاط بمراسلي الصحف والقنوات الإخبارية، يقرأ من ورقة مكتوبة يمسكها بكلتا يديه، ويقول إن اليوم يوم عصيب لمن يحبون أمريكا.

يحاول ما في استطاعته أن يجعل ملامحه حزينة، لكن قسمات البلاهة لوجهه لا تساعده!

أكد جورج دبليو بوش، وهو يقرأ من الورقة المكتوبة، نبأ القبض على روبرت فيلِب هانسن عميل الإف بي آي، وتوجيه الاتهام له رسمياً بالتجسس لصالح روسيا ومدها بوثائق أمريكية سرية.

في مربع أزرق صغير على الحرف السفلي للشاشة يمين المتفرج، مكتوب: اليوم الثلاثون لتولي جورج دبليو بوش رئاسة أمريكا. تحته بحروف بيضاء أصغر أرقام الساعة؛ السادسة وست دقائق عصراً بتوقيت واشنطن.

يبقى عندنا اتناشر وست دقايق بتوقيت القاهرة الشتوي. ليل داخلي.

قضم شقفة كبيرة من السندوتش الخماسي. وتناولت يسراه الريموت كنترول، من على المنضدة، وأدارت المحطة إلى التالية في الترتيب. رفع إبهامه الأيسر من الصوت إلى أعلى مستوى؛ لأن البي بي سي إنجلش كان صوتها منخفضاً.

البي بي سي المستحية!

وضع الريموت كنترول على المسند الأيسر للفوتى، لأن وعيه توقع استمرار تقليبه للقنوات ورفع وخفض الصوت. كانت البي بي سي إنجلش تذيع تقريراً عن انهيار سوق المال التركي. بولنت أجاويد رئيس الوزراء يعلن أن الأزمة خطيرة جداً. المذيع الانجليزي يقول إن الانهيار حدث نتيجة أن الحكومة التركية قامت بتغطية العجز الهائل في ميزانيتها بإصدار سندات ذات فائدة عالية جداً، وأن البنوك الخاصة والمستثمرين الأجانب أقبلوا على شرائها.

طبعاً يا باشا هُت مَني! نهازو الفرص! مخربو بيوت الشعوب!

يقول المذيع الانجليزي إنه نتيجة لذلك تضاعفت أعباء خدمة الديون، مما أدى إلى تضاعف معدلات التضخم، وقال إن أسعار الفائدة وصلت إلى ثلاثة آلاف في المائة.

يا نهار اسود ومنيل بنيلة!

يقول المذيع الانجليزي إن الجميع راحوا يتكالبون على تغيير الليرة التركية إلى الدولار.

طبعاً! سُعار!

ويقول إن البنك المركزي التركي قد خسر نتيجة لذلك كل احتياطاته، وأن مئات الآلاف من الأتراك قد فقدوا وظائفهم.

الخراب يا باشا! عندنا هنا عينة من ده!

أحد خبراء صندوق النقد الدولي، الضيف في برنامج البي بي سي إنجلش، يقول إن سبب المشكلة هو التصريحات غير المسؤولة، والاختيار غير الموفق للكلمات، التي أدلى بها رئيس الوزراء التركي بشأن خطورة الوضع الاقتصادي، ويؤكد أن هذا هو ما أجج مخاوف المستثمرين، وخلق بيئة سيئة للاستثمار.

يا حلاوة يا حلاوة! تلهيك وتجيب اللي فيها فيك!

نحتاج أن نسمع رأي أحمد فرحات في ما جرى. وعاللي جرى من مستثمرينك عاللي جرى، طب ما تيجي وانا، أبألظك، عاللي جرى!

سمعوا كلام الصندوق وها هي النتيجة! ويتنصلون ولاد القديمة من المسؤولية ويلقونها على الكلمات! هي الكلمات السبب! وبعض الكلمات نور، وبعضها قبور. اقتصادات تيجي بكلمة وتروح بكلمة! ذهب مع الريح وش ياخد الريح من البلاط!

الأتراك ها يموتوا ويدخلوا الاتحاد الأوروبي! الحلم التركي بإنه يلبس البَرنيطة ويبقى أوروبي، فلازم طبعاً يسمع الكلام. خليك مؤدب لو سمحت وحاسب على ألفاظك عشان فيه ألفاظ

بتوقع الاقتصاد! واقلع اللباس يا زكي قدرة، يقلع اللباس زكي قدرة!

نحن أيضاً قدمونا لقمة سائغة لرجال الأعمال! كييفة الهُت مَني. أكلة لحوم البشر.

عاطف عبيد راسه وألف سيف ليبيع القطاع العام!

يقول إن شركات القطاع العام تخسر وتحمل ميزانية الحكومة ما لا تحتمل. طبعاً! هي المسؤولة عن تخلفنا في الماضي، والماضي كان كله جراح! أحمد فرحات يقول إنهم يبيعون الشركات برخص التراب للمحاسيب، والمرضي عنهم، ويسب عاطف عبيد سباً تقشعر من سوقيته الأبدان! عمري ما سمعت ألفاظاً مثل تلك من أحمد! لكن الحق الحق معه حق! إن ماكانش ده يتشتم أمال مين اللي يتشتم! بلد كبير يحكمه ناس صغار. أمريكا أيضاً بلد كبير يحكمه ناس صغار. شيطان يأخدهم جميعاً!

أعاد سامح ملء كوبه بالماء. وبدأ مع السندوتش الثاني. وأحب، من باب الفضول، أن يعرف ماذا تعرض القنوات المصرية الآن، فأمسك بريموت التليفزيون، وراح يقلب في القنوات، ويخفض من مستوى الصوت العالي للقنوات المصرية. فيلم السهرة على القناة الأولى؛ تجيبها كده تجيلها كده هي كده. على القناة الثانية؛ إعلان لنرمين الفقي.

هل يا ترى فيه قرابة مع الفقي بتاع الفول والطعمية في

شارع معروف؟

قالت إنها من الاسكندرية لما عملت لها كاستنج لفيلم شعبان. لم يكن من اللياقة سؤالها تقربي للفقي بتاع الفول والطعمية اللي تحت؟ ربما الجد، أو جد الجد، أو جد جد الجد. وربما مجرد تشابه في الألقاب. تشابه مهن الجدود.

نرمين الفقي على شاشة القناة الثانية تحرك شفتيها، والصوت لمغنية أخرى غيرها:

من غير تفكير وكلام كتير كوست حليب لأولادي
حليب طبيعي وطعمه طبيعي معايا في كل أكلاتي
كوست حليب بيغذيني ويخليني أعمل واجباتي
كوست حليب بيقويني ويخليني ألعب رياضاتي
ياسلام عليه في طبق الزبادي
آدي كوست حليب ده حليب مش عادي
دايماً معايا في أكلاتي

ثم يقول صوت المغنية الأخرى، بينما نيرمين الفقي تحرك شفتيها:

طبعاً لإنه مع حليب كوست سريع الدوبان وطبيعي كمان وفي كل أكلة هاتلاقوه معاكوا.

قضم سامح شقفة من السندوتش الثاني. وبلّع برشفة ماء.

أين حليب شركة مصر للألبان؟! لم يعد المرء يراه عند البقالين! أين شركة مصر للألبان نفسها؟! بيعت لمستثمر هُت مَني، أم ينون بيعها قريباً؟! خسارة والله!

ظهر محمود الخطيب في الإعلان التالي لمطاعم ماكدونالدز للهامبورجر:

جنيه اتنين تلاتة ونص رقصهم يا خطيب على واحدة ونص
جنيه اتنين تلاتة ونص ماكدونالدز على واحدة ونص

الواحدة ونص اللي هي المقسوم. دوم، ت ت تا ك، دوم، ت تا ك. ت تا دوم، ت ت تا ك، دوم، ت تا ك.

ثم قال صوت تعليق الفويس أوفر في آخر الإعلان:

عرض خاص من ماكدونالدز الخطيب، جنيه ونص تاخد آيس كريم بالبسكويت، اتنين جنيه تاخد تشيز برجر، تلاتة ونص تاخد بج ماك، عرض خاص من ماكدونالدز لفترة محدودة.

وضع سامح آخر شقفة من السندوتش في فمه. وقرر أنه قد استكفى من القنوات المصرية، فتناول ريموت الريسيفر، وراح يقلب القنوات، وهو يمضع آخر لقمة على مهل.

الجزيرة تذيع تقريراً عن حادثة إطلاق النار في البيت الأبيض. مستوى الصوت عال. كالقنوات المحلية. نوطي

الريموت شوية. ده كلام قديم من إسبوعين يا اخوانا!

لكن وعي سامح انتبه إلى اسم الجاني، الذي سمعه لأول مرة.

روبرت بِكِت! بِكِت! يا حلاوة الاسم! ومتهم بإطلاق النار في سبعة فبراير الحالي في مبنى البيت الأبيض، ومحاولة اغتيال جورج دبليو بوش، وهو لسه ما كملش شهر في الحكم!

نرجع أحسن لكمالة تقرير البي بي سي إنجلش. يا سلام لو كان في كمالة للسندوتش! معلش. ألف شكر.

بَوَّس سامح يمناه وجهاً وقفا.

ألف حمد وشكر.

وتناول خلة الأسنان بالثلاثة أصابع الأولى اليمنى، وأخذ يسلك ما بين أسنانه وضروسه.

يااااه، الواحد كان جعان بشكل! واحد نسكافيه بقى بعد الأكلة الحلوة دي!

رفع مستوى الصوت من الريموت كنترول لآخره، ناوياً أن يتسمع وهو في المطبخ. لم الكوب، وزجاجة المياه، فوق الطبق المسلطح. وقام متجهاً بهم إلى المطبخ، ناوياً غسلهم، حتى يترك المطبخ نظيفاً للسكان الجدد.

سلمني نضيف أسلمك نضيف. ولو اننا استلمنا وسخ الصراحة! معلش، عامل الناس كما تحب أن يعاملك الناس، وخليك انت برضه الكبير. ثم إن النظافة يا عزيزي غريزة أولاً وقبل أي شيء. مسألة شرف شخصي. كاستقامة الظهر لدى لاعبي البولو. لا يمكنني ترك وساخات ورائي. هاهاها قصدي وساخات مادية يا وسخ! هيييه، وآهو كل واحد بيعمل على قد نيته. الشرف!

وضع سامح ما في يديه في حوض الغسيل بالمطبخ في الظلام. استدار وخطى خطوة وأشعل النور. ورجع ليفتح الصنبور. قبض بيمناه على الليفة السكوتش في علبة الحلاوة الطحينية القديمة الرشيدي الميزان، التي تحولت إلى صبَّانة، وحلبها مرتين حتى امتلئت العلبة برغاوي الصابون، وراح يُصبِّن المواعين. ثم شطفها بماء الصنبور الجاري، وراح يصفها تباعاً، على يمينه، رأساً على عقب على سطح حوض الستانلستيل المضلع، حتىُ تصفي ماء شطفها. أغلق الصنبور. تناول الطبق المسلطح وأسكنه على سيفه في أحد أنصاب المطبقية، فوق رأسه، والكوب مقلوباً في الدور التحتاني من المطبقية. تناول زجاجة المياه الفارغة المغسولة المقلوبة، وفتح الصنبور مجدداً، وملئها إلا إصبعين من تمامها.

برق في دماغه، فجأة، ذكرى برتقالة منسية في درج الخضروات بالثلاجة. فاستدار، وفتح باب الثلاجة على عجل، وانحنى على درج الخضروات وفتحه، وابتسم ابتسامة عريضة.

معجزة يومية صغيرة! يا بركة الأرواح الطيبة الجميلة اللي حواليّا. ألف شكر يا ملاكي الحارس. ألف شكر يا روح العالم الجميلة العظيمة الرائعة.

تناول البرتقالة المشرَّبة بالحمرة، ودفع بيسراه درج الخضروات لمستقره، وسك باب الثلاجة.

يا سلام! تحلية ولا كانت على البال! برتقالة بدمها. شهيدة سلالة الحمضيات. نفض بكارتها بالإصبع، كالعنين في ليلة الدخلة مع عروسه. يا ما الواحد سمع قصص بالشكل ده!

قشر الجلد الرقيق بأظافره بسهولة؛ بدس ظفر الإبهام تحت اللحاء، ودفعه للأمام، وراح يرمي القشور في الزبالة، وقدمه على دواسة فمها المفتوح. انتهى من التقشير، وقرر أن يأكلها على حوض الغسيل، لأن وعيه قدَّر أن بعضاً من دمائها قد يتساقط على ملابسه وهو يأكل.

مليئة بالعصير الدموي الحلو الحامض!

لم يفصصها، وراح يقضمها كما تؤكل التفاحة.

حلوة بشكل! آخر ما تركت ميشِل وراءها. كانت تعشق البرتقال، خصوصاً اللي بدمه.

كان سامح يجمع بذر البرتقال في راحته اليسرى بتقريب كفه

إلى فمه، وزحلقة البذور بلسانه إلى راحة اليد دون بصق. أتى على البرتقالة كلها. ثم رمى البذور في الزبالة. التفت، وفتح صنبور المياه بحرص بأصابعه اليسرى، لأن اليمنى كانت ملتاثة بالعصير الدموي. غسل يديه، وتمضمض أربع مرات، وأغلق الصنبور. تمتم ألف حمد وشكر، وهو ينشف يديه، وفمه، في فوطة المطبخ النظيفة المعلقة على مسمار شمال المطبقية. أعاد تعليق المنشفة مكانها، وخطى بالجنب، وتناول الكوز أبا عروة من على المشجب يمين الحوض، وملئه لنصفه بمياه الصنبور.

موصى بالكوز الستانلس لتحضير مياه النسكافيه. يجب أن تجيش المياه، دون أن تصل لدرجة الغليان. في الكوز سنراها، أما في غلاية الشاي فلن نرها.

أشعل العين الصغرى للبوتاجاز، ووضع عليها كوز الماء. التفت، وتناول مج خزفي أحمر، يشبه زهرة اللوتس، كان مقلوباً على رأسه، من على رخامة دولاب المطبخ، وعدله. تناول السكرية من جواره. سحب مقبض درج الملاعق الملاصق لعضلة ركبته اليمنى، وسحب منه ملعقة شاي، وأغلق الدرج. أخذ ملء ملعقة الشاي سكر، وألقاه في المج، ثم ملء ملعقة أخرى من السكر. تناول علبة النسكافيه الأمريكية القصديرية المدورة من جوار السكرية، وفتحها.

بها ما يكفي لصنع مجين عظيمين! واحد الآن، والثاني في ما بعد.

أخذ ملء ملعقة من بن النسكافيه، وألقاه فوق السكر في المج، ثم ملء ملعقة أخرى، وأغلق علبة النسكافيه، وأعادها لمكانها على الرخامة. قلب السكر مع البن بخفة، دون طحن.

انتبه وعيه لصوت البي بي سي إنجلش واصلاً من الخارج.

مازالوا في موضوع انهيار سوق المال التركي. الأتراك يغرقون في الرمال المتحركة للرأسمالية العالمية. الغوث! نحن أيضاً نغرق! أنتم السابقون، ونحن اللاحقون. الأتراك قلعوا اللباس. نحن أيضاً قلعنا اللباس! لكنهم يحلمون بالانضمام للاتحاد الأوروبي، علشان يبقوا خواجات ببَرنيطة، والعضوية في النادي الأوروبي ُطعم في يد الرأسمالية؛ َشوَّق ولا تدوَّق! لكن ماذا عنا نحن؟ لماذا قلعنا اللباس! ماذا كان الـُطعم؟ غِيّة! متعودة دايماً! في هذه الحالة، يمكن وصفنا بالقاعد في بيت الدعارة؛ لا هو يفعلها، ولا هو خال من النجاسة! أحمد فرحات يقول إنها لعبة قذرة للاستيلاء على شركات القطاع العام بتراب الفلوس. ما يشترونه اليوم بجنيه، يصبح غداً، لا بعد غد، بألف يا ريس. كفاية الأراضي اللي عليها الشركات! مساحات يا ابني! وفي مواقع إيه، لوز! لو اتباعت بس أرض مباني شوف تجيب كام النهارده! ويقولك خسرانة! ولاد الكلب! أعطني حصتي أطلق يديّ. شركة البيبسي كولا، باعوها ولاد الكلب وقالوا خسرانة! بيبسي كولا وتخسر! أكلة الجيف تزدهر في موسم الجفاف!

رأت عينا سامح الماء وهو يجيش في الكوز، فأطفأت يمناه

النار، وتناولت الكوز بمسَّاكة قماش محترقة من كل مكان من احتضان نسيجها للمعدن الساخن. ثم صبت الماء الجائش في المج. استدار سامح، وألقى ما تبقى من ماء الكوز الساخن في فم بلاعة حوض الغسيل.

وصفة مثالية للتسليك المتواصل.

وضع الكوز الساخن في الحوض، وأعاد مسكه من حافته بالمسَّاكة، وعلقه من عروته في المشجب. التفت، وقلب القهوة أربع مرات بخفة في حركة دائرية في اتجاه عقارب الساعة. استدار، وفتح الصنبور، وصبَّن الملعقة، وشطفها، وأغلق الصنبور. نطر الملعقة ثلاثاً؛ ليصفيها من قطرات الماء. وأعادها لدرج الملاعق، مع أخواتها من نفس المقاس، وأغلق الدرج. خطى خطوة، وأطفئ نور المطبخ بسبابته اليمنى. تناول في الظلام، الذي لم يكن ظلاماً، مج القهوة اللوتسي من عروته بالثلاث أصابع اليمنى الأوائل. وباليد اليسرى تناول زجاجة المياه من على سطح انتظار حوض الغسيل الستانلستيل، وسار متجهاً للصالة.

وضع زجاجة المياه، ومج القهوة، على منضدة الصالة. وتناول، وهو واقف، ريموت الريسيفر من على مسند الفوتى، والتفت ماداً به يمناه في اتجاه الريسيفر الموضوع على رف تحت شاشة التلفزيون، وضغط على زر الرجوع إلى قناة السي إن إن. شخص، يُعلن التوضيح المكتوب بجوار اسمه، أنه من

الجمهوريين. يتحدث بحماس عن خطة بوش الابن لتخفيض الضرائب. وضع سامح قبضته اليسرى في وسطه مقرراً أن يتابع قليلاً، والريموت في يده الأخرى المدلدلة إلى جانبه الأيمن. يرد عليه أحد أعضاء الكونجرس من الديمقراطيين قائلاً إن الجمهوريين دائماً ما يعدون بتخفيض الضرائب عن الطبقة الوسطى، لكن إن كان دخلك الشهري أكثر من خمسمائة ألف دولار، فإن خطط الجمهوريين المالية ستكون في صالحك.

هاهاها، تخفيض الضرائب عن الطبقة الوسطى، إبقى قابلني! انتخابات الرئاسة خلصت، والوعود الانتخابية فص ملح وداب. أدت وظيفتها. تشكر. انخدع من انخدع. نصب واحتيال، ورزق الهبل على المجانين! قلة وعي يا عزيزي.

أغلق سامح الريسيفر، والتلفزيون، مقرراً أن ما سمعه اليوم من أخبار العالم فيه الكفاية.

اتجه إلى الشُفونيرة الملاصقة لحائط الصالة، وتناول من على سطحها الكتابين اللذين وضعهما هناك عندما دخل. أمسك بهما بكلتا يديه؛ الوليمة المتنقلة على ضجيج الجبل. اتجه إلى المنضدة، ووضع الوليمة المتنقلة في وسطها، قريباً من حافتها اليمنى، حتى تكون في متناول يده، على شماله عندما يضطجع على الأريكة. قرر أن يضع ضجيج الجبل في الحقيبة الكبيرة؛ التي سيودعها عند أخته غداً صباحاً في المنيل.

كاواباتا عظيم في ضجيج الجبل! يستخدم النسيان الدرامي بعظمة! شينجو، في أحد الصباحات، وبعد أيام طويلة مشحونة بالانفعالات العنيفة المكبوتة، تنسى يداه كيف تعقدان ربطة العنق، بعد أربعين عاماً من تكرار العملية كل صباح قبل الذهاب لوظيفته!

سأمر على مريم في الثامنة صباحاً قبل أن تذهب لشغلها. من حسن الحظ أن نادر ينزل في السابعة إلى شغله في بريد العتبة. لا أريد مقابلته. شخص مزهو بنفسه على الفاضي، يغرق نفسه بكولونيا ليمون ثلاث خمسات! مدير في مصلحة البريد، ويظن نفسه جاب الديب من ديله! هل يا ترى هو من كان معها في حجرة النوم في ذلك اليوم، أم رجل آخر! لن أعرف الجواب أبداً. ما الفائدة في أن أعرف على أي حال!

عاودت سامح ذكرى ذلك اليوم. من سنتين تقريباً، كان في المهندسين، في صباح شتائي، ورجع إلى شقة أبويه المرحومين بالمنيل ليبدأ كتابة مقال عن ستانلي كوبرِك، طلبوه منه للنشر على وجه السرعة في جريدة الحياة اللندنية بمناسبة وفاته. بعد أن فتح باب الشقة بمفتاحه، ودخل، سمع همهمات جنسية في غرفة نوم شقيقته. وقف مصدوماً لدقيقة، أو اثنتين، حتى استوعب أنه صوت أخته، وأنها مع أحدهم في غرفة نومها. استدار خارجاً، وأغلق الباب وراءه بهدوء. جلس على مقهى في الشارع الخلفي لبيت أبويه المرحومين، وطلب قهوته المضبوطة، وحجر معسل سلوم. أحس بالشفقة تجاه أخته، وقال في نفسه مسكينة، معذورة،

شارفت على الأربعين بلا حب، ولا زواج! وتساءل من هو يا ترى الرجل الذي معها؟! وهل يحبها، أم مجرد نزوة؟! وتمنى أن يكون رجلاً محترماً يحفاظ عليها.

يومها قرر سامح أن لا يعود إلى شقة أبويه المرحومين، إلا لأخذ حاجياته والرحيل، وقرر أن يفتش عن مكان آخر يسكن فيه، وأن يترك لأخته شقة العائلة؛ على أمل أن تساعدها الشقة في إيجاد زوج.

أشعل سامح نور غرفة النوم.

جمال كاواباتا في بروده. وجمال كافكا في بروده.

المعتوه أورسن ِولز يُميت ك في نهاية فيلم المحاكمة بانفجار! يا للفضيحة! لو كان كافكا حياً لأصيب بانهيار عصبي!

دُستويفسكي على عكس كاواباتا؛ شخصياته تعبر عن نفسها في انفعالات هائجة مدمرة. روسي روسي! عظيم هو أيضاً في استخدامه للنسيان الدرامي. الأب كارامازوف في غمرة انفعال هائج مع أبنائه، ينسى أن أم ابنه أليوشا هي نفسها أم ابنه إيفان! هذا أدب عظيم يا عزيزي، من الدرجة الأولى الممتازة!

النسيان الدرامي أقوى من النسيان المرضي. ينتج عن الانفعالات الدرامية. حتى وإن كان له أصل عضوي. خلل عقلي ربما. جميعنا مختلون، من منا السليم!

انحنى سامح على الحقيبة المنفاخ الكبيرة اللاطية بجوار عتبة باب غرفة النوم من الداخل، وفتح سوستتها، ودس فيها ضجيج الجبل، وأغلق السوستة.

لاحت منه نظرة إلى ملاءة السرير.

لن أنام عليها الليلة. سأقرأ ممدداً على أريكة الصالة حتى الصباح، أو حتى يغلبني النوم. يعرقون وهم يفعلونها، حتى في عز البرد. عرق العافية. لابد وأن بقايا لبنهما على الملاءة في مكان ما. سأتأكد.

خطى سامح بضع خطوات نحو السرير. انحنى على الملاءة البيضاء، المشجرة بقلوب متداخلة بالأحمر والأخضر والأزرق، والتي حال لونها، واهترئ نسيجها وتثقب في عدة مواضع. راحت عيناه تتفحصان بعناية، وابتسم أخيراً لصواب توقعه.

ها هي بقعتها! جفت، لكن يمكن تمييزها، لأنها كانت ترقد هنا بالضبط. لبن رجب أكيد على السجادة بالصالة.

انحنى على البقعة، وتشممها.

الله يا كامليا على لبنك! مازالت على عادتها، تضع عطراً في فرجها؛ لتنزل شهوتها معطرة! تسافر كثيراً، وتشتري من أوروبا أشياء نسائية لتعطير الفروج بروائح متنوعة، لكنها تصر على رائحة معينة لفرجها. لا أعرف اسمه، ولكن أحفظ رائحته!

ياسمين. علامتها المسجلة. الأسلوب شرف الكاتب بتاعة عماد فكري. الأسلوب عاهة مستديمة إحنا اللي قلناها!

قرر سامح محو آثار كامليا، التي بالكاد تظهر للعيان. كراهيته لترك آثار خلفه صارت جزءًا من طبيعته. ذهب إلى المطبخ، وعاد ومعه الليفة المصبونة. راح يدعك البقعة الباهتة، حتى اطمأن وعيه إلى اختفائها كلية.

تتأسس روايات التحري كلها، من أولها لآخرها، على مسألة تقصي الأثر. والأفلام البوليسية أيضاً ورثت عنها ذلك. جريمة قتل في البداية، والبطل، الذي قد يكون شرطياً، أو مجرماً، يتقصى آثار الجريمة ليصل إلى القاتل الحقيقي، وفي الطريق يصبح هو نفسه الضحية التالية للقاتل.

اطمأن وعيه أخيراً إلى اختفاء بقعة كامليا كلياً. اتجه إلى الخارج، وأغلق بيسراه الناشفة كبس النور. وقصد المطبخ.

من أحلى ما كتبت في الفن السابع؛ مقال أزهار الشر سينما العصابات عند جان بيير ملفيل!

محقق الشرطة عند ملفيل هو مقتفي أثر ممتاز. يمكن اعتباره جامع نفايات في نفس الوقت. نفايات الجثث، وفوارغ الطلقات. يمضي المحقق جائباً المدينة، باحثاً عن غنيمة من النفايات. النفايات التي يلقيها المشبوهون خلفهم، أو يفقدونها، أو ينبذونها. نفايات الجثث، وفوارغ الطلقات، وأكياس القمامة التي يلقونها

خلفهم، والعشيقات، والأصدقاء، والزملاء. ثم يعود المحقق إلى مكتبه، ويعمل على فرزها، ومضاهاتها، بحكمة وتبصر، لتتخذ النفايات بين يديه شكل البراهين والأدلة!

اقتفاء الأثر يضفي تشابهاً بين محقق الشرطة والمجرم. تشابهات في المظهر، والسلوك، ودرجة الحرفية. لعبة تبادل أدوار داخل الفيلم. مرايا. يتبادل نفس الممثل لعب دوري المجرم والشرطي من فيلم لآخر في سينما ملفيل. العالم كله بالنسبة لملفيل عالم مجرمين. إنه حقاً عالم مجرمين مجرمين مجرمين! المفتش الكبير في فيلم الدائرة الحمراء يقول للمحقق، الذي يلاحق العصابة، كل الرجال مذنبون يا سيد ماتي، قد يولد الرجل بريئاً، لكن ذلك لا يستمر طويلاً! المفتش الكبير لا يستثني الشرطة نفسها من الدائرة الحمراء. ليس عن نزق، بل عن خبرة. طبيعة عمله، ككبير مفتشي الشرطة، تجعله مضطراً لإرسال نظرته إلى داخل دائرة عمله ذاتها. هو الشرطة التي تحقق في جرائم الشرطة. يرى المفتش الكبير الغابة كلها، ويلمس الأشجار بيده شجرة شجرة. آخر ما يرد في الفيلم تصريحه الجازم: تذكر يا سيد ماتي، كل الرجال مذنبون!

وضع سامح علبة التصبين على حافة حوض غسيل المطبخ الستانلستيل، وفتح الصنبور وشرع في غسل يديه في الظلام، الذي لم يكن ظلاماً.

هتشكوك مختلف. أسلوبيته تناقض أسلوبية ملفيل، وكأن

ملفيل يحتفي بكل ما يلقيه هتشكوك في القمامة، والعكس صحيح!

البطل عند هتشكوك بريء. بريء، ومُفترى عليه. مُطارَد، ومتهم ظلماً. هارب من مؤامرة من تدبير البشر، أو الصدفة. مؤامرة من القدر الخالد، أو من البشر الفانين. يهرب ليثبت براءته. طريدة. الإنسان طريدة عند هتشكوك، ومهمته في الحياة تنحصر في الهروب. توماس مور، في فيلم فريد زِنمان، رجل لكل العصور، قال شيئاً مشابهاً يلخص كل أفلام هتشكوك. هو مفتاح أفلام هتشكوك. حين يضعنا الله في موقف عصيب، فعلينا أن ُنعمل العقل ما استطعنا، فإن نجحنا في التغلب على المشكلة فهي مشيئته هو لا مشيئتنا نحن، أما نحن كبشر فتنحصر مهمتنا الأساسية في الهروب!

ومع ذلك، فالبطل البريء عند هتشكوك هو مقتفي أثر هو أيضاً، كما عند ملفيل. يصر هتشكوك على براءة بطله منذ البداية. يكشف لنا الفاعل الحقيقي، في أول عشر دقائق في الفيلم، حتى نتأكد من براءة البطل. التشويق يستلزم كشف الجاني الحقيقي، منذ البداية، حتى يقلق المشاهد على مصير البطل البريء، ويتوحد معه في رحلته لإثبات براءته. شغل هتشكوك هو النقيض لقصص أجاثا كرِستي؛ التي نكتشف فيها الفاعل في آخر صفحة! ساخر كبير! سخرية انجليزية باردة. ملفيل يفضل الغموض، والإخفاء. والإيقاع البطيء. والصمت. ثلاثون دقيقة من الصمت الكامل في السرقة الكبرى في الدائرة الحمراء. وفي فيلم أكشن! يا جبروتك!

أغلق سامح الصنبور، وتناول المنشفة من على المسمار المغروز شمال المطبقية وراح يجفف يديه بعناية.

بطل ملفيل متشائم. متشائم على طريقة أنطونيوني. فاقد لإيمانه بالبشر، وبالعلاقات الإنسانية. يهرب من البشر حتى يجنب نفسه الإيغال في تجربة الشر! كالحيوان البريء الذي يهرب من الإنسان؛ لأنه لا يوحي له إلا بالخوف. مجرم ملفيل أكثر براءة من البشري العادي! مفارقة! وسخرية أيضاً! وتشاؤم أولاً وقبل كل شيء!

ساعة وستكون الملاءة قد جفت. لو تذكرت فسألقي عليها نظرة لأتأكد. ملاءة أصحاب الشقة. حزمت ميشِل مُلاءها معها. لم تترك لي حتى واحدة أستعملها. متحفظة جداً تجاه المُلاء!

علق سامح المنشفة مكانها، واتجه عائداً نحو الصالة.

باولا الإيطالية أيضاً حرصت على لم كل مُلائها معها. لا يحببن ترك المُلاء خلفهن. بنات متحفظات! كانت ميشِل تختال عجباً حين تلف الإيشارب المشجر حول رأسها كالمحجبات. خربش جلد أي منهن وستجد يمينية محافظة تحته! والأمريكان معظمهم يخفي يميني عنصري تحت جلد كل منهم! وأولهم السود والأقليات وحياتك! بل أشد من البيض حتى! لو ُأتيحت للأمريكان الفرصة لذبحوا بعضهم بعضاً، لكنهم يخافون القانون. والغرامات المالية! لكن اللي في القلب في القلب.

وقف سامح في وسط الصالة، ووضع يديه في وسطه.

ما ينقصنا الآن هو الموسيقى التصويرية. لولا الجوع الكافر لأدرت الموسيقى فور دخولي. الكافر بمعنى الشديد المجحف، وليس بمعنى الخروج عن الملة. اللغة العربية حمالة أوجه. يا ختشي كده ينفع وكده ينفع!

الحمد لله شبعنا أكل، نحن الآن جوعى موسيقى. يجب أن يكون لكل شخص موسيقاه التصويرية الخاصة، وأن تصاحبه طيلة اليوم، ليل نهار، نهار ليل.

اتجه سامح للشُفونيرة، التي عليها مشغل السيديهات السوني الصغير، الذي أهدته له باولا الإيطالية، قبل أن ترجع إلى بلدها. تناول من جواره حافظة السيديهات الاثنتا عشرية، التي في حجم كف اليد، وفتحها، وراح يقلب في صفحاتها.

سوناتات موتسرت للبيانو، لا لا لا! لا أسمعها إلا ويحدث ما لا أحب!

وصل إلى رباعيات البيانو والكمان والفيولا والتشيلو لبيتهوفن. أخرج السيدي من مكمنه. وأغلق الحافظة الاحدى عشرية. فتح المشغل الكفيّ، ووضع به السيدي. ضغط على زر التشغيل، فبدأت أنغام الرباعية الأولى في مقام مي بيمول ماجير تصدح. أسدل ذراعيه، والتفت ناظراً للأريكة خلفه.

لا ينقص الآن سوى مخدتين نتوسدهما ونحن نقرأ على أنغام الموسيقى ويبقى كله عال العال.

توجه إلى غرفة النوم المظلمة التي لم تكن مظلمة. عاد محتضناً مخدتين؛ إحداهما بكيس قماشي أخضر فاتح على أحد جانبيها وردة حمراء صغيرة، والأخرى كيسها مستطيلات صفراء وبنية متداخلة في بعضها البعض وألوانها باهتة من تكرار الغسيل.

هيأ لنفسه مكان الاضطجاع على الأريكة؛ فسوى المخدتين وراء بعضهما مكان استناد ظهره. لمحت عيناه، وهو منحن، لمعاناً معدنياً لشيء مشبوك في ستارة النافذة. اعتدل، ولف حول الأريكة حتى وصل إلى الستارة. أمسك بالأصابع الثلاثة الأولى الأيامن طية من الستارة أعلى اللمعة المعدنية. رفعها إلى مستوى صدره، وانحنى برقبته عليها، فوجد إبرة متوسطة الطول من إبر الحياكة مشبوكة في قماش الستارة. تفحصتها عيناه بعناية.

إبرة بلا عين! إبرة غشيمة، نسيت ماكينة المصنع ثقبها! مطلوبة جداً لدى النساء، خصوصاً العجائز. يقلن إنها تبطل السحر والأعمال الشريرة. الحمد لله أننا لم نلمسها! لو لمسنا إبرة غشيمة لأفسدت علينا ليلتنا. وربما أفسدت غدنا أيضاً!

بعض الموسيقى أيضاً له نفس المفعول! سوناتات موتسرت للبيانو. واتجاه تماثيل الأفيال، إن توجهت لجهة خاطئة. نسيت هل

يجب أن تتجه شرقاً، أم غرباً؟ أم شمالاً؟ يجب التأكد من هذا الأمر في أقرب فرصة. مؤمن يا عزيزي؟ طبعاً يا سيدي انت اهبل! لا يوجد شرقي غير مؤمن. أينشتين قال عن إيمانه إنه أعمق من إيمان الربانيين والقساوسة، ولكن ليس على طريقتهم. كل شيخ وله طريقة. خالد محي الدين زعيم حزب التجمع الوحدوي الاشتراكي شيخ وله طريقة!

من شبكها في الستارة يا ترى؟! خواجاية، أم مصرية؟! ولم؟!

وقع لسامح شيء معجز في طفولته، فتأكد بأن هناك من يسمع ويحاول أن يساعد. ثم آمن، في ما بعد، بأن هناك أيضاً من يسمع ويحقد ويحاول إفساد الأمور.

مُوصى بالكتمان في تلك الأمور. الدراويش أساتذة في الستر! أنسي الحاج يقول في خواتم اثنان: أمل مستتر حتى لا تراه الآلهة فترشقه سهام عيونها الغيورة. نيتشاوي في مسألة القلب ظهراً لبطن! النحس حماية سوداء. سبحان من يُحرر ولا يتحرر. ساعد الله ليحتمل معاناته أمام عذاب الخليقة. يوم ننتهك ولا نعود ندفع الثمن تكون الآلهة قد أصبحت أكرم منا. خواتم اثنان أجمل ما كتب!

ترك سامح الطية تسقط من بين أصابعه. لف عائداً إلى الأريكة. جلس في منتصفها، ثم اضطجع على جانبه الأيسر متوسداً المخدتين.

كان بروستُ ضَجَعَة، لكنه لم يكن كسولاً! كان لا يعمل إلا في السرير، لأسباب مرضية.

تناول سامح الوليمة المتنقلة بين يديه، وشرع في القراءة.

"إذا واتاك الحظ بما يكفي لتعيش في باريس وأنت شاب فإن ذكراها ستظل معك أينما ذهبت طوال حياتك لأن باريس وليمة متنقلة. إرنست هِمنجواي. من رسالة إلى صديق عام ألف وتسعمائة وخمسين."

لكن، أليس هذا حال الغرباء في كل المدن الغريبة! ربما نعم، وربما لا. ربما تكون بعض المدن حالات خاصة. باريس، روما، لندن. برلين. نيويورك. تايبي. سول. هونج كونج. من أين لي أن أعرف، وأنا مزروع هنا في خويصة الـخصَاصة المخصوصة!

"مقهى جيد في ساحة سان ميشِل. صار الطقس رديئاً آنذاك. حدث التغير في يوم واحد فقط بعد انصراف فصل الخريف. وكان علينا أن نوصد النوافذ ليلاً في وجه المطر. وأخذت ريح صرصرٌ تعري الأشجار من أوراقها في ساحة كونتراسكارب. وتبعثرت أوراق الشجر المخضلة بالمطر. وساقت الريح المطر صوب الحافلة الخضراء الجاثمة في المحطة. وغص مقهى الهواة برواده. وُغطيت شبابيكه بالضباب نتيجة الحرارة والدخان في داخله. وهو مقهى كئيب سيء السمعة كان يتجمع فيه سكيرو الحي. وكنت أتحاشاه بسبب رائحة الأجساد القذرة ورائحة السكر

الكريهة. ويظل الرجال والنساء الذين يرتادون مقهى الهواة مخمورين طوال الوقت أو طوال الوقت الذي يستطيعون. وفي الغالب بخمر يشترونه باللتر أو نصف اللتر. وتضم قائمة مشروبات المقهى أسماء مشروبات غريبة غالية لا يتمكن من شرائها إلا قليل من الناس ليجعلوا منها أساساً لمشروبات أخرى. وُتدعى النساء المخمورات باللغة الفرنسية poivrettes."

اشتهى سامح الكمباري، أو حتى زجاجة بيرة، وهو يقرأ.

مافيش! ما باليد حيلة!

و، و، و، و. أفعال ماضية وراء أفعال ماضية. حقائق بجوار حقائق. أسلوب هِمنجواي. يلطم الحقائق بعضها ببعض. من الأوفق القول؛ وقائع بجوار وقائع، ويلطم الوقائع بعضها ببعض. الحقيقة هي الخيط المتصل الذي يربط بين الوقائع. ِجل دولوز هو أول من لفت النظر إلى هذا الأسلوب، على ما أظن! أسلوب الأدب الأمريكي. الشرف الأمريكي بلسان عماد، العاهة الأمريكية المستديمة بتاعتنا إحنا! ماذا أطلق عليه دولوز؟ نسيت! كتابة العشب! ربما كان كتابة العشب؛ لأنه ينمو مجاوراً لبعضه البعض. عكس كتابة الشجرة مثلاً، هاهاها! ويمكن أن ننساق وراء تداعي المعاني فنصف كتابة ما بأنها عنقودية مثل التنظيمات الإرهابية، هاهاها، كتابة إرهابية!

سند سامح الدفة اليمنى للكتاب بإبهامه الأيسر، وبقية أصابع

اليد تحتويه من تحت، ومد يده لمج النسكافيه الأمريكاني.

المشروب الوحيد المحترم المتوفر لنا الآن!

رشف سامح رشفة.

أصبح فاتراً الآن. أحسن درجة حرارة لتذوق المشروبات. والمأكولات أيضاً. ألكسندر في فيلم الأم والعاهرة يقول لفيرونيكا إن تذوقتي شيئاً ساخناً فإنك تتذوقين السخونة، وإن تذوقتي شيئاً بارداً فإنك تتذوقين البرودة، ولكي تتذوقي طعم الشيء نفسه فإن عليكِ أن تتذوقيه فاتراً. درجة الحرارة المثالية للذويقة. هكذا لإنك فاتر فإني مزمع أن أتقيأك من فمي. كانت في أي سفر! نسيت!

بعد ساعة.

"أنا الذي أعد نفسي شخصاً مستقيماً احتملت هذه الصديقة الزائفة الجميلة المثيرة الشريرة لأنها كانت من الممكن أن تدر علي بعض الربح."

بعد ثلاث ساعات.

"يقولون إن بذور ما ستفعل في المستقبل كامنة في كل واحد فينا ولكن يبدو لي دائماً أن هناك في الحياة من لهم بذور مغطاة بتربة أفضل ومدعومة بسماد أرقى."

مع تأذين الفجر.

"وهكذا فأنت تعيش حياتك يوماً بعد آخر وتستمتع بما لديك ولا يساورك القلق وتأخذ في الكذب وتكره ما تفعل ويدمرك ذلك الوضع ويمسي كل يوم أخطر من سابقه ولكنك تعيش من يوم لآخر كما في الحرب."

تثاءب سامح.

فعلاً! هِمنجواي يكتب من واقع تجربة حية معاشة. خبرة مش أي كلام! إنها يا عزيزي حرب الثلاث وجبات والسجائر.

طيب، ساعتان فقط، لا أكثر، كما كان ينام نابليون. لسنا أفضل منه بأي حال!

حضن سامح الكتاب، وأغمض عينيه، وتمتم:

-ُأحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

رجب

1

- كنت فاكر إن هما اللي ها يطلبوا مني أحضر المقابلة معاهم! قال رجب، باسطاً كفيه متحيراً من عدم صدق ظنه. وأكمل:

- بنتين لوحدهم وبيقابلوا بلطجي في شقتهم بالليل!

- مش كان معاهم عليرزا! قال العقيد فؤاد، بابتسامة ازدراء، وهو ينظر لرجب، وسبابته وإبهامه الأيسرين يقبضان على ذقنه.

- عليرزا! هوه سيادتك ها تحسبوا علينا راجل ولا إيه! سارع رجب بالرد بابتسامة ساخرة.

ضحك العقيد فؤاد بقهقهة ماكرة.

- طيب المهم، حمدي كاراتيه قال إيه تاني؟ استحث العقيد فؤاد رجب لإكمال تقريره.

شرع رجب في إكمال تقريره، ناظراً يمينه بانتباه للعقيد فؤاد.

قال رجب إن ما استطاع تسمعه من حجرته، لأنه لم يستطع الخروج للطرقة للتسمع من هناك، لأن عليرزا كان يروح ويجيء طيلة الوقت كأنه يشك في شيء ما، هو حكي حمدي كاراتيه لشلي وآبي عن تاريخ التحاقه بالجماعة الإسلامية في امبابة. قال حمدي كاراتيه إنه كان شقياً وبلطجياً وهو صغير، حتى ضمه الإخوة إليهم، وهداه الله، في عام ستة وثمانين، ثم ترقى بعدها بسرعة البرق في صفوف الجماعة، حتى أصبح أميراً لمسجد الهداية في امبابة في عام ثمانية وثمانين. وحكى أنه كان يدرب الإخوة على الكاراتيه، وعلى فنون الدفاع عن النفس، حتى عام اثنين وتسعين، حين دخلت قوات الأمن امبابة، وقبضوا على الشيخ جابر رئيس جمهورية امبابة. وقال حمدي كاراتيه إنه حينها هرب إلى الوراق، واختبأ هناك عند أحد أقاربه، حتى وجد له أحد الإخوة عملاً في السعودية، فسافر واشتغل مدرباً للكاراتيه للأطفال في أحد الأندية الرياضية بالرياض لمدة خمس سنوات.

وذكر أنه بعد أن ادخر مبلغاً هناك، وبعد أن شعر بأن الأمور هنا قد هدأت، عاد إلى امبابة من جديد. وبعد عدة أشهر من عودته، اتصل به أحد الإخوة، من الذين لم يقبض الأمن عليهم، وكان يعمل في تربية المواشي، وأخبره بأن هناك باحثة تعد رسالة ماجستير عن الجماعة الإسلامية في امبابة، وترغب في مقابلته، وحين وافق، أتت لزيارته في بيته، عدة مرات، وأجرت معه عدة مقابلات عن سيرته مع الجماعة. وقال حمدي كاراتيه إن اسمها أمينة بدوي. وقال إن أمينة بدوي، حين علمت برغبته

في فتح كشك للبسكويت والحاجة الساقعة، عرضت عليه أن ترتب له مقابلة مع الدكتور شرف الدين إسماعيل؛ مدير مركز ابن رشد للدراسات التنموية الذي تعمل به، وقالت إنه قادر على مساعدته؛ لأن لديه علاقات قوية بالمسؤولين.

وقال حمدي كاراتيه إنه ذهب فعلاً إلى مركز ابن رشد، وقابل الدكتور شرف الدين إسماعيل في مكتبه، وقال إنه كان شخصاً لطيفاً وظريفاً ويحب النكات. وقال حمدي كاراتيه إنه أكد للدكتور شرف الدين إسماعيل بأنه قد ترك الجماعة الإسلامية للأبد، وأنه لن يعود أبداً إلى ذلك الطريق مرة أخرى، وقال إن الدكتور شرف الدين إسماعيل قد ساعده فعلاً، واتصل بنفسه بمحافظ الجيزة، شخصياً، وأن الدكتور عبد الرحيم شحاتة قد وافق على تخصيص كشك لحمدي كاراتيه في ميدان العامل الأول بامبابة.

وقال حمدي كاراتيه إنه منذ ذلك الحين، والحمد لله، قد سارت الأحوال معه على خير ما يرام. وقال أيضاً إنه قد أضاف لكشك البسكويت عربة لسندوتشات الكبدة والسجق، ولديه الآن ثلاثة عمال يعملون عنده، في ورديات متتالية، أربع وعشرين ساعة، لأن الشغل كثير، وعربة الكبدة والسجق دائماً مزدحمة بالزبائن. وقال إنه بعد أن فتح ربنا عليه من كشك البسكويت، وعربة الكبدة، دخل في بزنس تربية المواشي لإن مكسبها ممتاز. وقال إنه الآن يملك شقتين؛ واحدة في امبابة، والأخرى في الوراق، واشترى أيضاً قطعة أرض زراعية في جزيرة الدهب، وبنى

عليها بيتاً، وتزوج، سراً، من فتاة جميلة من الجزيرة، تقيم الآن في بيته هناك، وأن زوجته الأولى لا تعرف شيئاً عن هذه الزيجة، ولا أي أحد آخر يعرف في امبابة، باستثناء أخاه الأصغر؛ وليد كاراتيه. وقال أيضاً إن أخا زوجته الجديدة يعمل معه في الكشك، دون أن يعلم أحد من العاملين معه بصلة القرابة بينهما.

ودعاهم حمدي كاراتيه لزيارته في أرضه في جزيرة الدهب، وقضاء يوم هناك من أول النهار، وقال إن الطقس، والخضرة، والجو الفلاحي، سيعجبهم كثيراً. وقال إن الكثيرين الآن من الأثرياء يشترون أراض في الجزيرة، ويقيمون عليها قصوراً تطل شرفاتها الواسعة على نهر النيل مباشرة، وأن أمام تلك القصور مراس خاصة ليخوتهم، وقال إنه في خلال سنتين، أو ثلاث سنوات، سيصبح ثمن متر الأرض هناك مائة ضعف، على الأقل. وأظن أن شلي قد علقت، بصوت خافت، على هذه النقطة وقالت شيئاً ما، لكني لم أسمع ما قالته. ورد حمدي كاراتيه بصوته العالي وقال إن الحكومة تريد الاستيلاء على أراضي الأهالي في الجزيرة، وبيعها للأغنياء، وأنها لتحقيق ذلك، تستغل مسألة أن الملكية هناك بدون أوراق رسمية موثقة في الشهر العقاري، لأن الجزيرة تكونت من طرح النيل. وقال إن الأهالي يحتجون، ويتظاهرون من وقت لآخر، لأن الحكومة ترفض توثيق ملكياتهم، وهي لذلك تستطيع طردهم من أراضيهم في أي وقت، لكنهم سيدافعون عنها بحياتهم. وقال إن كل عائلة في

الجزيرة لديها الآن أسلحة للدفاع عن نفسها وعن حقوقها، خصوصاً بعد هجوم الأغنياء على الجزيرة وسعيهم لامتلاكها. وقال إنه متأكد أن مجزرة رهيبة ستقع هناك، إن حاول الأمن التدخل بالقوة لصالح الأغنياء، وعندها علقت شلي بشيء آخر، لم أسمعه لأن صوتها كان منخفضاً، وضحك حمدي كاراتيه وقال إن الأمن عندنا طول عمره غبي وبيتصرف بغباء.

وسمعت آبي تسأل حمدي كاراتيه إن كان زواجه الجديد من الفتاة الجميلة هو زواج رسمي، أم لا؟ وضحك حمدي، ضحكة خافتة بدا من صوتها وكأنه محرج قليلاً، ورد قائلاً إنه زواج عرفي. وسألت آبي عن عمر زوجته الجديدة، فقال حمدي كاراتيه إنها بلغت، ويمكن أن يكون عمرها ستة عشر، أو سبعة عشر عاماً، لكنهم لا يعرفون على وجه التحديد، لأنها بلا شهادة ميلاد. وسألت آبي إن كانوا قد كتبوا ورقة بالزواج العرفي، أم لا؟ ورد حمدي كاراتيه بأنهم لم يكتبوا أية أوراق، ولكن كان هناك فرح صغير، وعند الفلاحين؛ الفرح هو الإشهار، وهو أهم من أية أوراق، وأن الجميع في الجزيرة يعرفون بأنها زوجته على سنة الله ورسوله، وأنهم هكذا كانوا يتزوجون زمان في الإسلام. وعلقت آبي وقالت إن الفتاة بهذا الوضع لن يكون لها أي حقوق في حالة الطلاق، وضحك حمدي كاراتيه وقال يا شيخة تفي من بقك فال الله ولا فالك، إن شاء الله ربنا مش ها يجيب حاجة وحشة.

وسألت شلي عن شيء، لم أسمعه لأن صوتها كان لايزال

منخفضاً، ورد حمدي كاراتيه وقال نعم كل الإخوة تزوجوا بهذه الطريقة؛ لأنهم لا يعترفون بورق الحكومة، لأنها حكومة كافرة. وقال إن المسألة كانت بسيطة للغاية أيام جمهورية امبابة والشيخ جابر، وكان الزواج مجرد طلب، وقبول، وإشهار. وسألت آبي إن كانت زوجات أعضاء الجماعة المسجونين لديهن أية أوراق تثبت زواجهن، ورد حمدي كاراتيه وقال في الغالب لا. وسألت آبي إن كان لدى أطفالهن شهادات ميلاد، أو أية أوراق رسمية، ورد حمدي كاراتيه وقال في الغالب لا. وسألت آبي وكيف يدخلون المدارس؟ وأجاب حمدي كاراتيه قائلاً إن بعض الأطفال يذهبون لمدارس تكون تحت إشراف واحد من الإخوة الذين فتح الله عليهم وفتحوا مدارس خاصة. وسألت شلي سؤال لم أسمعه، وسمعت صمتاً لبضع لحظات، ثم أجاب حمدي كاراتيه، بصوت أخفض قليلاً من صوته العادي، وبدا صوته كالمتردد وهو يقول إنه قد يتمكن من ترتيب لقاء مع الحاج مصطفى دياب مدير مدرسة الاستقامة بالوراق، لكن الأمر يحتاج لبعض الوقت، لأن الحاج مصطفى دياب رجل مشغول جداً وأعماله كثيرة. ثم علا صوته، وأخذ يشرح متفاخراً لشلي، وآبي، وعليرزا، كيف أن الحاج مصطفى دياب، وإلى جانب امتلاكه لمدرسة الاستقامة الابتدائية الخاصة، فهو يملك أكبر مزرعة مواشي في الوراق، ومصنعاً للملابس الجاهزة، وأكبر محلات لبيع المفروشات والأدوات الكهربائية في شارع الوحدة بامبابة. وعلقت شلي بشيء، لم أسمعه، ولكنني استطعت تمييز اسم سدرك في كلامها، ورد حمدي كاراتيه، بصوت غاضب، قائلاً لا لم آخذه إلى الحاج

مصطفى دياب، ولن آخذه مطلقاً لا إلى الحاج مصطفى دياب، ولا لأي أخ آخر من الإخوة، لأن سدرك شخص معفن وكذاب.

- سدرك إني؟! سأل العقيد فؤاد باهتمام.

- أيوه حضرتك سدرك إني. أجاب رجب هازاً رأسه، ومؤكداً بفتح عينيه عن آخرهما. ثم أكمل تقريره بحماسة أكبر.

قال حمدي كاراتيه، بصوت غاضب، إن أمينة بدوي جاءته يوماً إلى الكشك في امبابة ومعها سدرك إني، وطلبت منه مساعدته، وقالت له إن هذه هي رغبة الدكتور شرف الدين إسماعيل. وقال إن أمينة بدوي أخبرته بأن سدرك إني يحتاج لدخول امبابة والوراق، والتعرف على الإخوة الموجودين هناك، وإجراء مقابلات معهم، لأنه يعد رسالة دكتوراه عن الجماعات الإسلامية في امبابة. ووجه حمدي كاراتيه الكلام، بصوت مستاء جداً، إلى شلي وقال لها تصدقي يا أستاذة شلي، إنه كان كل يوم قاعد متلقح عندي زي الكلب قدام الكشك مستنني أفضى من الشغل، عشان آخده أوديه أي حتة، أو أعرفه على أي حد في امبابة، لانه كان ما يعرفش أي حد، ولا أي حاجة، ولا حد راضي أصلاً يتكلم معاه، وكانت الناس مستغربة منه، وبيعاملوه على إنه واحد خواجة تايه! دي حتى المعلومات اللي عنده عن الإخوة كانت كلها غلط! معلومات خواجاتي! وضحك حمدي كاراتيه وقال لا مؤاخذه يا أستاذة شلي، أنا قصدي يعني معلومات غلط مالهاش أي أساس! ثم قال بصوت أعلى، تعرفوا إن سدرك

ده عيل معفن جداً، ونتن! تصوروا إنه كان بياكل الطعمية البايتة اللي الشحات نفسه يقرف ياكلها! وكانت ريحة شراباته والعياذ بالله أوف حاجة تقرف! والغريب إنهم بيضربوا المثل بالنظافة السويسري! سبحان الله!

وضحك رجب، وابتسم بازدراء، وهو يهز رأسه للعقيد فؤاد.

- الواد حمدي كاراتيه عنده حق فعلاً يا افندم! أنا مرة كنت ها رَجّع وأنا قاعد جنب سدرك من ريحته المقرفة! قال رجب، وضحك.

- أيوه عارفه، ها ها هه! بس برضه ما تنخدعش بالوساخة دي، ساعات الوساخة عند اللي زي دول بتبقى وسيلة مش أكتر، أداة من الأدوات. علق العقيد فؤاد.

- إزاي يعني سيادتك؟! سأل رجب بفضول.

- يعني، بتساعد في الشغل، عموماً قدام شوية ها تفهم، إنت لسه بدري على المرحلة دي. قال العقيد فؤاد بحزم.

هز رجب رأسه عمودياً مرتين بسرعة، بالرغم من أنه تحير ولم يفهم. واستأنف تلاوة تقريره.

قال حمدي كاراتيه إن سدرك وعده بأن يأخذه معه إلى سويسرا للفسحة في أول فرصة. وقال إنه لم يكن يأخذ من سدرك

أية نقود، بالرغم من أن المشاوير التي كان يصطحبه فيها لمقابلة الإخوة في امبابة والوراق كانت تعطله عن أشغاله وتقف عليه بالخسارة. وقال أيضاً إن مصاريف المواصلات نفسها كان هو الذي يدفعها من جيبه، لأن سدرك يستعبط دائماً عندما يحين دفع الحساب، لدرجة أنه كان يفضل المشي ساعة كاملة حتى لا يضطر لدفع أجرة ميكروباص. وقال إن سدرك ظل ملازماً له كظله في كل مكان لمدة ستة أو سبعة أشهر، سافر خلالها سراً إلى أهله في سويسرا، ثم عاد لمصر، وعندما علم حمدي كاراتيه، ولامه لسفره سراً دون أن يأخذه معه، كما وعده من قبل، قال له سدرك بإنه كان عليه أولاً أن يناقش الأمر مع أبيه، هناك في سويسرا، ثم قال له إن أباه قد رفض مبدأ استضافة أي مصريين في بيته، واعتذر له، متعللاً بأن أباه رجل عجوز عصبي ومتزمت. وقال حمدي كاراتيه، بصوت غاضب، إن سدرك تملص من وعده، وحاول تصوير الأمر وكأنه على خلاف مع أبيه، وأنه لا يملك إلا أن يطيع أباه برغم هذا الخلاف، لأنه لا يمكنه التصرف ضد مشيئته، ثم اعتذر في النهاية عن مسألة أخذه معه إلى سويسرا في الوقت الحالي، إلى أن يستطيع تغيير رأي أبيه في مسألة استضافة مصريين في بيته.

وقال حمدي كاراتيه إنه طلب من سدرك، بعد هذه الواقعة، أن يحضر له على الأقل بدلة كاراتيه من سويسرا. وقال إنه وعده بإحضارها، لكنه، حتى هذه اللحظة، لم يحضر أي شيء. وقال إنه في آخر مقابلة معه طالبه غاضباً بتنفيذ وعده بشأن البدلة،

فرد سدرك وقال إنه قد سأل بالفعل عنها في سويسرا، فوجدها غالية جداً، وإنه سوف يطلب من أحد أصدقائه في السفارة الألمانية شراءها من ألمانيا، لأنها أرخص هناك. وقال حمدي كاراتيه إن سدرك قد اختفى من امبابة تماماً بعد ذلك، ولم يعد يره منذ ذلك الحين.

- وحمدي كاراتيه قال إمتى شاف سدرك إني آخر مرة؟ سأل العقيد فؤاد.

رد رجب وقال إن حمدي كاراتيه لم يذكر متى رأى سدرك إني آخر مرة، ولكن بالتأكيد كان ذلك منذ أكثر من عام، لأن آبي قالت لحمدي كاراتيه إن سدرك موجود في القاهرة منذ سنة تقريباً، فقال لها حمدي كاراتيه بإنه يعرف ذلك فعلاً، لأنه قد سأل الأستاذة أمينة بدوي وقالت بإن سدرك موجود بالفعل في القاهرة، وإنه قد انتهى من مناقشة رسالة الدكتوراه في فرنسا، في جامعة اسمها الصابون، وهنا ضحكوا جميعاً، وصحح له عليرزا اسم الجامعة وقال إن اسمها السربون، وضحك حمدي كاراتيه وقال أيوه هي دي! ثم أكمل وقال إن أمينة بدوي أخبرته بأن سدرك قد حصل على الدكتوراه بامتياز، وأنه قد نشر الرسالة في كتاب، وحصل من ذلك على مبلغ كبير. وقالت له أمينة بدوي أيضاً بإنها قد قرأت رسالة دكتوراه سدرك، ولم تجد اسمه مذكوراً في الرسالة، وليس فيها أية إشارة شكر، لا من قريب ولا من بعيد، لأي من المصريين الذين ساعدوه في امبابة، بل بالعكس، فهو قد ذكر الإخوة الذين قابلهم في امبابة بالسوء. وقال حمدي كاراتيه

إنه قد أخبر جميع الإخوة بذلك، وقال إنهم في انتظار أن تطأ قدم سدرك إني أرض امبابة،حتى يعملوا معه الواجب الصح، ويعلموه الأدب الذي فشل أبوه النتن في تعليمه إياه، وقال، وكان صوته غاضباً، إنه قد أقسم بأن يحشر إصبعه في است سدرك القذر عندما يراه، وضحك الجميع، لكنني لم أسمع صوت حمدي كاراتيه يضحك.

وبعد أن سكت الضحك، قال لهم حمدي كاراتيه إن سدرك شخص وسخ جداً، وليس محترماً كما يحاول أن يظهر أمام الجميع، وأن كل هذا تمثيل في تمثيل. وقال إنه لما أخبره بأن بعضاً من زوجات الإخوة المسجونين يستقبلن في بيوتهن رجالاً من أهالي المنطقة مقابل المال، لأنهن في أمس الحاجة إلى النقود، طلب منه سدرك أن يأخذه إلى بيت إحداهن، لإنه يرغب في تجربة النوم مع زوجة لأحد الإخوة. وقال حمدي كاراتيه إنه رفض ذلك، وقال له إن رجال المنطقة يمكنهم فعل ذلك، ولكنه أجنبي، ومسيحي، ولا يمكنه النوم مع زوجة لأحد الإخوة. وقال حمدي كاراتيه بأنه أخبر سدرك، حتى لا يفتح معه موضوع الحريم مرة أخرى، بأنه إذا أراد أن يكمل شغله في امبابة على خير، ويستكمل أبحاث الدكتوراه، فإنه يجب عليه حين يدخل امبابة أن يترك إيره خارج امبابة.

- دي أهم نصيحة لأي باحث اجتماعي على فكرة! قال العقيد فؤاد.

ثم سحب ورقة إيه فور، من فوق رزمة كبيرة بيضاء من ورق الإيه فور، من على يمينه، والتقط قلم حبر جاف أسود، من مج سيراميكي أبيض بعروة أمامه مليء بالأقلام. وراح يدون ملاحظة. ثم وضع القلم على الورقة أمامه، كمن يتوقع كتابة أشياء أخرى.

- وبالمناسبة، وأهم نصيحة لأي مباحث برضه، هه هه ها! قهقه العقيد فؤاد وهو يبتسم لرجب.

ضحك رجب، وهو يعلم أن ضحك العقيد فؤاد جد، وأنه وسيلة لتمرير معلومة مهمة إليه.

- إنت عارف إيه الفرق بين الباحث والمباحث؟ سأل العقيد فؤاد رجب وهو يبتسم.

- إيه يا باشا؟! استفسر رجب بابتسامة.

- حرف الميم. قال العقيد فؤاد، وهو يرفع رأسه وحاجبيه لأعلى مؤكداً.

- يعني سيادتك أنا باحث، هه هه هه! قال رجب، وقهقه.

ثم ندم على تسرع لسانه.

علينا بعد الآن أن لا ننساق وراء أول رد فعل. خلي أول رد فعل يعدي وخد اللي بعده، ما تسبش نفسك على راحتها! الحاجات

دي ممكن تورّط، ويا ما ورّط اللسان يا ما ورّط!

- طبعاً أمال إيه! رد العقيد فؤاد، مؤكداً بجدية، وبحاجبين مقطبين.

طيب الحمد لله إنه ما زعلش! فعلاً والله، أنا باحث. مش أقل من أي حد فيهم. بل يمكن أحسن حتى!

- إحنا الاتنين بنستخدم نفس الأدوات والمناهج، بس إحنا باحثين قطاع عام، وهما باحثين قطاع خاص، إحنا باحثين بنشتغل في الدولة، مش فاتحين دكاكين أبحاث نسترزق منها وناكل عيش! قال العقيد فؤاد.

هز رجب رأسه. اعتدل أكثر في جلسته، وصلب ظهره وأبعده عن مسند الكرسي، وقد اجتاحه شعور بأهمية الحديث.

- إنت شفتني قبل كده عمري شيلت سلاح؟! سأل العقيد فؤاد رجب.

- لا يا باشا، أبداً! سارع رجب بالتأكيد وهو يهز رأسه.

- ليه بقى؟! لإن سلاحي هنا مش هنا! وأشار العقيد فؤاد بسبابته اليمنى أولاً إلى رأسه، ثم إلى مكان ما في جانبه الأيسر مختف وراء المكتب.

وأمسك بالقلم بين أطراف أصابعه اليمنى، وأكمل:

- إحنا يا ابني إدارة أبحاث، مش إدارة أسلحة وذخائر! مش شلي وآبي وعليرزا شغالين في مؤسسة راند، اللي بيقولوا عليها دماغ الإدارة الأمريكية! ماشي، إحنا برضه هنا المخ بتاع الدولة.

وراح العقيد فؤاد يرسم بعض الخطوط المستقيمة والمتقاطعة على الورقة، وهو ينظر إليها ويكمل كلامه لرجب:

- دولة مخها فاهم، غير دولة مخها جاهل، دولة مخها ذكي، غير دولة مخها ساذج وغبي، فاهم! سأل العقيد فؤاد رجب من باب التوكيد، لا من باب الاستفهام. ووضع القلم على الورقة أمامه، والتفت يساراً لرجب.

- أيوه يا فندم فاهم سيادتك. أكد رجب بسرعة بهزة من رأسه.

واجتاحته الحماسة لاستكمال تلاوة تقريره البحثي، وتمنى أن يوفق في ذلك على نحو ممتاز يبهر العقيد فؤاد، ويؤكد له مدى ذكاء وذاكرة واستذكار تلميذه.

قال رجب إنه بعد انصراف حمدي كاراتيه، وحين دخلت مع آبي حجرتنا، حكت شيئين بخصوص ما ذكره حمدي كاراتيه عن وساخة الولد سدرك إني، وقد أكدت آبي، بشدة، أن أعتبرهما سراً لا أبوح بهما لأحد، وأكدت على ذلك أكثر من مرة قبل أن ترويهما، قائلة توب سيكرت رجب بليز توب سيكرت. وأعتقد أن آبي، وقتها، كانت مغتاظة جداً، وكانت تحاول إثبات أن

سدرك شخص وضيع ومنحط فعلاً، وأن حمدي كاراتيه لم يكن يتجنى عليه أو يبالغ.

الموضوع الأول الذي حكته؛ أن أمينة بدوي قد أخبرتها، منذ فترة، بأن السبب الحقيقي لانفصالها عن سدرك إني هو أنه كان يضربها. وقالت أمينة بدوي لآبي إن سدرك شخص سافل، برغم أنه يتباهى أمام الجميع بأنه كاثوليكي محافظ، وأن أخلاقه الكاثوليكية تمنعه من كيت وكيت، لكنه في الحقيقة، وفي الخفاء، نسوانجي يشارك ماركو الطلياني، مراسل الإذاعة السويسرية في القاهرة، والذي يقيم معه في شقة الزمالك، في الفتيات المصريات، والأجنبيات، اللاتي يلتقطهن ماركو الطلياني من بارات الزمالك والمهندسين، ويأتي بهن إلى الشقة ليلاً. وقالت أمينة بدوي لآبي إن سدرك كان يتفاخر أمامها كثيراً بموهبة ماركو الطلياني في التقاط أجمل فتيات القاهرة، وإحضارهن إلى الشقة، وأن المصريات منهن، وكلهن من بنات العائلات، ينجذبن لماركو الطلياني كأنه مغناطيس، بالرغم من أنه ليس وسيماً، لكنهن يحببن كونه طلياني، ومذيع، وكاتب روايات. وقالت أمينة بدوي لآبي أيضاً بإنها أصبحت تقرف من سدرك، ليس لأنه يضرب البنات فقط، ولكن أيضاً لأنه شخص بخيل جداً، ونتن جداً على مستوى النظافة الشخصية، وإنها لا تريد أن تراه مطلقاً، ولا أن يجمعهما أي مكان مشترك بعد الآن على الإطلاق.

والموضوع الثاني، الذي أكدت آبي أن يظل هو الآخر في طي الكتمان، وتوب سيكرت رجب بليز توب سيكرت، أنها قد

علمت من مارتن جولدمن، صديقها هي وشلي، والذي يعمل في السفارة الأمريكية، ويتوسط لنا في جلب ما نحتاجه من تموين من قبو السفارة، بحكم أن القبو يتولى مسؤوليته صديقه داني ليفن، أن سدرك إني قد ذهب الأسبوع الماضي سراً إلى مشيخة الأزهر، وأشهر إسلامه.

ابتسم رجب، في حماسة، ابتسامة انتصار، وهو يراقب رد فعل العقيد فؤاد على هذه المعلومة المهمة. لم تتغير ملامح العقيد فؤاد، ولم تلتقط أصابعه القلم ليسجل هذه المعلومة على الورقة أمامه.

- هوه سيادتك كنت عارف يا افندم؟! تساءل رجب بدهشة.

- أيوه، إحنا رصدنا الموضوع ده، بس المهم كمل، آبي قالت إيه كمان؟ رد العقيد فؤاد بحزم.

قال رجب، بانتباه وجدية أكثر، وقد اعتدل في جلسته مجدداً، بعد أن غافله جسده وأخذ وضع راحة، فأقام ظهره، وأبعده عن ظهر الكرسي المبطن بالجلد البني، وقبضت أصابعه اليسرى على حافة المكتب الخشبي الزان الأنيق للعقيد فؤاد:

- آبي قالت إن مارتن جولدمن قالها إن سدرك أشهر إسلامه عشان يخطب بنت الدكتور صفوت عبد العال.

- صفوت عبد العال بقى دكتور هه هه ها! قاطع العقيد فؤاد

سرد رجب.

- ما هوّ اللي مسمي نفسه كده يا افندم! أجاب رجب مدافعاً عن نفسه.

- يا ابني ده ولا دكتور ولاعمره ها يبقى دكتور! ده أصلاً ماعوش الماجستير! ولا حتى كمل تعليمه الجامعي من أساسه! ما علينا، كمل يا ابني! قال العقيد فؤاد باستياء.

قال رجب، مصححاً خطأه، إن آبي قالت إن مارتن جولدمن قال لها إن إشهار سدرك إني لإسلامه كان بسبب أنه قد تقدم لخطبة ابنة صفوت عبد العال، وأن صفوت عبد العال قد اشترط عليه أن يُشهر إسلامه أولاً، قبل أن يفاتح أم البنت في الموضوع. وقال مارتن جولدمن لآبي إن سدرك أصبح في الفترة الأخيرة يحاول التقرب بأي شكل من صفوت عبد العال، وأنه يزوره كثيراً في مكتبه.

- على ما أتذكر يا افندم المكتب بتاعه اسمه المركز المصري للدراسات الإسلامية. قال رجب.

وانتظر التصحيح من العقيد فؤاد، الذي أبدت هزة رأسية فورية من دماغه معلومة رجب، فعرف أنه قد نطق اسم المركز على نحو صحيح، وقد خاف، لثانية، أن يكون قد وقع في نفس الخطأ اللغوي الذي وقع فيه حمدي كاراتيه، والذي جلب له سخرية الجميع.

الحمد لله الذاكرة زي الفل!

أكمل رجب، وقال إن آبي تقول إن الموضوع موضوع مصلحة من أوله لآخره، وإن سدرك يريد استغلال صفوت عبد العال، والاستفادة من مصادره ومعارفه من الإسلاميين.

- وبعدين قالت في الآخر حاجة يا افندم، وسكتت كإنها ندمت على اللي قالته! قال رجب. وانتظر أن يحثه العقيد فؤاد على قول ما قالته آبي. ولما وجد العقيد فؤاد صامتاً وينظر إليه بعينين لا ترمشان، قال:

- قالت يا افندم إن ده شغل مؤسسات مش شغل أفراد.

- آبي قالت كده! سأل العقيد فؤاد باستنكار، لا باستفهام.

- أيوه سيادتك قالت كده بالحرف الواحد! رد رجب بسرعة.

ثم أحب أن يؤكد، فقال مرة أخرى:

- قالت إن اللي بيعمله سدرك ده شغل مؤسسات مش شغل أفراد، وبعدين سكتت، وحاولت بعدها تغير الموضوع.

- عموماً أنا كنت ها اكلمك في الموضوع ده برضه، كنت ها اوصيك تحذَّر من سدرك لإن الولد ده خطير فعلاً، وانت لسه مش جاهز إنك تلاعب النوعية دي، لسه ما أنش أوان الرقص مع الذئاب، هه هه هه! قهقه العقيد فؤاد واهتز صدره مع القهقهة.

ثم أكمل بجدية:

- يعني! إن اتقابلتوا صدفة في أي حتة أو في أي مناسبة تعامله عادي يعني، فاهم إزاي، معاملة عادية، بس بقدر الإمكان تتجنب إنه يحاول يصاحبك أو يقرب منك، وفي نفس الوقت برضه ما تبينش إطلاقاً إنك قرفان منه مثلاً أو مشمئز، وبرضه بلاش التعالي عليه، واخد بالك، ما تحسسوش كإنك عارف عنه حاجة مشينة أو تكسف أو كده، تمام! قال العقيد فؤاد بجدية مدرس حريص على مصلحة تلميذه النجيب.

- تمام يا افندم. رد رجب، ورأسه يومئ مرتين متتاليتين.

وربما لغرض التباسط في الحديث مع تلميذ شاطر، وإكسابه مزيداً من الثقة بنفسه، وبمعلمه. أو لسبب آخر. قرر العقيد فؤاد شرح أمر ما لرجب. فقال:

- صفوت عبد العال أصلاً ما كملش تعليمه الجامعي، وصل لسنة تالتة في كلية الآداب في جامعة المنيا وبعدين انقطع عن الدراسة، وكان من وهوّ صغير شقي وبتاع حريم وبتاع مشاكل! صفوت عبد العال ده يا ابني كان على وشك إنه ينضم للجماعة الإسلامية في المنيا! إنت عارف إن محمد عبد السلام فرج كان زميله في المدرسة، وكان جاره كمان، ده يا ابني كان الأنتيم بتاعه وهما صغيرين!

- معقولة يا افندم! قال رجب، وقد تفاجئ بالفعل.

استرسل العقيد فؤاد، شارحاً لرجب أن الأمور كانت خطيرة بالفعل، لأن صفوت عبد العال كان يصاحب الإرهابيين، والأشقياء، والمجرمين، في المنيا، وكان مبهوراً بهم، وبحياتهم الخطرة. لكن أحد الشيوعيين في المنيا سبق الجماعات الإسلامية، وجنده هناك، ثم أرسله للقاهرة، لكي يبعده عن الجماعات، وهكذا ضموه لحزب التجمع، وكلفوه بالعمل كمراسل لجريدة الأهالي في وزارة الداخلية، ثم ساعده الحزب، بعد ذلك، ورتب أمر سفره إلى روسيا لاستكمال دراسته هناك. لكن صفوت عبد العال أمضى عامي الدراسة في روسيا في العربدة والسكر، ولم يحصل على أية شهادة، وعاد لمصر خائباً. ثم بدأ في استغلال علاقاته القديمة بأصدقاء الطفولة من أعضاء الجماعات الإرهابية الهاربين من تنفيذ أحكام السجن والإعدام، وراح يجري معهم مقابلات سرية، في أوكارهم في جبال وكهوف الصعيد، وينشرها حصرياً في جريدة الأهالي، حتى ذاع صيته. ثم جمع هذه المقالات ونشرها في كتاب، كتب على غلافه الدكتور صفوت عبد العال، ولم يعترض يومها أحد، فصار، منذ ذلك الحين، ينشر كتبه باسم الدكتور صفوت عبد العال، مدعياً حصوله على الدكتوراه في الصحافة والإعلام من جامعة موسكو.

- وسدرك إني فاكر إنه دكتور فعلاً! قال رجب وهو يضحك.

- الطيور على أشكالها تقع! الاتنين أوسخ من بعض، أوروبا بتبعت لنا كناستها! والأمريكان بيبعتوا لنا كناستهم! قال العقيد فؤاد ممتعضاً.

- وسيادتك تفتكر إنه فعلاً ها يتجوز بنت صفوت عبد العال؟ سأل رجب بحب استطلاع.

- لأ طبعاً مستحيل! ممكن الموضوع يقتصر بس على خطوبة، لغاية ما ياخد اللي هوّ عايزه من صفوت عبد العال، وبعدين ها يفتعل أي سبب ويفركش الموضوع. قال العقيد فؤاد بثقة.

- هه هه هاااا! بابا كاتوليكي متعصب! بابا رافض الجواز من مسلمة! قال رجب، وقد سمح لنفسه بالضحك.

ابتسم العقيد فؤاد، مما شجع رجب على الزيادة.

- أمال بابا لو عرف إن ابنه أسلم ها يعمل إيه؟! قال رجب وهو يضحك.

- إنت متأكد إن فيه بابا أصلاً؟! قال العقيد فؤاد، وضحك.

انفجر رجب بالضحك، وقال وضحكه يجلجل:

- عالم وسخة والله العظيم!

من طرقة الشقة المواجهة لعيني لرجب، دخلت غادة ابنة العقيد فؤاد، ذات الأربع سنوات، تتقافز، وتجري نحو أبيها، وفي أعقابها دخلت مدام سالي زوجة العقيد فؤاد، تتبعها، متأخرة عنها بخطوة، سيدة الخادمة، حاملة صينية فضية؛ عليها كوب عصير

جريب فروت للعقيد فؤاد، وفنجان قهوة سكر زيادة لرجب، وكوبي ماء. رفعت غادة حبيبة بابا يديها في الهواء عالياً طالبة من أبيها أن يحملها ويُجلسها على ركبتيه، وفعل العقيد فؤاد، فوراً، وهو يضحك، ويلاطف طفلته الصغيرة.

روح بابا. يحبها كثيراً. يعشقها. البنت حلوة الحقيقة، ودمها خفيف! لكنه لا يتخلى عن هيبته في حضوري. هل يا ترى مثله يركع على أربع لتركب حبيبة قلبه على ظهره؟ منظر يستحق الفرجة!

نهض رجب واقفاً باحترام، ومد يده للسلام على مدام سالي، ولاحت منه نظرة خاطفة إلى فتحة صدر جلابية سيدة الخادمة.

أكيد كانت منهمكة في تنظيف الغرف بالداخل، فنسيت إغلاق صدر الجلابية! العرق يغطي صدرها، ولو لم يكن ثدياها صغيرين جداً لبانت فلقتهما. ثلاثينية، وعود! مثلها يمتعن الرجال في السرير. كرباج! عدد كبير من الخادمات اسمهن سيدة. يطلقون أيضاً على أحقر اللوكندات اسم لوكاندة الأمراء! هل إطلاق اسم سيدة على مولودة يحدد مصيرها؟

لاحظت عينا رجب أن عيني مدام سالي ضبطته متلبساً بالبحلقة في صدر سيدة الخادمة، فلم نظره بسرعة.

من المؤكد أن الست ستعنف خادمتها، حين تستفرد بها، وتأمرها بغلق أزرار الجلابية.

قال رجب لمدام سالي، بينما سيدة الخادمة تضع ما على الصينية الفضية على مكتب العقيد فؤاد، وعلى الطاولة الخشبية المستديرة أمامه:

- مساء الخير يا مدام سالي، إزي حضرتك؟ ومد يمناه بالسلام.

- أهلاً إزيك. ردت مدام سالي، وهي تقدم له طرفي إصبعين، مع نظرة احتقار صريحة.

أكيد تقصدها. ليه بس كده يا مدام سالي! والله العظيم يا ما فشخت اللي أجمل منك! واللي أغنى منك وحياتك! معلش، لاجل الورد ينسقي العليق.

انسحبت سيدة الخادمة، واختفت في الطرقة. جلس رجب، ووضع ساقاً على الأخرى؛ وضع اليمنى على اليسرى. تناول فنجان قهوته من على الطاولة أمامه، مريحاً الطبق على راحته اليسرى. أفرغه حتى ثمالته في رشفتين. أتبعهما بنصف كوب الماء الموضوع على الطاولة الخشبية المستديرة أمامه.

رأيت مرة عواد سائق العقيد فؤاد يغمز لها بعينه، من وراء ظهر العقيد فؤاد! وهي أخذت بالها أنني أخذت بالي. أكيد تحقد عليّ من يومها. من يومها غيرت معاملتها لي مائة وثمانين درجة. طبعاً! ضبطها متلبسة بغمزة عين السائق! خسارة! هذا الجمال، ومن عائلة، وزوجها شخصية بهذه الأهمية، وتنام تحت

السائق! أكيد غاوية! لا أمان لهن، هذا ما نتعلمه كل يوم من مصاحبتهن.

اسكندرانية حلوة، مدملكة، بوجه كالبدر، وجسد أبيض طري. يا حلاوة مؤخرتها عند النظر إليها من الخلف وهي تمشي! ملبن! يا سلام لو ارتدت بنطلون سترتش فاتح، بدلاً من هذا الأسود الذي ترتديه لستر الكنوز! ساعتها كل شيء يظهر ويبان!

الاسكندرانيات أساتذة في الاعتناء بجمالهن. ومكياجهن. أكبر تجارة رابحة في الاسكندرية. تجارة الجمال. البيوتي سنترز هناك بالمئات. ميناء. ومدينة سياحية في نفس الوقت. يعني الطلب على الحريم دُبل! أكثر بلد فيها مومسات. أحلى مومسات الاسكندرانيات. وأقساهن أيضاً! ماديات جداً. وبلهاوات مع ذلك! والعينة بينة! سالي وسائق زوجها! يعتنين بأجسادهن، لكن المخ فاضي. شيء على حساب شيء. أسهل من تستطيع بلفه من الحريم، بقليل من الشطارة. ينفقن جيداً على ذكورهن.

لكن رائحتهن سيئة من تحت. ربما من أكل السمك. أو من الرطوبة العالية بالمدينة. يضطررن للإنفاق كثيراً على مزيلات الرائحة، ودهانات الفروج العطرية.

غادة حبيبة بابا، روح قلب بابا، على ركبتي بابا، تعبث في مكتب بابا.

تناولت غادة القلم النائم على ورقة الملاحظات، وراحت

تشخبط عليها.

آه لو تعلمين ماذا كتب بابا في هذه الورقة! تشخبطين يا حلوة في مصائر ناس! لو كنا في الشتاء، لكنت حملت في جيب الجاكت قطعة شوكولاته مارس أمريكاني من قبو السفارة الأمريكية، وأعطيتها لغادة. لكن في هذا الحر، مستحيل أن يحمل إنسان شوكولاته في جيوب بنطلونه! ومن غير اللائق طبعاً أن أدخل بيت العقيد فؤاد وفي يدي علبة شوكولاته! حتى ولو كانت سويسرية. أو بلجيكية. ليست الرؤوس متساوية حتى أهاديه. كيف أهاديه ولسنا ندين! سيعتبرها تطاولاً، وقلة تمييز. الواد نسي روحه وداخل لي بعلبة شوكلاته!

حركة واحدة خطأ قد تتسبب في كراهية. أو حتى عقاب. أصحاب المناصب الحساسة مشاعرهم حساسة. حتى لو كنا في الشتاء، من الأفضل أن لا أحضر لها شوكولاته. ثم افرض أنني أخرجت القطعة من جيبي وناولتها لها، ورفضت مدام سالي، وقالت لا، نحن لا نحب أن نعطيها المزيد من السكريات! إذا كانت تحتقرني فلن تسمح لابنتها بأخذ شوكولاته مني. ليكي يوم يا بنت الكلب، اللي قبلينا قالوا الصبر جميل!

ظلت مدام سالي واقفة، وتناولت الريموت كنترول من على مكتب العقيد فؤاد، وراحت تقلب في قنوات تلفزيون البلازما السوني الصامت، الذي كان مضبوطاً على قناة الجزيرة الإخبارية؛ صورة فقط بدون صوت، وكانت القناة تذيع تقريراً

عن تولي برويز مشرف رئاسة باكستان. غيرت مدام سالي، إلى قناة كانت تعرض أهداف مباراة مصر والأرجنتين في بوينس آيرس، التي هُزم فيها المنتخب المصري بسبعة أهداف مقابل هدف واحد، بقيادة المدرب شوقي غريب، في الدور الأول لنهائيات كأس العالم للشباب بالأرجنتين، وبدا الامتعاض على وجه العقيد فؤاد وهو يشاهد إعادة عرض الأهداف. استمرت مدام سالي في تقليب القنوات، وبدا كما لو أنها تبحث عن شيء معين بالذات، فمرت على قناة تذيع تقريراً عن تنفيذ حكم الإعدام بالحقنة الكيماوية السامة بسجن إنديانا الفيدرالي، في الإرهابي الأمريكي الكاثوليكي تيموثي ماكفاي، الرقيب في سلاح المشاة بالجيش الأمريكي، والذي شارك في حرب تحرير الكويت من الغزو العراقي، ثم قام، فيما بعد، بتفجير مبنى في ُأكلاهوما، أسفر عن مقتل مائة وثمانية وستين رجلاً وامرأة وطفلاً. ثم وصلت مدام سالي، أخيراً، إلى ما كانت تبحث عنه؛ لقاء مع سمير صبري الممثل، على القناة الفضائية المصرية، حول تفسيره للغز موت سعاد حسني.

شاهدتُ البرنامج بالفعل، أمس، مع آبي!

بدت مدام سالي متحمسة وهي تنظر للعقيد فؤاد، كمن تستجدي انتباهه، وقالت:

- الإعادة آهه!

والتفتت ناحية شاشة التلفزيون، ورفعت من صوته. ثم نظرت للعقيد فؤاد مجدداً، ويمناها الممسكة بالريموت كنترول تشير إلى الشاشة، وقالت:

- سمير صبري بيقول إنها مانتحرتش، بيقول إنها اتقتلت بفعل فاعل!

- بس تقرير الطبيب الشرعي الانجليزي بيقول إنه انتحار. رد العقيد فؤاد ببطء وثقة.

- سمير صبري بيقول إنها اتقتلت، وإن فيه حد رماها من البلكونة، عشان كانت مصممة تكتب مذكراتها! قالت مدام سالي مقطبة حاجبيها في أسى.

جميلة وهيّ غضبانة! يا بخت اللي ينط عليكي دلوقتي!

تابعت الأربعة وجوه سمير صبري في التلفزيون وهو يقول إنه يجهز لرحلة إلى لندن، ليجري تحقيقاً تلفزيونياً هناك حول مقتل سعاد حسني، ويلتقي بجيرانها في الشقة، وأطبائها الذين عالجوها من الحالة النفسية والبدانة في مصحة لندن، وبعض أصدقائها الآخرين في إنجلترا.

خلاص، خلتوه مقتلها، مش وفاتها! أنت ممثل، مالك أنت ومال التحقيقات! ماذا تعرف أنت عن التحقيقات! هيّ أي حاجة في رغيف وخلاص!

اشتغل فترة مذيع في برامج خفيفة. سوقه وقف في السينما! الممثل إن كبر بقى مذيع! والمومس إن تابت، هه هه هااا!

آبي، أيضاً، بدت مهتمة بالأمس بالحادثة، مثلها مثل مدام سالي. قالت إنها قرأت مقالاً لصحفي مصري، لا تذكر اسمه، يؤكد أنها قتلت بسبب رغبتها في كتابة مذكراتها. قالت إن شلي سألت مارتن جولدمن فقال لها إن كانت فعلاً سعاد حسني قد حاولت كتابة الحقيقة في تلك المذكرات، فربما تكون قد تسببت فعلاً في مقتلها. آبي قالت إن مارتن جولدمن قال لشلي إنه يعرف أن سعاد حسني قد عملت مع المخابرات المصرية في شبابها، وأن الوزير صفوت الشريف هو من جندها وقتها، وأنه كان يبتزها، هو وزملاؤه، ويجبرونها على العمل معهم.

آبي قالت إن مارتن جولدمن أخبر شلي أنه قرأ نسخة من التحقيقات المصرية في قضية انحرافات المخابرات العامة، التي جرت عام ألف وتسعمائة وثمانية وستين، قضية صلاح نصر. قال إن صفوت الشريف قال في محضر التحقيقات إنه كان رئيساً لقسم المندوبين والمندوبات في المخابرات العامة، وأن هذا القسم يُعرف باسم المجموعة ثمانية وتسعون، وكان وقتها برتبة رئيس منطقة عمليات، واسمه الحركي موافي، ومهمته كرئيس لقسم المندوبين والمندوبات هي السيطرة على الشخصيات المصرية والعربية والأجنبية المهمة، المستهدف بأن تكون تحت السيطرة، وذلك عن طريق استخدام المندوبين والمندوبات في المجموعة ثمانية وتسعين.

قالت آبي إن مارتن جولدمن قال لشلي إنه قرأ في محضر التحقيقات أن صفوت الشريف قال إن هؤلاء المندوبين والمندوبات، الذين كان يديرهم، كان معظمهم من السيدات اللاتي تم تجنيدهن لاستغلالهن في عمليات خاصة، تقوم فيها المجموعة ثمانية وتسعون بتصوير أفلام تثبت وجود علاقة جنسية مشينة لهن بالشخص المطلوب السيطرة عليه، حتى يمكن استغلال هذه الأفلام في ما بعد في عمليات المخابرات؛ مثل الضغط على شخصية مهمة لكي يعمل لحساب المخابرات، أو استخدام الأفلام كسلاح سياسي في بعض الأحيان لابتزاز شخصية مهمة في بلد أجنبي، أو لعمل مزيد من الكنترول على شخص مهم تم تجنيده بالفعل ويرغبون في ضمان ولائه للجهاز.

ابن كلب مارتن جولدمن، داهية سوداء!

أتعامل معه، كما لقنني العقيد فؤاد، كمجرد قومسيونجي، لا أكثر ولا أقل. مجرد وسيط يأخذ عرقه في البضاعة المهربة من مخزن السفارة، وممكن نضحك ونهزر معه على خفيف، لكن ممنوع منعاً باتاً أي أحاديث جادة حول أي موضوع كان، خاص أو عام.

مالك أنت ومال صفوت الشريف يا ابن الكلب! رجل أدى المطلوب منه في وظيفته على أكمل وجه، لماذا يُلام؟! لا يوجد جهاز مخابرات في العالم بدون مندوبات. وأولهم الموساد يا جولدمن يا ابن القحبة! إيه ما عندكوش مندوبات في الموساد يا

ابن الوسخة! ده إنتوا اللي بدعتوها أصلاً!

أول درس يتعلمه رجل المخابرات أنَ الأرضَ كرويةٌ تلفُ حولَ الجنس. أول مندوبة في التاريخ كانت أمنا حواء. السكس أمن، والأمن سكس. سلاح نووي في حوزة أي جهاز. والبلد دائماً مستهدفة، ومن أيام الفراعنة! من الشرق تهديد، ومن الغرب تهديد، ومن الشمال تهديد، ومن الجنوب تهديد، وفين ما تبص تلاقي تهديد! وفي الداخل خونة أولاد كلب طابور خامس!

لذلك تحكم الأجهزة الأمنية مصر من أيام الفراعنة. تتغير الأنظمة وتتبدل، لكن يظل الجهاز هو أطول حاكم في التاريخ. انظر أين صار صفوت الشريف الآن، وزير إعلام ناجح! هو من أنعش الإعلام المصري. والإنتاج التلفزيوني. ومقرب من رئيس الجمهورية، ويحظى بثقته. وقيادة عظيمة في الحزب الوطني. هل يمكن أن نصل إلى هذه المكانة يوماً ما؟ يا ملك! علينا، أولاً، النجاح بأي شكل في الثانوية العامة. هذه نقطة سوداء ينبغي محوها من سجلنا! الحمد لله نجحنا في ثانية ثانوي، وناقص ثالثة ثانوي، والعقيد فؤاد مبسوط جداً من نجاحنا واستكمال تعليمنا.

مايزال توصيفي في البطاقة الشخصية؛ حاصل على الشهادة الإعدادية، شيء مخجل، وصمة عار! عقبة أمام أي ارتقاء. لكن بعد أن ندخل الجامعة سينمحي هذا الخطأ، وسيسير كل شيء على ما يرام. أربع سنوات في الجامعة، وشهادة جامعية، ثم الماجستير، ثم الدكتوراه. لم لا؟! الدكتور رجب السيد. دكتور

فعلياً، لا كابن الزانية صفوت عبد العال! ننجح بس ونحط رجلينا في الجامعة، وواحدة واحدة، وممكن نبقى زي صفوت الشريف! هل هو كان المقصود بشخصية صلاح قابيل في فيلم الراقصة والسياسي؟! صلاح قابيل كان اسمه إيه في الفيلم؟ آه، خالد مدكور، يا عيني يا ابني على الذاكرة، تسلم الدماغ يا حبيبي!

شاهدت الفيلم زمان وأنا طفل، في سينما مصر في شارع الجيش. كان ضمن حفلة ثلاثية؛ فيلم أمريكاني الأول، ثم فيلم مصري، ثم فيلم مصري آخر. فاكر يا له الفيلم الأمريكاني كان إيه؟! همم. كان أظن فيلم وِسترن. أيوه، وكان اسمه ماي نيم إز نو بَدي، اسمي لا أحد. نسيت اسم الشرير في الفيلم، لكنهم كانوا يقولون إن لا أحداً قادر على التغلب على سرعته في إطلاق النار، ثم يأتي ترانس هِل؛ الصعلوك الذي يُسمي نفسه لاأحد، نو بَدي، ويتغلب عليه، ويصبح لاأحد قد تغلب على الشرير، هه هه ها.

العرض الثاني كان فيلم الراقصة والسياسي، نبيلة عبيد راقصة مشهورة، وترى صلاح قابيل خالد مدكور في أخبار التلفزيون وقد أصبح وزيراً، فتتذكر أنه قد جندها مرة منذ سنوات طويلة للعمل كمندوبة في المخابرات، وتهدده بأنها ستكتب وتنشر مذكراتها. فاروق فلوكس عمل دوراً رائعاً في الفيلم! خادم مثلي. كان اسمه شفيق ترتر. تر، تر، هه هه ها. ضحك الجمهور يومها كثيراً، وصفق له. جمهور الدرجة الثالثة. كانوا يصفقون للأداء. قال أحدهم، وقد يكون ميكانيكياً، أو سمكرياً، ابن الإيه عارف

يجيب حركات الخول بالملي! شعب عظيم قادر على التفرقة بين ما هو تمثيل، وما هو طبيعة في الشخص ذات نفسه. الواد محب سمعته مرة بيقول شعب حريف، بيحب الحرفنة في كل حاجة. صفوت الشريف حريف في شغلته!

ثم إنه لا يُسمح لمندوب أو مندوبة بإفشاء أسرار الجهاز! يتعرض أمن الجهاز كله للخطر! حالما تكتب كراسة البي آر كيو، وتوقع على إقرار العمل، تكون ملزماً بالسرية التامة وعدم إفشاء أي سر. لماذا يخرق الناس النظام؟! ليه تضرب كرسي في الكلوب؟! بتكتب مذكرات ليه؟!

ثم يروحون يلقون التهم هنا وهناك على موت هذه، أو انتحار تلك! اتهموا المخابرات البريطانية، الإم فايف، بتدبير حادثة مقتل الأميرة ديانا. أين كنا وقت الحادثة؟

آه، مع نينا في الغردقة. كنا في سبتمبر، سبعة وتسعين، وكان الصيف في القاهرة نار جهنم، فسافرنا إلى الغردقة.

الألمانيات ماكينات في السرير، ويعشقن كل الأوضاع، لكن، للأسف، الإحساس عندهن ضعيف! أجساد مثالية، ومشاعر باردة. نتيجة تربية صارمة منضبطة. يحتقرونك إن عبرت عن مشاعرك بحرية، أو إن أخذت راحتك في الكلام. يقولون عنك سوقي، فاقد للتهذيب والتربية السليمة، ويعاملونك ككلب أجرب!

نينا، ليلتها، صرخت عندما شاهدت الخبر في تلفزيون

الشاليه، وقالت المخابرات البريطانية قتلوها! الأميرة ديانا. برنسِّس ُأف ويلز. أم ولي عهد بريطانيا، وتوشك على الزواج من دودي الفايد المصري المسلم، مصيبة سوداء! أم البرنس وليام، ديوك ُأف كمبريدج، ولي العهد، زوجة لمصري مسلم! وإن أنجبت منه، تبقى المصيبة مصائب! أخو ملك إنجلترا، كِنج ُأف برِتن، مصري مسلم! يعني التاج البريطاني يروح في طوكر عشان نزوة من الأميرة، أو مذكرات مش عارف من مين! يا راجل بلا كلام فارغ!

ثم إنهم قالوا إن البرنسِّس ديانا كانت على وشك إشهار إسلامها قبل الزواج من دودي الفايد. أم رئيس كنيسة إنجلترا مسلمة، يا للهول!

صرخت نينا ليلتها، وبكت، وقالت قتلوها لأنها أحبت! حتة عاطفية كده، فجئتني من واحدة ألمانية! خدت مني وقت، ومجهود، لغاية ما وقعت. سنة تقريباً! الألمانية تفضل سنة تقنعها إنها تقلع، وبعد كده تفضل طول عمرك تقنعها إنها تلبس! كله بيجي بالحنية، كله بيجي بالحب.

سألت مرة العقيد فؤاد عن رأيه في حادثة البرنسِّس ديانا، فقال إنها لو كانت من تدبير الأمن الانجليزي، لكان سيحرص، بالتأكيد، على جعلها تبدو كما لو كانت وفاة طبيعية. قال إننا نسمي هذه العملية العملية الصفرية. لكنه لم يوضح إن كانت حادثة البرنسِّس ديانا يمكن أن نعتبرها وفاة طبيعية، أم لا؟

العملية الصفرية هي التصفية الجسدية لمندوب خرج عن السيطرة، أو مندوب من مناديب العدو يشكل خطراً جسيماً. قال العقيد فؤاد إن العملية الصفرية يجب أن يتوفر فيها شرطان أساسيان؛ واحد أن يكون من المؤكد، مائة في المائة، أنها ستؤدي إلى تصفية الهدف، اثنان أن تبدو وكأنها وفاة طبيعية.

إذا حاولنا تطبيق هذين الشرطين على حادثة سعاد حسني، سنكون أمام نفس السؤال: هل ظهرت الوفاة للناس في النهاية كأنها وفاة طبيعية، قضاء وقدر؟ طيب وهذه الشبهات المثارة؟ والشبهات المثارة في حادثة البرنسِّس ديانا؟ تبقى النتيجة أنهما ليستا من تدبير الأجهزة. يمكن أن تكونا من تدبير أحد المستفيدين من موتهما. جائز معرفة قديمة، سيصيبه الضرر من نشر المذكرات. أو من الزواج بمسلم. أو جائز جداً قضاء وقدر فعلاً!

أو قد يكون مقاول من الباطن، وكله الجهاز للقيام بالعملية بعيداً عنه، فقام بعملية صفرية غير متقنة! وقد يكون الجهاز نفسه قد قصد تنفيذ عملية غير صفرية تماماً، حتى تصل الرسالة إلى من قد تسول له نفسه الخيانة في المستقبل! العقيد فؤاد قال، مرة، إن أي جهاز لا ينسى الخيانة مطلقاً، ولابد له من معاقبة المندوب الخائن، ولو بعد سنين طويلة. وقال إن الجهاز، وهو يقوم بذلك، يحرص على ترك شبه دليل وراءه، حتى تكون الرسالة واضحة، وعبرة لمن تسول له نفسه التفكير، مجرد التفكير، في خيانة الجهاز. ردع يا ريس!

لا أحد سيعلم الحقيقة خارج دائرة من قام بها. إن كان هناك أصلاً من قام بها! ومدام سالي مركزة مع كلام الممثل سمير صبري الذي ينوي القيام بتحريات تلفزيونية للوصول إلى حقيقة الموضوع! هه هه ها، سَقَّع وبيع. اسلق وادلق. منشد وعايز سمِّيعة! كلهم منشدين وعاوزين سمِّيعة!

كل رجل يحتاج إلى سمِّيعة، وكل امرأة تحتاج إلى سمِّيعة، وإذا عرفت كيف تجيد الإنصات إلى تفاهاتهم، يصبحون خاتماً في إصبعك! من النادر اليوم أن تجد من يستطيع إغلاق فمه، والمحافظة على أسراره لنفسه، فما بالك بأسرار الغير، أو أسرار العمل! هؤلاء عملة نادرة، ولذلك فهم مطلوبون وبأعلى الأسعار!

التفتت مدام سالي، وهي واقفة أمام التلفزيون السوني البلازما، إلى العقيد فؤاد، وسألته مقطبة الحاجبين:

- تفتكر كلام سمير صبري مضبوط؟!

- التحقيقات ها تبين كل حاجة، ده إذا فعلاً حصل تحقيق، لأنه لغاية دلوقتي السكوتلانديارد مقتنعة بتقرير الطب الشرعي، و، ماقالوش لسه إذا كانوا ها يفتحوا تحقيق. رد العقيد فؤاد ببطء وثقة.

مدام سالي تنظر له كما لو كانت تلومه! أكيد لسان حالها يتهم المخابرات عندنا. أو أية مخابرات أخرى! هل يا ترى يلقنها العقيد فؤاد المبادئ الأساسية للشغل، كما يلقنها لي؟! أكيد لا، لو

كان يفعل لما سألت هذا السؤال العبيط!

ذس إز ذى بزنس وي هاف تشوزن، آي ددنت آسك هو جيف ذي أوردر، بيكوز إت هاد نثنج تو دو ويذ بزنس! ممثل رائع! العجوز الداهية، اليهودي هايمن روث، في الجزء الثاني من الأب الروحي.

سامح قال إن اسمه لي ستراسبورج، واحد من أعظم الممثلين في العالم، وصاحب ستديو الممثل، الذي درب كبار نجوم هوليود على التمثيل، من أول مارلون براندو، حتى ليوناردو دى كابريو. قال سامح إن آل باتشينو أحب أن يعترف بالجميل لأستاذه أمام العالم، فأصر على أن يظهر معه في الجزء الثاني من الأب الروحي. فيه شبه شوية والله من العقيد فؤاد! في الصوت والحركة بالذات.

هل يثق العقيد فؤاد بي أكثر مما يثق بمدام سالي؟! يقول لي أشياء كثيرة، ويعلمني الكثير من خبراته. ولمَّح أكثر من مرة بأنه يعد لي مستقبلاً كبيراً. عليّ أن أنتبه جيداً لكل كلمة ينطقها. كلامه حكم! حكم عملية، من التي تفيدك مباشرة في الحياة اليومية. عمره ما قال حاجة وطلعت غلط!

ذكاء خارق. وآراؤه دائماً مضبوطة. ومستقبله في الوزارة مضمون. أبوه كان لواء ممتازاً، وعمه لواء ممتاز، وأولاد عمه ضباط أكفاء يُضرب بكفائتهم المثل. ورؤوساؤه في الإدارة

يحبونه، ويثقون به، ويكلمونه في التليفون كأنه ابنهم أو أخوهم الصغير. سيترقى عميداً في حركة الترقيات القادمة إن شاء الله. أيام قليلة وسأعمل مع سيادة العميد فؤاد النجار! وسيرفعنا معه إلى أعلى. إبنك ركب الريح يا شلباية، وواخدنا في سكته يا نوفل.

تفتكر كلام سمير صبري صحيح! جسم ملبن، ومخ عصافيري! أسهل من يمكن بلفهن الاسكندرانيات، رغم مظهرهن المتعالي، وثقتهن المفرطة بأنفسهن! آهو، والدليل قالوا له، يا بتاعة السواق! بلفها وركبها ابن الكلب!

هل يا ترى تعطره لعواد العسكري، قبل أن يلعقه؟ مشهد يستاهل الفرجة!

مدت مدام سالي يمناها، الممسكة بالريموت كنترول، وأرجعت القناة إلى الجزيرة الإخبارية، وألغت الصوت. وكانت الجزيرة الإخبارية ماتزال تذيع تقرير برويز مشرف، الذي أصبح رئيساً للباكستان، خلفاً لنواز شريف، الذي رقاه وقلده منصب قائد الجيش الباكستاني، قبل أن تتدهور العلاقة بينهما.

شفته قبل كده في السي إن إن، والبي بي سي، مش جديد، القنوات بتشف من بعض!

التفتت مدام سالي، ووضعت الريموت كنترول على سطح مكتب العقيد فؤاد وفي متناول يده. ثم مدت نفس اليد فاتحة أصابعها نحو غادة، وقالت:

- يللا يا حبيبتي نلعب جوه بالمكعبات، تعالي نبني بيت كبير، وبابي لما يخلص شغل ها يجي يشوفه ويجيب لك حاجة حلوة.

قفزت الطفلة من على حجر العقيد فؤاد. أمسكت بيد أمها. واختفيا في الطرقة.

لم تقل حتى عن إذنك! تجاهل تام. حتى الإصبعين بخلت بهما! مما يدل، بدون شك، على الأصل الواطي! ليست اسكندرانية أصيلة، هي بالتأكيد من أولئك الفلاحين الذين يفدون إلى الاسكندرية؛ يستوطنونها ويوسخونها! الاسكندراني الأصيل مشهور بالذوق، والشياكة في التعامل. وراثة من الخواجات الذين سكنوا الاسكندرية في ما مضى. أما هذه فتربية بهائم! مش بقولك يا ابني دي مرة وسخة!

ارتشف العقيد فؤاد من كوب عصير الجرِب فروت، ثم وضعه أمامه. وتناول الورقة التي شخبطت عليها غادة، ودسها أسفل رزمة الورق الأبيض الإيه فور، وسحب، من أعلاها، ورقة بيضاء جديدة، كتب بالقلم على قمتها شيئاً سريعاً، ثم وضع القلم على الورقة. وتناول كوب العصير مجدداً، وقال لرجب، والكوب في منتصف المسافة بين سطح المكتب وفمه:

- هه، كنت بتقول إن حمدي كاراتيه قالهم، إن ستات الجماعات بيناموا مع رجالة بالفلوس.

أكد رجب، فوراً، المعلومة للعقيد فؤاد مجدداً، وقال إنه سمع

شلي وهي تبدي رغبتها في مقابلة عدد من هؤلاء النسوة، على أن تتم هذه المقابلات في بيوتهن. ورد حمدي كاراتيه بالقول إنه قد يتمكن من ترتيب بعض هذه اللقاءات، لكن الأمر يحتاج إلى دفع نقود لهن، حتى يوافقن. فقال صوت شلي إنه، من حيث المبدأ، لا يُسمح لهم كباحثين بأن يدفعوا أية نقود للمبحوثين الذين يجرون معهم المقابلات البحثية، لكن نظراً للظروف البائسة لهؤلاء النساء، فقد تستطيع دفع شيء لهن، من جيبها الخاص.

وقال رجب إنه سمع شلي وهي تشترط أن تحدد، هي بنفسها، من تدفع لهن، ومن لا تدفع لهن، قائلة إن ذلك يتوقف على مدى تعاونهن معها، ومقدار الفائدة الحقيقية التي ستعود على البحث من هذه المقابلات، لأنها لا تستطيع أن تسير هنا وهناك في امبابة وتفرق مالاً على الجميع، أو على كل من يصافحها. ثم سألها حمدي كاراتيه عن مقدار المبلغ الذي سوف تدفعه لهؤلاء النسوة، فردت شلي بأن ذلك أمر سابق لأوانه، وأنها سوف تقدر المكافأة حسب كل حالة، بعد أن تجلس وتتحدث معها، وبعد تقدير مدى الفائدة التي عادت على البحث من هذه المقابلة.

قال رجب إنه هنا سمع صوت حمدي كاراتيه وهو يضحك، ويقول، طيب وبالنسبة لي أنا إيه النظام؟ هل أنا برضه ليّ مكافأة؟ فساد الصمت لبضع ثوان، ثم أجاب صوت شلي قائلاً إنه في ما يتعلق بحمدي كاراتيه، فإنه إذا ساعدها فعلاً في ترتيب لقاءات مع هؤلاء النساء من زوجات الإخوة المساجين اللاتي يشتغلن في الدعارة، وإذا نجح كذلك في ترتيب لقاء مع الحاج

مصطفى دياب رجل الأعمال ومدير مدرسة الاستقامة في الوراق، وإذا ما ساعدها أيضاً في مقابلة بعض الإخوة الآخرين الذين لم تطالهم يد الأمن ومازالوا خارج السجن يعيشون في إمبابة والوراق، فإنها سوف تعطيه، أولاً، مصاريف المواصلات والانتقالات، وثانياً، مصاريف جيب للمقاهي التي سيجلس عليها مع هؤلاء لترتيب اللقاءات، وثالثاً، مبلغاً بسيطاً للمصاريف الإضافية النثرية التي سينفقها أثناء سعيه لترتيب الأمور. وقالت إنها سوف تترك تقدير هذه المصاريف لحمدي كاراتيه نفسه، ولكنها ستدفع لاحقاً بعد أن تجلس مع الناس، وليس قبل ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها سوف تتحدث مع مديرها في مركز الأبحاث، لإقناعه بتخصيص مكافأة لحمدي كاراتيه من ميزانية البحث، بوصفه مساعد باحث محلي. فسألها حمدي كاراتيه عن مقدار تلك المكافأة، لكن شلي رفضت الإجابة، وقالت إن الأمر يتوقف على عدة أمور، منها مقدار تعاونه الفعلي، والمجهود الذي سيبذله، والوقت الذي سيخصصه لهم، والتزامه بالمواعيد والتكليفات، ومقدار الميزانية المتاحة للمساعدين المحليين في الأبحاث الميدانية التي يجريها المركز الذي تعمل به، والتي لا تعرف، هي شخصياً، مقدارها بالتحديد.

وقال رجب إنه عندها سمع صوت حمدي كاراتيه يسأل شلي عن اسم مركز الأبحاث الذي تعمل به، فردت شلي وقالت إن اسمه راند. وسألها حمدي كاراتيه؛ ولماذا يهتم راند بالجماعات في امبابة؟! فقالت شلي إن ذلك يساعد الذين يتخذون القرارات في

أمريكا على تحسين عملية اتخاذ القرارات المتعلقة بمصر، لأن تلك القرارات لابد وأن تعتمد على الحقائق الموجودة على الأرض. وقالت أيضاً، إن تحسين عملية اتخاذ القرارات تجاه مصر، وتجاه بقية دول العالم، يؤدي إلى أن يصبح العالم أكثر أمناً وسلاماً، وهذا هو هدف راند. وهنا سألها حمدي كاراتيه عن منصبها في راند، فقالت بإنها تعمل في قسم الشرق الأوسط؛ كباحث أول في تحليل السياسات. وسأل حمدي كاراتيه آبي نفس السؤال، وأجابت بأنها تعمل أيضاً في قسم الشرق الأوسط؛ كباحث في تحليل السياسات. وسأل حمدي كاراتيه عليرزا نفس السؤال، وأجاب عليرزا بإنه يعمل مديراً لبرنامج السكان، في قسم الاقتصاد العالمي. وهنا ضحك حمدي كاراتيه وقال: مادمت أنت مدير البرنامج، فأنت إذن رئيس الأستاذة شلي والأستاذة آبي! وعند ذلك ضحكوا جميعاً، وقال بعدها عليرزا لحمدي كاراتيه: لا يا حمدي، أنا أعمل في قسم مختلف، ولكننا جميعاً في المؤسسة زملاء، ونساعد بعضنا البعض.

وقال رجب إنه سمع حمدي كاراتيه يسأل عليرزا قائلاً: ممكن أسألك سؤال محيرني شوية؟! فرد عليه عليرزا وقال: تفضل، فقال حمدي كاراتيه: الأستاذة شلي شكلها أمريكية، والأستاذة آبي شكلها أمريكية، بس حضرتك، لامؤاخذة يعني، شكلك شبهنا، فهل إنت أمريكاني فعلاً؟! وضحكوا جميعاً، ثم قال له عليرزا بإنه أمريكاني فعلاً، ولكنه من أصول إيرانية، وأن عائلته قد هاجرت إلى أمريكا واستقرت هناك منذ أكثر من ثلاثين سنة، وأن أمريكا

مليئة بأناس مثله من مختلف الأصول والديانات، وأنهم جميعاً هناك يعيشون متساوون؛ لهم نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات. وهنا سأله حمدي كاراتيه: يعني حضرتك مسلم زينا؟ فساد الصمت لبضع ثوان، ثم رد صوت عليرزا قائلاً: آه، آه، طبعاً. وكان بين آه الأولى، وآه الثانية، وطبعاً، بضع ثوان تفصل كل منها عن الأخرى. وعند ذلك، ضحك حمدي كاراتيه، وقال، إنه مادام الأمر كذلك، فأنا سأناديك من الآن فصاعداً الأستاذ علي رضا، لأننا هكذا ننطق اسمك هنا في مصر. فرد عليه عليرزا، فوراً، وبدا الاستياء على صوته وهو يقول، لا لا لو سمحت، لا تفعل ذلك، أنا اسمي عليرزا وليس على رضا، ولا أحب أن يناديني أحد بعلى رضا، وأرجوك أن تناديني باسمي، وليس باسم آخر مختلف عن اسمي!

قال رجب إنه متأكد من أن حمدي كاراتيه قد استاء من رد فعل عليرزا الحاد، لأن الصمت قد ساد للحظات في الصالة، قبل أن تقطعه شلي قائلة لحمدي كاراتيه، إنه إن قام فعلاً بمساعدتهم في البحث، فإنها تعده بأن تحضر له بدلة كاراتيه من أمريكا، في أول مرة تسافر فيها هناك. ويبدو أن حمدي كاراتيه قد فرح بهذا الوعد، لأن ذلك بدا على صوته المتحمس وهو يقول إنه جاهز في أي وقت يرغبون فيه للبدء في العمل. فقالت شلي إن هذا عظيم، وطلبت منه أن يحضر إلى البيت يوم الجمعة، في الساعة الثانية ظهراً بعد صلاة الجمعة، لأنها تريد أولاً أن تسمع منه قصة حياته بالتفصيل؛ من أيام طفولته، حتى انضمامه إلى

الجماعة الإسلامية، وصولاً إلى الوقت الحالي. ثم سألته شلي إن كان لديه مانع في أن تقوم بتسجيل المقابلة صوتياً، باستخدام كاسيت التسجيل، فأبدى حمدى كاراتيه قلقه، في البداية، من مسألة التسجيل، وبدا على صوته التردد وهو يقول لشلي إنه يفضل عدم القيام بذلك وأن تقوم بتدوين ملاحظات مكتوبة بينما هو يتحدث، وأنه على هذا النحو إنما جرت المقابلات التي أجراها معه سدرك إني، وغير سدرك إني. وقال إنه سبق له أن رفض التسجيل معهم، عندما طلبوا منه ذلك. لكن شلي أصرت على مسألة التسجيل، وساندتها آبي في ذلك، والتي راحت تطمئن حمدي كاراتيه، وتؤكد له بأن أحداً لن يستمع، مطلقاً، إلى شرائط الكاسيت، غيرهما هي وشلي فقط، وأن ذلك ضروري جداً، حتى تستطيعا تقديم الشرائط كدليل لأستاذهما المشرف على بحثهما في أمريكا، ليتأكد من مسألة وجود حمدي كاراتيه فعلاً، ويحاول تخصيص مكافأة له.

قال رجب إنه سمع حمدي كاراتيه يسأل آبي عن اسم أستاذهما، وردت آبي وقالت إن اسمه هو الدكتور مارتيني، وهو يعمل رئيساً لقسم الشرق الأوسط في مؤسسة راند، وهو المشرف على البحث الذي تقوم به هي وشلي في مصر. فقال حمدي كاراتيه وهل سيفهم أستاذك اللغة العربية التي سأتكلم بها في شرائط الكاسيت؟ وردت آبي وقالت نعم، لأن الدكتور مارتيني يتحدث اللغة العربية الفصحى، ويتحدث كذلك العامية المصرية، والعامية المغربية. فبدا على صوت حمدي كاراتيه الاستغراب

وهو يقول: يااه، معقول! دي حاجة عظيمة خالص، ده إنتم شطار قوي! ده حتى العربي بتاعك إنتي والأستاذة شلي ممتاز! وضحكوا قليلاً، ثم قالت شلي لحمدي كاراتيه بإن عليه أن يأتي يوم الجمعة في موعده تماماً، في الساعة الثانية ظهراً، ولا يتأخر عن موعده كما حدث اليوم، لأن مسألة دقة المواعيد هي مسألة مهمة جداً بالنسبة لهم. ورد حمدي كاراتيه وقال إنه آسف على تأخره اليوم، ولكن من عادته حين يذهب إلى مكان ما لأول مرة أن يستطلع المكان أولاً، وطرق الدخول إليه، والخروج منه، وما إذا كانت هناك مراقبة أمنية أم لا، وكل تلك الأشياء التأمينية التي أصبحت جزءًا من طبيعته من أيام العمل مع الإخوة ومطاردة الأمن لهم، بالرغم من أن أحداً لا يطارده اليوم. وقال إنه قد حضر في موعده فعلاً، ولكن الأمر استغرق بعض الوقت حتى يستطلع المكان، ويطمئن قبل أن يصعد إلى شقتهم. وسكتوا جميعاً، فخمنت بأنهم قد اقتنعوا بعذره.

- بس لو تسمح لي يا افندم، ممكن أضيف حاجة تانية؟ قال رجب.

- قول. قال العقيد فؤاد.

قال رجب إنه، وقبل أن يصل حمدي كاراتيه إلى الشقة، كان يقف في البلكونة المطلة على الشارع، يدخن سيجارة، ويحاول معرفة شكل حمدي كاراتيه ولو من بعيد، لأن آبي قد أخبرته قبلها بأن يظل في حجرتهما، ولا يحضر المقابلة معهم. وأثناء وقوفه

في البلكونة، شاهد من خمن، فوراً، أنه حمدي كاراتيه، وهو يدخل قمة الشارع في عجلة من أمره متأخراً عن موعده بحوالي أربعين دقيقة، وكان يرتدي جلابية بيضاء. ثم وقف أمام كشك السجائر، الذي على قمة الشارع، وبدا كالتائه، ثم اتجه ليسأل صاحب الكشك عن العنوان، ثم أسرع إلى باب العمارة، ودخل. ولذلك، فبالتأكيد، حمدي كاراتيه كان يكذب، وقد أتى متأخراً عن موعده فعلاً، ثم اخترع لهم مسألة عادته في تأمين الأماكن التي يذهب إليها، كحجة ليس إلا.

- برافو يا رجب. قال العقيد فؤاد مبتسماً وهو يهز رأسه. ودون ملاحظة على الورقة أمامه.

- العفو يا باشا تلميذك! رد رجب بفرحة وهو يضع راحته اليمنى على صدره.

- حمدي كاراتيه جاي عندكم بكرة عشان يحكي قصة حياته. سأل العقيد فؤاد السؤال كأنه ليس سؤالاً.

- أيوه يا افندم، بكرة بعد الصلاة. ردت رأس رجب ولسانه.

- طب أنا عايز نسخة من التسجيلات. قال العقيد فؤاد. وتناول القلم بين أصابعه في وضع الاستعداد للكتابة، ولم يكتب شيئاً.

- طبعاً يا افندم طبعاً، أنا عامل حسابي سيادتك. قال رجب

مؤكداً بهزة من رأسه.

- أوكى، بص بقى أنا أكدت عليك الموضوع ده كذا مرة قبل كده، بس برضه عايز أنبهك تاني، وانت بتجهز النَسْخ، لازم ولابد تراعي كل احتياطات الأمان اللى تعلمناها سوا، مفهوم؟ قال العقيد فؤاد وهو يدون شيئاً أمامه. ثم وضع القلم بخبطة على الورقة.

- حاضر يا افندم، لا والله واخد بالي جداً سيادتك! رد لسان رجب ورأسه، بهزة رأسية ملضومة في هزة أفقية.

لماذ التذكير دائماً بهذا التنبيه؟ يصر طيلة الوقت على تذكيري بمراعاة احتياطات الأمان التي لقنني إياها. هل يا ترى يشك في أمر ما؟! هل يظن أن شلي قد بدأت تشك فيّ، وأنها لهذا السبب لم تسمح لي بحضور مقابلة حمدي كاراتيه؟ هل أفتح الموضوع معه؟ ماذا أقول؟! هل تعتقد سيادتك أن شلي تشك بي؟ وكيف سأبدو أمامه عندئذ؟! فاقد للثقة بالنفس، مهزوز! لكن عليّ فعلاً أن أعرف رأيه إن كانت شلي تشك بي، أم لا؟ هذه مسألة ملحة وتستحق المخاطرة بالسؤال.

- لو سمحت لي يا افندم، ممكن أسأل حضرتك سؤال، هوّه حضرتك تفتكر ليه آبي قالتلي أفضل في الأوضة وقت المقابلة مع حمدي كاراتيه؟ سأل رجب العقيد فؤاد، وهو يخشى من رد فعله.

- لا ما تخليش الموضوع ده يقلقك، ده إجراء عادي جداً، شلي بس مش متأكدة لسه إذا كان موضوع الشغل مع حمدي كاراتيه ها يمشي ولا لأ، وفي الحالة دي مش عايزة بس تديله معلومة مجانية مالهاش لازمة، إن يعني فيه شاب مصري قاعد معاهم في الشقة وكده، هوّه بالمناسبة عليرزا مش مسافر الاتنين اللي جاي؟

- أيوه يا افندم الاتنين مضبوط. رد رجب، وقد شعر بامتنان عميق للعقيد فؤاد.

- يبقى قريب جداً توقع إن شلي ها تقدمك لحمدي كاراتيه على إنك باحث معاهم، ويمكن كمان خطيب آبي في نفس الوقت، البنات أكيد ها تحتاجك في الشغل لو ها يشتغلوا فعلاً مع حمدي كاراتيه، مش بس عشان لما يجي الشقة عندكم في المستقبل، لأ الأهم كمان لما ينزلوا يعملوا مقابلات في امبابة، مش ها يقدروا يتحركوا لوحدهم في المناطق دي من غير راجل معاهم بيثقوا فيه. قال العقيد فؤاد بثقة.

الحمد لله شكوكي تجاه شلي في غير محلها إذاً! ربما تكون شلي موسوسة أكثر من اللازم، ولكن الحمد لله أنها لا تشك بي.

- ولو عرضوا عليك فلوس مقابل الشغل معاهم، تقبل فوراً، وتقول متشكرين، مهم جداً إنك تقبل الفلوس، وما تحاولش تترسم أو تتظاهر بالكرم والشهامة! قال العقيد فؤاد مؤكداً بتوجيه سن

القلم باتجاه رجب.

- حاضر يا افندم. ردت رأس رجب ولسانه.

مادامت شكوكي تبددت واطمأنينا، فهذا إذن أوان الطرق على الحديد وهو ساخن. ابن الكلب تلفيق شرور هو سبب كل هذا العك! لم تقع مصيبة فعلياً، والحمد لله، لكن كان يمكن أن تحدث مصيبة في أي لحظة بسبب هذا الحيوان!

- لو سمحت لي يا افندم، كان فيه موضوع مهم جداً بالنسبة لي كنت عاوز أفاتح سيادتك فيه، بس يعني كنت متردد كده شوية! قال رجب برصانة، مقطباً حاجبيه، وكأن ما سيبوح به يسبب له الضيق والحزن.

- متردد ليه، قول على طول! واقتربت يد العقيد فؤاد الممسكة بالقلم من ورقة الملاحظات، هامة أن تكتب شيئاً، وكأنها استشرفت الأهمية، بسبب تغير هيئة رجب.

- الموضوع حضرتك يا افندم بخصوص توفيق سرور. قال رجب، وعلى وجهه أمارات التبرم والضيق.

- ماله توفيق سرور؟! سأل العقيد فؤاد باهتمام.

- جه شقتنا أول امبارح الصبح، وكان سكران طينة! دخل وقعد في الصالة، وطلب ياكل، عملت له سندوتشين واحد لانشون

وواحد جبنة رومي، فقام مخرج اللانشون والجبنة من العيش وقعد ياكل فيهم حاف بطريقة مقرفة جداًً! وأصوات و، ريحة، يعني مقرفة جداً يا افندم! وكل ده وانا قاعد ساكت مافتحتش بقي، وبعدين سيادتك طلب يشرب خمرة، عايز يشرب خمرة الساعة تسعة الصبح! وهو أصلاً جاي سكران طينة! شلي طبعاً زعلت جداً وقعدت تزعق، فقام عليرزا طرده من الشقة، وبعدين يا افندم قعدوا يبستفوني أنا لإنه صاحبي ولإني بعرف ناس بالشكل ده وبجيبهم عندنا الشقة! وفي الآخر أكدوا عليّا إن رجله ما تعتبش عتبة الشقة تاني، ولما بقينا لوحدنا أنا وآبي في الأوضة أكدت عليّا مرة تانية إنه ممنوع توفيق سرور يجي الشقة بعد كده، وكانت بتتكلم وهي زعلانة جداً وفي منتهى القرف! قال رجب ذلك بانفعال، وقد بدا التقزز على ملامحه، كأنه اشتم رائحة مقرفة.

- وليه ما كلمتنيش في ساعتها وقولتلي الكلام ده؟! سأل العقيد فؤاد بهدوء. ثم دون ملاحظة في ورقته.

- يعني الحقيقة يا افندم ما حبتش أعمل مشكلة لتوفيق سرور، لإني عارف إنه بيمر بظروف نفسية صعبة اليومين دول، أكيد سيادتك طبعاًعارف، بعد ما طلق مراته، هيّ دايرة في كل حتة تقول إنه كان بيتجسس عليها وبيكتب فيها تقارير عن شغلها في مجلس السكان العالمي، فكرت شوية، وقلت الأحسن برضه إني أحاول أحل الموضوع بيني وبينه من غير مشاكل، ومن غير ما شغل سيادتك في الحاجات الصغيرة دي! قال رجب بجدية

وحاجباه مازالا معقودين.

- طق طق طق طق! لا يا رجب، إنت أذكى من كده! إنت عارف إن مافيش حاجة في الشغل إسمها حاجات صغيرة، ولا فيه حاجة إسمها حاجات شخصية، وحاجة بالشكل ده كان لازم تبلغني بيها أول ما حصلت! قال العقيد فؤاد بحزم وحنو معاً. ثم أكمل متسائلاً:

- طب وإيه بقى اللي خلاك تحكيلي دلوقتي مادام قررت إنك تحل الموضوع بينك وبينه؟! إيه الجديد اللي حصل؟!

أخذ رجب نفساً طويلاً، وهو مقطب الجبين، كأن ما سيقوله قاس على نفسه، ويسبب له الألم.

- إمبارح يا افندم قابلت سامح شكري، في جنينة البرِتش كاونسل، قالي إنه قبلها بيوم، يعني في نفس اليوم اللي نزل فيه توفيق سرور من عندنا، كان سامح معدي على قهوة الشمس وشاف نصار الكاشف قاعد مع توفيق سرور، فراح قاعد معاهم، سامح بيقول إنه نصار كان بيتكلم في موضوع اختفاء أشرف محمد علي الصحفي، فنصار قال، إنه سمعني بقول لصاحبته ميلندا لما كنت عندهم في الشقة أنا وآبي، إن الاختفاء الغريب لأشرف محمد علي ده ممكن يكون بسبب جريمة شرف، عشان يعني العلاقات النسائية الكتيرة بتاعة أشرف محمد علي وكده، فسامح بيقول، إنه أول ما توفيق سرور سمع الكلام ده، قام

ضاحك وقال، اللي قاله رجب السيد ده هوّه نفس وجهة نظر الداخلية! قال رجب، وهو ينظر مشدوهاً للعقيد فؤاد، كمن يشهده على ما جرى ويطلب حمايته.

- يا ابن الوسخة يا جزمة! قال كده قدام نصار الفلسطيني؟! سأل العقيد فؤاد، وبدا الضيق الشديد على وجهه.

- أيوه يا افندم سامح شكري قالي كده بالحرف الواحد، وحضرتك عارف إن سامح شكري ما بيكدبش! قالي إن توفيق سرور قال لنصار الفلسطيني إن التفسير اللي انا قلته في اختفاء أشرف محمد علي، هوّه نفس وجهة نظر وزارة الداخلية! أكد رجب، ومرجح رأسه استياءً.

شرع العقيد فؤاد يدون بسرعة عدة جمل أمامه على الورقة. ولما وجد أن رجب قد لزم الصمت، قال، وهو منهمك في الكتابة السريعة:

- كمِّل، كمِّل.

- يا افندم سيادتك عارف نصار الكاشف! ده عصفورة وبيصوصو في كل حتة! ولسانه ما بيبطلش! يا افندم ده بيكرهني جداً، وأكيد ها ينتهزها فرصة ويحرقني عند الخواجات اللي بيتحرك وسطهم، واللي هما برضه للأسف نفس الخواجات اللي انا بتحرك وسطهم! وبدت نبرة خوف في صوت رجب وهو يتكلم.

وضع العقيد فؤاد القلم على الورقة، ورفع رأسه، وألقى على رجب نظرة واثقة، وقال:

- ما تخفش من نصار، الكل عارف إنه بيحقد عليك وبيغير منك، يعني لو اتكلم عنك وحش قدام أي حد فده ها يتفسر من وجهة النظر دي، زائد إنه مش ها يقعد هنا كتير، السفارة الإسرائيلية رفضت تديله الموافقة الأمنية عشان تأشيرة أمريكا، فماقداموش دلوقتي غير إنه يرجع رام الله تاني، مش ها يستنى هنا كتير صدقني، إنت عارف إن ميلندا مسافرة أمريكا أواخر أغسطس، يعني مش ها يبقى عنده حد يعيش عليه عوالة! وبالمناسبة، طلبه للشغل في الجامعة الأمريكية برضه اترفض، والوسايط اللي جابها هناك عشان يدرِّس لغة عربية في الجامعة ما نفعتش، وأنا متأكد إن ميلندا مش ها تسيب له مليم أحمر وهيّ مسافرة! العلاقة بينهم في الفترة الأخرانية بقت زي الزفت! طبعاً ما حدش عارف الكلام ده، ولا هما مبينين حاجة لحد، بس دي الحقيقة.

- أيوه سيادتك ده احنا في آخر مرة زرناهم فيها أنا وآبي كانوا زي السمن على العسل! ده كان من كام يوم بس! أفلتت العبارة من لسان رجب المشدوه من مفاجأة المعلومة.

- تمثيل يا ابني، مظاهر بس! اللي ما تعرفوش إن البنت بقت بتكرهه كره العمى، وبقت بتحتقره جداً، ها حكيلك، عشان بس تعرف إن دي ناس وسخة، وتحط صباعك في عين التخين فيهم!

حكى العقيد فؤاد لرجب أنه، من أسبوعين تقريباً، خرج نصار الكاشف مع صديقته الأمريكية ميلندا لتناول العشاء سوياً في مطعم سيكويا على النيل. وبعد أن جلسا، وطلب كل منهما طبقه، نهض نصار وتوجه إلى الحمام. وفي طريق عودته من الحمام، استوقفه قواد، كان موجوداً بالمطعم، وسأله إن كان باستطاعته إقناع صديقته الأجنبية للعمل كخادمة في بيوت بعض الأغنياء مقابل مبالغ مالية كبيرة. قال له القواد إن الشغل خفيف جداً، والأجر كبير جداً، والحدق يفهم! وحرص على التأكيد لنصار أيضاً أن عمولته محفوظة، في كل مرة تذهب فيها صديقته إلى بيت أحد الأغنياء.

قال العقيد فؤاد، وهو يضحك، إن ذلك العبيط راح وجلس مع ميلندا وأخبرها بالموضوع، وغالباً شعرت ميلندا بأنه موافق على الأمر. وما زاد الطين بلة، هو أن القواد نفسه قد اقتحم جلستهما، فجلس معهما على مائدتهما، دون أي اعتراض من نصار الفلسطيني، وراح يحاول بنفسه إقناع البنت ميلندا، وبصريح العبارة، بالعمل في الدعارة.

- والتيس ده كان قاعد وساكت وموافق! قال رجب باندهاش، وقد خف توتره كثيراً، ناسياً أن يضحك بسخرية.

- مش بقولك يا ابني دي عالم وسخة! عشان كده مستحيل ميلندا تسيبله مليم أحمر وهي ماشية، وها يضطر قريب جداً إنه يلم عزاله ويزق على رام الله! يا ابني ما تخافش منه، واحد زيه

على راسه ألف بطحة وكل بطحة قد كده مش ها يستجري يلسن عليك، وبعدين هوّ أصلاً ها يخاف دلوقتي يتخانق في مصر من غير ما يكون محمي من خواجاية، أو خواجة هه هه هه! قال العقيد فؤاد بثقة.

وحتى يطمئن رجب مزيداً من الاطمئنان، قال له:

- ولو كان َلسّن عليك كنت عرفت في ساعتها، وفي الحالة دي بقى انت عارفني! كنت ها عمل معاه الصح اللي يخليه يصوم ويصلي! مش هوّ برضه رافض يصوم ويصلي، هه هه هه! قال العقيد فؤاد، وضحك بقرف.

- هه هه هااا، يا افندم ده ملحد كافر ابن كافر! قال رجب باستياء.

- حاجة وسخة والله العظيم! تمتم العقيد فؤاد بقرف.

- طب وحضرتك بالنسبة لتوفيق سرور؟ ده يا افندم مستلمني بقاله فترة! عمال يقول في كل حتة إني عايش مع آبي وشلي خدام عندهم بكنس وامسح واطبخ! ومرة قال قدام سامح شكري إني مثلي وبصاحب الرجالة عشان يصرفوا عليّا! وقال كمان إن عندي مرض تناسلي، واتعديت من النوم مع الرجالة وباتعالج عند دكاترة أمراض تناسلية! وحاجات تانية كتير يا افندم بالشكل ده! أنهى رجب شكواه وقد أغرورقت عيناه بالدموع.

- الحقير ابن الكلب! والله العظيم، تلاتة بالله العظيم، لشدهولك شدة، تخليه بعد كده يرمح من قدامك بس أول ما يشوف خيالك! أقسم العقيد فؤاد قاطعاً جازماً. ثم أكمل:

- بس برضه لازم تعرف إن انت برضه مسؤول عن الوضع ده! كان لازم تقولي من الأول! لو كنت قولتلي من ساعتها، من أول ما بدأ يوسَّخ معاك، ماكنش الموضوع وصل للدرجة دي!

مستحيل أن لا يعلم، هو يعلم دبة النملة! وفي كثير من الأحيان يعلم دبة النملة قبل أن تدبها النملة! هو البريمو في الجهاز. يتظاهر، ولا شك، بأنه لا يعلم. على العموم كان توفيقاً ما بعده توفيق قرار فتح الموضوع معه. سيضع حداً لتلفيق شرور. ألف شكر يا ملك!

لكن إن كان يهيء لي مستقبلاً كبيراً، كما لمح أكثر من مرة، لماذا يسمح لشخص كتلفيق شرور بأن يهدد هذا المستقبل؟! ربما انتظر على الحقير ابن الكلب حتى يصبح ضرره واضحاً للجميع في الجهاز، فينكحه وينكح أهله! ترك له الحبل على الغارب حتى يشنق به نفسه. هؤلاء ناس الله أعلم بحساباتهم وتخطيطاتهم!

أكمل العقيد فؤاد:

- إبن كلب وسخ! تركة وسخة ورثناها غصباً عننا! البيه ده دخل الإدارة بواسطة من أخوه، عارف الموضوع ده ولا لأ؟ أخوه كان ضابط عندنا في الإدارة، وحب يخدمه، وهوّ أصلاً كان

صعلوك فاشل مقضيها طول اليوم على قهاوي وسط البلد! المهم يعني بعد شوية كده أخوه شغله كمان في وظيفة تافهة في وزارة الثقافة، ومن يومها ما عملش أي حاجة غير وشايات، وشايات وبس! وز، وتوقيع في زمايله في الشغل، وبس على كده! حاجة وسخة! شخص دنيء جداً وقذر! وطبعاً بيحقد عليك عشان انت لسه آهوه في الأول وعملت اللي هوّ ما قدرش يعمله طول حياته!

- يا افندم أنا عارف إنه بيحقد عليّا وبيغير مني، وعشان كده بالذات ما حبتش اتسرع واشتكيه لسيادتك، عشان يعني سيادتك ما تقولش دي خناقة بين اتنين مرشدين بيغيروا من بعض! قال رجب بصوت متألم. ثم أضاف بسرعة مؤكداً:

- بس طبعاً أكيد أنا غلطت إني ماقولتش لسيادتك في ساعتها!

- معلش حصل خير، حصل خير، إنت ذكي يا رجب وشاطر وأنا عارف إنك مابتكررش نفس الغلطة مرتين، لما بتعرف إنها غلطة!

ونهض العقيد فؤاد عن مقعده، وهو يمسك بورقة الملاحظات في يسراه، فوقف رجب. وأضاف العقيد فؤاد قائلاً:

- وبالنسبة لتوفيق سرور حسابه معايا ها يبقى عسير، بس عايزك تكتب لي كل اللي عمله معاك بالتفصيل، من أول ما تعرفتوا على بعض لغاية دلوقتي، تفاصيل التفاصيل يا رجب إنت عارف مش ها وصيك! وانت خلاص بقيت ممتاز في الكتابة وما

شاء الله عليك ذاكرتك ممتازة! فوق الممتازة يا ابني والله! إنت عارف أكتر حاجة بتعجبني فيك التفاصيل الصغيرة اللي انت بتكتبها، لو حد ناولك كبّاية، تكتب ناولهالك بإيده اليمين ولا الشمال! كام صباع كان ماسك الكبّاية، أنهي صوابع! عظيم يا ابني والله! وذاكرتك ما شاء الله بتحفظ الكلام كإنها تسجيل!

ناوله العقيد فؤاد، من الدرج الثاني من مكتبه؛ المحتوي على ثلاثة أدراج خشبية فوق بعضها البعض، كراسة ستون صفحة من القطع الكبير واحد وعشرون سم في تسعة وعشرين وسبعة من عشرة سم، ذات غلاف أخضر اللون؛ عليه زهرة بيضاء كبيرة ومكتوب عليه FLOWERS .

وضع رجب الكراسة أمامه على مكتب العقيد فؤاد. وتناول من على المكتب قلم يونيبول جل أسود من المج السيراميكي الأبيض ذو العروة المليء بالأقلام، وأمسكه بين أصابعه اليمنى في وضع الاستعداد للكتابة.

قال العقيد فؤاد، وهو يتأهب للتحرك، وفي يسراه ورقة الملاحظات:

- خد وقتك في الكتابة وما تستعجلش، البيت بيتك طبعاً، وان احتجت أي حاجة إنده على سيدة واطلب منها اللي انت عايزه، ما تكسفش يا له، هه!

- ألف شكر يا افندم. قال رجب، وهو واقف يهز رأسه

احتراماً للعقيد فؤاد، الذي بدأ يتحرك نحو طرقة الشقة.

- أقعد أقعد، إن حبيت قهوة أو سندوتش أو أي حاجة إنده على سيدة، معلش انا هاستأذنك شوية بس كده أدخل آكل لقمة عشان السكر زي ما انت عارف، ويمكن أريَّح شوية بس كده، أفرد طولي بس ربع ساعة كده ولا حاجة.

- اتفضل سيادتك يا افندم، أنا هنا تمام، هاقعد اشتغل لغاية ما اخلص. قال رجب، وهو يهز رأسه احتراماً للعقيد فؤاد.

توجه العقيد فؤاد ناحية الطرقة، واختفى بداخلها. جلس رجب، وراح يهز قلم اليونيبول الجل الأسود بين سبابته وإبهامه الأيمنين.

أصيب بالسكر من الشغل، ولا عنده من الطفولة؟! عنده السكر من أول ما قابلته.

غطس رجب قليلاً في مقعده الجلدي الوثير، ووضع ساقه اليسرى على اليمنى. أخرج علبة سجائره المالبورو الأحمر من جيب قميصه الأبيض. فتحها، وسحب سيجارة ووضعها في فمه. التقط، من داخل العلبة، الولاعة البِك الفرنساوي الطويلة الخضراء، وأشعل السيجارة. وتلذذ بأول نفس.

ثلاث ساعات تقريباً دون تدخين! ممنوع التدخين في حضرة العقيد فؤاد. ليس تأدباً فقط، ولكن لأنه يكره رائحة السجائر. مع

أن مدام سالي، التي ترقد تحت عواد السائق، تدخن! مسموح بالتدخين في عدم وجوده، وعدم تواجد غادة حبيبة بابا. التكييفات، الشغالة باستمرار، تمتص الدخان، وتنقي الهواء. مرتب العقيد فؤاد يتحمل فاتورة تشغيل تكييف بكل حجرة، وهنا، في حجرة مكتبه، التي هي أيضاً المكتبة وصالة استقبال الضيوف، تكييفان شغالان باستمرار! حجرة مكتب في اتساع شقة كاملة! أرفف كتب في الأربعة أركان، وأنتريه وثير من الجلد للضيوف، ومكتب العقيد فؤاد، وهناك، في مقابله في آخر الصالة، مكتب أصغر عليه جهاز كمبيوتر. ربما يكون عليه الشغل. لكن مدام سالي الاسكندرانية المدملكة ساعات تلعب عليه جيمز. ومرة رأيت غادة حبيبة بابا تعبث في أزرار الكيبورد، في وجود بابا وماما! ده مصير ناس يا جدعان مش لعبة، مش كده!

تقرير في قناة الجزيرة الإخبارية عن مصر غالباً. الأهرامات. والنيل. ولقطات لشوارع وسط البلد. والأحياء الشعبية المكتظة. وطبعاً ها هي القمامة والوساخة التي لابد وأن تظهر في التقرير يا أولاد الكلب يا جزم! واللقطة المقررة علينا؛ راجل بالجلابية شايل عيش بلدي على ُشرّاعة على راسه وسايق عجلة في وسط الزحمة! يا عجلة يا ابن العجلة ياللي عامل التقرير!

مذيع الجزيرة المصري يسري فودة، بسحنة الأنيميا على وجهه! لو كان الصوت موجوداً، لسمعناه يعطش الجيم مثل الخلايجة. فين الجيم المصرية بتاعتنا يا بقف، ولا عشان قبضت!

عايش في أوروبا، وشغال مراسل للجزيرة بيسافر هنا وهناك ويمتع روحه!

هذا غالباً تقرير عن توقيع مصر لاتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي. سمعت عنها أمس في القنوات المصرية. اتفاقية مع أوروبا لتحديث الصناعة المصرية، وتحرير التجارة. حاجة حلوة. إن شاء الله البلد تبقى حلوة خالص، رغم أنف الحاقدين! ورغم أنف سامح شكري، حبيبي، هه هه هه! أعرف رأيه في الإصلاح الاقتصادي. والله برضه عنده حق، الدنيا مولعة، والحاجة أم قرش الواحد بقى يشتريها بخمسة! معلش الدوا المر زي مابيقولوا. البلد فيها مسؤولين فاهمين شغلهم، خلي المسؤولين يشوفوا شغلهم. وأوروبا نفسها بتساعدنا آهوه في الإصلاح الاقتصادي، ومبسوطة من الإنجازات عندنا.

نفض رجب رماد سيجارته، بخبط ظهرها بسبابته اليسرى، في منفضة السجائر البلورية المربعة الصغيرة على الطاولة الخشبية المستديرة أمامه.

مستحيل أن أدخن غيرها! ممكن أن أظل بلا تدخين إن لم تكن مالبورو حمراء. يمكن للمرء أن يفعل المستحيل للحصول على سجائره المفضلة!

أستطيع أن أدخن باقي العلبة قبل أن يرجع العقيد فؤاد من غفوته بعد الوجبة. باق في العلبة. إحدى عشرة سيجارة. أكثر من

ساعة ونصف من التدخين المتواصل، عال! كوسكينا قالت لي مرة بأن اليونانيين، في الريف، مازالوا يحسبون الوقت بمقدار تدخين السجائر! لا يقولون إنك ستصل إلى القرية التالية بعد ربع ساعة مشي، ولكنهم يقولون بمقدار ما تدخن سيجارتين! شعب يحب الحرية. خصوصاً الحرية في المواعيد، هه هه هه! إن ظننت أن المواعيد المصرية سيئة، فأنت لا تعرف شيئاً عن المواعيد اليونانية! إن أعطاك يوناني موعداً، فاذهب بعد الموعد بساعة، وستجده آتياً هو أيضاً لتوه. لم العجلة! شعب قديم ومدقدق في الحضارة. رأى كل شيء، وعرف كل شيء، ويعرف أن لا شيء يستاهل. أهم شيء الحرية. هي التي تمنحك إحساس الزهو بالنفس. بالكرامة. العجلة ضد الكرامة، ضد الشعور بالحرية. العجلة هي العبودية. شعب رايق! قالت كوسكينا مرة إن لفظ النجدة في اللغة اليونانية هو نفسه كلمة أسرعوا! طبعاً ما هو لازم تبقى فيه مصيبة! نحن أيضاً نقول في العجلة الندامة.

معلومات مفيدة جداً يا ابني يمكن الاستفادة منها في الحياة العملية! وينبهر الناس حين تذكرها أمامهم، تكسب احترامهم.

لكن مواعيدنا نحن غير المواعيد اليوناني! مواعيد الشغل مقدسة، أكثر من مقدسة! قد تتوقف حياتك كلها على دقتك في المواعيد، لا مستقبلك في الجهاز فقط!

وزير الخارجية أحمد ماهر يصافح واحدة؛ شكلها مندوبة الاتحاد الأوروبي. صدق توقعي، يا سلام عليك يا ابني! هي فعلاً

اتفاقية الشراكة بين مصر والاتحاد الأوروبي لتحديث الصناعة المصرية وتحرير التجارة.

البضائع الأوروبية تأتي عندنا. الشوكولاته، والبسكويت. والزيوت. والصلصات. والمياه المعدنية، والمياة الغازية. والسجائر. والبضائع المصرية تغزو الأسواق عندهم. البطاطس. والزهور. والبرتقال، والفراولة. والفول السوداني. والعسل الأسود. والجلود. وأهم شيء الاستثمار والمستثمرون الأوروبيون. ويا ريت يزيد عدد الأوروبيين في مصر، خصوصاً المستريحين مادياً. والمستريحات مادياً، هه هه هه! وآهو كله مصلحة!

تلفزيون سوني بلازما أربعة وعشرون بوصة. يمكن أن يصل ثمنه، بدون جمارك، إن كان العقيد فؤاد قد أدخله من الخارج بدون جمارك، على الأقل عنترة ألافات[1]! أرخص مدينة في أوروبا تشتري منها إلكترونيات هي لندن. خصوصاً إذا كنت ستسافر بمشترواتك لخارج إنجلترا. يرفعون عنها الضرائب حينذاك. مثيله في محلات العجيل بجامعة الدول العربية ثمنه، على الأقل، مشط ألافات[2]! يمكن الحصول على خصم يصل لعشرين في المائة من محلات العجيل، في شارع شريف، إن كنت تعرف أحداً هناك، أو تجيد المساومات. يتحجج البائعون

[1] عنترة ألافات: عشرة آلاف؛ بلهجة الخِرتية.
[2] مشط ألافات: عشرون ألفاً.

دائماً بسعر الدولار الذي ارتفع، لكي يغالوا في الأسعار. قرب يبقى بشامونيّا[1] في السوق السودة!

نفض رجب رماد سيجارته في منفضة السجائر البلورية على الطاولة الخشبية أمامه. سحب نفساً عميقاً من سيجارة المالبورو الحمراء، و كتمه لثوان في صدره، ثم نفثه متلذذاً على مهل من أنفه.

يا سلام لو كان معها فنجان قهوة!

انسحب إلى الداخل ليأكل وحده، لم يدعني للأكل معه ولو حتى من باب المجاملة!

قرب رجب معصمه الأيسر من عينيه، ونظر في الساعة الرادو الذهبية الفوياجير.

السادسة وتسع دقائق.

هدية حبيبتي شارلوت! قالت إنها مطلية بماء الذهب. ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه، على أقل تقدير! الله يمسيكي بالخير يا شارلوت!

موعد الغداء فات منذ زمن، وأنا في بيته، ولم يدعني للأكل

---

[1] شامونيّا: ثمانية.

معه. على كل حال، قال إن بإمكاني طلب سندوتش من سيدة. ساعات تطل برأسها من الطرقة لتتفقد ماذا أفعل! إن رأيت رأسها، سأطلب منه سندوتشاً، وفنجان قهوة.

فاطمة، أيضاً، كانت تأكل بمفردها. برغم أننا لم نكن نفارق بعضنا لا ليلاً، ولا نهاراً! قالت إنها اعتادت الأكل لوحدها، حكم العادة، أقوى حكم في الدنيا! تتسحب في الليل من حضني، عارية، إلى المطبخ، وتأكل هناك بسرعة، وترجع لحضني ثانية! لم أقل لها إنني أعرف أن هناك طوائف شيعية لا تأكل مع المخالفين لهم في المذهب. لماذا الإحراج! مادامت هي لم تفتح الموضوع، فلماذا أفتحه أنا! مسألة الدين كانت مسألة حساسة بالنسبة لها، كانت تتجنب الحديث فيها. وأنا برضه حسيس وافهمها وهي طايرة! خلينا بعيد عن الدين أحسن. خليكي على راحتك يا طمطم، اتسحبي من حضني لما تجوعي، وروحي كلي في المطبخ لقمة على الواقف، وارجعي لحضني تاني. وتلاقيه واقف برضه، هه هه هااا.

العقيد فؤاد ليس شيعياً طبعاً، هه هه هه! الموضوع بالنسبة له ليس اختلاف أديان، ولكن اختلاف رتب! الهيبة. الأكل من طبق واحد يجعل الناس تتجرأ على بعضها البعض. عشم بقى والروس تتساوى وكلنا ولاد آدم وحوا!

عنده حق، ألف حق، لو كنت مكانه لعملت مثله! لما أبقى مكانه سأعمل مثله. عداه العيب. سمح لي، مع ذلك، بطلب

سندوتش من سيدة. أين هي بنت الكلب، لماذا تأخر رأسها عن الطل!

نفض رجب رماد سيجارته في منفضة السجائر البلورية على الطاولة الخشبية أمامه. سحب نفساً عميقاً من سيجارة المالبورو الحمراء، ونفثه فوراً من فمه. شعر بالجوع يشتد عليه. عكس وضع ساقيه؛ فأركب اليمنى على ركبة اليسري.

بعد التدخين، لابد، حتماً، من تنظيف المنفضة جيداً، ورمي الرماد وأعقاب السجائر في باسكِت القمامة. الباسكِت البعيد الذي هناك، بجوار المكتب الصغير، لا باسكِت مكتب العقيد فؤاد. والأحسن أن نغطيه بورقة أو ورقتين إيه فور، لنحد من رائحة أعقاب السجائر، وأيضاً حتى لا يلاحظها العقيد فؤاد، فيعلق على شراهتنا في التدخين.

ماذا نكتب في التقرير؟ نكتب كل شيء كما قال العقيد فؤاد. وماذا سيفعلون معه؟! هل يمكن أن يعملوها معه كما عملوها مع عطية وزة؟!

طبعاً من المستحيل طرده! جميعنا نعرف أنه متى دخلنا، من المستحيل الخروج. هناك باب واحد فقط للدخول، ولا يوجد باب للخروج، ون واي أونلي! تكلفة فصل مرشد كبيرة، لا يستطيع الجهاز تحملها. مادام لم يخن، فإنهم يفضلون السيطرة على الشارد، ولكن بعد أن يعلموه الأدب!

طلبوا من ضابط بوليس في قسم السيدة افتعال خناقة مع عطية وزة، ثم ألقوا القبض عليه بتهمة التعدي على ضابط أثناء تأدية وظيفته. زجوا به في السجن لثلاثة أشهر، مع المجرمين، والمغتصبين، واللصوص. خرج بعدها كما الألف! وأفاده ذلك أيضاً في شغله. كانت سمعته قد تدهورت، وأصبح الجميع يرددون أنه مرشد، ولكن بعد أن ُألقي به في السجن، سكتت الأفواه، ولم يجرؤ أحد على القول مجدداً بأنه مرشد. والجهاز نفسه استفاد أيضاً. أكبر استفادة. أرسل رسالة قوية لكل من تسول له نفسه الشرود!

لكن تلفيق شرور لم يتعظ، ابن الكلب! يا ريت يعملوها معه! ونكون قد أدينا له خدمة من ناحية أخرى، هه هه هه! الوسخ، سمعته صارت على كل لسان! تلفيق شرور مرشد الأمن في وزارة الثقافة! تلفيق شرور الذي يشي بالمثقفين، ورواد مقاهي وسط البلد! تلفيق شرور الذي وشى بزوجته، نفسها، وبلغ عنها! مستحيل يعملوا معاه عملية صفرية. هو أصغر من ذلك. كان نفسي أنا اللي أعمل معاه العملية الصفرية! يللا معلش، له يوم قريب! الصبر جميل.

على خيرة الله.

يا بنت الوسخة، ماتطلي براسك الوسخة، جعان يا بنت الكلب عايز سندوتش!

وشرع رجب يكتب تقريره عن توفيق سرور؛ الشهير في وسط البلد بتلفيق شرور.

2

صمت العقيد فؤاد، حتى انتهت سيدة الخادمة من وضع المشروبات على المكتب أمامه، وعلى المنضدة الخشبية الصغيرة أمام رجب؛ حلبة حصى، وكوب ماء أمام العقيد فؤاد، وقهوة يونانية سكر زيادة، وكوب ماء أمام رجب. انسحبت سيدة الخادمة بصينيتها، واختفت في الطرقة.

استأنف العقيد فؤاد حديثه لرجب، مؤكداً عليه، من جديد، وجوب اتخاذ كافة الاحتياطات التي علمه إياها، وهو يقوم بنسخ شرائط الكاسيت للمقابلة التي ستجريها شلي وآبي مع حسن كاراتيه غداً. كما حذره من التهاون، أو الكسل، أو إغفال أي إجراء واحد من إجراءات التأمين. القفازات أولاً في اليد. ثم فحص دولاب الملابس، لاكتشاف أي تأمين تكون شلي قد قامت به لدرفتي الدولاب، أو الأرفف الداخلية؛ أي شعرة، أو خيط رفيع، أو أي شيء آخر غير ملحوظ، قد تلاحظه عينا رجب، اللتان أكد العقيد فؤاد له بأنهما قد أصبحتا الآن مدربتين على نحو ممتاز لاكتشاف التأمين المضاد.

وكرر له العقيد فؤاد القول بإن ذلك لا يعني بأن هناك احتمال لأن تكون شلي قد باتت تشك فيه، ولكن التأمين المستمر يصبح عادة، وإجراء روتينياً لدى المندوبين، وليس لدى شلي فقط،

وبغض النظر عن ما إذا كانت تشك، أو لا تشك، تماماً مثلما أصبح نفس الأمر هو عادة روتينية بالنسبة لرجب أيضاً.

وأكمل العقيد فؤاد التلقين قائلاً؛ إنه بعد فحص الدولاب من الخارج، والداخل، على رجب أن يقوم بفحص دقيق لمكان الشرائط لمعرفة ما إذا كان هناك تأمين حولها، أم لا؟ ثم يقوم بسحبها، شريطاً شريطاً، ويسجل كل منها على حدة، ولا يقوم بإخراجهم جميعاً من الدولاب في نفس الوقت، بل يخرج فقط الشريط الذي سيقوم بتسجيله، ثم يعيده لمكانه بالضبط بعد الانتهاء من تسجيله، ثم يضع الشريط الكوبي في المخبأ السري، ويؤمن المخبأ أولاً، قبل أن يعود لتسجيل شريط جديد.

- ده مهم جداً يا رجب، أوعى تسيب الشرايط الأصلية والكوبيز متكومة حواليك في كل حتة! مش بس لإن ده خطر إن طب عليك حد فجأة، لكن كمان لإن الشرايط ممكن جداً تتلخبط مع بعض، واخد بالك، أو ممكن تنسي واحد فيهم في أي حتة، في كل مرة تاخد فيها شريط من الدولاب ترجعه مكانه بالضبط وتاخد كل إجراءات التأمين، فاهم، ده مهم جداً! قال العقيد فؤاد.

- تمام سيادتك يا افندم، اطمن حضرتك دي مش أول مرة. قال رجب، وهو يهز رأسه بجدية مؤكداً للعقيد فؤاد.

- حتى لو كانت المرة الألف! ها افضل برضه أنبهك كل مرة! أوعى التهاون في احتياطات الأمن يا ابني، أوعى! إلا

احتياطات الأمن! ده مهم جداً، إنت عارف إيه اللي وقع أكبر جواسيس في العالم، وعلى مر التاريخ؟! سأل العقيد فؤاد رجب بمنتهى الجدية.

- النسوان حضرتك؟! رد رجب بصوت متسائل، وهو شبه متيقن من صحة الإجابة.

- برافو عليك، تمام، مضبوط، إحنا بنسميه على فكرة الفخ المعسول بالمناسبة عشان تبقى عارف يعني. أوضح العقيد فؤاد، وأكمل قائلاً:

- بس فيه كمان سبب تاني يجي قبل الحريم كمان، عارف إيه؟! الغرور، الغرووور! قال العقيد فؤاد وهو يؤكد على الكلمة الأخيرة بمد الواو.

وبدأ العقيد فؤاد يشرح لرجب ما يعنيه، فقال إن معظم الجواسيس الكبار يجيدون عمل كنترول على موضوع الشهوة، بالرغم من أن بعضهم يسقط لهذا السبب، خصوصاً المثليون منهم، لكن حتى في هذه الحالة أيضاً، يكون الغرور هو السبب الأول للسقوط في الفخ المعسول.

وأوضح العقيد فؤاد أن الغرور هو بمثابة الحطب الذي لا تشتعل نار شهوة المندوب إلا بتوافره، وأنه هو نقطة الضعف التي سقط بسببها كبار الجواسيس، وأذكاهم، على مر التاريخ. يحالف المندوب من هؤلاء النجاح والتوفيق في كل خطوة،

ويحقق انتصارات باهرة، وفي وقت قصير، فيُدهش هو نفسه لسهولة الأمر، ويؤمن إيماناً جازماً بأنه عبقري. وهنا يبدأ في الاستهانة بالناس من حوله، وينتهي به الأمر إلى إهمال إجراءات التأمين الشخصي، والتهاون في أبسط قواعد الأمان، على اعتبار أن الجميع أغبياء وحمقي. وفي النهاية، يسقط سقوطاً مفجعاً، ويكون السقوط في الغالب بسبب مبدأ أولي، وبدائي جداً، تم إهماله في إجراءات التأمين الشخصي.

- فجأة ينسى ألف به اللي اتعلمه في أول درس! قال العقيد فؤاد، وعلامات الجدية والصرامة على وجهه.

هز رجب رأسه عمودياً بجدية.

تناول العقيد فؤاد الملعقة من على طبق كوب الحلبة، وراح يقلب المشروب عدة مرات. ثم أعاد الملعقة مكانها تماماً على الطبق. وتناول الكوب وشفط شفطة من شراب الحلبة بتمزز، ثم وضع الكوب أمامه. وقال:

- إنت عارف إن أعظم الجواسيس اللي سمعنا عنهم على مر التاريخ، أقوى وأذكى العقول اللي سمعنا عنها، كلهم وقعوا في الآخر بسبب خطأ بسيط ساذج شديد السذاجة في إجراءات التأمين!

- يااه معقول! قال رجب وهو يفتح عينيه على اتساعهما ليؤكد للعقيد فؤاد دهشته من المعلومة.

- بس بقى فيه ناس تانية أعظم وأذكى من أعظم الجواسيس اللي وقعوا دول، عارف هما مين؟! سأل العقيد فؤاد مضيقاً عينيه.

- مين يا افندم؟ رد رجب، وهو حريص على إبداء علامات الفضول الشديد، وعيناه مازالتا مفتوحتين على اتساعهما.

- آهم دول بقى اللي عمرنا ما سمعنا ولا هانسمع عنهم أبداً! التاريخ نفسه ما يعرفهمش! دول اللي فضلو يشتغلوا طول عمرهم من غير ما حد يكشفهم، ولا عمرهم وقعوا ولا مرة واحدة في الأخطاء الهبلة العبيطة دي! لا اتقبض عليهم، ولا اتكشفوا، وبالتالي ما حدش سمع عنهم ولا يعرف عنهم أي حاجة من أصله! بالمناسبة، إنت سمعت عن حد اسمه إيلي كوهين؟! سأل العقيد فؤاد رجب، وقد قرر تعليمه حكاية مفيدة.

- لا للأسف حضرتك ما سمعتش عنه قبل كده! قال رجب بتواضع، وقد خمن أن العقيد فؤاد يوشك أن يلقنه حكاية مفيدة.

- إيلي كوهين ده بقى يا سيدي كان جاسوس إسرائيلي زرعه الموساد في سوريا زمان، في أوائل الستينات، وكان جاسوس عبقري، لدرجة إنه وصل إنه يبقى مرشح لمنصب وزير الدفاع في سوريا، بل ومرشح لمنصب رئيس وزراء سوريا، بل، وكان مرشح إنه يبقى رئيس جمهورية سوريا نفسها! تخيل بقى!

- يااه! للدرجة دي يا افندم! أفلتت صيحة دهشة من رجب.

- وعارف اتكشف إزاي؟! لإنه َتهاون في يوم من الأيام في إجراء بسيط جداً من إجراءات التأمين! تصدق! مخ بالحجم ده وبالذكاء ده ويقع لإنه تهاون في ألف به اللي بنعلمها للمبتدئين في أول درس! الغرور يا ابني بقولك الغرور! ومش هوّ بس، لأ ده تاريخ الأجهزة مليان باللي زيه! اتغروا في قدراتهم وفي ذكائهم فافتكروا اللي حواليهم حمير، وتهاونوا في إجراءات التأمين، عباقرة بقى وبقية الناس بهايم! وكانت النتيجة إيه! اتقبض عليهم ووقعوا!

هز رجب رأسه أفقياً باشمئزاز وهو يزم شفتيه، وقد اتسعت الفتحة اليسرى لأنفه، ليؤكد للعقيد فؤاد اشمئزازه من هؤلاء.

- اشرب قهوتك. قال العقيد فؤاد لرجب، مشيراً بذقنه إلى فنجان القهوة الموضوع على الطاولة الخشبية الصغيرة أمام رجب.

- ألف شكر يا افندم. قال رجب، وانحنى بجذعه قليلاً إلى الأمام، وتناول طبق الفنجان بين يديه. رفع الفنجان لفمه، ورشف أول شفطة من القهوة، محاذراً أن يصدر أي صوت من فمه.

أراح العقيد فؤاد ظهره على الكرسي الجلدي البني الوثير، وقرر استئناف حكايته لرجب بالتفصيل.

قال العقيد فؤاد إن إيلي كوهين كان اسمه إلياهو شاؤول كوهين، يهودي، ولد في الاسكندرية عام ألف وتسعمائة وأربعة

وعشرين. وعندما بلغ سن العشرين، انضم إلى منظمة الشباب الصهيوني، عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين. وفي تلك المنظمة، تخصص في نشاط حث اليهود المصريين على الهجرة إلى فلسطين. حتى وصل إلى مصر الجاسوس الإسرائيلي جون دارلنج؛ لتأسيس شبكة من الجواسيس من شباب اليهود في مصر، فانضم إليهم إيلي كوهين، في أوائل الخمسينيات، وكانت مهمته هي تفجير بعض المحلات اليهودية في الاسكندرية، والقاهرة، لإشاعة الذعر بين اليهود في مصر، ودفعهم للهجرة إلى إسرائيل. ثم قاموا بعد ذلك بتنفيذ سلسلة تفجيرات لمنشآت أمريكية في مصر، لتخريب العلاقة بين أمريكا وبين حكومة مصر بعد ثورة يوليو.

وأضاف العقيد فؤاد أن إيلي كوهين هرب بعد ذلك إلى إسرائيل، والتحق بجيش الدفاع الإسرائيلي، في البداية. ثم انضم للمخابرات الحربية الإسرائيلية، بعد ذلك. وحاولت إسرائيل زرعه في مصر، من جديد، أيام العدوان الثلاثي على مصر،عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، لكن المخابرات المصرية كانت متيقظة، فتم القبض عليه. وبعد الإفراج عنه، عاد إلى إسرائيل، وقام الموساد بتجهيزه لزراعته في دمشق. فدربوه على إجادة اللهجة السورية، والكتابة بالحبر السري، وعلى استخدام أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكية. وعلموه أيضاً أساسيات تعاليم الدين الإسلامي، فحفظ بعض السور والآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية. وجعلوه يحفظ أسماء كبار رجال السياسة،

والتجارة، وقادة الجيش في سوريا. ولقنوه أهم سمات الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في سوريا. ثم اخترعوا له تاريخاً جديداً باسم؛ كامل أمين ثابت، سوري، مسلم سني، هاجرت عائلته من دمشق إلى الاسكندرية، ثم من الاسكندرية إلى بوينس آيرس في الأرجنتين في منتصف الأربعينيات، وعملت هناك في تجارة الأقمشة.

وقال العقيد فؤاد إن الموساد سَفَّر إيلي كوهين بالفعل إلى بوينس آيرس، عام ألف وتسعمائة وواحد وستين، وهناك تعلم اللغة الاسبانية باللكنة الأرجنتينية. وساعده عملاء إسرائيل في الأرجنتين، حتى يظهر في المجتمع الأرجنتيني كرجل أعمال من أصل سوري. وظهر، فعلاً، أمام الجالية العربية في الأرجنيتن كقومي عربي، متحمس للعروبة والوحدة العربية. وأصبح نجماً هناك في كل الندوات التي تقيمها الجالية العربية، وفي كل المناسبات، والاحتفالات العربية، وصديقاً لكل الدبلوماسيين العرب. وأقام علاقات صداقة قوية، بالذات، مع الدبلوماسيين السوريين في سفارة سوريا في الأرجنتين، وصداقات كثيرة مع رجال أعمال سوريين مقيمين في الأرجنتين.

قال العقيد فؤاد إنه بعد ذلك بفترة وجيزة، أشاع إيلي كوهين وسط الجالية العربية في الأرجنتين بأنه يرغب في العودة إلى وطنه الأم سوريا. فساعده أصدقاؤه في الجالية السورية هناك، وأعطوه عناوين أقربائهم في سوريا، وبعثوا إلى أقربائهم أولئك رسائل توصيهم به خيراً. وهكذا، فعندما سافر إيلي كوهين إلى

دمشق، في عام ألف وتسعمائة واثنين وستين، كان لديه، بالفعل، معارف وأصدقاء مهمين في سوريا، حتى قبل أن تطأ قدماه أرض سوريا. ثم، وعن طريق تردده على بيوت أصدقائه السوريين الجدد، خدمه الحظ، فتعرف على بعض قيادات الجيش السوري، وبعض كبار المسؤولين في الحكومة السورية، والإعلام السوري. وهكذا راح يرسل معلومات هامة وخطيرة جداً لإسرائيل؛ حول التحركات العسكرية لوحدات الجيش السوري، وقدراته التسليحية، ومعلومات عن الحالة السياسية، والاقتصادية. وأصبح إيلي كوهين بالنسبة لإسرائيل دجاجة تبيض ذهباً كل يوم، خصوصاً بعد أن نجح في توسيع علاقاته في المجتمع السوري، لدرجة أن أقرب أصدقائه وصديقه الأنتيم في سوريا، كان ضابطاً مهماً في الجيش السوري؛ هو ابن أخت وزير الدفاع السوري شخصياً.

- وعارف إزاي قدر يوصل لشبكة العلاقات الخطيرة والحساسة دي كلها، وفي وقت قصير؟! سأل العقيد فؤاد رجب بابتسامة ترقب، متوقعاً إجابة صحيحة من تلميذه.

أشار رجب بسبابته اليسرى عالياً وهو يقول بشبه يقين:

- النسوان يا افندم؟!

- هه هه هااا لأ مذاكر يا وله! قهقه العقيد فؤاد مسروراً من ذكاء تلميذه.

رفع العقيد فؤاد جذعه قليلاً، بالاعتماد براحتيه على مسندي مقعده الجلدي، وأكمل الحكي لرجب قائلاً؛ إن إيلي كوهين قد أجَّر شقة فخمة في دمشق، وعمل منها ماخوراً، وكان أصحابه من المهمين، وذوي المراكز العليا في سوريا، يترددون على صديقهم الموثوق به؛ ليلتقوا بالسكرتيرات، ومضيفات الطيران، والممثلات، والمغنيات، بل وحتى بعض المومسات من الدرجة الأولى الممتازة، بل وأيضاً ببعض بنات العائلات الراقية، بل وحتى ببعض زوجات رجال الأعمال والسياسة.

ضحك رجب.

- وطبعاً الباشا صاحب الشقة لازم يكون موجود في أوقات اللقاءات الغرامية، لزوم تجهيز الأمور! وساعات كتيرة كان هوّ بنفسه اللي بيجيب النسوان بمعرفته للكبرات اللي ما بيعرفوش يعملوا علاقات بنفسهم، وطبعاً قبل الجنس وبعد الجنس بيبقى الجو جو حديث ورغي، والكلام ساعتها بيبقى على حريته، في أدق أمور الشغل، والأسرار الحساسة، وأدق تفاصيل الدولة الخطيرة، وكله بمنتهى البراءة والطبيعية! يعني الشقة مش بس كانت ماخور للجنس، لأ دي كمان كانت وسيلة خطيرة جداً عشان صاحبنا يتعرف على الكبار كلهم، اللي في أكبر مناصب حساسة في الدولة، وطبعاً كل أسرار الدولة بتتقال ساعتها في القعدات الحلوة دي! كل واحد يتفشخر ويتباهى بهوّ عمل إيه، أو يلسن على زميله، أو المنافس بتاعه اللي متغاظ منه، أو حتى يشتكي من الشغل والمسؤوليات إلى آخره، والناس طبعاً في

المواقف دي بتحب تفضفض وتاخد راحتها في الكلام! بيتقال عليها شهوة الكلام. قال العقيد فؤاد.

هز رجب رأسه عمودياً مرتين بقوة وحماسة.

كل إنسان هو منشد يحتاج إلى سمِّيعة، هذه حقيقة أعلمها جيداً، وأطبقها دائماً والحمد لله.

استرسل العقيد فؤاد قائلاً إن المهم في الحكاية أن الأخ إيلي كوهين، الذي هو كامل أمين ثابت، ظل، ولمدة ثلاث سنوات ونصف بالتمام والكمال، يرسل للمخابرات الإسرائيلية أهم المعلومات الحساسة، وأدق التفاصيل السرية، عن حالة الجيش السوري، ووضع المجتمع، والسياسة، والاقتصاد، في سوريا. وفي هذه الأثناء، وسَّع أكثر وأكثر من دائرة علاقاته المهمة؛ فأصبح صديقاً مقرباً من كبار قادة الجيش، وكبار السياسيين في سوريا، وكان، من قبيل المعتاد، أن يقوم بزيارات مفاجئة، وبدون مواعيد مسبقة، لأصدقائه هؤلاء في مقار أعمالهم، ويأخذ هؤلاء في التحدث معه، بوصفه صديقهم المقرب، محل ثقتهم، والذي يستضيفهم مع عشيقاتهم في شقته ويحافظ على أسرارهم الشخصية، عن الخطط الاستراتيجية والتكتيكية للجيش السوري في حال نشوب حرب مع إسرائيل، وعن صفقات الأسلحة التي نجحوا في إبرامها، وعن أعداد طائرات السوخوي السوفيتية التي يمتلكها سلاح الطيران السوري، ومستوى تسليحها، وإمكانياتها الفنية، وأعداد ونوعية الدبابات، والغواصات السوفيتية التي

اشتراها الجيش السوري من الاتحاد السوفيتي، وإمكانياتها الفنية، وأماكن توزيعها وتمركزها. وهكذا أصبحت أدق أسرار الجيش السوري، بالكامل، في حوزة المخابرات الإسرائيلية، وبالإضافة إلى كل هذا، أرسل إيلي كوهين، أيضاً، إلى الموساد أسماء أهم الضباط السوريين، ورتبهم، ومهام عملهم، ومواقع وحداتهم القتالية.

- لدرجة إن ابن الكلب ده كان بيصور التحصينات الدفاعية للجيش السوري على الجبهة، ويبعت الصور لإسرائيل! كان بيزور صحابه الضباط السوريين على الجبهة، يعمل نفسه بيتمشى معاهم على الجبهة ويقوم مصور بكاميرا صغيرة في الساعة اللي لابسها! أضاف العقيد فؤاد منفعلاً باستياء.

وأكمل، وقد زاد استياؤه، وهو يشير بعصبية بيسراه، ويعد على أصابعه:

- الخلاصة يا ابني إنه بعت للموساد كل الخطط الدفاعية والهجومية للجيش السوري! وأماكن تمركز الوحدات القتالية، وتفاصيل كل صفقات الأسلحة، وأماكن تواجد منظمة التحرير الفلسطينية، اللي كانت بتتدرب وقتها في سوريا، كفاية أقولك إنه بعد التلات سنين ونص دول، كان ابن الكلب ده رستأ نفسه في سوريا، لدرجة إنه بقى قيادي في حزب البعث الاشتراكي اللي كان بيحكم سوريا وقتها، وبقى مرشح لمنصب وزير الدفاع، ومرشح لمنصب رئيس حزب البعث، ومرشح لرئاسة الوزرا، بل

ومرشح لرئاسة سوريا نفسها!

- يااااه! صاح رجب بدهشة، وبآهة طويلة، حرص على أن تبدو كآهة سميّع مخلص انتشى من أداء منشده.

- هل تعلم إن ابن الكلب ده يُعتبر مسؤول من المسؤولين الأساسيين عن نكسة سبعة وستين! قال العقيد فؤاد بحدة.

- معقول يا افندم؟! وهوّ فضل يشتغل لغاية سبعة وستين من غير ما يتكشف؟! سأل رجب فاغر العينين.

- لأ طبعاً اتقبض عليه، في خمسة وستين، مايو خمسة وستين. قال العقيد فؤاد.

شرح العقيد فؤاد لرجب أنه، وبالرغم، من القبض على إيلي كوهين، فإن المعلومات التي أرسلها لإسرائيل ساعدتها أكبر مساعدة في الحرب. وأنه، وحتى هذه اللحظة، لا تعرف المخابرات السورية، ولا حتى المخابرات المصرية، على وجه الدقة، ماذا أرسل إيلي كوهين للموساد، وماذا لم يرسل؟ ماذا عرف، وماذا لم يعرف؟ وإنه، وإلى عهد قريب جداً، لم يكن أحد يعلم بالضبط حجم الكارثة التي تسبب فيها إيلي كوهين، وحجم المعلومات الخطيرة التي استطاع إرسالها إلى إسرائيل، إلى أن قام بعض قادة جيش الدفاع الإسرائيلي، مؤخراً، بالحديث عن تاريخ حرب سبعة وستين في الإعلام، ونشر بعض عملاء السي آي إيه مذكراتهم؛ التي تناولوا فيها تلك المرحلة، لأن ابن الكلب

ذاك، وبالرغم من أنه كان ضابطاً في الموساد، إلا أنه كان، بحكم عمله، يتعاون مع عملاء آخرين من السي آي إيه، وألمانيا الغربية، وفرنسا، وغيرهم.

وأضاف العقيد فؤاد إن من الأشياء التي تم كشف النقاب عنها مؤخراً، أن إيلي كوهين، وبحكم كونه قيادياً في حزب البعث الحاكم في سوريا، ومستشاراً لوزير الدفاع السوري، كان يقوم بزيارات منتظمة للجبهة السورية. وفي إحدى تلك المرات، قام بجولة في جبهة الجولان، ثم عاد من الجبهة ليقترح على المسؤولين السوريين زراعة أشجار، في أماكن معينة على الجبهة، لأنه أثناء جولته الميدانية هناك أشفق على الجنود الغلابة المعرضين للهيب الشمس والحرارة القائظة طوال ساعات النهار. وفعلاً، قامت الحكومة السورية بزراعة تلك الأشجار التي اقترحها، وفي نفس الأماكن التي حددها لهم إيلي كوهين، وأصبحنا نعرف الآن بأنه قد أرسل صور تلك الأشجار إلى الموساد، وأن الجيش الإسرائيلي قام باستخدامها في حرب سبعة وستين؛ كعلامات إرشادية عن الأماكن الحيوية التي لها الأولوية في الاقتحام على الجبهة السورية، وهذا هو سبب سقوط الجولان بسهولة في أيدي الجيش الإسرائيلي.

- ابن الكاااالب! قال رجب مشدوهاً.

- هه هه هه، يعني تقدر تقول كده إنه أقنع الحكومة السورية إنها تزرع علامات إرشادية لإسرائيل على حسابها! عشان ترشد

إسرائيل لأهم مواقع استراتيجية على الجبهة السورية! قال العقيد فؤاد بابتسامة ازدراء.

- طب وازاي وقع يا افندم؟ قبضوا عليه ازاي؟ سأل رجب بلهفة.

- أيوااا، إزاي وقع؟! هوّه ده بقى مربط الفرس اللي حكيت لك القصة دي كلها عشان نوصله، إزاي وقع، وقع نتيجة خطأ أهبل ساذج ما يقعش فيه إلا اللي مخه اتلحس بالغرور، طبعاً، ما هو على وش رئيس حزب البعث، أو رئيس الوزرا، أو حتى رئيس الجمهورية، فازاي يعمل حساب للبهايم دول! يا عيب الشوم! قال العقيد فؤاد بحماس، وهو يحرك يسراه في الهواء.

أكمل العقيد فؤاد، بنفس الحماس، قائلاً إن الباشا إيلي كوهين كان قد تم تلقينه، منذ بداية تدريبه في أول يوم له في الشغل، أن عليه تدوين المعلومات التي يحصل عليها بالحبر السري، ثم يقوم بإرسالها إلى إسرائيل؛ عن طريق تسليمها لعملاء إسرائيليين في أوروبا، أو في لبنان التي كان يزورها كثيراً، وأحياناً كان يتم توصيل المعلومات شفوياً عن طريق هؤلاء العملاء أيضاً، وفي أحيان قليلة جداً، وفي حالات الضرورة القصوى فقط، كان مسموحاً له بأن يقوم بإرسال المعلومات باستخدام جهاز إرسال لاسلكي، ليس من دمشق نفسها بالطبع، ولكن من خارج دمشق؛ من ريف دمشق. وتم التأكيد عليه، منذ البداية، أنه ممنوع استخدام جهاز الإرسال داخل شقته منعاً باتاً. ولكن الباشا، الذي

أوصله الغرور إلى درجة الاستهانة بأوليات إجراءات السلامة الشخصية، راح يرسل المعلومات باللاسلكي من داخل شقته في دمشق. وكانت المخابرات السورية، في ذلك الوقت، قد بدأت تشعر بأن إسرائيل أصبحت تحصل على معلومات خطيرة عن سوريا، وأن هذه المعلومات سرية، وحساسة جداً، وغير متاحة إلا لفئة قليلة جداً من كبار القادة العسكريين والسياسيين السوريين.

- ولو سألتني إزاي اتأكدت المخابرات السورية من الموضوع ده، هاقولك إن احنا اللي بلغناهم بالمعلومة. قال العقيد فؤاد بثقة.

- معقول يا افندم! صاح رجب بدهشة وفخر.

- ايوه إحنا اللي بلغناهم بالمعلومة. أكد العقيد فؤاد بهدوء.

شرح العقيد فؤاد هذه النقطة لرجب قائلاً إن الفضل في ذلك كان للبطل رفعت الجَمَّال، الذي عرف، وهو هناك في إسرائيل، ومن خلال محادثاته مع ضباط أصدقائه في الموساد، بأن الموساد قد أصبح يعرف معلومات حيوية وحساسة جداً عن الجيش السوري؛ لا يمكن أن يعرفها إلا كبار القادة العسكريين السوريين فقط. فأخبر بذلك محمد نسيم قلب الأسد، في أول مرة تقابلا فيها بعد ذلك في أوروبا، وكان رفعت الجَمَّال يحمل لمحمد نسيم معلومات محددة، وتفصيلية، حصل عليها الموساد عن الجيش

السوري. فنقل قلب الأسد المعلومة إلى صلاح نصر، الذي نقلها بدوره إلى الرئيس جمال عبد الناصر، الذي أمر فوراً بإعلام الرئيس السوري شخصياً بالموضوع.

قال العقيد فؤاد إن السوريين بعد أن وصلتهم المعلومة، وبعد أن تأكدوا، من شواهد أخرى، على صدق معلومة جهازنا، حاولوا المستحيل العثور على ذلك الجاسوس الذي يسرب المعلومات إلى إسرائيل؛ ففتشوا وقلبوا الدنيا لعدة أشهر، دون جدوى، واضطروا أخيراً إلى الاستعانة بالمخابرات السوفيتية، الكى جي بي. فقامت الكى جي بي، وقتها، باستعمال أحدث ما لديها من أجهزة كشف الاتصالات اللاسلكية. وفعلاً، حددوا مكان شقة الأخ إيلي كوهين، واقتحموا الشقة، ليجدوا الباشا جالساً، واضعاً ساقاً على ساق، ويقوم بإرسال معلومات باللاسلكي إلى إسرائيل، فقبضوا عليه، وحاكموه، وأعدموه في ميدان عام. لكن الضرر الذي تسبب فيه استمر لعدة سنوات، حتى حرب سبعة وستين، وما بعدها أيضاًً.

- دي قصة واحدة بس من قصص كتيرة جداً عن ناس عباقرة في الشغلانة، وقعوا نتيجة الاستهانة بمبادئ التأمين الشخصي، أوعى يا رجب، أوعى! مهما كان اللي حواليك أغبيا أو بهايم، إجراءات التأمين الشخصي دي عشانك إنت، مش مرتبطة بإذا كان اللي حواليك أذكيا ولا أغبيا، فاهم؟! قال العقيد فؤاد مؤكداً بصيغة السؤال.

- تمام سيادتك دي ها تفضل حلقة في ودني طول عمري! قال رجب، وهو يهز رأسه مؤكداً بامتنان.

وخطرت على باله فجأة مقارنة شيقة، فأحب أن يثير إعجاب العقيد فؤاد، فقال مبتسماً في سرور:

- بس حضرتك كده يا افندم يبقى رفعت الجَمَّال أقوى من إيلي كوهين!

- طبعاً، طبعاً وبدون شك، طبعاً، برافو عليك! رفعت الجَمَّال لا يمكن أبداً إنه يقع في غلطة هبلة بالشكل ده! قال العقيد فؤاد بحماس.

شعر رجب بالسرور، لأنه وفق في قول مقارنة صائبة، ولأنه استطاع إثارة حماسة العقيد فؤاد بلمس وتر حساس في نفسه.

- وانت برضه ان شاء الله هاتبقى زيه، وأحسن كمان، بس تلتزم باللي بقولك عليه، وتمشي على التعليمات. قال العقيد فؤاد وهو يتأمل وجه رجب.

- حاضر يا افندم، ده كله بتوجيهات حضرتك والله وتعب سيادتك معايا. رد رجب وقد اجتاحه السرور والشعور بالعرفان للعقيد فؤاد.

- لا يا ابني انت ذكي وإمكانياتك حلوة، والفرص كلها

مفتوحة قدامك، إنت عارف إن الفرص اللي قدامك دلوقتي، أكبر بكتير جداً من الفرص اللي كانت موجودة أيام رفعت الجَمَّال! إنت شفت المسلسل بتاع جمعة الشوان طبعاً مش كده؟!

- أيوه طبعاً يافندم. قال رجب، وأكد بهز رأسه بقوة.

- آهو المسلسل ده عن قصة حقيقية فعلاً، تخيل انت بقى كل العملية دي من أولها لآخرها، وكل الفلوس اللي اتصرفت، والسفر لأوروبا، وتجنيد عملا، وعمليات وعمليات مضادة، وكل ده في الآخر كان بهدف إيه؟! إننا نجيب من إسرائيل جهاز لاسلكي صغير قد كده! شوف انت بقى أي محمول دلوقتي والإمكانيات اللي فيه قد إيه! أكتر مليون مرة من الجهاز بتاع جمعة الشوان، مليون مرة! قال العقيد فؤاد مؤكداً.

هز رجب رأسه مؤيداً بابتسامة عريضة.

وتابع العقيد فؤاد كلامه، وقال إن الإمكانيات المتاحة في هذا العصر هي إمكانيات مهولة، وإن العصر نفسه هو عصر المعلومات أولاً وقبل أي شيء آخر، وإن المعلومات الآن هي التي تحرك كل شيء؛ السياسة، والاقتصاد، والحرب، والسلام، ومن لديه المعلومة الأدق، وفي الوقت الصحيح، أي في الوقت الأبكر من الآخرين، يستطيع كسب معاركه كلها.

- بص كده حواليك وشوف التهديدات اللي حوالينا، ماعدش دلوقتي ينفع تكافح الفوضى بعد ما تحصل الفوضى، لأ، لازم

تمنع الفوضى أصلاً قبل ما تحصل، من هنا بقى تيجي أهمية المعلومة، المعلومة الصح في الوقت الصح، ولا يستوي الذين يعلمون، والذين، إيه؟ لا يعلمون! صح ولا إيه! ده عصر المعلومات يا ابني والشاطر في المجال ده والموهوب، المستقبل مفتوح له بلا حدود، بلا حدود! وزي أي شغلانة، عشان تتقنها لازم تتعلم أصولها، ولازم تلتزم بالأصول دي، وأول وأهم حاجة في شغلانتنا، هو عدم التهاون في احتياطات الأمن، لابد من اتباع ده حرفياً يا رجب بدون أي تهاون وانت بتنسخ الشرايط، فاهم. أعاد العقيد فؤاد التأكيد على هذه النقطة من جديد.

- تمام سيادتك يا افندم، اطمن حضرتك. طمأن رجب العقيد فؤاد بهزتين عموديتين قويتين من رأسه.

اعتدل العقيد فؤاد في جلسته، بالاستناد على راحتيه على مسندي مقعده، وأقام ظهره. تناول كوب الحلبة من أمامه، وراح يرشف منه رشفات متتالية بتمزز، حتى أتى على المشروب كله وتخلف حصى الحلبة المنقوعة في قعر الكوب، فوضع الكوب الفارغ على المكتب أمامه، وتناول المعلقة، وأخذ ملئها من الحلبة الطرية، وملئ بها فمه، وراح يلوكها على مهله. ثم قال لرجب، وأسنانه تطحن الحلبة المطبوخة:

- على فكرة، فيه فرق مهم جداً، بين رفعت الجَمَّال، وبين إيلي كوهين، عارف هوّه إيه؟!

- إيه يا باشا؟ تساءل رجب بفضول.

بلع العقيد فؤاد الحلبة المطبوخة التي طحنتها أسنانه، وهو ينظر بثبات لرجب، بينما طرف لسانه يفتش عن حبات قد تكون مختبئة هنا أو هناك بين الأسنان واللثة. ثم صدرت بعض أصوات المصمصة من فمه، وتناول كوب الماء من أمامه، وشرب نصفه، وأعاده لمكانه. وقال أخيراً لرجب بهيئة جادة رصينة:

- رفعت الجَمَّال كان بيشتغل لصالح النظام، في حين إن إيلي كوهين كان بيشتغل لصالح الفوضى.

سكت العقيد فؤاد لحظة. ثم أكمل قائلاً:

- ما قصدش بالنظام النظام السياسي مثلاً، أو حتى النظام الأمني، لأ، أقصد بالنظام النظام عموماً، فكرة النظام نفسها، فضيلة النظام، النظام ده يا ابني هوّه القانون الأعلى في الكون كله**!** رفعت الجَمَّال كان بيشتغل لمصر في إسرائيل، في خدمة فضيلة النظام، في حين إن إيلي كوهين، كان بيشتغل لإسرائيل في سوريا، في خدمة رذيلة الفوضى.

هز رجب رأسه عمودياً عدة مرات، على مهل، رافعاً حاجبيه، مفتوناً بالمعلومة.

أكمل العقيد فؤاد:

- وتأكد دايماً يا ابني، وعايزك تفتكر الكلام ده، إن مافيش إنسان بيشتغل في خدمة النظام، إلا وينجح، وينتصر، وربنا يرضى عنه ويوفقه، وفي نفس الوقت، مافيش حد بيشتغل في خدمة الفوضى، إلا ويخسر وربنا يفضحه، دي مسألة يقينية مؤكدة، وانت بنفسك حتى حاول كده تلاحظها في اللي حواليك، ها تتأكد إن اللي بقولهولك ده هوّ القانون الإلهي بعينه!

- تمام يا افندم أنا حضرتك والله مقتنع جداً بكده، وفعلاً لاحظت الموضوع ده قبل كده، بس للأسف يعني ما كنتش أقدر أعبر عنه بالطريقة العظيمة اللي سيادتك قولتها يعني! قال رجب بمنتهى الجدية.

فعلاً النظام فضيلة، ونحن حراسه! لذلك يسترها معنا الملك.

هيأ رجب نفسه لسماع محاضرة عظيمة من محاضرات العقيد فؤاد. هناك شيء، لا يستطيع رجب تحديده بدقة، يبدو دائماً في هيئة، ونبرة، ونظرة العقيد فؤاد، ينبهه، وفي كل مرة، بأنه على وشك خصه بمحاضرة من محاضراته القيمة التي يتعلم منها الكثير.

الحمد لله يبقى الراجل راضي علينا! ألف حمد وشكر.

يعرف الكثير بحكم شغله. ويقرأ الكثير جداً من الكتب أيضاً. هذا ما يجعله مميزاً بين أقرانه في الجهاز. يكلفونه بالمهام الحساسة والخطيرة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالمثقفين. أو

مراكز الأبحاث، والإعلام، وحقوق الإنسان. وحتى الدبلوماسيين، والعاملين الأجانب في مصر. في مكتبته عشرون ألف كتاب، على أقل تقدير! وفي كل التخصصات. أرفف كاملة من كتب الأدب والشعر. والتاريخ. والاقتصاد. والسياسة. والاجتماع. والإدارة. والدين. كتبه تغطي جدران غرفة المكتب، وتطول حتى تصل للسقف. شخصية عظيمة، تجمع بين الخبرة العملية، وثقافة الكتب. مستقبله مضمون. ومستقبلنا معه مضمون إن شاء الله.

أراح العقيد فؤاد ظهره على ظهر الكرسي الجلدي البني الوثير متطلعاً إلى رجب. وبدأ يشرح لرجب كيف أن النظام فضيلة لأنه هو الذي يضفي المعنى على كل شيء، وهو الذي يجعل لحياة الإنسان معنى وهدفاً، وأنه حتى الأغبياء يعرفون ذلك بالفطرة الطبيعية، ولذلك يقولون؛ كذب مرتب خير من صدق ملخبط، وهم يعنون بذلك النظام، بالطبع، لأن هذا هو القانون الطبيعي الذي أسس الله عليه الكون.

وقال العقيد فؤاد إنه، وبالرغم، من هذه الحقيقة البديهية فإنه، للأسف، توجد حقيقة بديهية أخرى مضادة؛ وهي أن بداخل كل إنسان وحش فوضوي ينتظر الفرصة للانطلاق مسعوراً، لكي يقتل ويحرق ويدمر النظام. وهذا الوحش هو بعينه الشيطان، الذي وسوس لأبينا آدم بأن يخرق النظام، ويمد يده ليأخذ الثمرة المحرمة، ويقع بذلك في الخطيئة. وأكد العقيد فؤاد في هذا الصدد أن أبينا آدم لم يكن يشتهي التفاحة، أصلاً، ولكنه مد يده وقطفها لأنها ممنوعة، ليس إلا. وقال إن هذا هو سبب غضب الله عليه؛

لا لأنه اشتهى ثمرة فاكهة معينة، ولكن لأنه قرر خرق النظام، والاستماع لوسوسة إبليس، فالأمر في النهاية لم يكن أمر تفاح ولكن كان أمر المفاضلة بين النظام أو الفوضى. وأن إبليس يعز عليه أن ينهزم أمام النظام، ولذلك فهو يسعى منذ بدء الخليقة لزعزعة هذا النظام في كل مكان، وإحالة الانسجام الإلهي إلى فوضى، وبذلك فقط يحقق انتصاره.

كما أكد العقيد فؤاد أن للشيطان عملاء من جنس البشر، وهؤلاء العملاء هم أغبياء، مهما بدوا أذكياء، لأنهم يقعون، أولاً هم أنفسهم، في فخ الشيطان، ثم يسعون بعد ذلك لتنفيذ مخططه لنشر الفوضى. ولذلك يمتلئ العالم في كل مكان بالتعساء الذين يرتجفون من الخوف، ولا يجدون السعادة، ولا الهدوء، ولا راحة البال، لأنهم ينحازون للشيطان، لا للنظام.

وشرح العقيد فؤاد لرجب أيضاً كيف أن النظام هو القانون الأزلي الذي بُني عليه الكون. وقال له إن بإمكان المرء أن ينظر إلى الفضاء، أو أن يقرأ في علم الفلك، حتى يقتنع، اقتناعاً تاماً، بأنه قائم على نظام صارم من الأزل، لا يتزعزع ولا يتغير. أو حتى يقرأ في علم الفيزياء؛ ليجد أن كل شيء بنظام، وأن منتهى الكبر قائم على النظام، ومنتهى الصغر قائم، أيضاً، على النظام. لكن الإنسان وحده هو من يقع في حبائل الشيطان، ويعيث في الأرض فوضى.

وتساءل العقيد فؤاد، بثقة، عدة تساؤلات ليست بالتساؤلات.

فسأل رجب هل سمعت يوماً عن نجم، أو كوكب يقع في حبائل الشيطان؟! أو سمعت عن ذرة، أو إلكترون يعطي أذنه لوسوسة إبليس؟! ورد العقيد فؤاد على تلك التساؤلات قائلاً إن ذلك محال، وأن الإنسان وحده هو الذي يتبع خطى الشيطان، لأنه هو وحده الذي منحه الله حرية الاختيار. ولكن الإنسان للأسف أساء استعمال هذه الحرية، وهو يسيء استعمالها أكثر وأكثر، في كل يوم، وفي كل مكان. فبمجرد أن تعطي الإنسان قدراً من الحرية، تجده يستخدمها، فوراً، في الفوضى، والتدمير، والتخريب، والعصيان، والتمرد، في حين أن الحرية الحقيقية هي في أن يتبع الفرد النظام، وفي أن يعمل الجميع لصالح دعم وتقوية النظام. كما طلب العقيد فؤاد من رجب أن ينظر إلى النمل، وأن ينظر إلى النحل، وقال له هذا هو المثل الأعلى الأولى بالاتباع، هذا هو التناسق، والتكامل، والانسجام، هذا هو الكمال مجسداً، هذا هو النظام؛ أبو الفضائل جميعاً.

ونعت العقيد فؤاد البشر بالوطاويط العمياء، وقال إن الشيطان، لهذا السبب، ينجح في خداعهم وإغوائهم، وأن السبب في هذا العمى هو الحرية، أو ما يظنون أنها الحرية، وهي في الحقيقة غير ذلك، بل العكس تماماً. ولذلك لا ينجح الشيطان، مثلاً، مع النمل، ولا ينجح مع النحل، لأن هذه مجتمعات عظيمة، ذكرها الله في القرآن، لكن الإنسان جهول، وظلوم، وفاسد، وضعيف، إذا مُنح الحرية يستخدمها فوراً لخطف ما في يد غيره، ولذلك ينتشر الفقر والظلم في كل مكان. ولا كذلك المجتمع

النملي، ولا المجتمع النحلي، فلا وجود عندهم للفقر، ولا الظلم، بل العدل. والعدل لا يمكن أن يسود في ظل الفوضى التي يشهدها المجتمع الإنساني، والتي تخطف فيها كل يد ما تستطيع الوصول إليه؛ لذا لا يشعر البشر بالسعادة، بل بالقلق، واليأس، والعذاب، لأن هناك، دائماً، شيء آخر تتوق اليد لخطفه من الآخرين.

وأكد العقيد فؤاد، واثقاً، بأن حالة الخطف المستمرة هذه لن تتوقف أبداً، لأن الناس يريدون ويريدون ويريدون. وضرب لرجب مثلاً بالغرب؛ حيث فوضى التحلل الأخلاقي، والفساد، والتفاهات. وتساءل العقيد فؤاد، بشماتة؛ إذا كان الغرب عنده حريات كبيرة جداً للمثليين، فهل اكتفى هؤلاء بتلك الحريات؟! هل اكتفوا بكل هذا العهر، والحطة، والفجور؟! لا، أبداً!

قال، باشمئزاز، إن المثليين يطالبون اليوم بالزواج من بعضهم البعض. وهم يطالبون بالزواج، تحديداً، بالرغم من أن لديهم كل الحرية في أن يعيشوا معاً كما يريدون. والسبب وراء ذلك، أنهم يرغبون في أن يصبح وضعهم الشاذ وضعاً مؤسسياً. وقال إن المثليين هم خدم الشيطان، لأنهم هم خدم الفوضى. وأوضح قائلاً إن المثليين يستهدفون هدم مؤسسة الزواج الطبيعي، وإحلال مؤسسة الزواج المثلي محلها؛ لتنتشر الفوضى، ويروح خولان من هؤلاء ليتزوجا زواجاً رسمياً، وموثقاً، حتى تترتب عليه حقوق وواجبات زوجية، ويا سلام لو تم حفل الزواج نفسه في الكنيسة، حتى يصبح الأمر أكثر مؤسسية، وحتى ينخروا في مؤسسة الدين نفسها. ثم بعد قليل، سيرغب هاذان

الخولان في تبني طفل. أليست أسرتهما أسرة رسمية، والدولة قد اعترفت بها في وثائقها؟! نريد الآن أطفالاً، سنتبنى أطفالاً لأن الأسرة السعيدة لابد وأن يكون فيها أطفال. طيب، وهذا الطفل الذي سيتبنياه، ما ذنبه؟! ما ذنبه لكي ينشأ في كل هذا الانحلال والفوضى؟ ولمن منهما سيقول يا بابا، ولمن سيقول يا ماما؟!

انفجرت من رجب ضحكة مرحة، وضحك العقيد فؤاد مشمئزاً بازدراء. وأكمل:

- آه والله يا ابني! الطفل طبعاً ها يطلع مدمر نفسياً وهوّ بيتربى على إنه ينده لراجل ويقوله يا ماما! ناس وسخة والله العظيم!

- مرة سمعت يا افندم سامح شكري بيقول، إن فيه حد فرنساوي، مفكر، إسمه، ِجل دولوز، قال على الموضوع ده، الحريات الصغيرة، سمى الحاجات دي الحريات الصغيرة، وقال إن الحريات الصغيرة دي، هيّ اللي ها تدمر الحضارة الأوروبية، وهي اللي ها تجبها الأرض. قال رجب بثقة، مستعملاً يسراه في التأكيد.

تناول العقيد فؤاد القلم، ودون شيئاً على الورقة أمامه. ثم سأل رجب:

- إسمه ِجل إيه؟

- دولوز،ِجل دولوز يا افندم. رد رجب، مفتوناً بأنه قد أضاف معلومة مفيدة للحصيلة المعرفية الكبيرة للعقيد فؤاد.

راح العقيد فؤاد يدون بعض الأشياء، بسرعة، على الورقة أمامه. ثم رسم، بقوة، دائرة على عبارة ما كتبها، وسمع رجب الصوت القوي لجريان سن القلم على الورقة.

- حضرتك ها تستدعيه يا افندم؟! قامر رجب بالدعابة، وفي قلبه بعض الخشية.

- هه هه هاااي! ضحك العقيد فؤاد مسروراً بغرور.

امتلئ قلب رجب بالسرور لنجاح مقامرته بإضحاك العقيد فؤاد.

- على فكرة، لو حبينا نقدر، إنت عارف! قال العقيد فؤاد بابتسامة ثقة وهو ينظر لرجب.

- أكيد يا باشا طبعاً. قال رجب بهزة رأس وابتسامة، تؤكدان أنه متأكد.

- دي مش مبالغة على فكرة! يوماً ما ها تعرف إحنا إدينا طايلة لغاية فين، ما تفتكرش يعني إن فرنسا أو أوروبا أو حتى أمريكا بعيدة عننا، إن حبينا! أكد العقيد رجب بابتسامة انتصار.

هز رجب رأسه، صامتاً، مسلماً بهذه الحقيقة. واجتاحته

رهبة.

ساد الصمت لبضع ثوان.

- الواد سامح شكري بتاعك لسه شيوعي؟! قال العقيد فؤاد بتهكم، قاطعاً الصمت.

- أيوه يا افندم لسه، هه هه هه. قال رجب، وقهقه بخجل.

- خرتي وشيوعي! في نفس الوقت! ده طبيعي جداً على فكرة، هه هه هه! قال العقيد فؤاد، وقهقه باحتقار.

- هه هه هه، والله يا افندم أنا برضه مرة سألته عن الموضوع ده، إزاي يعني! مش بصريح العبارة طبعاً، بس يعني سألته بما معناه، فقالي، هه هه هه هاااا! وضحك رجب مسبقاً من إجابة سامح شكري.

- قالك إيه؟! سأل العقيد فؤاد بحب استطلاع، وابتسامة عريضة تملئ وجهه، وقد توقعت ملامحه إجابة مبتكرة من سامح شكري.

- هه هه هاااا، قالي يا افندم آهو نص فقر ونص وطنية، هه هه هاااا. قال رجب، وضحك بطلاقة.

- هه هه هااااي. ضحك العقيد فؤاد بشدة.

وتناول القلم، وكتب إجابة سامح شكري على الورقة أمامه، وهو يرددها:

- نص فقر ونص وطنية، هه هه هااا!

وضع العقيد فؤاد القلم على الورقة، ونظر إلى رجب وقد تغيرت ملامحه إلى الجدية في انتقالة مفاجئة بلا تدرج، وقال وعلى هيئته سمات الاحتقار:

- صاحبك سامح شكري ده على فكرة مش حالة خاصة، إطلاقاً! كل الشيوعيين خرتية، كلهم، همّا أصلاً كلهم خرتية! خربش جلد أي واحد فيهم تلاقي تحت منه خرتي، وخرتي من النوع الوسخ كمان! قال العقيد فؤاد.

ثم نظر أمامه كأن ذهنه قد شرد، بينما رجب يتأمله بانتباه شديد.

وتمتم أخيراً قائلاً؛ كمن تلقى وحياً لتوه:

- جوّه كل شيوعي صغير خرتي كبير.

يا سلام على الحكمة! حقاً، إنه من دواعي الفخر العمل مع هذا الرجل! أنا محظوظ والله لأنه اختارني للعمل معه! ومحظوظ لأنه يثق بي ويقول لي كل تلك الأشياء العظيمة. أنا محظوظ بهذا الرجل العظيم، والله العظيم! هؤلاء رجال نادرون، لا تجدهم في

الطرقات هنا وهناك. يا سلام على الحكمة! جوّه كل شيوعي صغير خرتي كبير! يا سلام لو أستطيع في يوم من الأيام قول مثل تلك الأشياء الذكية. وبهذه البساطة!

أكمل العقيد فؤاد كلامه، وعلامات الضيق على وجهه، فأخذ يشرح، ويفصل، خلاصة الحكمة التي قالها لتوه. أكد، جازماً، مرة أخرى بأن الشيوعيين كلهم خرتية بالفعل، وأن هذه حقيقة مؤكدة، يؤكدها التاريخ نفسه. وضرب مثلاً لرجب، فقال إنهم في السبعينيات كانوا يثيرون الكثير من الفوضى، والشغب، وكانوا يسببون الكثير من المشاكل للأمن، فاتصل اللواء عادل فوزي، رحمة الله عليه، بالسعوديين وقال لهم عندنا مجموعة من المشاغبين، طويلي اللسان، يسببون لنا صداعاً، وأن كل مشكلة هؤلاء، في الحقيقة، هي أنهم جوعى فقط، ولم يجربوا في حياتهم إحساس الشبع مطلقاً في أي يوم من الأيام، فمن فضلكم، خذوهم عندكم وأطعموهم، وسيصبحون عندما يأكلون قططاً أليفة. وكان، رحمة الله عليه، له علاقات ممتازة بالسعوديين، وكان رجلاً حكيماً، بعيد النظر.

وفعلاً، وافق السعوديون على الأمر، وسافر عدد كبير من الشيوعيين إلى السعودية، وعمل معظمهم هناك في سلك التدريس؛ من يعرف منهم جغرافيا أصبح يُدِّرس جغرافيا، ومن يعرف منهم حساباً أصبح يُدِّرس حساباً، والحاصلون على دراسات عليا راحوا جامعة أم القرى يُدِّرسون هناك حسب تخصصاتهم. ولم تمض إلا بضع سنوات قليلة، حتى عادوا

بجلاليب بيضاء؛ أبيض في أبيض، وذقون شبرين، وكل منهم يركب سيارة أحدث موديل، وراحوا يشترون شققاً في مدينة نصر، وعباس العقاد، حتى رفعوا أسعار العقارات هناك للسماء، وصار سعر الشقة في عباس العقاد بالشيء الفلاني، وهوّ عباس العقاد نفسه إنت لو جمعت كل كتبه مش ها تجيب تمن متر واحد في الشارع المتسمي باسمه، هه هه هاااا، اللي بنى مصر في الأصل كان حلواني، واللي بنى مدينة نصر العائدون من الخليج، واللي همّا كانوا أصلاً شيوعيين متحمسين، وبعدين قلبوا جماعات متحمسين، يا ابني كلهم خرتية صدقني، مشكلتهم الوحيدة إنهم جعانين ما جربوش إحساس الشبع في حياتهم، وأول ما يشموا ريحة الأكل تشوفهم على حقيقتهم، ويتشال القناع عنهم على طول.

هز رجب رأسه عمودياً، عدة مرات، بحماسة مؤمناً على كلام العقيد فؤاد. وقال:

- أيوه يا افندم سيادتك أنا لاحظت فعلاً الموضوع ده في كل مرة احتكيت فيها مع شيوعي، فعلاً جوّه كل واحد فيهم خرتي، ولاحظت كمان يا افندم وأكيد طبعاً سيادتك عارف الموضوع ده، إن جوّه كل واحد فيهم متطرف، وسهل جداً إنه يحول من شيوعي لجماعات إذا لقى فيها مصلحة.

- طبعاً يا ابني ما انا بقولك! أكد العقيد فؤاد وهو يهز دماغه.

أمسك العقيد فؤاد برزمة الورق أمامه، ورفعها، وراح يسويها بخبطها على سطح المكتب، وأكمل كلامه قائلاً:

- وياما شيوعيين قلبوا جماعات! ياما شفنا من الأشكال دي! الخيط اللي بيبقى فاصل بينهم خفيف جداً ورهيف جداً! والخرتي اللي جواهم بيخليهم عمليين جداً، براجماتيين يعني، براجماتيين براجماتيين! الشيوعي ده أصلاً لسان للإيجار! وبخلا ونتنا وحاجة تقرف! وبرضه تلاقي جوّه كل واحد فيهم رجل أعمال مستني أول فرصة عشان يبيع اللي حواليه!

هز رجب رأسه عمودياً عدة مرات، مسلماً بحقائق العقيد فؤاد.

ساد الصمت لثوان.

رفع العقيد فؤاد ساعده الأيسر، وألقى نظرة على ساعة معصمه.

هل يا ترى ساعتي أغلى من ساعته، أم ساعته أغلى من ساعتي؟! ما هي ماركة ساعته؟ شكلها سواتش من الغالية.

- طيب ها تجبلي بقى الشرايط إمتى؟ قال العقيد فؤاد، وهو يخبط براحتيه على مسندي مقعده، كأنه يستعد للنهوض.

- حضرتك حمدي كاراتيه جاي عندنا بكرة، بعد بكرة الصبح

ان شاء الله ها عمل نسخة من الشرايط، يعني، إن شاء الله يوم السبت الضهر هاكون جاهز سيادتك، في أي وقت يناسب حضرتك. قال رجب، وهو يضع كفيه على مسندي مقعده تأهباً للنهوض، وقد عرف أن مقابلة اليوم قد انتهت.

وقف العقيد فؤاد، فوقف رجب أيضاً.

قال العقيد فؤاد وهو يعدل من ملابسه؛ بحل إبزيم حزام بنطلونه القماشي الكحلي، وإحكام إدخال قميصه الرمادي في البنطلون بدسه براحته اليمنى إلى الداخل، مع إعادة تسكين عضوه في الجانب الأيسر من رجل البنطلون، ثم إعادة غلق إبزيم الحزام، وهو بعد واقف خلف مكتبه:

- يبقى ميعادنا يوم السبت، الساعة ستة مساءً.

- تمام سيادتك. رد رجب، وهو يومئ برأسه.

- ولو من هنا للسبت جد أي حاجة، تتصل بيّا فوراً. قال العقيد فؤاد، من باب الروتين المعتاد، وهو يتحرك من خلف مكتبه.

- تمام سيادتك يا افندم. رد رجب، وهو يومئ برأسه.

تبع رجب العقيد فؤاد، محاذياً إياه على شماله، ومتأخراً عنه بنصف خطوة، وسارا ناحية باب الشقة الواقع في الحائط الأيمن؛

والذي يتوسط المسافة بين الطرقة الداخلية للشقة ومكتب العقيد فؤاد، والموضوع في منتصف الحائط الأيمن لصالة الاستقبال، والتي هي بهو كبير مفتوح بلا أبواب، تغلف أرفف الكتب جدرانه الأربعة. عبرا بجوار أرفف كتب الحائط الأيمن، التي تسبق باب الشقة. قال العقيد فؤاد بابتسامة:

- والواد عليرزا حَبِّل البت شلي ولا لسه؟!

- هه هه هه، لأ لسه يا افندم. رد رجب.

- ولا عمره ها يحَبِّلها، هه هه هه! قال العقيد فؤاد، وقهقه بازدراء.

توقف العقيد فؤاد، معطياً ظهره لرفوف الكتب، فتوقف رجب هو الآخر مواجهاً له، وزاغت منه نظرة، من فوق الرمانة اليسرى لكتف العقيد فؤاد، فلمح كعب المجلد الضخم للترجمة العربية لرواية موبي دِك ترجمة إحسان عباس.

العقيد فؤاد أول من حدثني عنها وطلب مني قراءتها. قال يومها إنها رواية عظيمة، كلها حكمة، ومعلومات مفيدة. قال إنه هكذا يجب أن تكتب الروايات، لا كأمثال ُكتاب اليوم المهابيل الذين يقرفون القراء بأمراضهم النفسية. أو أولئك الأسوأ والأحط الذين يكتبون رواياتهم وعيونهم على ترجمة الخواجات لها إلى الانجليزية، أو الفرنسية، فيكتبون أشياء كلها لا تخرج أبداً عن أدب الوصفة.

وشرح لي العقيد فؤاد أدب الوصفة بأنه تلك النوعية من الروايات التي تتكون من سداسية الجنس، والمثلية، وحقوق المرأة، والبيئة، وحقوق الإنسان، والفساد السياسي. وقال، يومها، إن موبي ديك هي عكس ذلك تماماً، لأنها رواية عظيمة قادرة على إفادة القارئ، وتقديم حكمة رائعة. ليس فقط بسبب المعلومات الهائلة التي بها عن أنواع الحيتان المختلفة، والأساليب المتنوعة في صيدها، وأسماء أدوات الصيد، ومهام كل أداة منها، وأنواع السفن، وأسماء كل جزء من الأجزاء المختلفة للسفينة، وكيفية إبحارها، وكل تلك المعلومات الأخرى التي تزخر بها الرواية، ولكن أيضاً، وقبل كل شيء، لأن الرواية تقوم على فكرة في منتهى الأهمية؛ فكرة صراع الكابتن آهاب مع الحوت موبي دِك. قال العقيد فؤاد إن هِرمان مِلفيل كتب الرواية على أساس أن الحوت موبي دِك هو رمز لكل الشر الموجود في العالم، وبالتالي فإن استطاع الكابتن آهاب قتله، فإنه بذلك يكون قد قضى على كل الشر الموجود في العالم. رواية عظيمة!

- واحدة من حزب إسحاق عايزة تحبل من واحد من حزب لوط، هه هه هاااا! ناس وسخة! هيّ عايزة طفل تربيه وتفرح بيه، من غير أسرة ومن غير جواز، لأ وإيه، وأساساً من غير دكر برضه، هه هه هااااا! خول زي عليرزا لما يعرف يعشَّرها، ده بعد عُمرٍ طويل طبعاً، ها تقولوه مع السلامة انت والقلب داعي لك! ناس قذرة! آهيّ دي بقى الحريات الصغيرة اللي بيقول عليها دولوز بتاعك! دي بقى اللي هاتقضي فعلاً على الحضارة

الغربية! وطبعاً بعد ما ترجع أمريكا ها تدور لها على بنت تانية من حزب إسحاق برضه ترافقها وتعيش معاها، وتبقى هيّ بابا والبنت ماما، والعيل المسكين يتبهدل وسطيهم! ومش بعيد لو شاف عليرزا بيزورهم في يوم من الأيام ولا حاجة ينده له يقوله يا أونكل!

- هه هه هاااي، يا أونكل! سمح رجب لنفسه بإطلاق ضحكة طلقة.

- آه والله يا ابني آهو كله عك في عك! قال العقيد فؤاد، هازاً رأسه بابتسامة ازدراء.

- حضرتك يا افندم يوم ما بيدخلوا الأوضة مع بعض بتبقى ليلة، هه هه هاااا!

- هه هه هاااا. ضحك العقيد فؤاد بازدراء.

- آه والله يا افندم! عليرزا بياخذ معاه مجلات البورنو بتاعة الجايز، ويقوم داخل أوضة شلي، ودي الحاجة الوحيدة اللي بيدخلها في ليلتها، هه هه هاااا! شلي بقى قبلها بتكون قايلاله إيه، الليلة يا عمدة! بتقعد قبلها تحسب بالورقة والقلم معاد الدورة، وتشوف أنسب معاد للحمل إيه، المهم بقى يقوم الأخ عليرزا داخل الأوضة، ومعاه كومة المجلات عشان الحماس يعني وكده، ويقوم قافل الباب وراه، اللي بيحصل بقى يا افندم إن شلي جوّه بتمارس معاه على إنها هيّ الراجل، بتقوم لابسة العضو

الصناعي، وشغالة على عليرزا، والله يا افندم لغاية دلوقتي ماعرفش إن كان هوّ اللي بينقي العضو الصناعي ولا شلي؟ ده سر كبير ما حدش يعرفه لغاية دلوقتي، هه هه هاا! إنما اللي اعرفه إن شلي عندها أكتر من دستة أعضاء صناعية، أشكال وأحجام وألوان وإيه بقى، الدلع كله! بس انا متأكد إن عليرزا بيموت في اللون الاسود، اللي هوّه الحجم الكبير ده، هه هه هاااا! قال رجب بحماس، مطمئناً إلى عدم استياء العقيد فؤاد من خوضه بأريحية في تلك التفاصيل.

- هه هه هاااا! ومع ذلك برضه مش ها يعرف يحَبِّلها، ده خول! ها تضطر في الآخر تنام مع أي حمار في السر، دكر بجد، وها تروح تقول لعليرزا الواد منك يللا نسجله بإسمك! قال العقيد فؤاد مؤكداً بثقة.

- والله يا افندم بيصعبوا عليّا من كتر اللي بسمعه ليلتها! بيبقى هاين عليّا أشوط باب الأوضة وادخل أزيح عليرزا، واقوله عن إذنك إنت ده شغل رجالة يا عم! إركن إنت على جنب وخليك مع المجلات بتاعتك، هه هه هاااا، وأقوم أنا بالواجب وأقولها ألف مبروك يا ست شلي، عدي بقى تسع شهور بالحسابة بتاعتك، وأي خدمة وأعضاء حزب الزُبير خدامين عضوات حزب إسحاق، هه هه هاا! قال رجب بطلاقة، ووضع راحته اليمنى على صدره وهو يضحك.

- حزب الزُبير! هه هه هاااي، لأ حلوة دي! ضحك العقيد

فؤاد بمرح.

- ما حضرتك قلت حزب إسحاق وحزب لوط، يبقى أكيد فيه حزب الزُبير! قال رجب، معطياً لنفسه الحرية.

- الزُبير ابن الدقاق ها ها هاااي! قال العقيد فؤاد، وضحك.

ضحك رجب ملياً، وتأمل العقيد فؤاد رجب وهو يضحك لبضع ثوان، ثم قال:

- لأ شلي مش ها تلجألك أبداً في الموضوع ده، إنت آخر واحد ممكن تلجأله في حاجة زي دي، عشان آبي برضه ما تغيرش، هي أذكى من إنها تخلي آبي تزعل منها عشان راجل، وهيّ عارفة إن الدكورة على قفا من يشيل! بس هوّ عليرزا مناسب جداً بالنسبة لها، أكتر من مناسب الحقيقة، مثالي، أمريكاني غني ومن عيلة غنية، وخول في نفس الوقت، يعني ها تاخد راحتها مع اللي زيه، ديكور حلو ليس إلا، وفي نفس الوقت برضه تحت طوعها مش ها يقولها عايز الولد أربيه، وهوّ برضه اللي ها يدفع المصاريف في الآخر، زيد على كده إنه كمان زميلها في الشغل وبينهم مصالح مهمة، لذلك إذا لجأت لحد يحبلها فها يبقى في السر، من ورا عليرزا عشان تقنعه إن العيل منه.

نظرالعقيد فؤاد في ساعة معصمه مرة أخرى، وقال لرجب:

- ماشي، إنت تاخد بالك بقى من نفسك، وتحرّص كده في

الشغل، واحنا على ميعادنا يوم السبت إن شاء الله.

- إن شاء الله يا افندم، خليك حضرتك ما تتعبش نفسك، سيادتك تؤمرني بأي حاجة؟ قال رجب وهو يمد يده بالسلام مودعاً العقيد فؤاد، الذي مد يده وصافحه بهيئة من يشعر بأنه على وشك التخلص من ضيف ثقيل رذل غير مرغوب فيه، وقال:

- متشكر يا حبيبي.

- وألف ألف شكر يا افندم على وقت سيادتك والدروس العظيمة بتاعة النهارده! قال رجب، الذي لم تقلقه هيئة وداع العقيد فؤاد، وقد اعتاد عليها، من كثرة ما لاحظها فيه في كل مرة يشيعه فيها في نهاية اللقاءات الدورية.

- إنت حبيبي يا رجب! رد العقيد فؤاد، مبتسماً بهيئة نفاد الصبر، وربتت راحته اليسرى على ظهر يد رجب، مرتين، بسرعة، ثم سحب يمناه من يد رجب منهياً المصافحة.

- في حفظ الله يا افندم مع السلامة سيادتك. قال رجب، وهو يرفع يمناه بتحية شبه عسكرية، ويستدير متجهاً ناحية باب الشقة، وسار بسرعة.

فتح رجب باب الشقة، بمقدار ما يسمح، فقط، لجسده بالمروق، وخرج، دون أن تلتفت عيناه إلى داخل الشقة، ساحباً

الباب الخشبي الثقيل المصقول من مقبضه النحاسي اللامع المشغول، وحريصاً على إغلاقه بمنتهى الهدوء دون أن يصدر صرير احتكاك.

وقف على العتبة، لحظة، وتنفس بعمق شهيقاً من أنفه، وزفيراً من فمه. وملئه السرور لمرور المقابلة على خير.

ألف حمد وشكر يا ملك! المقابلة مرت على خير. على أفضل وجه ممكن. نقطة إضافية في حسابنا. الحساب إيجابي، حتى الآن، عند العقيد فؤاد. الرجل مبسوط مني. يحبني، ويعطف عليّ، ويعاملني معاملة ممتازة. لمن هم في وضعي، على الأقل. نشد حيلنا وننجح في امتحان الثانوية العامة، بأية طريقة، وسيصبح المستقبل مضموناً بإذن الله. هذا مصدر إحراج لي أمام آبي. وأمام شلي. وبقية الأصدقاء. والأعداء. مصدر إحراج في كل مكان. يجب تغيير التوصيف في البطاقة الشخصية. حاصل على الإعدادية! شي مخجل! تتحرجان من تقديمي إلى أصدقائهما وضيوفهما. الحمد لله فاضل على الحلو خطوة. لماذا كل تلك الأكياس السوداء للقمامة ملقاة هكذا على درجات السلم! وفي مواجهة باب الشقة! الشقة من الداخل نظيفة كالفل، تبرق من النظافة، وعلى بابها تتراص كل تلك الزبالة! سبحان الله.

أخذ رجب خطوتين يساراً، فأصبح على عتبة الأسانسير. داس على الزر، ووقف ينتظر وصوله.

ليست شقة العقيد فؤاد وحدها، هذا حال أكثر شقق الأغنياء. الشقة من الداخل تبرق من النظافة، وعلى بابها، وعلى سلم العمارة أكوام من أكياس الزبالة التي فاحت رائحتها! يهتمون بالداخل فقط، أما ما بعد العتبة فليس شأنهم! سامح شكري علق مرة على هذا الموضوع. ليس هذا الموضوع تماماً، لكن تعليقه كان بصفة عامة. قال إن الناس في القاهرة لا تشعر بأن، ماذا؟ ماذا أسماه؟ آه، قال الفضاء العام. قال إن الناس في القاهرة لا تشعر بأن الفضاء العام ملكها، لذلك نجد القمامة والقذارة في كل الأماكن العامة. قال إنهم في البلاد المتحضرة يشعرون بأن الفضاء العام ملكهم، ولذلك يحافظون عليه كما يحافظون على بيوتهم من الداخل. عظيم سامح شكري! أفادني كلامه في موضوع ِجل دولوز. واستطعت إضحاك العقيد فؤاد على موضوع نص فقر ونص وطنية، هه هه هااا، حلوة فعلاً! العقيد فؤاد، بجلالة قدره، تناول القلم اليوم وكتب ورائي شيئين مهمين لم يكن هو نفسه يعرفهما، وكنت أنا أعرفهما! ِجيل دولوز، ونص فقر ونص وطنية. حبيبي سامح شكري والله! الفضاء العام. اسمه الفضاء العام. سنحاول استعماله في أول فرصة سانحة أمام العقيد فؤاد، بالتأكيد سينبهر! تعجبه هذه التعبيرات. الفضاء العام.

آه صحيح! نينا قالت مرة ونحن نتحدث، بإنهم في أوروبا تعلموا النظافة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وأنهم كانوا قذرين ووسخين قبل الحروب، ولكن مع طول فترات قضاء الجنود لأوقاتهم في الخنادق، تعلموا أن القذارة في الخندق تعني

الموت. القذارة في الخندق تؤدي إلى الأمراض، والأوبئة، والموت. ثم نقل الجنود على الجبهة عادة النظافة إلى المدنيين، عندما عادوا للمدن بعد الحرب، واستمرت عادة النظافة، من وقتها، في أوروبا. نحن أيضاً خضنا حروباً طويلة مع إسرائيل، لماذا لم ينقل جنودنا على الجبهة تلك الخبرة للمدنيين! هل لأننا لم نحفر خنادق بالقدر الكافي؟ لا، رأي سامح شكري يكسب؛ هو الفضاء العام فعلاً!

هل يا ترى ساعته سواتش فعلاً؟ هل هي أثمن من ساعتي الرادو؟ الرادو طبعاً أعلى من السواتش كماركة، الكل يعرف ذلك! عموماً نحن الاثنان في نفس الفئة؛ فئة الساعات الأغلى. ساعتي ليست أقل من ساعته بالتأكيد، هذا إن لم تكن تفوقها ثمناً! الحمد لله. الله يمسيكي بالخير يا شارلوت! حبيبتي والله!

3

سار رجب في شارع الخليفة المأمون، باتجاه العباسية، بخطوات وئيدة.

لا داع للعجلة وإيقاف تاكسي على الفور، نتمشى قليلاً ونحرك مفاصلنا التي تصلبت من طول القعدة! ونفكر أيضاً في بعض الأمور. ونشم هواء. أين هو الهواء، الهواء ساكت للأسف! سكت الهوا والناموس طار، السبع طاطى بعينه، خلينا ده النوم أستار لما الهلف ياخد يومينه!

أواخر يوليو، والصيف شديد هذا العام. ربك معين.

أضواء الشارع خافتة. مصابيح الشوارع ثلاثة أرباعها مطفأة، أو محروقة. مع أنهم يضيئونها في النهار! حالها كحال البلد، كل شيء ملخبط. عك في عك.

بنت جميلة محجبة، بفستان أحمر في أحمر. بيضاء ممتلئة، كليلى علوي في عزها، هه هه هه. واقفة في الظلام، في انتظار أن تتوقف لها سيارة. رجل ثلاثيني أسمر قوي يقف خلفها بخطوة ويهمس في أذنها بشيء ما. غالباً يحاول إقناعها أن تروح معه. لكنهن يستهدفن السيارات، لا المارة! يعتقدن أن سائق السيارة

يافت[1] ، في حين أن الماشي على قدميه أشفور[2]. الحرفيون يعشقون ليلى علوي، يتمنونها في أحلامهم. البيضاء الممتلئة. ذوق فلاحي! أكثر جمهورها في السينمات من الحرفيين.

بنت أخرى محجبة، تقف هناك، تنظر بإلحاح لسائقي السيارات العابرين. خمرية. ممشوقة، بعباءة سوداء خليجي. كلهن محجبات. منقبات حتى! تأخذ واحدة منقبة شقتك، وأنت وحظك! بطيخة، هه هه هاا! الدنيا حظوظ. بعض الدفايش[3] يحبون النوم مع المنقبة، وهي منقبة، وعندما ينتهي الأمر يحاسبونها ويصرفونها، دون أن تكشف وجهها. مزاج! ويا ما الجنس فيه! بحر واسع. تسعون في المائة منه مجهول، لم يخرج للعلن بعد! سيارة لانسر زيتي توقفت، والبنت مدت يدها، بسرعة فتحت الباب وقفزت بجوار السائق. حظها حلو. الدنيا حظوظ.

مد رجب يمناه في جيب قميصه، وأخرج علبة السجائر المالبورو الحمراء، ووضع سيجارة من السيجارتين المتبقيتين بين شفتيه، وتناول من العلبة الولاعة البِك الخضراء الطويلة. توقف وأشعل السيجارة من أول ولعة.

الهواء ساكت. سكت الهوا والناموس طار. الصيف الحار من

---

[1] يافت: ثري.
[2] أشفور: فقير، وتؤنَّث أشفورة.
[3] الدفايش: الزبائن، جمع دفش، وتؤنَّث دفشة.

مميزاته سهولة إشعال السجائر في الطريق. الميزة الوحيدة تقريباً، هه هه!

أخذ أول نفس، وحبسه قليلاً. ثم نفثه ببطء من أنفه مستمتعاً. ترك السيجارة بين شفتيه، ومد يمناه في الجيب الأمامي الأيسر لبنطلونه الليفايس الأمريكاني، وأخرج تليفون نوكيا ثلاثة آلاف وثلاثمائة وعشرة كحلي.

هدية آبي في عيد ميلادي الماضي، سبعة وعشرون مايو. جديد لانج. طرحته نوكيا في السوق الأمريكي منذ شهور قليلة فقط، لم ينزل مصر بعد. أوصت آبي عليه من أمريكا خصيصاً لي. جميلة آبي، حبيبتي والله!

فتح رجب التليفون المغلق، فاستلم، فوراً، رسالة من آبي.

جميلة آبي، حبيبتي والله. هابيبي آي مِس يو. الحمد لله، بقالنا معاها أكتر من سنة ولسّه بتحبني.

كتب رجب رسالة على التليفون لآبي. مي تو هبيبي آي مِس يو فيري ماتش. ضغط على زر الإرسال وأرسل الرسالة. استأنف سيره المتمهل، والتقط السيجارة من بين شفتيه بالسبابة والوسطى الأيمنين.

قلت لها مرة، فيري فيري ماتش، فضحكت كثيراً، وقالت اللغة الانجليزية لا تعرف تلك المبالغات، يكفي فقط أن تقول

فيري ماتش مرة واحدة، للتعبير عن منتهى الأمر. ليست كلغتنا العربية! سامح شكري يقول، دائماً، اللغة العربية عظيمة لكن برضه فيها حاجات بضان! هه هه هاااا! معاه حق والله. حبيبي سامح!

بيز عالي وسكسكات. سيارة فيات مائة وثمانية وعشرون حمراء، مغسولة ولامعة، صاحبها ملمعها بالشمع، ومركب جنوط سبور، تمر بالشارع، والشارع حركة سيره خفيفة. ستريو السيارة عال لأقصى حد! فيري ماتش. إفرض مثلاً مثلاً يعني إني خاصمتك يوم، ما انت تعبني ومغلبني ومنسيني النوم.

لايزال هناك من يسمع الأغاني الشبابية، هه! سوقها ما يزال رائجاً. هيافة وتفاهة! حكيم. هل كان والده العمدة يتوقع أن يكون ابنه بهذه التفاهة حين سماه؟ يا ما أسماء عكس مسمياتها!

سامح شكري له رأي غريب في انتشار الأغاني الشبابية الإيقاعية. البيز والسكسكات. الواحدة ونص. قال إنه في أوائل الثمانينيات، ابتكرت سوني تقنية جديدة لأجهزة الكاسيت، تقنية الستريو، وأخذت التقنية الجديدة تتطور بسرعة الصاروخ، وظهرت مكبرات الستريو؛ التي ُتكبِّر أصوات البيز أكثر وأكثر، وأصبح الأمر موضة كبيرة اجتاجت العالم كله. أصبح الوضع هو أنه كلما كان مكبرا صوت الكاسيت أكبر وأقوى، كان ذلك أكثر عصرية، وأصبحت الموضة لدى المراهقين هي حمل الكاسيت الستريو الضخم على الكتف، والتجول به في الحي،

وتشغيل موسيقى إيقاعية صاخبة. أصبح لكل شخص موسيقاه الخاصة، التي يختارها، ويفرض سماعها على باقي أهل الحي.

وقال إن الموسيقى العربية، حتى ذلك الحين، لم تكن تحتاج لكل تلك الإيقاعات الصاخبة في أغانيها، ولم يكن فيها هذا النوع من الدوشة التي تحتاج لمكبرات صوت قوية للبيز. وجاء حميد الشاعري ورفاقه، في منتصف الثمانينيات، فصنعوا الموسيقى المناسبة لمكبرات الصوت القوية وأجهزة الستريو الحديثة، التي لم يكن لها موسيقى عربية بعد. البيز، والسكسكات، والصقفة، والواحدة ونص، المناسبة للتكنولوجيا الجديدة. قال سامح إن الموسيقى الشبابية قد ظهرت كاستجابة لوجود التكنولوجيا الجديدة، وقال إن هذه الحالة يطلقون عليها في الاقتصاد؛ العرض يخلق الطلب. وقال إن هذه هي سمة العالم اليوم؛ العرض الآن هو الذي يخلق الطلب، على عكس كل تاريخ البشرية السابق؛ الذي كان فيه الطلب هو الذي يخلق العرض. قال إن السلعة الآن هي التي تخلق الحاجة، ولم تعد الحاجة هي التي تخلق السلعة. ثم سب دين الرأسمالية، وسب دين رجال الأعمال، والسوق الحرة.

شرح لي، قبل ذلك، أن السوق الحرة التي يقصدها، غير السوق الحرة التي في مطار القاهرة. وقال إنه يقصد السوق بصفة عامة، في مصر، وفي كل مكان في العالم، والقوانين التي تحكمها. قوانين العرض والطلب، يعني بيع وشراء الأشياء. والقوانين التي تتحكم في من يدخل ومن يخرج من السوق من رجال الأعمال والتجار. والتسويق والإعلان. وطرق التلاعب

والضحك على المستهلكين الذين هم البشر العاديون، نحن. عظيم سامح شكري والله، دماغ!

التقينا أول مرة في معرض الكتاب. في يناير سبعة وتسعين. أربع سنوات ونصف الآن، يااااه! يظن من يرانا معاً أن صداقتنا أقدم من ذلك بكثير!

كنت يومها مع تلفيق شرور. في جناح دار الكتاب العربي. كان تلفيق شرور واقفاً أمام صف طويل من نسخ الفتوحات المكية لابن عربي. أربعة عشر مجلداً من الحجم الكبير، مجلدة تجليداً فخماً. كان ممسكاً بأحد الأجزاء يفر في صفحاته. فجأة، وجدنا شخصاً لا نعرفه يقترب منا، وكلتا يديه في جيبي بنطلونه، ويتجه لتلفيق شرور ويصيح بلهجة لائمة، ومرحة في نفس الوقت: سيب الفتوحات المكية! عايز إيه من الفتوحات المكية؟! بتدور على إسم الإله الأعظم! التفت إليه تلفيق شرور، منقبض الوجه بهيئة مذعورة، كمن ضبط متلبساً بفعل مشين. لكننا أدركنا، فوراً، أنه يمزح معنا، وضحكنا يومها. أنا عرفت، فوراً، أنه يحاول جرجرة حديث معنا. كان في حالة نفسية تحتاج للحديث مع أي إنسان. كل إنسان هو منشد يحتاج لسمِّيعة. دعوناه لفنجان قهوة في الكافيتيريا المجاورة، وتعارفنا. لم يستلطف تلفيق شرور منذ البداية، لكننا صرنا أصدقاء من يومها. وتقابلنا بعد ذلك، صدفة، في عدة موالد في ذلك العام. في مولد السيدة نفيسة، نفيسة العلم. وفي سيدي علي زين العابدين. وفي السيدة زينب، كانت معجزة أن نتقابل، صدفة، في الليلة الكبيرة! ليلتها يوم

الحشر!

سامح شكري، أيامها، كان معه دفشة أشفورة أمريكية سوداء. اسمها باربرا. وكان معي دفشة أشفورة؛ البنت ليزا الأوكرانية. خسارة الحلو ما يكملش، كانت أشفورة زينا! أحلى نسوان الأوكرانيات. من لم يضاجع أوكرانية لم يضاجع نساء! خصوصاً الصغيرات منهن. حين يبلغن الثلاثين يفشولن، ويترهلن.

الخواجات يحبون الموالد، حاجة أورينتال خالص! خصوصاً الليلة الكبيرة، يوم الحشر! ويحبون أيضاً الغناء الصوفي. والرقص، والتفقير. لا يفهمون من الشعر شيئاً، ولكن المهم أنها حاجة أورينتال خالص.

سامح شكري يفضل أحمد التوني على ياسين التهامي.

قال لي إن محي الدين بن عربي قد ذكر اسم الإله الأعظم في كتاب الفتوحات المكية، ولكن على نحو ملغز يحتاج إلى اكتشاف. قال إن معظم الذين يقرأون الفتوحات المكية يبحثون فيه عن اسم الإله الأعظم؛ الذي إذا دُعي به استجاب. وقال إن الفتوحات المكية كتاب صعب جداً في القراءة، وإن حاولت قراءته بإخلاص، فقد يستغرقك العمر كله. قال إنه يعرف شخصاً قد بدأ في قرائته منذ أربعة عشر عاماً، وهو الآن في بداية جزئه الخامس، وباق له تسعة أجزاء!

تعلمت منه الكثير، الحق يقال! عرفني على ناس محترمين،

وناس أذكياء. يحبني، ولا يبخل علي بخبرته، ويمدني دائماً بنصائح مفيدة. نعم الصديق والله! يمكن الاعتماد عليه. في حدود طبعاً! من حيث الوفاء، والنصح، يمكن الاعتماد عليه، لكن لا يمكن تحميل الإنسان فوق طاقته. الذكي من يعرف هذه الحقيقة. خسارته والله في هذا الجو! لو كان في جو آخر أنظف، لصار عم السيناريستات. لكن قدرته على التحمل ضعيفة! والجو في السينما عدائي، الوسط صعب! كله مكائد، وخيانات، وطعن في الظهر! وهو يقرف بسرعة! ربما لأنه يقرأ كثيراً، ويعرف الكثير. يقول إن أهم شيء للإنسان هو فنجان قهوة، وتبغ، وأكلة حلوة، وكتاب جيد، وأربع حيطان للبيات، وبعد ذلك يروح العالم كله في ستين ألف داهية!

من المؤكد أنه لا يشك بي. يشك في تلفيق شرور المفضوح بن المفضوحة شكاً يقترب من اليقين، مثله في ذلك مثل الجميع! لكنه لا يشك بي.

حتى ولو! سامح شكري عظيم! من النوع الذي يستر على الصديق، حتى لو تأكد من عمله مع الأمن. لو كان يشك بي، فإنه من المستحيل أن يُظهر لي أنه يشك بي. لن يدينني. يقول، دائماً، إن واجب الإنسان على الأرض أن يعمل كل ما يستطيع عمله لكي يظل على قيد الحياة، وأن هذه هي وظيفة الإنسان على الأرض، ولا يوجد ما يشين في سعي الإنسان للبقاء على قيد الحياة، وأن ما يشين الإنسان حقاً هو أن يكون لديه بديلان؛ واحد نبيل، والآخر سافل، ويفضل اختيار البديل السافل، أما إذا لم يكن

لديه بدائل، فالغاية تبرر الوسيلة. حبيبي سامح شكري والله! دائماً يمدح ذاكرتي ويقول إنها كذاكرة الفيل. العقيد فؤاد يمدحها أيضاً ويقول إنها ذاكرة فوتوغرافية. ومرة قال إنها ذاكرة أرشيفية. ذاكرة الفيل أجمل. تشبيه فنان! وتشبيه العقيد فؤاد حلو برضه.

أول مرة رأيت فيها العقيد فؤاد، كان في حديقة البرِتش كاونسل. خمسة وتسعون. في يوليو. كان الجو حاراً وخانقاً، مثل هذه الأيام. كان رائداً وقتها. كانت تلك أيام أندرو الخول في البرِتش كاونسل! كنت مع تلفيق شرور، نحضر عرضاً لأفلام عطيات الأبنودي. عرضوا يومها حصان الطين. والسندوتش. وأغنية توحة الحزينة. واللي باع واللي اشترى. بعد العرض كان أندرو الخول مشغولاً مع عطيات الأبنودي، ومع بعض ضيوف المركز المهمين. ابن الوسخة بخيل جداً! وكذاب، علاوة على أنه خول، أصلاً، ومقرف! مرة، في حفلة صامويل الأيرلندي، كان الجميع سكارى، وأخذ صامويل يسخر منه بعد أنه خدعه أندرو الخول في شيء ما، لا أحد يعرفه غيرهما هما الاثنان. قال له صامويل، بصوت عال وهو سكران، إن جده نادى عليه مرة وهو طفل صغير، وسأله هل تعرف لماذا يقولون عن الامبراطورية البريطانية إنها لا تغرب عنها الشمس؟ قال له صامويل، الذي كان طفلاً، نعم يا جدي أعرف، فقال له جده أسكت أنت لا تعرف شيئاً، إجلس وسوف أقول لك لماذا الامبراطورية البريطانية لا تغرب عنها الشمس، إن الامبراطورية البريطانية لا تغرب عنها الشمس لأن الله لا يثق بالانجليز في الظلام! هه هه هاااا! فطسنا

جميعاً من الضحك!

لما خرجت أنا وتلفيق شرور جنينة المركز، لندخن، كان العقيد فؤاد، الرائد فؤاد، واقفاً هناك يدخن وقتها، قبل أن يقلع عن التدخين. ذهب إليه تلفيق شرور، وسلم عليه، وعرفني به على أنه شاعر أصدر ديواني شعر، ويعمل موظفاً في سكرتارية رئاسة الجمهورية. التقيت به، بعد ذلك، في حفلة عيد ميلاد جاك الملحق الصحفي بسفارة فرنسا. جاك يشتغل كثيراً، أكثر واحد رأيته في حياتي يعمل، يعمل ليلاً نهاراً! ثم التقيت بالرائد فؤاد في عدة حفلات في شقق خواجات آخرين، وتوطدت العلاقة بيننا، ثم انتقلت للعمل معه مباشرة. أي شرف! من يومها وتلفيق شرور يحقد عليّ، ويحاول أذيتي. لكن وقت الحساب قد حان الآن! سينتقم لي العقيد فؤاد. إن شاء الله! لا يقول كلمة إلا ويوفي بها. هو من جنى على نفسه ابن الوسخة، في ستين داهية! لابد للإنسان من ظهر يحميه، خصوصاً في بلدنا، وفي ظروفنا الحالية، وبالذات في ظروفي أنا الحالية. لا مال، ولا شهادة محترمة حتى الآن، ولا عائلة ذات حسب ونسب، ولا عزوة، ولا شيء! واجب الإنسان على الأرض أن يعمل كل ما يستطيع عمله لكي يظل على قيد الحياة، هذه هي وظيفة الإنسان على الأرض، ولا يوجد ما يشين في سعي الإنسان للبقاء على قيد الحياة. الحمد لله أمورنا تسير بشكل رائع مع أبي، وتسير بشكل رائع مع العقيد فؤاد. يا بخت من كان العقيد فؤاد حاميه! يا بخت من يعمل لصالح النظام! أعلى فضيلة. أحلى فضيلة!

استمرت قدما رجب في السير، على مهل، ويسراه تقبض على تليفونه المحمول، وبين أصابعه اليمنى السيجارة التي يدخنها على مهل.

بنت محجبة على اليمين، على بعد أربع أو خمس خطوات. منتصف العشرينيات تقريباً. تمسك بيسراها كيس نايلون أبيض، يبدو أن ليس به الشيء الكثير. ربما قميص نوم، وغيار داخلي. ممشوقة القوام. بيضاء. أميل للطول. يبدو من ملامحها، وثقتها بنفسها، أنها أنضج من سنها. البنات، عموماً، أنضج من الصبيان في نفس العمر، لكن هذه تبدو أنضج ممن هن في عمرها. أنيقة. لكن الملابس محلية، ومتواضعة المستوى. لكن أنيقة. أناقة فلاحي. يا ترى ما هي حكايتها؟! هاربة من زوجها؟ من أبيها؟ من زوج أمها؟ من أخيها؟

في أوائل صداقتي مع سامح شكري، كنا نتجول ليلاً بعد الساعة الواحدة في وسط البلد، في فبراير، في عز البرد، ومررنا على شارع شامبليون، حالك الظلمة، وفي تقاطعه مع عبد الخالق ثروت كانت فتاة صغيرة محجبة، جميلة جداً، تقف وتمسك في يدها كيس نايلون أبيض، بدا أن ليس به الشيء الكثير. اقترب منها سامح، وكنت أظنه يرغب فيها؛ لأن باربرا الأمريكية السوداء كانت قد رجعت وقتها إلى أمريكا، ولم يكن معه دفشة

أخرى، وبالتأكيد الهفش[1] قايم ، ومحتاج للجنس! حين أصبحنا أمامها، نظرت له الفتاة بلهفة من ينتظر المنقذ، لأنه كان أنيقاً كعادته، ورائحته تفوح بالعطر الفرنساوي فهرنهايت. البنات تقول على فهرنهايت إن رائحته فيري سِكسي! ثم سمعت أغرب ما يمكن أن يقوله شاب، في حالته تلك، لمصلحة صغيرة جميلة. قال لها، بهدوء، كأنه يعرفها منذ زمن بعيد، ويعرف أصلها وفصلها، إنها لن تحتمل العيش في هذه المدينة، لأنها مدينة قاسية جداً، والرجال فيها وحوش وأنذال. قال لها أن ترجع، فوراً، إلى بلدتها، ومد يده وأخرج من جيب جاكتته الجلدية مشط[2] ورقة واحدة، وكان مفلساً وقتها، ولم يكن معه غيرها. مد المشط للفتاة، وقال لها: من هنا على محطة القطر طوالي، ارجعي بلدكم يا بنتي وعلقة تفوت ولا حد يموت، اسمعي كلامي أنا أكبر منك واعتبريها نصيحة من أخوكي الكبير. غريب سامح شكري! أخذت البنت المشط، وقالت له: شكراً يا عمو. سامح شكري عمو، هه هه هااا! مشت، واختفت في ثانية. قلت له: ها تروح تقف في حتة تانية، وتستنى دفش تاني غيرنا! قال: يمكن، لكن فيه احتمال عشرة في المية إنها تسمع النصيحة وترجع بلدها فعلاً، ولو ما رجعتش الكلام برضه ها يفضل معلق معاها ويمكن ينقذها في يوم من الأيام. ثم ابتسم ابتسامة حزينة، وقال: العشرين جنيه هيّ حق الاختيار، أنا اديتها حق الاختيار، أنا اديتها البديل.

---

[1] الهفش: العضو الذكري.
[2] مشط: عشرون جنيهاً.

من أين له أن يعرف أنها وافدة من خارج القاهرة؟! كان يتصرف معها بيقين كامل على أنها وافدة للتو من قرية ما، وهاربة من سوء معاملة زوجها، أو أبيها، أو زوج أمها، أو أخيها. غريب سامح شكري!

البنت تنظر، بإصرار غريب، لشاب صغير يجلس خلف مقود سيارته البولونيز البيضاء الراكنة بجوار الرصيف. يظهر الولد لخمة! يا عم افتح لها الباب وهي ها تنط على طول في العربية! إفتح الباب يا بقف، البنت محتاجة والوقت متأخر!

لم يحزم أمره بعد. وأخذ يفكر ويفكر ويفكر، هه هه هاا! البنت تنظر لعينيه بثبات نظرة ملحة. شفتاها مزمومتان. سقط من نظرها! جبان! يخشى أن يراه أحد ويروح يقول لماما، يا كوتوموتو! يمكن لا يعرف كيف يفعلها! أول مرة يا مشمش؟! وربما ليس لديه مكان. يا عم الدنيا ضلمة إعملها في العربية، ُأمال العربيات عملوها ليه! ولو مكسوف قوي خدها صلاح سالم، ها تلاقي سبعين عربية راكنة ورا بعض وكله بينبسط! ماعكش فلوس! البنت ها ترضى بأي حاجة في حالتها يا حمار!

يميناً، على بعد أربعة أو خمسة أمتار من كنتاكي وبيتزا هت، عسكري أمن مركزي. تقريباً في العشرينيات. واقف في مواجهة معسكرات الحرس الجمهوري. لونه نحاسي. متردد. خائف ربما. يقترب من رجل أصلع بكرش، بقميص وبنطلون، خرج لتوه من كنتاكي متجهاً لسيارته، يحمل تيك اواي محترم؛ كيس كبير من

أكياس كنتاكي. جردل فراخ! العسكري النحاسي يقترب منه. يستوقفه، ويهمس، في ذلة، بشيء ما وهو متردد. يستوضحه الأصلع أبو كرش. البهيم لم يفهم! يكرر العسكري النحاسي الطلب، في تردد أشد وخوف أكبر. يطلب مالاً بالتأكيد، غلابة! أكيد يريد العودة لقريته، وليس معه ما يكفي من المال. غلابة فعلاً، أغلب من الغلب! ابن الكلب لم يرض أن يعطه شيئاً! يا عم إدي له حق دبوس من الفراخ اللي ها تطفحها بالسم الهاري! ابن الجزمة نظر له من فوق لتحت، ورمي كلمة، وأكمل طريقه. أكيد كلمة سم، الولد بدأ يبكي! عالم وسخة ما عندهاش دم! ده يا بقف بيحميك إنت وولادك وانتم بتطفحوا الكنتاكي وتسلكوا زوركم بالكوكاكولا! أحسن منك ومن كل عيلتك القذرة! على الأقل جندي من جنود النظام، وانت عميل للفوضى عميل للشيطان! شَئَّال[1] ابن وسخة! باين من شكل أمه! شاري جردل كنتاكي بأحاد كباري[2] ، ها يكون إيه يعني!

أمسك رجب ما تبقى من سيجارته بين شفتيه. ودس يمناه في الجيب الأيمن لبنطلونه الليفايس الأمريكاني. وأخرج ما فيه من نقود.

---

[1] شَئَّال: لص.

[2] أحاد كباري: مائة جنيه.

جِمشة[1] ، وجِمشة، وأحاد[2]. وفيه أحاد تاني في الجيب التاني.

أعاد رجب النقود إلى جيبه، واحتفظت أصابعه بورقة خمسة جنيهات، طبقها، وهو يقترب من العسكري الباكي، ودسها، بحسم، في اليد اليسرى للعسكري.

الولد بالتأكيد لم يرني أقترب لامتلاء عينيه بالدموع. وامتلاء نفسه بالإهانة!

- ألف شكر يا باشا! تمتم العسكري الباكي من خلال بكائه.

خبط رجب العسكري الباكي على كتفه، وقال بسرعة:

- عيب الرجالة ما تعيطش!

وتابع سيره. التفت وراءه، وهو يسير، فرأى الأصلع الأكرش يعود أدراجه من أمام سيارته الهيونداي الفضية، ويحاول إعطاء العسكري الباكي شيئاً.

رأى ما فعلته، ولا شك! أدرك أخيراً أن الولد محتاج، فعلاً، وليس شحاذاً محترفاً!

رأى رجب العسكري الباكي يهز رأسه رافضاً، وسمع صوته

---

[1] جِمشة: خمسة.
[2] أحاد: واحد.

يقول من خلال بكائه:

- لأ خلاص الباشا اداني.

لن يأخذ منك شيئاً يا ابن الصرمة! صعيدي عنده كرامة! كان فقط يحتاج للعودة لقريته، ولم يكن معه نقود، ففعل ما هو مجبر على فعله. لا ضير في ذلك. ولما أصبح لديه ما يكفي، اختار التصرف بكرامة. يفعل الإنسان ما يجب عليه فعله لكي يظل على قيد الحياة، لا يوجد ما يشين في ذلك، ولكن عندما يصبح لديه الخيار، يختار كريم الأصل أن يتصرف بكرامة. الجِمشة منحته حق الاختيار. أنا منحته حق الاختيار، فاختار أن يتصرف بكرامة، وظهر الأصل الكريم.

لايزال لدينا جِمشين[1] عند نبيل؛ عمولة بيعة ورق البردي، والتماثيل الفرعوني لعليرزا الأسبوع الماضي. نبيل مضمون، لا يتهرب عند التحصيل منه، والحق يقال. لم يأكل حقنا أبداً من قبل. هو يعلم أنني لا أحضر له إلا الزبون اليافت الذي يشتري فعلاً، ويعلم أن بإمكاني أن آخذهم إلى أي بازار آخر، والحال، أصلاً، في البازارات واقف. كحال البلد. الجِمشين مضمونة الليلة في جيبنا!

---

[1] جِمشين: خمسون.

ولدينا شلوشين[1] عند خلف؛ عمولة بيعة متر البانجو[2] المانجاوي لأصدقاء نصار الفلسطيني من أسبوعين. لم أحصلها بعد. سأصر على أخذهم نقوداً، لا بضاعة! خلف، كعادته، سيعرض أن آخذ بثمنهم بانجو، لكنني سأصر على أخذ النقود! ابن الذين اشترى سيارة أوبل حمراء جديدة. على الأقل بجِمشين ألفات[3]! من شقوق[4] المخدرات، هه هه هااا! لو حسبنا مكسبه من صفقات بيع المخدرات لمن أعرفهم به، لكان من نصيبي، على الأقل، الكنبة، وكبّوت السيارة الجديدة، هه هه هااا! وربما أيضاً الفانوسان الأماميان! والمساحات هه هه هااا!

أول ما تدخل الورشة عنده في السيدة زينب، تشم رائحة مفتقة قوية تعبق المكان، هه هه هااا! يستخدم برطمانات مفتقة، مفتوحة، لتضيع رائحتها القوية رائحة البانجو المخزن عنده في أشولة. رائحة نشارة الخشب، والصمغ، والبوية، لا تكفي وحدها لتضييع الرائحة القوية! يا ترى مخزن كام كيلو في الورشة؟! قول كام طن هه هه هااا! يا ابن الذين يا خلف! في الظاهر ورشة خشب، وفي الحقيقة مخزن بانجو! ويتاجر أيضاً في كل شيء. توسطت له ليشتري الثلاجة الإيبرنا الإثني عشر قدماً من ميلندا، لأنها كانت تريد بيعها قبل السفر. لن تترك شيئاً يستحق البيع

---

[1] شلوشين: ثلاثون.
[2] متر بانجو: ثُمن كيلو بانجو.
[3] جِمشين ألفات: خمسون ألفاً.
[4] شقوق: نقود.

وراءها يمكن أن يستفيد منه نصار. العقيد فؤاد على حق دائماً. لم ألاحظ تدهور العلاقة بينهما. كان يجب أن ألاحظ الأمر عندما عرفت أنها تريد بيع الثلاجة قبل سفرها! ابن المحظوظة خلف اشتراها برخص التراب! بأحاد كباري ومشط، وهي، على الأقل، تساوي شالوشة كباري[1] وحِمشين، بحالتها تلك! أعطاني يومها نصف متر إلا بانجو سيناوي، وبعته لنصار وأصدقائه في الجامعة الأمريكية بحِمشين، وكانوا طائرين من الفرح! يحبون البانجو. سريع، لكن من المؤكد أنه يدمر الذاكرة. اللهم احفظنا! رأيت الكثيرين من مدمني البانجو وقد صار مخهم في الباي باي! كان معي مرة عرنوس بادلته مع صامولِ الأيرلندي بنصف قرش حشيش مغربي هه هه هاا! كان صامولِ مايزال جديداً في مصر، ولا يعرف الأسعار بعد، ولا رابص[2] السوق! كان يُسمي البانجو أفريكان هيربز، ويقيمه تقييماً عالياً، ويقول إنه عندهم في أوروبا أغلى من الحشيش!

حِمشين عند نبيل، وشلوشين عند خلف. شمونين[3]. حلوين، رضى! وعندنا مشط في البيت. يبقى عندنا أحاد كباري. فل يا باشا! نحصّل الشقوق الليلة قبل الرجوع للبيت. تاكسي بسرعة لميدان التحرير!

---

[1] شالوشة كباري: ثلاثمائة.
[2] رابص: فاهم، مدرك.
[3] شمونين: ثمانون.

وقف رجب في مقابل بوابات بنايات الحرس الجمهوري. رمى عقب سيجارته، وداسه بباطن مشط حذائه الأيمن، وفعصه جيداً رائح جاي. أشار بيمناه، فهمّت بالتوقف سيارة تاكسي فيات مائة وثمانية وعشرون، كانت تسير على مهل، وسمع رجب صوت أم كلثوم صادراً منها مخترقاً زجاج نافذتها الأمامية المفتوحة: أهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم واتجمعوا يا ليل صحبة وانا معهم. توقفت السيارة أمام رجب، ففتح الباب الأمامي، وجلس بجوار السائق قائلاً بهدوء: ميدان التحرير يا اسطا باشا.

سائق بدين بكرش، ونظارة كعب كبّاية. فاتح أزرار قميصه لآخر صدره، من الحر المضاعف لبدانته. ومنديل رمادي بنقشة مربعات كبيرة ملفوف حول قفا عنقه، ليفصل عرق العنق القصير السمين عن ياقة القميص الأبيض. يبدو في منتصف الخمسينيات. كما لو كان آتياً لتوه من مشوار من الخمسينيات هه هه هااا!

تحركت سيارة التاكسي على مهل.

واحنا معانا بدر، طالع في ليلة قدر، فيها حبيب القلب، وافى ووفيّ الندر، هو يقول يا ليل، يا ليل، واحنا نقول ليلي ليلي ليل، وكلنا يا ليل، أهل الهوى يا ليل، يا ليل.

الكلام لبيرم التونسي. واللحن لزكريا أحمد. غناها أحمد

التوني في الليلة الكبيرة للسيدة نفيسة نفيسة العلم، في مارس الماضي. كانت ليلة عظيمة! كان سامح شكري معي. وآبي، وشلي، وعليرزا. ونصار الفلسطيني، وميلندا. عليرزا انبهر، ليلتها، بالرغم من أنه حمار لا يفهم، وملحد بن ملحد! قال إن المصريين شعب عظيم وراق، يحبون آل البيت، ويحتفلون بموالد أهل البيت، وعندهم أولياء من النساء. قال إنه لم ير شعباً عربياً آخر عنده أولياء من النساء، ويحتفل بهن، كما يفعل المصريون. علق سامح وقال إن هذه مسألة قديمة عندنا، من أيام أمنا إيزيس، ثم ستنا العدرا، ثم استمر بعد ذلك نفس الاحترام لسيدات آل البيت.

وغنى أحمد التوني، بعدها، يا مَّه القمر ع الباب. غناها في ذيل أهل الهوى، بلا فاصل. الكلام لمرسي جميل عزيز. واللحن لمحمد الموجي. هللت الناس عندما سمعت؛ بابص م الشباك لمحته جايّ هناك في طلعته الحلوة، نوَّر عليا وقال في عنيا كام موال وخدت كام غنوة، لا قدرت أرد جواب ولا أرد الباب يا مَّه أنادي له، يا مَّه القمر ع الباب. ثم لحمها بكوبليه من دليلي احتار. أخاف في البعد توحشني، واخاف في القرب تتركني، قريب مني تناجيني، وطيف بعدك يخايلني. الكلام لأحمد رامي. واللحن لرياض السنباطي. كانت الناس من النشوة طائرة في السماء! لم يكن هناك موضع لقدم في ميدان السيدة نفسية. كررها أحمد التوني ثلاث مرات. ثم قال عم عيسوي داغر جملة على الكمان من جددت حبك ليه، جعلت الناس تبكي، ولحقه عم لوكا عريان

على الرق بالإيقاع، فاهتاجت الأرواح، حتى روح أحمد التوني، نفسه، الذي فقد السيطرة على جسمه وأخذ يهتز كمن مسه سلك عريان، ويفقر بقوة يميناً وشمالاً على المسرح، ولم يستطع الجسم تحمل النشوة، فأخذ يتنطط، وبدأ يصيح وهو يبكي وصوته مشروخ إنت اللي فات بنعيمه وراح وفات لي طيفه في خيالي، أسهر معاه الليل سواح عايش على العهد الخالي، إنت اللي فات بضناه وشقاه وساب لي ناره في ضلوعي، إن مر على الخاطر ذكراه تنزل من الوجد دموعي، إنت النعيم والهنا، إنت العذاب والضنا. الكلام لأحمد رامي، واللحن لرياض السنباطي برضه. صحيح، إن تكلثمت فتسنبط! كان الميدان كله على فقرة رجل واحد، تراه من بعيد كأنه كائن عملاق من الأساطير الخيالية يتمرجح يميناً وشمالاً في روعة وانسجام.

هذا السائق شكله يرغب في الحديث. تأخذ أحياناً معلومات مفيدة من سائقي التاكسي. معظمهم معلوماتهم غلط في غلط، لكن على الأقل تعرف كيف يفكر الناس غلط في غلط، وكيف يروج الناس معلومات غلط في غلط! من الأحسن التظاهر بالانشغال في الموبايل. أقله لأعرف مدى إلحاح حاجته للحديث. كل رجل هو منشد يحتاج لسمِّيعة. خصوصاً سائقو التاكسي. لمثل هذه المواقف اخترعوا الجيمز في الموبايل. الثعبان والمتاهة أفضل كثيراً من سوليتير.

راحت الأصابع اليمنى لرجب تعبث في أزرار تليفونه المحمول.

تخيل، لو الواحد كان لا يعرف العقيد فؤاد، ومروح البيت مع آبي، ونحن الاثنان سكارى طينة، وفي الثانية صباحاً بعد حفلة خواجاتي معمعة، ونائمان على الكنبة الخلفية لسيارة التاكسي من السكر، ويوقفك ضابط صغاري[1] ، ملازم أول، أمام ديوان الوزارة بلاظوغلي! يرى التاكسي ماراً، في الثانية صباحاً، أمام وزارة الداخلية، وفي الكنبة الخلفية اثنان مخموران؛ واحدة شكلها خواجاية، والثاني سحنته مصري، هه هه هااا!

حب يسخَّف ويغلس، فوقف التاكسي، ونزلني، وطلع بطاقتك والجو ده! ومين اللي معاك دي؟! وإيه علاقتك بيها؟! وانت بتشتغل إيه أصلاً؟! قلت له: عاطل حضرتك. هه هه هااا! بص في البطاقة باحتقار، وقال بمنتهى السخافة: حاصل على الإعدادية!

اتصلت فوراً بالعقيد فؤاد وأيقظته من النوم، كما هو مسموح لي في حالات الطوارئ، وشرحت له الموقف في كلمتين، ثم ناولت الضابط الموبايل، وقلت له وأنا أبتسم: إتفضل كلم! قال بسخرية: أكلم مين إن شاء الله؟! اقتربت بفمي من أنفه، بأقصى ما أستطيع، وتعمدت أن أنفث رائحة الخمرة في أنفه وأنا أهمس قائلاً: مباحث أمن الدولة سيادة العقيد فؤاد النجار. تناول التليفون، متشككاً غير مصدق، ورد على العقيد فؤاد، فتغيرت ملامحه،

---

[1] صغاري: صغير.

فوراً، وبدا عليه الذعر، هه هه هااا! الولد لم يقل إلا حاضر سيادتك يا افندم، تؤمر سيادتك يا افندم! العقيد فؤاد، وقد أُيقظ ليلاً قبل السحور، صب غضبه على رأس الملازم الصغاري اللي شايف نفسه، هه هه هااا! انتحى بي جانباً، وراح يهمس معتذراً، ومبرراً، كالتلميذ الخائب حين يروح يبرر خوفاً من العقاب، وقال: أنا آسف ما تزعلش، بس أنا في دورية حراسة وشايف تاكسي معدي قدام الوزارة وفيه اتنين سكرانين الساعة اتنين بعد نص الليل في رمضان! أعذرني معلش وماتخدش الموضوع بصفة شخصية. لم أرد عليه. سكران الساعة اتنين بعد نص الليل في رمضان، هه! طبيعة عملي يا مشمش! أخذت الموبايل منه، وبصقت، قبل أن أركب التاكسي، ولمحته يكاد ينفجر من الغيظ. كان مكتوف اليدين ولايقدر يعمل أي حاجة! تستاهل!

تخيل لو لم نكن نعرف العقيد فؤاد، كيف كان سيكون الحال يا ابني! سألتني آبي، وهي سكرانة، والتاكسي يتحرك؛ من هذا الذي اتصلت به؟ قلت إنه خالي، وهو يعمل موظفاً في سكرتارية رئاسة الجمهورية. قالت آبي، وهي سكرانة، عاش خالك لونج لِف يور أنكل، شكله شخص مهم هي سيمز تو بي آن إمبورتنت بيرسون! صمت ولم أرد. بالتأكيد نسيت الأمر حين أفاقت في اليوم التالي، بالتأكيد نسيت.

مد السائق يمناه بعلبة سجائر كليوباترا سوبر ناحية رجب، فرفع رجب رأسه عن شاشة تليفونه المحمول، وأدرك أن المحادثة لا مفر منها.

بعد هذه الإيماءة الودية منه، من سوء الأدب تجاهله.

وضع رجب راحته اليمنى على صدره، وابتسم قائلاً:

- ألف شكر لسّه طافيها والله!

سحب السائق سيجارة كليوباترا سوبر من العلبة بأسنانه، وأعاد العلبة لسطح تابلوه السيارة أمامه. وتناولت يمناه علبة كبريت، من جوار علبة السجائر. تركت يسراه مقود السيارة، وأخرج عود كبريت من العلبة، وأشعله بسرعة ومهارة. أشعل به سيجارته، وأطفأ العود؛ بهزه مرتين سريعاً في الهواء، وألقاه في طفاية السجائر المفتوحة في تابلوه السيارة. أعاد وضع علبة الكبريت بجوار علبة السجائر. وبيقين، سحبت يمناه شريط كاسيت من على تابلوه السيارة، من كومة شرائط بجوار علبتي السجائر والكبريت. أبدلت أصابعه الأيامن، وبحركة سريعة ماهرة، أهل الهوى، بأراك عصي الدمع، وأرجعت الأصابع الشريط الذي أخرجته من الكاسيت إلى كومة الشرائط بجوار علبتي السجائر والكبريت.

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، أما للهوى نهي عليك ولا أمر، نعم أنا مشتاق وعندي لوعة، لكن مثلي لا يُذاع له سر.

- يظهر إنك غاوي أم كلثوم! قال رجب بابتسامة مجاملة.

- غاوي أم كلثوم. رد السائق بهدوء. وأخذ نفساً عميقاً من

السيجارة، ولم يخرجه. ثم قال كمن يكلم نفسه، مستمراً في النظر أمامه وللطريق:

- البيت ده أصله في قصيدة أبو فراس الحمداني بلى إني مشتاقٌ، لإنه في اللغة العربية بيكون جواب السؤال المنفي ببلى في حالة الإثبات، وبنعم في حالة النفي، بلى هي جواب استفهام معقود بالجحود توجب ما يُقالُ لك، بس الست فضلت إنها تقول نعم جواباً مثبتاً للسؤال المنفي، تقديراً منها أن هذا أخف على أذن المستمع، وأجمل برضه في الغنا.

- يعني الست غلطت؟! تساءل رجب مبتسماً.

- غلط الست صواب الصواب. رد السائق بهدوء، كأنه يقرر حقيقة أبدية محسومة، وهو مستمر في النظر أمامه وللطريق.

- هوّ حضرتك أستاذ لغة عربية؟ تساءل رجب بفضول، وقد تحمس للحوار مع السائق.

هذا رجل عنده معلومات مفيدة!

- أستاذ لغة عربية. تمتم السائق، وهو مستمر في النظر أمامه وللطريق.

لم يفهم رجب من نبرته إن كانت إثباتاً، أم استنكاراً. ولاحظ أنهما قد عبرا من تحت كوبري جسر السويس، وفي الطريق إلى

مباني جامعة عين شمس.

طيب، حلو، عرفنا منه معلومة جديدة؛ نعم وبلى. البلي بلي با، البلي بلي بو. كتاكيتو بني! لو سمعه سامح شكري لقال قولته الشهيرة؛ اللغة العربية عظيمة لكن برضه فيها حاجات بضان، هه هه هاااا.

أخذ السائق نفساً عميقاً من السيجارة، ولم يخرجه. التفت برأسه إلى رجب، وقال بهدوء، وبصوت عميق:

- أنا ها كمّل على فكرة للسيدة زينب. وثبت السائق رأسه في اتجاه رجب، وتاركاً السيارة تقود نفسها.

أوبااااا! اللللللله! إيه ده بقى! مين ده بقى؟!

حملقت عينا رجب في عيني السائق. حاول أن يتماسك، وأن يسيطر على أوصاله، وقد شعر بأنها ترتجف. ثم انتابه شعور بأنه في حلم مزعج، وتمنى، بإلحاح، أن يخرج من سيارة التاكسي على خير.

التفت السائق أخيراً أمامه وللطريق. أخذ نفساً من سيجارته، دون أن ينفثه. كف رجب عن البحلقة للسائق، وراح ينظر للطريق أمامه دون أن يرى شيئاً. أنهت سيارة التاكسي شارع لطفي السيد، وبدأت في صعود كوبري أكتوبر. عاد صوت أم كلثوم أراك عصي الدمع إلى أذني رجب بعد أن غاب، وعاد إليه

وعيه.

أراد عقل رجب أن ينطق لسانه بتعليق؛ من باب إقناع نفسه بأن الأمور طبيعية، وبأنه مازال بخير ويتنفس، فقال بصوت خافت، بعد أن بحث عن صوته ووجده، جاساً نبض السائق:

- الحمد لله الطريق الليلة دي سالك، مش واقف زي كل يوم!

أخذ السائق نفساً عميقاً من سيجارته ولم ينفثه، وبدا أنه لن يعلق على ملاحظة رجب. مرت ثوان ثقيلة على رجب؛ وهو يحاول تقدير كم من الزمن قد تبقى ليصلوا إلى ميدان التحرير. ثم عاد الصوت الهادئ الرتيب للسائق؛ كأنه يقرأ من ورقة أمامه، بلا انفعال، مستمراً في النظر أمامه وللطريق:

- يا خسارة الطريق اللي مش واقف، الواقف يرى الأواخر، ولا تراه الأوائل، الواقف يرى الحقيقة، ويعرف كل فرق، الواقف يكشف وراء ما يُقال، والمعرفة مُنتهى ما يُقال، الواقف يرى العلم، ويرى المعلوم، ويرى كيف يُضيّع العلم المعلوم، الواقف يأكل النعيم، ولا يأكله النعيم، ويشرب الابتلاء، ولا يشربه الابتلاء، الواقف هو المؤتمن، الواقف هو المختزن، الواقف لا يروقه الحسن، الواقف لا يروعه الروع، الواقف ليس له عدة، وكل ذي عدة مهزوم، الواقف صامد، والصامد في الديمومة، الواقف يفارق حكم البشرية، يموت جسم الواقف ولا يموت قلبه.

كبر الفضول في نفس رجب، حتى طرد الخوف. همس

بتردد، بعد أن صمت السائق:

- هوّه.. حضرتك مين؟!

أخذ السائق النفس الأخير من سيجارته ولم ينفثه. ثم ألقى عقب السيجارة بهدوء في مطفأة تابلوه السيارة، وأغلقها، وهو مستمر في النظر أمامه وللطريق. أحس رجب بأن سيارة التاكسي تزيد من سرعتها في تصاعد. قال السائق أخيراً، برتابة، وبلا انفعال:

- يعرفني من يعرفني، يراني ويسمع مني، ولا يعرفني من لا يعرفني، لا يراني ولا يسمع مني، إذا عرفت ما تسمع، عرفت من تسمع منه، ولن تعرف من تسمع منه، حتى يتعرف إليك بلا نطق، إن عرفتني بمعرفة، أنكرتني من حيث عرفتني، وإن سألت عني، فاسأل عن نفسك، فإن عرفتها، عرفتني، وإن لم تعرفها، لا تعرفني، فقد أغلقت بابي دونك، المعرفة التي لا جهل فيها، لا تظهر، الجهل الذي لا معرفة فيه، لا يظهر، المعرفة بلاء الخلق، خصوصه وعمومه، المعرفة تأكل المحبة، والخوف مصحوب المعرفة، ومصحوب كل شيء غالب حكمه، المعرفة الصمتية تحكم، والحكم يأكل ما دخل فيه، الحكم نار، يأكل المعرفة، والشهوة نار، تأكل الوقار، والجزاء مادة الصبر، والصبر مادة القنوع، والقنوع مادة العز، أنا القريب الذي لا يدركه العلم، أنا البعيد الذي لا يدركه العلم، أنا الذي، لا تطلع عليه بتسميته.

لاحظ رجب أن السائق مستمر في زيادة سرعة السيارة، وأنهم يقتربون بسرعة غير مناسبة على الإطلاق، ومن الحارة اليسرى للكوبري، من منزل عبد المنعم رياض. فقال، بقلق، وهو يشير بسبابته اليمنى إلى بداية المنزل، عبر الزجاج الأمامي لسيارة التاكسي:

- أنا نازل في التحرير!

- المماليك في الجنة والأحرار في النار، جازف بنفسك وإلا ما تفلح. تمتم السائق، مستمراً في النظر أمامه وللطريق.

سارت سيارة التاكسي، بسرعة قصوى، في أقصى يسار الكوبري. ثم فجأة، انحرف بها السائق إلى أقصى اليمين، فاهتز رجب في مكانه بشدة، وسمعت أذناه فرملة سيارة خلفهم. التفت ورأى سيارة بيجو بيضاء، كانت تسير في الحارة اليمنى، على مسافة بعيدة قليلاً، قد فرمل سائقها، وهدئ من سرعته، بعد أن فوجئ بالانحرافة الغشيمة لسيارة التاكسي.

دخلت سيارة التاكسي منزل عبد المنعم رياض بسرعة. وخيل لرجب أن السائق بدلاً من أن يدوس على الفرامل قليلاً، ليخفف من سرعته عند دخول المنزل، قد داس على دواسة البنزين. زاد من خوف رجب، أن السائق قد قرر أن يأخذ المنزل من قوسه الواسع، لا من قوسه الضيق، وهو بهذه السرعة. وشعر أن سيارة التاكسي على وشك الانقلاب، في أية لحظة. وكان صوت احتكاك

كاوتش العجلتين اليمنتين بالأسفلت قوياً، وشبَّ جانبها الأيسر قليلاً. اجتاح رجب شعور بأن هذا السائق معتوه؛ لأن قدمه مازالت تدوس على دواسة البنزين، فصاح بقوة:

- يا عم ارفع رجلك من على البنزين بقى! ارفع رجلك من على البنزين! ما تدوس بنزين يا عم ها نتقلب! ما تدوس بنزين! واوعى تدوس فرامل! اوعى تدوس فرامل! شيل رجلك خالص! شيل رجلك يا عم ما تعملش حاجة!

نظر السائق إلى رجب، محملق العينين، فاغر الفم. وبدا لرجب أنها نظرة شديدة البلاهة.

هذه نظرة بلهاء جداً، جداً جداً! قد يكون طيباً، ولكنه، بالتأكيد، في هذا الموقف معتوه! الدراويش عموماً معتوهون، يتنقلون بحرية عبر الشعرة الفاصلة بين العته والحكمة!

استمر السائق بضع ثوان ينظر لرجب. وكانت السيارة أمام ملف حاد الزاوية، فصرخ رجب فيه، مشيراً، بحدة، بسبابته اليمنى:

- بص قدامك يا عم بص قدامك! شيل رجلك من على البنزين وبص قدامك! واوعى تدوس فرامل!

التفت السائق أمامه وللطريق، وبدأ يتحكم في مقود السيارة، حتى لا تصطدم بمصدات سور الكوبري، وقد كادت أن تدخل

فيها، مهددة بأن تخترقها وتطير ساقطة من فوق الكوبري. أخذ يقول، بصوت بدا لرجب عالياً، بالرغم من نفس الرتابة في الإيقاع، والنبرة الثابتة المستقرة، كأنه عاد ليقرأ صفحة أخرى من نفس الكتاب، ولكن على نحو أسرع وأعلى:

- كلما كان أسرع كان أجمع، وكلما كان أجمع كان أرغب، وكلما كان أرغب كان أطلب، وكلما كان أطلب كان ألزم، وكلما كان ألزم كان أكتم، وكلما كان أكتم كان أسلم، وكلما كان أسلم كان أدوم، وكلما كان أدوم كان أخلص، وكلما كان أخلص كان أخص، وكلما كان أخص كان أنفذ، وكلما كان أنفذ كان أرخى، وكلما كان أرخى كان أنصت، وكلما كان أنصت كان أقرب، وكلما كان أقرب كان أفزع، وكلما كان أفزع كان أدأب، وكلما كان أدأب كان أكشف، وكلما كان أكشف كان أيقن، وكلما كان أيقن كان أشكر، وكلما كان أشكر كان أثبت، وكلما كان أثبت كان أستر، وكلما كان أستر كان أستر، وكلما كان أستر كان أستر.

انتهى منزل الكوبري على خير، لم تنقلب السيارة، ولم نسقط من على الكوبري، معجزة!

لكن المعتوه بدلاً من أن يدوس على الفرامل، داس، مرة أخرى، على البنزين! دي إيه الليلة دي! رجله برضه على دواسة البنزين! عبيط ده ولا بيستعبط!

- يا عم ما قولنا شيل رجلك بقى من على البنزين، الله! دوس

فرامل يا عم! يا عم دوس فرامل يا عم ها نخبط في الأتوبيس!

صاح رجب، وهو يرى باصاً كبيراً راكناً على اليمن، في مواجهتهم مباشرة، في نهاية المنزل. سمع صوت قدم السائق وهي تدوس بقوة، عدة مرات، على دواسة الفرامل، دون أن تتوقف السيارة. التفت السائق ونظر ببراءة لرجب، وتمتم بهدوء لا يناسب الموقف:

- الفرامل سايبة.

استر يا ملك! سنصطدم بمؤخرة الأتوبيس! فرامل اليد، فرامل اليد بسرعة!

قبضت يسرى رجب على فرامل اليد، وسحبتها، بسرعة، لمنتهاها بقوة، فتوقفت سيارة التاكسي، ومقدمتها لا تبعد عن مؤخرة الباص إلا بضعة سنتيمترات.

الحمد لله! ألف حمد وشكر!

فتح رجب الباب، وقفز من سيارة التاكسي، وهرول عابراً الطريق الخالي، متجهاً إلى ميدان التحرير.

ألف حمد وشكر! دعوتك أن أخرج سالماً من التاكسي، واستجبت! ألف شكر يا ملك، ألف ألف شكر يا ملك.

آخذ نفسي، وألم نفسي، ثم أفكر في ما حدث.

توقف رجب، كمن نسي شيئاً مهماً، والتفت، ثم أسرع عائداً لسيارة التاكسي. شاهد، وهو يقترب، سائق التاكسي وقد خرج منها، ووقف بجوار رصيف المنزل، وشرع في تدخين سيجارة جديدة يختفي دخانها بداخله. دس رجب يمناه في الجيب الأيمن لبنطلونه وأخرج ما فيه من نقود. نظر إليها في راحته بسرعة، ثم قبض عليها. دس يسراه في الجيب الأيسر لبنطلونه وأخرج الجنيه الفرداني. لم النقود كلها في قبضة يمناه، ومدها إلى السائق، الذي ظل ينظر إليه بإمعان وثبات وهو يقترب، دون أن ترمش عيناه.

- توكل على الله. قال السائق في هدوء وطمأنينة.

- بس عشان تصلح الفرامل على الأقل! قال رجب مصراً.

- توكل، على، اللـلـله، توكل، على. اللـلـله. قال السائق، مؤكداً، ومقطعاً الكلمات في هدوء وطمأنينة.

أنزل رجب يمناه وردها إلى جنبه، وهو ينظر بثبات في عيني السائق المطمئنتين. ثم قال في خشوع:

- توكلت على الله، توكلت على الله.

- اتفضل روح مشوارك، شوف مصلحتك. همس السائق بصوت خافت. ورفع السيجارة إلى شفتيه، وسحب نفساً عميقاً من الأنفاس التي لا تخرج.

رفع رجب راحته اليسرى، مفرودة الأصابع، إلى جبهته في تحية شبه عسكرية، وقال:

- السلام عليكم، السلام عليكم.

واستدار، ومشى متمهلاً قاصداً ميدان التحرير. ولم يلتفت وراءه.

من هذا؟!مع من ركبنا التاكسي؟!

بصرف النظر عن ما كان يردده، كأنه يقرأ محفوظات، لكنه قال السيدة زينب وأنا كنت سأذهب للسيدة زينب عند خلف بعد مشوار نبيل في التحرير!

نقيب؟! نجيب؟! وتد؟!

ركبت مع سائقي تاكسي، من قبل، يأخذون في ترديد أقوال محفوظة عن ظهر قلب من أقوال الصوفية والدراويش. لكن ذلك يكون، في الغالب، في أوقات الموالد، أو حتى في الأماكن القريبة من المقامات. نحن لسنا في موسم الموالد، والتاكسي ركبناه من روكسي، وبين روكسي وبين أقرب مقام مسافة!

ضروري أول شيء أفعله هو العثور على ورقة وقلم، وتدوين ما استطاعت ذاكرتي الاحتفاظ به من أقواله. هذه رسالة مهمة مرسلة لي، بالتأكيد! إلى نبيل، فوراً، وسأجد عنده في

البازار ورق وقلم.

لا أظن أنه قد علقت بذاكرتي كل أقواله. أكيد بسبب الصدمة! لكن هناك كلام مايزال يطوف أمامي. أرى الحروف. أخشى أن تكون على وشك الاختفاء. الورق والقلم بسرعة!

لي أنا فقط، وليس لأي أحد آخر! الستر! قال الستر وكررها أكثر من مرة. كم مرة كررها؟ حِمشة أظن! نعم حِمشة، والسيارة على وشك الانقلاب. كلما كان أثبت كان أستر، وكلما كان أستر كان أستر، وكلما كان أستر كان أستر. حِمشة تعني المالانهاية؛ لأن سامح شكري حكى، مرة، أن هناك قبائل بدائية في أفريقيا يعدون فقط حتى أبو ربيعة[1] ؛ لا يعرفون إلا أحاد، شناين[2] ، شالوشة[3] ، أبو ربيعة، والحِمشة عندهم هي المالانهاية.

ولا حرف واحد عن هذا الموضوع للعقيد فؤاد! الستر! قال الستر، وأكد عليه. ثم هذه خصوصيات ليست من شأنه، ولا علاقة لها بالشغل، لا من قريب ولا من بعيد. يعني، ربما كان لها علاقة بالشغل، بشكل أو بآخر! عليّ أن أهدأ لأحسن التفكير. وعليّ، أولاً وقبل أي شيء آخر، أن أدون ما يحوم أمام عيني من كلام، قبل أن يختفي!

---

[1] أبو ربيعة: أربعة.
[2] شناين: اثنان، وثديا المرأة.
[3] شالوشة: ثلاثة.

الصدمة كانت شديدة! عطلت الذاكرة. معظم الذاكرة على الأقل. لكن بالتأكيد بقيت أشياء. غالباً هي الأشياء الأهم، جوهر الرسالة. قال كلما كان أفزع كان أدأب، وكلما كان أدأب كان إيه؟ سأتذكر، سأتذكر. الورق والقلم!

الذاكرة معذورة بسبب الصدمة، الصدمة كانت شديدة! صحيح ليست المرة الأولى التي أرى فيها كرامة، لكنها رهبة الكرامة في كل مرة، حتى لو كانت الحِمشين! هي هي. بل تزداد الرهبة مع كل كرامة جديدة! نفهم أكثر إعجاز المعجزة التي تحدث لنا. معجزة، بالتأكيد! وتحدث دائماً في آخر وقت، وآخر مكان، يمكن توقعه!

الشيخ محمود فتح كتاب التاريخ، قبل الامتحان، على الحملة الفرنسية، وجاء أكثر من نصف الامتحان، في اليوم التالي، عن الحملة الفرنسية. ويوم كنت في السيدة زينب في شقة توفيق سرور، وُأصيب بأزمة الربو، ونزلت أبحث عن بخاخة الفنتولين في كل صيدليات السيدة زينب، وكانت ناقصة. رجعت بدون الدواء، فطلب مني الشيخ محمود العبوة القديمة الفارغة، وقبض عليها في يمناه، ونفخ فيها، فإذا بالبخاخة ممتلئة بالدواء عن آخرها. طلب مني، يومها، أن أستر، ولا أخبر توفيق سرور، ولا أي أحد آخر. ويوم كنت في التونسي في مقام الشيخ أشرف، وأبوه الشيخ أحمد ظل يشتكي لي من موضوع مماطلة مشيخة الطرق الصوفية، ومسؤولي الحي، لكي يعترفوا بمقام ابنه المرحوم الشيخ أشرف. سرحت لحظتها وفكرت، مجرد تفكير

سريع، في أن أمر على سعاد في ميدان لبنان، وقال لي الشيخ أحمد وهو يوصلني، وقبل أن أشير لأوقف تاكسي: إركب الميني باص ده، ده بيروح ميدان لبنان. والشيخ فتحي، ليلة كنت أجلس معه على قهوة محمد نصر في ميدان السيدة نفيسة، واشتريت له فول سوداني، ووضعته أمامه على الطاولة، وبدأت حبات الفول السوداني في القفز والنط. يومها ضحكت، وقلت له: ليه بس الشقاوة دي يا شيخ فتحي! قال لي وأنا أودعه، وكنت أفكر، مجرد تفكير، في الذهاب عند أندرو الخول، في عوامة الكيت كات، لكي أسكر، قال: لو عاوز تشرب اشرب، اشرب وأنا ها شيل عنك الوزر، ها شيله على ضهري. وكرامات أخرى حدثت من قبل، يا ما حصل معي!

اثبت يا ابني، اجمد يا جدع! ليست هذه أول مرة! وإن شاء الله، وبرضاه، لن تكون آخر مرة. افهم الرسالة المبعوثة لك، هذا هو المهم، ماذا يريد أن يقول لي؟! الورق والقلم بسرعة!

السيارة كانت بلا فرامل، وعلى وشك الاصطدام، وأنا من أوقفها بفرامل اليد! الفرامل سابت، وأنا منعت التصادم، هذا له معنى كبير! كل شيء يحدث معهم له معنى كبير. أنا الذي منعت الحادثة! توكل على الله، روح مشوارك، وشوف مصلحتك، قالها وكان حنوناً، ولم يكن غاضباً، بل راضياً. هذا له معنى كبير! الحمد لله خادم من خدام النظام. مانع للحوادث. العقيد فؤاد قال: مافيش إنسان بيشتغل في خدمة النظام إلا وينجح وينتصر، وربنا يرضى عنه. الحمد لله راض عني!

بازار نبيل، الورقة والقلم بسرعة**!** تكاد الكلمات أن تختفي**!**

وأسرع رجب مزيداً من الإسراع، وكأنه في سباق للمشي السريع، في اتجاه بازار نبيل بميدان التحرير، آملاً في إنقاذ أكبر عدد ممكن من الكلمات.

محب

ذقون وحجاب في مطار هامبورج! وماذا كنت تتوقع؟!

راح محب يقترب، بخطى قصيرة، من بوابة رقم ثلاثة بمنفذ رقم واحد في صالة مغادرة الرحلات الدولية بمطار هامبورج الدولي.

وقف وراء قوس من الكراسي المعدنية الرصاصية المتلاصقة. نظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وعشر دقائق بتوقيت ألمانيا. تحميل الطائرة سيبدأ في الثانية عشرة والنصف.

التفت محب يساره، ونظر عبر الحائط الزجاجي لصالة المطار.

طائرة مصر للطيران واقفة في انتظار التحميل، ومتصل بها ممر تحميل الركاب. أمامنا عشرون دقيقة، على الأقل.

يتجمعون مع بعضهم البعض في كتلة واحدة، منفصلة عن

باقي الركاب. هكذا حالهم في كل مكان! شتيفان منسق ورشة العمل قال إنهم اليوم يملئون هامبورج. يملئون ألمانيا كلها. وأوروبا أيضاً يا عزيزي شتيفان! رأيت ذلك في إنجلترا، وفرنسا، وبلجيكا، واليونان، وهولندا. شتيفان حرص على أن يبدو كلامه حيادياً، ولكنني لمست الامتعاض في نبرة صوته. هامبورج صارت موطناً للشيشان، والأوزبكستان، والأذربيجان، والكازاخستان، والأفغان، والأتراك قبل هؤلاء جميعاً، والمصريين أيضاً.

لكن الأتراك معظمهم علمانيون معارضون للنظام. أو أكراد حالمون بتغيير هويتهم ليصبحوا أوروبيين. يخجلون من كونهم أتراكاً. رجال أعمال، ومدرسون، ومهندسون، وفنانون، وأساتذة جامعات. وأصحاب مقاهي، ومحلات بقالة وجزارة. وسائقو تاكسي. وسباكون. وأصحاب نواد ليلية، وبوديجاردات، وتجار مخدرات، وقوادون.

المصريون في هامبورج معظمهم من ذوي المؤهلات والتعليم العالي. عاطف يقول إن شباب الأطباء الإخوان يسافرون، بمنتهى السهولة، إلى ألمانيا ويحصلون على منح وإقامة! التنظيم في ألمانيا يساعدهم ويفتح لهم الطريق. ظننت في البداية أنه يبالغ، لكن الواقع أكثر مبالغة في الحقيقة!

لماذا يسمح الألمان بكل هذا! يجمعون البيض الفاسد كله في بلادهم! النظام عندنا يشتكي من أن الغرب يستخدم الإسلاميين

كورقة ضغط عليه. كثير من الأنظمة العربية تشتكي نفس الشكوى.

المسلمون من لاجيء الاتحاد السوفيتي المنهار كلهم تقريباً عاطلون عن العمل. سألت شتيفان ومن أين يعيشون؟! قال إن بعضهم يحصل على إعانات من الحكومة الفِدرالية؛ حتى يتعلم مهنة ويلتحق بسوق العمل. لكن معظمهم يحصل على مرتبات شهرية ودعم من الجمعيات الإسلامية في ألمانيا. السعودية، وقطر، والكويت. لماذا يتعبون أنفسهم إذن ليتعلموا مهنة، أو يلتحقوا بسوق العمل! تنابل. الكسل عسل!

يجمعون البيض الفاسد عندهم. المسلم على قلبهم كالعسل! الحب الألماني للإسلام قديم، من أيام هتلر، والحاج أمين الحسيني أزرق العينين آري الملامح! نظرية الإسلام الآري الإيراني. هتلر كان يشجع زواج الألمانيات بالإيرانيين. ثم يحتقرون المسيحي الأرثوذكسي! استعلاء وعنصرية. ربنا يوفقكم!

وياليت مسلميهم، حتى، يندمجون معهم في المجتمع! ينشأون جيتوهات إسلامية متخلفة في كل مكان يذهبون إليه. زواج أقارب! والنتيجة طبعاً زفت، ولابد وأن تكون مشوهة! فظاظة، وحقد، وكراهية. لا يشاركون الآخرين في حياتهم. وأغلبهم لا يتقن حتى لغة أهل البلد! نحن نقول اللي ياكل عيش المسلم يحارب بسيفه، لكن هؤلاء يأكلون عيش الألماني ويطعنونه في الظهر في أول فرصة! حقد. كراهية. استعلاء.

الكتلة الإسلامية على اليمين. يفضلون دائماً اليمين. يأكلون باليمين، ويشربون باليمين، ويجلسون على اليمين، ويدخلون بالقدم اليمين، ولو كان هناك استين للإنسان، لشخوا باليمين أيضاً! معظمهم في أوائل العمر عشرينات، وثلاثينات. دراسات عليا ممكن. أو قدموا للعمل في ألمانيا بدعم من الإخوان. معظمهم بصحبة زوجاتهم وأطفالهم. ينجبون كثيراً! ومزعجون، كالعادة، صراخ، وشقاوة، وجري ونط كأنهم في صالة بيتهم! فرحون بركوب الطائرة. أجازة في مصر مع العائلة الإخوانية أو السلفية. وفرصة أيضاً للتباهي والاستعلاء على بعضهم البعض. طبعا! يقيمون في ألمانيا حتة واحدة!

في مواجهة الكتلة الإسلامية، بعض الألمان والألمانيات متفرقون فرادى على الكراسي. شباب كلهم. ربما يقصدون الغردقة، أو شرم الشيخ. أجازة غالباً. الشمس المصرية، والبحر الصافي الفستقي، ونرجع نحكي للأصدقاء قصصاً عن مصر والمصريين. عاشقان واقفان يحتضنان بعضهما البعض، وملتصقين وجهاً لوجه. الولد يلتقط حبة بندق، أو فستق، من عبوة بلاستيكية، غالباً اشتراها من السوق الحرة. يضعها في فمه. يقبل البنت. البنت تلتقط حبة البندق، أو الفستق، من فمه. وتلوكها. شهد الرضاب! تلوكها بشهوانية! لا تضحك، ولا حتى تبتسم. من المهم الجدية في الجنس. الضحك يعطل الشهوة، ويوقف الجماح. والجماع وحياتك! أيوه بقى! قبلة طويلة شهوانية باللسان، ويده تدلك مؤخرتها. وهي تلف ساعدها حول خصره وتعصره

عصراً! يتبادلان مص اللسان. متلاصقان تماماً، وفي المواضع الصحيحة! سيأتيا بشهوتيهما هكذا، هذا إن لم يكن قد حصل فعلاً! زوجة محجبة تبحلق في المنظر زامة شفتيها في امتعاض. زوجها أنزل عينيه للأرض. يبحلق في أرضية المطار مقطباً. معلش يا حج! مرحباً بكم في مطار هامبورج، مرحباً بكم في ألمانيا! ألم يروا مناظر كهذه طوال فترة عيشهم هنا!

معظمهم متطرفون وحياتك! لحى مطلوقة، ووجوه متجهمة. رأيتهم في شوارع هامبورج بالجلاليب، والزي الباكستاني. رأيت منقبات يسرن في شوارع هامبورج. لا تظهر غير العينين، ولو كان هناك إمكانية لحجبهما لكان أفضل بالنسبة لهم! عورة! يحرمون الموسيقى. والتماثيل. يكبرون بدلاً عن التصفيق. لا يأكلون من اللحم والدجاج إلا ما هو مذبوح شرعياً، توجه الذبيحة ناحية مكة وتقول وأنت تنحر رقبتها بسم الله الرحمن الرحيم.

الإخوان أتوا من مصر في الستينيات، أيام عبد الناصر، ثم تزايدوا في السبعينيات، والثمانينيات. بعد ذلك أتى السلفيون أيضاً. وكل من يريد الهروب من مصر. مساكين والله! فروا من اضطهاد الإسلام في مصر! يؤمنون بأن إسلامهم، هم فقط، هو الإسلام الصحيح، والباقي كفرة. وألمانيا دار الهجرة. الإسلام الصحيح سيخرج من ألمانيا. ومن فرنسا، وبلجيكا، وإنجلترا، وهولندا. وأمريكا وكندا. واستراليا أيضاً. ثم سيعودون إلى مصر ويفتحوها. أوروبا وأمريكا تجمع البيض الفاسد عندهم. بالشفاء! لا يتحدثون حتى لغة أهل البلد! جيتو مغلق متخلف! يتزاورون

فقط مع بعضهم البعض، ويتزوجون من بعضهم البعض، ثم يتآمرون على المصريين الآخرين المقيمين في ألمانيا؛ العلمانيون، والأقباط الكفرة. الإسلام يمنع مصادقة غير المسلمين. لا يزورون المتاحف. لا يرتادون المسارح، ولا يحضرون الحفلات الموسيقية. حضارة الغرب الفاسدة المفسدة! ومع ذلك على استعداد لبيع أولادهم، أنفسهم، لكي يقيموا في الغرب!

شتيفان روى، ونحن نتحدث عن المصريين المقيمين في هامبورج، أنه صادق طالباً مصرياً كان يعد رسالة دكتوراه في الهندسة في جامعة هامبورج. كان جاراً له يسكن في نفس العمارة. وبعد عام كامل من الجيرة والصداقة، أبدى شتيفان رغبته في تذوق الأكل المصري. شتيفان أكيل، الأكل هوايته ومزاجه! متعته في الحياة! دعاه أخونا محمد بك لتناول العشاء في شقته. قال شتيفان إن الزوجة كانت مختفية في المطبخ، المغلق بابه، تناول زوجها الأطباق من وراء الباب، ثم تغلقه. شكر شتيفان كثيراً في الأكل المصري؛ المحاشي، والملوخية، والباذنجان المقلي، وكفتة الأرز. شتيفان قال، وهو يضحك، إنه قام بعد الأكل، كعادة الألمان المهذبين، حاملاً صحونه المتسخة، ونقلها إلى المطبخ ناوياً غسلها، فرأى الزوجة المختبئة هناك، فشكرها على طعامة أكلها، وسلم عليها. وبعد أن عاد من المطبخ وشكر مضيفه وخرج، فوجىء بعد ذلك بأن الدكتور محمد قد طلق زوجته وأعادها إلى أهلها في مصر على أول طائرة! قال

شتيفان إن ذلك كان بسبب أنه صافحها في المطبخ. طبعاً! الست انكشفت على خواجة غريب! وبطبيعة الحال، قاطعه الدكتور محمد بعد ذلك قطيعة تامة، تامة باتة! لا سلام، ولا كلام. حتى عندما يتقابلا صدفة على باب العمارة! شتيفان كان يضحك وهو يحكي، لكنه، فجأة، صمت، وبدا عليه الاندهاش وعدم الفهم. البيض الفاسد يا عم شتيفان! إشرب يا عم! هامبورجستان!

أول يوم وصلت فيه هامبورج، نزلت في أول الليل من الفندق لأدخن، وأبحث عن دكان بقالة قريب أشتري منه سفن أب لزجاجة الكمباري التي اشتريتها من السوق الحرة لمطار القاهرة. وجدت واحداً، فقط، مايزال مفتوحاً، بجوار فندق جينيريتور. دكان بقالة يقف فيه بائع عراقي؛ بلحية سلفية طويلة، وقميص مغلقة أزراره حتى العنق. عراقي يمكن، أو يمكن من بادية الشام. أو من شرق الأردن. اللهجات هناك متقاربة. لم نتبادل سوى بضع كلمات. جود إيفنج، دو يو هاف سفن أب؟ نظر لي، وابتسم ابتسامة مشرقة، وسأل بالعراقية، أو الجنوب سورية، أو الشرق أردنية: الأخ عربي؟ يعرفون كيف يصبحون دمثين، عندما يرغبون، ويعرفون كيف يبتسمون ابتسامات مشرقة، عندما يريدون. صححت له: لأ، مصري. ورفعت يدي بالسيجارة لآخذ نفساً، ولففت باطن رسغي ناحيته، متعمداً، حتى يرى الوشم. تحول وجهه، فوراً، من الإشراق إلى الجهامة. لم يقل حتى أهلاً وسهلاً هامبورج نورت. بالرغم من أنه كان وحيداً في الدكان، وكان شكله يتوق لتبادل حديث مع أي غريب عابر، فما بالك

بشخص يتحدث لغته! يعرفون كيف يصبحون أجلافاً، عندما يرغبون، ويعرفون كيف يتجهمون بغلظة وسماجة! عنصرية. كراهية. تطرف واستعلاء! طبعاً، أنا نصراني كافر! من الصليبيين! وهو الذي يحيا وسط الصليبيين، ويعاملهم ليلاً نهاراً، ويأكل خبزهم! لماذا العنصرية إذن تجاه النصراني المصري! حتى في مصر يعاملون الخواجة المسيحي أفضل من المصري القبطي. عقدة. أذلاء أمام الخواجات، عنصريون أمام أهل البلد! يؤمنون بأن المسلم الأفغاني، أو البورمي، أقرب إليهم من القبطي المصري! خسارة يا مصر! تشوهت. مصرستان! ثم يغنون للوحدة الوطنية! ربنا يوفقكم!

الفتاة التي ترتدي ميني ِجب كحلي وتضع ساقاً على أخرى جميلة جداً! أجمل واحدة في منفذ واحد! ساقاها رائعتان. تتلحس الحقيقة! كلها على بعضها! غالباً نازلة الغردقة أو شرم. هل يمكن أن تكون نازلة القاهرة وهي ترتدي ميني ِجب؟ غالباً لا، الألمانيات واعيات، يدرسن حال المدينة التي يسافرن إليها مسبقاً. منظمون ومرتبون. لا شيء للصدفة، لا شيء للمفاجآت. أكيد سألت وقالوا لها إن الميني ِجب غير مناسب في القاهرة. كل الألمان تقريباً أزواج، إلا هي. ربما صديقها ينتظرها في مصر. وربما لا. ربما تبحث عن صديق. في فترة استراحة ما بين صديقين. الكرسي على يسارها يجلس عليه راكب، خسارة! والكرسي على يمينها عليه حقيبتها اليدوية وهاندباج. احتمال بعيد أن تكون نازلة القاهرة. أتمنى أن تكون نازلة القاهرة! ربما

استطعنا، حينها، انتهاز فرصة والتعرف عليها. في صالة الوصول بمطار القاهرة. في طابور الجوازات، أو في السوق الحرة، أو في صالة استلام الحقائب. أو حتى أثناء الخروج من المطار. أعرض عليها المساعدة، وكلمة في حدوتة واشبك البنت! أحميها أيضاً من سخافات سائقي التاكسي الواقفين على باب صالة المغادرة. يشدون المسافرين بالعافية من أذرعهم، بلطجية، حاجة تقرف! ويحدث ذلك على مرأى ومسمع من شرطة المطار! غالباً الشرطة تقبض المعلوم منهم. الفساد في هذا البلد يطفح في كل يوم أكثر ما هو طافح!

سائق التاكسي، الذي أقلني وأنا في طريقي لمطار القاهرة، كان تحفة! كأنه خارج من نسخة قديمة من مجلة آخر ساعة، أو تجسيد لكاريكاتير لرخا! ُتميز أنه مصري من بين أربعين ألف شخص! أصلع وبكرش. ومنديل محلاوي ملفوف حول قفاه. ونظارة كعب كبّاية. وبيسمع أم كلثوم، وأكيد متغدي ملوخية!

إبن حلال والله، خد في المشوار عشرين جنيه بس! غيره بيتخانق لغاية ما ياخد الخمسين مقفولة أول ما يعرف انك رايح المطار! وكتر خيره أصر يشيل الشنطة ويدخلها لغاية الصالة جوّه. لازم نتصل بيه أول ما يجيلي ضيوف من برّه. ابن حلال ويشرَّف! أبقى اتصل بيه حتى لو ما فيش خواجات. أول مشوار طويل يجيلي، أتصل بيه يجي يوصلني، ونصاحبه برضه. إبن حلال ويشرَّف!

إن لم أجد فرصة للحديث معها في طابور الجوازات، أو صالة استلام الحقائب، يمكن أن أعرض عليها المساعدة لإيصالها لفندقها، إن كانت قد حجزت في فندق. وإن لم تكن، أعرض عليها استضافتها في العوامة! أنا وهي، يومين في الجنة!

وحدي في العوامة، ماري والأولاد في شقة الهرم. غاضبة! يبقى الوضع على ما هو عليه. أفضل من التطليق، أفضل كثيراً جداً! انفصال بدون تطليق. لا يمكن أن أعترف على نفسي جهاراً بالزنا! هل يُعقل هذا! وصمة عار! لا مستحيل! ثم لسنا أول ولا آخر ناس! كثير من البيوت على هذا الحال، انفصال بدون أوراق رسمية.

ويا ليته كان زنا، أو حتى شروع في زنا، أنا لم أفعل شيئاً! خارج من الحمام عارياً، وإيري واقف، وذاهب لحجرة النوم لأحضر منشفة جافة، والبنت صفاء كانت تمسح بلاط الصالة، ووركاها عاريان، وحاشرة الجلابية في حز اللباس! بنت الكلب عود! صغيرة، وخمرية. فرسة! متزوجة من سنة تقريباً من أحمد من الأحمدات. أكيد بقف!

ذهبت بنت الكلب، في نفس اليوم، لتنظف شقة سميرة أخت إلهام عُقد، ولسّنت عليّ هناك بالكذب! قالت زوج ماري خرج لي عارياً من الحمام وتحرش بي! كاذبة، والعدرا ما عملت حاجة، بصيت بس، ما تحرشتش بحد! وبنت الكلب كانت تبتسم لي وهي تمسح البلاط عارية الفخذين، وشكلها كانت عايزة! ربما أعادت

حساباتها، فتذكرت أنني مسيحي! أحياناً، يميزن بين المسيحي والمسلم، حتى في هذه! يقلن لأ، المسيحي لأ. أو قد تكون مريضة نفسياً، ومن هواة الإيقاع بالأسياد وتجريسهم! يحقق لهن ذلك متعة. نوع من الإشباع. متعة الشعور بالأهمية، والتفوق! وسميرة أخت إلهام عُقد، طبعاً، أخبرت فوراً أختها إلهام عُقد، التي بدورها أكلت أذني ماري ثاني يوم في الشغل، وتفننت في ابتداع تفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، والبنت صفاء شاهد عيان يا ماري، ولا تتنازلي عن حقك يا حبيبتي، وحقوق المرأة، وزفت المرأة!

رجعت ماري من الجمعية ثائرة، وكبّرت الموضوع. مصيبة! الخادمة يا خائن يا زاني! أقسمت لها إن البنت كاذبة، وأنني لم أفعل شيئاً. قلت لها إنها المسؤولة عن ما حدث، لأنها لا تنظف بيتها بنفسها، وتأتي كل يوم بخادمة شكل، وتتركها وحدها في البيت، وأنا رجل أحب أن آخذ حريتي في بيتي؛ أستحم وقتما أشاء، وأقلع كما أشاء، وألبس كما أشاء، وأن علاقتها بإلهام درويش، وباقي شلة الحقوقيات في الجمعية، قد أفسدت عقلها، وشوشت أفكارها!

أخذت ماريان ويوسف وسافرت إلى بيت أبيها في الاسكندرية، وطلبت الطلاق. من عنيّا! الباب يفوّت جمل، لكن تطليق رسمي لأ! لن أقف أمام قاض وأعترف بالزنا. وأصلاً لم يحدث شيء مع بنت الكلب! قالت تعترف عن أشياء أخرى كثيرة فعلتها، أنت خائن منغمس في الرذيلة، وتزني دائماً مع نساء، والخيانة في دمك، وأنها تعرف كل شيء، وأن الكيل قد طفح بها

هذه المرة لأن عيني قد زاغت على الخادمة، وبلاهات كثيرة من هذا القبيل! الخدامة يا خاين! مش من مستوايا! طب خلي إلهام عُقد تنفعك! وخلي الجمعية بتاعتك تنفعك، وخلي حقوق المرأة تنفعك! أصلاً أعدى أعداء المرأة هي المرأة نفسها! إذا أحببت أن تخرب قضية المرأة، سلمها للمرأة! وانظر إلى أشكالهن في الجمعية! تعاف نفسك مجرد النظر إليهن!

البنت شقراء بيضاء. بضة قليلاً، وبساقين رائعتين. عيناها ممكن تكون زرقاء، مش باين من هنا! مشغولة في كتاب بين يديها تقرأه. تريحه على فخذيها، يا بخته! يا ترى ماذا تقرأ؟ شيء خفيف بالتأكيد، لا يمكن قراءة شيء ثقيل في هذه الأجواء وأطفال المسلمين تتشاقى هنا وهناك! التركيز قليل، إن لم يكن معدوماً. وهناك مغامرة السفر إلى بلد مختلف، وركوب الطائرة، وربما قطة، أو كلب أودعناه عند صديق أو قريب قبل السفر، وهلم جرا. لوجستيات السفر. تفاصيل تستحوذ على معظم مساحة المخ. مائة مليار خلية عصبية، تتفاعل مع بعضها البعض، من المهد إلى اللحد. مائة مليار ندفة ثلج. مسؤولة عن الإحساس والذاكرة، والذكريات. والمشاعر والأفكار. والنوايا والأهداف. والسلوك. والمزاج. والهوية. والحب والكره. والحرب والسلام. والتقدم والتخلف. والعلم والخرافة. والقوة والضعف.

الأوروبيون يتظاهرون بالقراءة في المواصلات والأماكن العامة، مجرد تظاهر! يقرأون غالباً قصصاً هزلية تافهة، أو روايات بوليسية خفيفة. قراءة لزوم الشياكة. معظمهم تافهون، في

الحقيقة! منضبطون ومنظمون، لكنهم خاوون من الداخل! آلات ميكانيكية.

لو البنت رفعت عينيها عن الكتاب ستراني أنظر إليها بقوة. بوقاحة! النظرة مغناطيس، قوة النظرة قد تجبرها على رفع عينيها والنظر ناحيتي. ستجد الرغبة فيهما، ستجد الشهوة، ستشعر بعيني تعريانها من ملابسها، تنتهكان مقدساتها، تعبثان في عرشها! هذا يثير البنات. جرأة النظرة، وقاحة العينين. إن كانت جريئة ستستجيب، ستثار.

أنسحب ناحية السوق الحرة وقد تأتي ورائي. أقف في ركن ما، وأكلمها، وكلمة في حدوتة ونشبك البنت! ولو الحظ واتى، وكانت شهوانية، ممكن ندخل الحمام ونفعلها هناك! بس ارفعي عنيكي يا حلوة!

إبن الكلب مش شايفني، لو شافني مرة واحدة، لو بص لعنيا، ها خليه يسف تراب رجليا، ها خرب بيته، ها خليه يحس بشطة سوداني في عروقه، والنار في جوفه، هاخليه مجذوب، درويش، بس يبص لي، لو راجل يبص لي، لو راجل من ضهر راجل يبص لعنيا، بس ادهولي يا سيدي المغربي.

لاااا هذا كثير فعلاً! الحاج قام وفرش سجادة الصلاة في مطار هامبورج! سيصلي الظهر في مطار هامبورجستان!

يعرفون اتجاه الكعبة وهم في أي مكان. حاج آخر قام وفرش

سجادته وراء الحاج الأول. حاج ثالث تبعهما. كان يبحث عن سجادته في الهاندباج. وضعها غالباً في قعر الحقيبة. إيمانه أقل من إيمانهما، لأنه وضع سجادة الصلاة في قعر الحقيبة! النساء المحجبات جالسات مكانهن، لن يصلين إلا بعد الوصول لمصر، عيب الحريم تصلي في الأماكن العمومية. معقول، تركع وتسجد أمام أعين الغرباء، حرام! الحاج الإمام هو غالباً الأكثر معرفة بالدين فيهم. من ناحية أخرى يمكن القول بإن الحاج الإمام هو غالباً الأقل معرفة بالدين فيهم، الأكثر تطرفاً، وغطرسة واستعلاء، وكراهية وعنصرية، وحقد.

يصلون خوفاً لا محبة! الله محبة. لكنهم يخافون من عذاب النار يوم القيامة، ويخافون من عذاب القبر، ويخافون من الثعبان الأقرع الذي يظهر للعصاة ليعذبهم في قبورهم. الثعبان الأقرع! وهل هناك ثعابين بشعر! ثعبان بقصة، ثعبان كنيش، ثعبان كابوريا، قزقز كابوريا قزقز كابوريا لو قزقزوني ها قزقز إيه!

يخافون، على الأخص، أن يحرمهم الله من المتع والملذات يوم القيامة! الحرمان من لذائذ الجنة؛ النسوان، والخمر، والعسل، واللبن. والعيال وحياتك! ليسوا مؤمنين، بل يجبرون أنفسهم على الإيمان!

أكيد الثلاثة لم يفسوا منذ مدة طويلة! الفساء عندهم يبطل الوضوء، فيضطرون للتوضؤ مرة أخرى. وحتى لا يتعبوا أنفسهم بتكرار الوضوء، يحبسون الفساء داخل بطونهم! الولد

فكري ابن بواب العمارة، ونحن صغار، كان يقلب الأغاني الشهيرة. عبد الحليم يقول: فستها، أيوه انا فستها، ومش قادر أنسى ريحتها، فستها، فستها، ويرد عليه فريد الأطرش: يا بو فسية جنان، مليانة حنان، فسيها كمان، فتقول وردة: قرفتوني قرفتوني قرفتوني!

صلاة الظهر جماعة في مطار هامبورج. الكابتن هملر قائد الإس إس يتعذب في قبره! شقى عمري ضاع!

البنت الحلوة نظرت، من تحت لتحت، للمصلين المسلمين نظرة خاطفة وهي تقلب صفحة الكتاب. لكني لاحظتها. يخجلون من النظر للمصلين، والآكلين، والعشاق. عيب عندهم، انتهاك للخصوصية، كل واحد حر.

لا فائدة من الوقوف هنا، كخيال المآتة، وهي عاكفة على كتابها! لن تنظر الآن، طالما المصلون يصلون. المصلون يسدون الطريق، المصلون بيني وبينها! آخذ لفة في المطار، وأشتري ما أحتاجه، ثم أعود، وربما حينها تسنح الفرصة. سيكونوا قد أنهوا صلاتهم. وربما يخدمني الحظ وتسأم من كتابها، فتقوم لتتجول قليلاً وتمشي رجليها. أحلى رجلين! ونتقابل في السوق الحرة!

البنت فرس سباق، كلها حيوية! جربي الصولجان الفرعوني يا أميرة. هل جربته من قبل؟ لو جاءت ورائي سأثبتها، أكلمها، وكلمة في حدوتة ونشبك البنت. الحظ، نحتاج ضربة حظ! قالك

عشان تبقى مليونير محتاج ضربة حظ، زائد التنازل الأخلاقي، زائد الاحتكار. سوبرماركت. عادل أدهم، برنس اسكندراني!

وإن لم تأت ورائي، فسأنتهز فرصة طابور الصعود للطائرة وأقترب منها. أقف وراءها، وأجر معها كلام، وكلمة في حدوتة ونشبك البنت. تستاهل التعب الحقيقة، يفوز باللذة كل مغامر! سأجد طريقة للوقوف وراءها وجر حديث معها. حتة مصري من بتاعتنا بقى! يفوز باللذة كل مغامر. جرأة وبجاحة، لكن بشياكة. يشعل ذلك شهوة البنات. الأخ الإمام يكبر بصوت عال! لااااا الأمر لا يطاق فعلاً! سكتتنا له دخل بحماره! يكبر مرة أخرى بصوت أعلى، وبلكنة غير مصرية! سعودية سلفية، لكنة التطرف، نبرة الاستعلاء. يا عم امشي من هنا بلا حرقة دم، واقف تعمل إيه! لا بتعلق، ولا خالي من النجاسة!

استدار محب، معطياً ظهره لركاب صالة بوابة رقم ثلاثة، وسار متمهلاً، مقترباً من الحائط الزجاجي الشفاف لصالة المطار على يمينه. نظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وإحدى عشرة دقيقة. أمامنا تسع عشرة دقيقة على الأقل.

توقف محب، ودار بقامته إلى اليمين قليلاً، فواجه الحائط الزجاجي لصالة المطار. رفع يمناه، وقبض على الحامل القماشي

لحقيبة ظهره الهاندباج السوداء، ووضع يسراه في جيب بنطلونه الجينز السماوي.

يا سلام لو يدخن الواحد سيجارة الآن! أحد مساوئ السفر بالطائرات هو الاضطرار للامتناع عن التدخين. تقريباً لنصف يوم كامل! هذه هي السيئة الوحيدة للسفر بالطائرات. لن يمكنني تدخين سيجارة إلا بعد الخروج من مطار القاهرة. مايزال أمامنا سبع ساعات، على أقل تقدير، على أول سيجارة! ساعة تقريباً حتى تقلع الطائرة. طيارو مصر للطيران أمهر من يرفع الطائرات للجو في أسرع وقت. أفضل تِك ُأف في العالم! فجأة يسرعون بالطائرة على المدرج بأقصى سرعة، ثم في ثانية واحدة تجد نفسك في السماء! مرة صفق أحد المسافرين الأجانب بإصبعين بشياكة لمهارة الكابتن في الإقلاع، ربما كان طياراً سابقاً، أو في الخدمة لايزال. مهارة، حرفنة. المصريون يحبون الحرفنة. حتى ولو في الشر! الحرفنة لها احترامها، بغض النظر عن الخير والشر. يصفون الحرّيف بابن الحرام. ده إبن حرام كذا! ربما يعتقدون أن سيدنا فلان الفلاني كان ابن حرام.

ثم أربع ساعات في الجو، ثم الهبوط في مطار الغردقة، وإنزال بعض الركاب. نصف ساعة على الأقل. ثم الإقلاع من جديد، ونصف ساعة أو أقل قليلاً، للهبوط في مطار شرم الشيخ. ثم نصف ساعة أخرى لإنزال ركاب شرم الشيخ، ثم الإقلاع من جديد ونصف ساعة للوصول لمطار القاهرة، ثم النزول من الطائرة. ثم ساعة على الأقل لإنهاء إجراءات الوصول، وشراء

بعض الأشياء من السوق الحرة، وانتظار وصول الحقائب. يا عم قول ساعتين ده مطار القاهرة! ثماني ساعات. وأصلاً أنا لم أدخن منذ ساعتين! يعني المجموع عشر ساعات! عشر ساعات بلا سجائر! شيء سلبي. من وجهة نظر أخرى يمكن اعتباره شيئاً إيجابياً. الحقائق نسبية، الوقائع ثابتة لكن تفسيرها يحتمل النقيضين.

طائرة إيجبت إر واقفة ومتصلة بممر التحميل في انتظار تحميل الركاب. طائرة ذات بدن واسع. ممكن تكون إرباص. المنافسة حامية بين إرباص الأوروبية وبوينج الأمريكية. مين يشتري الورد مني!

مكتوب إيجبت إر على هيكل الطائرة. وعلى ذيل الطائرة رأس حورس بالأحمر والأصفر على خلفية زرقاء. عظيمة يا مصر!

طائرة إر فرانس، شكلها إرباص، ذات بدن واسع. مكتوب إر فرانس على هيكل الطائرة، وعلى ذيل الطائرة ألوان علم فرنسا أزرق وأبيض وأحمر، على خلفية بيضاء.

طائرة إر مالطا، ذات بدن ضيق. ممكن تكون بوينج. مكتوب إر مالطا على هيكل الطائرة، وعلى ذيل الطائرة الصليب المالطي بالأبيض على خلفية حمراء.

طائرة لوفتهانزا. الكابتن طلع روحنا حتى رفعها ونحن على

مدرج مطار القاهرة! بطيء بطيء بطيء! طائرة ذات بدن ضيق. جلست أكثر من أربع ساعات مكتفاً من القاهرة لهامبورج. الطائرة ضيقة جداً من الداخل. كانت آتية من الرياض ومزدحمة بالركاب، والولد الألماني الجالس بجواري يخرب بيته خلع حذاءيه، وكان شرابه معفن قلب الطائرة كلها، أربع ساعات متصلة من رائحة العفونة التي لا تطاق!

مكتوب لوفتهانزا على هيكل الطائرة، وعلى الذيل طائر كحلي على خلفية برتقالية. قد يكون نسراً. حورس يكسب يا عم! عظيمة يا مصر.

طائرة سويس إر، ذات بدن ضيق. مكتوب سويس إر على هيكل الطائرة، وعلى الذيل الصليب بالأبيض على خلفية حمراء.

طائرة إر تشاينا، ذات بدن واسع جداً. جداً جداً جداً، عملاقة، عملاقة جداً جداً! مثل الصين. مثل الشعب الصيني. مكتوب إر تشاينا على هيكل الطائرة، وعلى الذيل ثلاث خطوط حمراء غير مفهومة على خلفية بيضاء. كأنها شعلة. ربما تكون كلمة صينية.

طائرة ميدل إيست، ذات بدن واسع. مكتوب ميدل إيست على هيكل الطائرة، وعلى الذيل شجرة الأرز اللبنانية الخضراء على خلفية بيضاء. ميدل إيست الشرق الأوسط، وصف أطلقه المستعمرون طبقاً لبعد المسافة عنهم. الانجليز أطلقوا على الهند، والصين، واليابان؛ الفار إيست الشرق الأقصى، لأن المسافة

بالنسبة لهم أبعد. وعلى دول البلقان؛ النير إيست الشرق الأدنى. من ناحية أخرى نستطيع نحن أن نطلق على إيطاليا، والنمسا، وسويسرا؛ النير ويست الغرب الأدنى. وعلى فرنسا، واسبانيا، وإنجلترا؛ الميدل ويست الغرب الأوسط. ونطلق على أمريكا وكندا؛ الفار ويست الغرب الأقصى. الحقائق نسبية. الوقائع ثابتة، والجغرافيا ثابتة، لكن القوي هو من يفرض مصطلحاته ويكتب التاريخ.

طائرة الأولِمبك، ذات بدن واسع. مكتوب أولِمبك على هيكل الطائرة، وعلى الذيل ست دوائر متقاطعة بالأصفر، والأحمر، والسماوي، والأبيض، والأخضر، والأسود، على خلفية كحلي. أرسطو أوناسيس هو من أنشأ الشركة. أغنى رجل في العالم. كان يريد لشعار الطائرات أن يكون خمس دوائر متقاطعة تعبر عن قارات العالم، فاعترضت اللجنة الأولمبية الدولية وقالت هذا شعارنا نحن، ملكنا، لا يجوز استعماله أو تقليده، ممنوع! ماذا تفعل الدماغ اليوناني؟! أضاف دائرة سادسة للدوائر الخمس، وقال إنها ترمز لليونان. إعترض بقى! حقها ولا مش حقها!

اليونان حضارة قديمة. ومصر حضارة قديمة. مكر الحضارات القديمة يكسب! خبرة السنين مقطرة نبيذاً معتقاً. النبيت المصري زبالة! ماذا تنتظر من نبيذ يصنع في دولة إسلامية؟ عمر الخيام، يعني! أفضل السيء! لكن يجب تركه يوماً كاملاً في الثلاجة، ثم نفرغه في دورق كبير مفتوح، ونتركه ثلاث ساعات ليتبخر الكحول الزيادة. يُشرب فقط في حالات

الضرورة القصوى، لأنه هو أيضاً زبالة، لكن أحسن الزبالة.

طائرة إيران إر. ممكن إرباص، ذات بدن واسع. مكتوب إيران إر على هيكل الطائرة، وعلى الذيل حيوان غريب الشكل. لونه كحلي على خلفية بيضاء. هذا هو طائر الحومة! من الأساطير الفارسية القديمة. يظل يحوم في السماء إلى الأبد، ولا يهبط على الأرض مطلقاً! لكن المرسوم على ذيل الطائرة يشبه حصان البحر، أكثر منه طائرة الحومة! حصان بحر بجناحين. وقرنان أيضاً. الثعبان الأقرع! يرسمون الثعبان الأقرع على ذيول طائراتهم. الثعبان الأقرع مكانه القبور وجوف الأرض، لماذا ترسمونه على طائرة تحلق في السماء! فأل سيء لشركة طيران! الثعبان الأقرع المجنح! من فضلكم دعوه يحوم في السماء إلى الأبد حتى لا يزعج الموتى.

استأنف محب سيره، متمهلاً، ومعطياً ظهره لبوابة رقم ثلاثة. سار بجوار الحائط الزجاجي الشفاف لصالة المطار، قابضاً بيمناه على الحامل القماشي لحقيبة ظهره الهاندباج السوداء، وداساً يسراه في جيب بنطلونه الجينز السماوي.

صالة بوابة أربعة مقاعدها فارغة. لكن هناك تحميل للركاب في بوابة خمسة. طائرة بريتش إر ويز واقفة على أرض المطار ومتصلة بممر التحميل. ممكن تكون إرباص. ذات بدن واسع. مكتوب بريتش إرو يز على هيكل الطائرة. وعلى الذيل ألوان علم بريطانيا متموجة على خلفية بيضاء. أحمر وأبيض وأزرق،

ثم أبيض وأحمر.

طابور الصعود للطائرة أمام بوابة المنفذ. مسلم بلحية طويلة، وزي باكستاني، وبنطلون أبيض فضفاض، يقف في منتصف الطابور ويقسمه لنصفين. في البؤرة التي يتجه إليها نظر الناظر تماماً. ذاهب إلى لندنستان! يا ما رأينا في العام الذي عشناه في لندنستان! قيادات الإخوان، والأصوليون، والمتطرفون. وأصحاب شركات توظيف الأموال الهاربون من مصر. الكل يحيا في أمان واطمئنان في لندنستان، والكل يمارس أنشطته المعتادة! يستولون على الجوامع، ويخطبون براحتهم، ويدعون إلى أشياء يعاقب عليها القانون الانجليزي، لكن القانون الانجليزي يغض البصر كثيراً. قانون مؤدب وعنده حياء! المال السعودي. أطعم الفم يستحي القانون! وكله بالقانون، والقانون نغمه بياتي يا نبوية!

يقولون إن الأمن البريطاني يسمح بذلك لمصلحته، بشكل أو بآخر. كثيرون يؤكدون أنها أداة ابتزاز ممتازة لأنظمة الشرق الأوسط. والأمن الانجليزي يستعمل الإخوان كمرشدين عن الآخرين الأكثر تطرفاً، الأكثر خطورة. صمام أمن. سلاح ابتزاز من ناحية، ومن ناحية أخرى صمام أمن. سلاح بروحين. ساجعة وحلوة ما شربش ليه! عش، واعمل، واخطب في الجوامع، ولم تبرعات، لكن خليك مؤدب واسمع الكلام وارشد عن زملائك! يربون الوحش في الباك يارد، ويظنون أن الخطر بعيد عنهم! إن أنت أكرمت اللئيم تمردا!

الانجليز كانت عندهم هواية تربية الحيوانات المفترسة في فناءات بيوتهم؛ النمور، والفهود، وأسود الجبل، وحدثت بعض الحوادث المؤسفة نتيجة ذلك في الثمانينيات، فأصدرت السلطات البريطانية قراراً يوجب وضع الحيوانات المفترسة في أقفاص مخصوصة ذات تجهيزات تأمينية معينة. أجرى الهواة حساباتهم، واكتشفوا أن شراء تلك الأقفاص سيكلفهم أموالاً كثيرة، فماذا فعلوا؟! سربوا أسود الجبل، والفهود، والنمور، إلى الحدائق العامة المفتوحة! كثرت الحوادث واستفحلت، وأصبحت المتنزهات العامة شديدة الخطورة. استوطنت الوحوش المدينة! يحاولون الآن أسرها، واحداً تلو الآخر، وإيداعها في حدائق الحيوان. بعد إيه ياخواجة، بعد خراب مالطا! الدماغ الانجليزي! وساخة، على بله، على برود، حاجة تقرف! يجمعون البيض الفاسد عندهم. من هواة جمع البيض الفاسد. أول من جمع البيض الفاسد في العالم كله! ثم قلدهم الأوروبيون بعد ذلك. يا ما رأينا في السنة التي عشناها في لندنستان! البار داخل كلية سواس! العلم قوة. والخمرة في العلم قوة ُأس اتنين! أيام بار سواس كانت أحلى أيام والله!

لو جاءتنا منحة دكتوراه فورد، بالتأكيد سأختار سواس، وبار سواس! واللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش. من السهل في سواس الحصول على الدكتوراه، يمكن أن نحصل عليها بسهولة بينما نقضي صباحاتنا في بار الكلية! المهم العنب! اللبنانيون يقولون بدك تاكل العنب ولا تقتل الناطور؟! فينيفيون، تجار

بالفطرة. يبيعون الآيس كريم للإسكيمو، والجوارب لحوريات البحر. بدنا العنب يا عزيزي. الدكتوراه، وبأقصى سرعة، وبدون مجهود كبير. ممكن في سنتين لو الحظ واتى. ضربة حظ، زائد التنازل الأخلاقي، زائد الاحتكار. وصفة ممتازة. دي وصفة سهلة، دي وصفة هايلة. وندخر باقي مبلغ المنحة. وبرضه نهيص في لندن. لندنستان!

الدكتور محب ذكي؛ دكتوراه في الاقتصاد السياسي من كلية سواس جامعة لندن، والخبير في شؤون الاقتصاد السياسي للشرق الأوسط. ويمكن في يوم من الأيام؛ أستاذ الاقتصاد السياسي بكلية لندن للدراسات الشرقية والإفريقية!

يمكن والله! مع بعض المجهود، وبعض الحظ، وظيفة في سواس ليست بالأمر الصعب! نقوي أولاً شبكة علاقاتنا هناك، والباقي سهل. كله بالعلاقات، أهم شيء العلاقات! في كل أمعاء العالم. وخصوصاً في أوروبا.

المقاييس الأكاديمية في سواس متواضعة لتتناسب مع نوعية الطلاب؛ طلاب العالم الثالث. أفضل بكثير من الدراسة في كلية لندن للاقتصاد. الفرص في سواس أعظم بالنسبة لنا. نريد العنب، لا قتل الناطور! حصلنا على الماجستير في سواس في سنة واحدة. في الكلية عندنا كنا سنأخذه في ثلاث سنوات! يصنفون الكلية كأقوى رابع كلية سياسة واقتصاد في العالم! رقم واحد لندن سكول ُأف إيكونومكس، رقم أربعة كلية الاقتصاد والعلوم

السياسية جامعة القاهرة. من الذي يصنف، وعلى أي أساس! طيب تعالى أقعد عندنا في الكلية شهرين وبعدين كلمني عن المركز الرابع! يا عم جامعة القاهرة كلها، أساساً، خارج التصنيف العالمي!

علاقتنا مازالت جيدة بالعميد سير تم لانكستر، وستصبح أمتن عندما أدرس عنده للدكتوراه! سيتوسم في مستقبلي خيراً، سيقول هذا الشاب سيصبح واحداً من النخبة في مصر! ذكي، وشاطر، ومجتهد، بالإضافة إلى أنه قد اشتغل بيده، عملياً، في بلده. ده ولد ممتاز، إدعم الولد ده، ساعد الولد ده. ومسيحي برضه زينا. مسكين أقلية في بلده، أرثوذكسي، صحيح، لكن المسيح يهدي روحه!

كونا شبكة جيدة من العلاقات في سنة الماجستير، نشكر الله! نفعتنا الآن. في كل شهر ُنطلب لحضور ورشة عمل، أو مؤتمر، أو حلقة نقاش. وستتوسع وتقوى هذه الشبكة أكثر لو أمضينا عامين إضافيين في لندن! ستصبح شبكة ممتازة جداً! خصوصاً لو رحنا سواس.

يدرس فيها للماجستير، والدكتوراه؛ شخصيات نافذة في بلادها! من الشرق الأوسط، وآسيا، وإفريقيا؛ رؤساء دول، ورؤوساء حكومات، ووزراء مالية واقتصاد، وصناعة وتجارة. ووزراء إعلام، وبيئة. ودبلوماسيون. ومحافظو البنوك المركزية ورؤوساء بنوك. ورؤوساء محاكم دستورية وقضاة. ورؤوساء

أحزاب، وزعماء معارضة. وكبار موظفي المنظمات الدولية والأمم المتحدة. ومديرو مراكز حقوق الإنسان. ورؤوساء قنوات تلفزيونية، ورؤوساء تحرير صحف. بعضهم يدرس على نفقة حكومته، لكن أغلبهم حصل على منحة من المراكز الثقافية البريطانية.

كلوي العظيمة! هي التي كتبت لي استمارة المنحة بيدها. يدها الكريمة! وهي التي اقترحت سواس كاختيار أول للدراسة. ثم دعمتني عند لجنة الاختيار. وغششتني، مسبقاً، الأسئلة التي سيطرحونها عليّ في المقابلة الشخصية. عظيمة كلوي! يجب أن أشتري لها زجاجة عطر. من هنا، أو من مطار القاهرة.

ممكن أشتري لها زجاجة نينا رتشي فاروتشي. الخمسون ملي في السوق الحرة المصرية بخمسة وأربعين دولاراً. سنرى كم ثمنها هنا. نشتري زجاجتين؛ واحدة لكلوي، وواحدة لميلسّا. لا، الأحسن نشتري عطرين مختلفين!

لازلت في حاجة لمساعدات كلوي في البرِتش كاونسل. وهي شاطرة جداً، ويمكن أن تترقى، في أي وقت، وتشغل منصباً أهم، سواء في مصر، أو في أي مكان آخر.

ونشتري زجاجة عطر لميلسّا. ينبغي تقوية العلاقات مع ميلسّا بأي شكل، بيدها أن تساعدنا في الحصول على منحة فورد للدكتوراه. عليّ أن أختار عطراً راقياً لميلسّا. سنرى.

كلوي ذوقها راق في العطور، وتحب نينا رتشي فاروتشي. قد يعجب ميلسّا أيضاً، لكن الأفضل أن نشتري لها عطراً مختلفاً. أغلى. نحتاجها بشدة الآن! الهدية حجر كريم في عيني قابلها حيثما تتوجه تفلح. هدية الإنسان ترحب له وتهديه إلى أمام العظماء. كان في الجبل وافتكرني بحجر، فما بالك لو كانت زجاجة عطر حلوة!

المقال الذي قرأته في الفاينانشَل تايمز، وأنا في طائرة اللوفتهانزا بجوار الولد الألماني المعفن أبو شراب معفن، يقول إن كل الأعمال الآن في الصين يتم تسهيلها بالهدايا، وأن الهدايا من هذا النوع قد باتت مسألة مستقرة في الثقافة اليومية الصينية. يتم تقديم الهدايا في طقوس احترام، وفي صناديق صغيرة جميلة، وكل واحد ومقامه! رشوة! هكذا تسير الأعمال في جميع أمعاء العالم الآن، وإذا اتفق العالم كله على شيء فلابد وأن يكون صحيحاً، يا أحمد يا فرحات!

يكره المنح الأوروبية والأمريكية كره العمى! خصوصاً المنح الدراسية! يقول إن الاستعمار ينصب لنا فخاخاً لمنعنا من الحصول على دراسة ملائمة لنا ولمشاكلنا الحقيقية. يعطوننا منحاً في الاقتصاد، والاجتماع، والسياسة والقانون، والفنون والآداب، وليس في الفيزياء، والطب، والتكنولوجيا، حتى نظل متخلفين علمياً عنهم. وفي مرة من المرات قال إن سياسة المنح الدراسية الغربية تهدف إلى خلق طبقة مرتبطة بالإمبريالية العالمية وبمصالحها وبقيمها! قلت له ربما تكون تلك المنح نتيجة عقدة

ذنب يحسون بها تجاهنا. قال لا، الاستعمار بعد أن أجبرناه على الجلاء، ترك وراءه نخبة محلية في كل دولة من دول العالم الثالث؛ مرتبطة به قيمياً، وثقافياً، واقتصادياً. طابور خامس. والغرب الآن قد نجح في تشكيل نخبة جديدة مرتبطة به من الأكاديميين، والاقتصاديين، والحقوقيين، والإعلاميين. طابور خامس جديد! قال إن الحكومة والمعارضة، كلتاهما الآن، تفكران بنفس المنهج، في أغلب دول العالم الثالث، ولا يرون بديلاً عن السوق الحرة والاقتصاد الليبرالي.

وضرب مثلاً بحالة مصر. قال إن المسؤولين عندنا عن رسم السياسات الاقتصادية، ومنذ أيام السادات وإلى اليوم، هم خريجو جامعات أمريكا وكندا وإنجلترا، درسوا هناك بمنح من الحكومات الغربية، ويطبقون الوصفة الرأسمالية التي تعلموها هناك. قلت يا عم أحمد أفكارك الاشتراكية لم يعد لها مكان في عالم اليوم، وشهادة وفاتها قد صدرت مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وإكرام الميت دفنه!

وقلت لا تستطيع أن تنكر أن الاقتصاد عندنا كان قوياً قبل يوليو، عندما كان اقتصاداً رأسمالياً، لا اشتراكياً، ولا تستطيع أن تنكر نجاح تجربة طلعت حرب في ظل الاقتصاد الرأسمالي، وقلت له إنك بالتأكيد لا تتوقع من إنجلترا أو أمريكا أن تعطي منحاً دراسية لكي يدرس المصريون في جامعاتها الاقتصاد الاشتراكي! مآخذك على الاقتصاد الليبرالي هي مآخذ على التطبيق. هذا رمح آخيل بإمكانه أن يجرح، وبإمكانه أن يلئم

الجروح التي يسببها بنفسه. ليس ذنب الليبرالية أن رجال الحكومة في مصر أغبياء وفاسدون!

احتد وقتها وصاح منفعلاً وقال إننا إن كنا لانزال مستورين، فبفضل المصانع التي بناها عبد الناصر الذي لا يعجبي، وبفضل الخطط الخمسيّة وبرنامج النمو الصناعي الذي أشرف عليه عزيز صدقي! وقال إنني حين أفاخر بقوة الاقتصاد المصري قبل يوليو، فعليّ أن أتذكر أن تسعين بالمائة من الشعب المصري كانوا حفاة وقتها! وقال إن عليّ أن أعيد قراءة التاريخ مرة أخرى، لأنني نسيت أنه في ذلك الوقت كانت طبقة تعدادها نصف في المائة فقط؛ من الملك، وكبار مُلاك الأراضي الزراعية، والرأسمالية الأجنبية، تحتكر كل الثروة القومية وإنجازات الاقتصاد الليبرالي الذي أفاخر به، في حين كان باقي الشعب يعاني من الظلم والفقر والجهل والمرض!

قلت له يا عم أحمد الأمر دائماً ما يكون كذلك في البدايات، في البدايات فقط! هل تعتقد أن أوروبا قد وصلت إلى ما وصلت إليه بين يوم وليلة! استغرق الأمر مئات السنين من الحروب الأهلية، والمجاعات، والثورات. والأوبئة والكوارث. والأخطاء أيضاً! صحيح أن أوروبا فيها فقراء اليوم، لكن قارن بين حالة الفقير الأوروبي والفقير المصري، شتان يا صديقي! هذه المكاسب لا تحدث إلا على المدى الطويل، ومع النفس الطويل. اللبرالية سباق مسافات طويلة، لكن يجب الاستمرار دائماً على طريق الاقتصاد الحر، وتصحيح الأخطاء أولاً بأول. وفي ما

يتعلق بأن المصريين كانوا حفاة في العهد اللبرالي، فإنني أذكرك في هذا المقام، بأنهم كانوا في ذلك العهد أميين أيضاً، وكانوا جهلة، ولكنك لا تستطيع إنكار قوة الثقافة المصرية حينها، ولا قوة النخبة المثقفة وأفكارها التنويرية! وما يصدق على الثقافة، يصدق أيضاً على الاقتصاد. هذه مشكلة توزيع، تظل موجودة في كل الأنظمة الاقتصادية، ليس هذا عيباً خاصاً باللبرالية وحدها أو الاقتصاد الحر، هذه مشكلة علم الاقتصاد الأزلية. لديك مائة كلب في هذه الغرفة، ولديك ثمانون عظمة فقط، فمن المؤكد أن عشرين كلباً سيُحرمون من العظام! الكلاب الأقل قوة ومهارة. وهذا القانون لا يتحكم فقط في العلاقات الاقتصادية داخل الدولة، بل أيضاً في العلاقات الاقتصادية بين الدول وبعضها البعض.

سأل متهكماً؛ وماذا تفعل رأسماليتك للعشرين كلباً الجوعى؟ قلت إنها تقوم بتأهيلهم؛ عن طريق التعليم والتدريب، لكي يصبحوا أكثر قوة ومهارة في الصراع المقبل بين الكلاب على العظام. قال وهو يضحك؛ إذن هناك عشرون كلباً آخرون سوف يجوعون! قلت طبعاً! هذا هو قانون الحياة، البقاء للأقوى. في عالم الحيوان، وفي عالم الإنسان، بل وفي عالم الجماد أيضاً! القانون الأساسي للكون. الرب خلقه هكذا، الرب أراده هكذا. يا عم أحمد إقرأ الكتب السماوية نفسها؛ الجميع فيها إما أغنياء، أو موسرون، لا يوجد فقراء في الكتب السماوية! وهناك الكثير من الآيات حول جمع المال، في كل الكتب السماوية، حتى أنه يمكننا، بشكل من الأشكال، اعتبار الكتب السماوية تِكست بوكس عن

جمع المال.

ضحك كثيراً. قلت له هذه حقيقة، البقاء للأقوى. نفس قانون الغابة القديم، الجديد. القانون الأزلي. الرأسمالية أدركت ذلك، وأدركت أننا لن نخرج أبداً من حالة الغابة، فغلفت الأمر بغلاف سكري حلو. أنسنت الغابة! الرأسمالية فهمت طبيعة الإنسان، فلم تتفلسف كثيراً. الرأسمالية بلا أيديولوجية. أيديولوجيتها الوحيدة هي القوة. والقوة في الربح، والربح للأقوى. هناك رابحون وهناك خاسرون، هذه هي كل المسألة، وليس هناك أي شيء آخر بخلاف ذلك! آكل ومأكول. لا توجد طبقات في الرأسمالية. العمال في أمريكا، مثلاً، لا يفكرون في أنفسهم بوصفهم طبقة مستقلة، بل بوصفهم ضمن هذا التقسيم؛ عمال رابحون أو عمال خاسرون. وعلى هذا يمكن أن نعتبر المجتمع الرأسمالي مجتمع بلا طبقات، عابر للطبقات، ما بعد الطبقات. إما رابح وإما خاسر، فقط. عقلانية. عملية. فهم لطبيعة الإنسان. فهم لقوانين الكون. ثم تأتي اشتراكيتك وتقرر الخروج عن هذا القانون الأبدي، وتشرع في توزيع الموارد، المحدودة أصلاً، على الجميع، بمن فيهم الكسالى والأغبياء والضعفاء، فيصبح لدينا نشراً للفقر على نطاق أوسع وأشمل.

ضربت له مثلاً بالمساكن الشعبية التي بنتها الأنظمة الاشتراكية في الستينيات، إلى ماذا أدت! إلى تركيز الفقر، وانتشار المخدرات، والبغاء، والجهل، والعنف، وانتشار الأمراض. والفوضى. والغضب والحقد. نظامك الاشتراكي

المثالي الذي تدعو إليه، يكفي شخص واحد فاسد فيه حتى يهدمه من عاليه لسافله، فما بالك بعشرة فاسدين، بمائة، بمائة ألف! الإنسان هو الإنسان، فاسد بطبعه. لكن لا يوجد أحد فاسد في الرأسمالية. لأن الفساد عمومي. الجميع فاسدون. هذه هي عظمة الرأسمالية! الاعتراف بالأمر الواقع، والتعايش مع القوانين الأزلية الحاكمة للكون. الفساد جزء من طبيعة الإنسان. جوهر متأصل. تعالى نهذبه قليلاً بالقوانين، ونضع له قواعد للعب النظيف، ولنعترف بداية وقبل كل شيء بالأمر الواقع، بالنزعة الفردية، بالأنانية، بالتوق للربح. لأن هذا هو الدافع الرئيسي للتقدم. كان هذا هو دافع كل الطفرات العلمية والتكنولوجية التي حدثت في العالم. هذا يا صديقي هو محرك أي حضارة لكي تنمو وتزدهر.

ضحك وقال هذه تعاليم مِلتون فريدمان ومدرسة شيكاجو، وأنت من صبيان مدرسة شيكاجو! وقال إنه طالما يعيش الإنسان فلا يمكنه أن يكف عن الحلم بحياة أكثر عدلاً، وإننا إن لم نحاول نحن بأنفسنا السيطرة على هذا الوضع وتصحيحه، فسيستمر رجال المال في السيطرة علينا.

قال أيضاً إنني مخطىء بشأن عالم الحيوان، لأن هذا الإجحاف لا يوجد بين الحيوانات، بل تسود في مجتمعاتهم المساواة، ولو كنت أقصد أن الضواري والكواسر تأكل آكلات العشب والفواكه، فإن هذا أمر لا يتضمن لا جشع ولا ظلم ولا استغلال يمارسه الحيوان المفترس على فريسته؛ لأنه كحال

الإنسان الذي يتناول على العشاء دجاجة مشوية أو سمكة مقلية، فهو يمارس غريزة الأكل ممارسة طبيعية دون أي استغلال، ودون أن تنتابه مشاعر حقد أو ضغينة تجاه الدجاجة أو السمكة، بل ربما شعر السبع المفترس بامتنان وحب لضحيته وهو يفترسها، كشعور الإنسان بالتقدير لشريحة جيدة من اللحم المشوي، وإنه من المحال في مجتمع القرود، أو الغزلان، أو الجاموس الوحشي، أو حتى في مجتمع الأسود، والضباع، والذئاب، أن نرى حالة مشابهة للمجتمع الأمريكي التي يحوز فيه ثلاثة فقط من رجال المال على ثروة أكبر مما يملكه نصف الأمريكيين مجتمعين، أو المجتمع المصري الذي يملك فيه عشرة في المائة ثروة أكبر مما يملكه ثمانون بالمائة من كل المصريين، أو كوكب الأرض كله الذي يملك فيه ثمانية من رجال المال أكثر مما يملكه نصف عدد سكان الكوكب مجتمعين، وسلم لي على الحضارة، وسلم لي على الرأسمالية!

وراح يقول إن كل أفكاري لا تخرج عن منظومة القيم الرأسمالية؛ التي تقسم الناس إلى سيد وعبد، رابح وخاسر. وإنني أسير لنمط التفكير الكولونيالي الذي يبرر الظلم والقهر والعدوان. وإنني أدافع عن مصالح رأس المال والشركات الكبرى، لا عن القضايا الاجتماعية. وإنني، مثل غيري من الذين درسوا في الغرب، أصبحت أبحث لنفسي عن الخلاص الفردي في ظل المأساة الجماعية. وإنني أحاول أن أتحرر من سدود الطبقة باقتلاع نفسي من الانتماء، ونسيت أنني أنتمي إلى الطبقة

الوسطى، وكان الأولى بي أن أنحاز إلى العشرين كلباً المظلومين. آه، وقال أيضاً إنني ضال طبقياً! ولا مانع عندي من أن يستمر النظام في مصر في لعب دور المنسق بين رأس المال العالمي ورأس المال المحلي. وإنني أضرب الأمثلة وأتعب رأسي بالمحاججات من أجل إثبات أن الجشع خيِّر، والجشع مفيد، والجشع صحي. وأن نتيجة هذا النمط من التفكير هو استفحال الأنشطة الإجرامية في العالم كله. وأن الأمم المتحدة تقول إن ستة وثلاثين جريمة فساد وأنشطة مالية غير مشروعة تحدث على الكوكب في كل دقيقة. وأن نصف عدد العاملين في العالم الآن أصبحوا يعملون في أعمال غير مشروعة وأنشطة إجرامية. وأن الجريمة أصبحت هي النشاط الاقتصادي الأسرع نمواً في العالم بسبب نفس هذه الأفكار. وأن أرباح الأعمال غير المشروعة الآن تفوق أرباح الخمسمائة شركة الأكثر ربحاً في العالم مجتمعة. وقال إنني، مثل جميع صبيان مدرسة شيكاجو، أنسى أن المسألة الأساسية ليست هي الربح، وليست هي الصراع على العشرين عظمة، ولكن المسألة الأساسية هي في الكلاب أنفسهم؛ هل هم أكثر سعادة، أم أقل سعادة، في ظل هذا الوضع؟! وأن السؤال الرئيسي الذي يجب أن أسأله لنفسي هو هل الإنسان في خدمة رأس المال، أم رأس المال هو الذي ينبغي أن يكون في خدمة الإنسان؟ وقال أشياء أخرى كثيرة من تلك النفايات الماركسية، فقلت له أخيراً، حتى لا تستمر هذه المهاترات أكثر من ذلك: خلاص يا عم احمد اللي تشوفه يا عم ربنا يوفقك ويحقق لك أحلامك!

تجاوز محب طابور تحميل طائرة البريتش إر ويز في بوابة رقم خمسة، على مهله دون تعجل. سار بضع خطوات باتجاه بوابة رقم ستة، وعاد للمشي بجوار الحائط الزجاجي الشفاف لصالة المطار، بعد أن أجبره طابور الركاب على الابتعاد لليسار قليلاً. رأى دورات مياه صالة المطار على يساره، ففكر أنه بحاجة إلى أن يغسل وجهه، وينظر لنفسه في مرآة الحمام، ويتبول أيضاً.

هناك رغبة ملحة للتبول! شربنا كأسي بيرة بلس ذهبية قبل ركوب التاكسي للمطار. هذه البيرة، بالذات، مدرة للبول. أتبول كثيراً في الفترة الأخيرة، قد تكون علامة صحية، وقد تكون علامة مرضية. الحقائق نسبية لكن الوقائع ثابتة. الجهاز البولي يعمل جيداً، لكن قد أكون مصاباً بالسكر. ينبغي إجراء تحليل في القاهرة، من باب العلم بالشيء. ليس السكر بمرض هذه الأيام! ولا الضغط، وحياتك، أمراض الحضارة. لكن السكر قد يؤثر على كفاءة البلبل. شقى عمري!

فرويد يقول إن متعة التغوط أعلى من المتعة الجنسية. صحيح، متعة، خصوصاً والواحد محصور، لكن أعلى من المتعة الجنسية! هذه مبالغة يا دكتور!

في منتصف صالة المطار، ما بين الحائط الزجاجي الشفاف ودورات المياه؛ كرة زجاجية كبيرة شفافة، بقامة إنسان ناضج، أو أقل قليلاً، بداخلها دمية كبيرة لدلفين باسم، بحجم طفل صغير،

أو أكبر قليلاً، وفي قعرها عملات ورقية، ومعدنية، من بلدان مختلفة، وعلى يمين الدلفين كتبت عبارة: أنقذونا!

سيف أس! الدلفين دابة بحرية تنجي الغريق. المغيث يطلب الغوث، منقذ البحارة يطلب الإنقاذ!

اتجه محب إلى الكرة الزجاجية، وهو ينزل يمناه القابضة على الحامل القماشي لحقيبة ظهره الهاندباج السوداء ويدسها في جيب بنطلونه الجينز السماوي. وقف أمام كرة الدلفين الزجاجية.

جمعيات إنقاذ الحيوان. عندنا أيضاً جمعيات خيرية لإنقاذ الإنسان، لم نصل بعد لمرحلة إنقاذ الحيوان. لو طالوا الدلفين لأكلوه بقشره! يجمعون البطاطين لأهل الصعيد في الشتاء. تبرعوا بثمن بطانية لحماية الصعيد من برد الشتاء، هنيالك يا فاعل الخير! الموسرون ورجال الأعمال يدفعون الكثير للجمعيات الخيرية. عقدة الذنب. التعزية. التطهر. تنويم الذات. يسرقون الناس نهاراً، ويتبرعون بحق بطانية لحماية المسروقين من برد الشتاء! الدين أفيون الشعوب صحيح! كم الفساد في تلك الجمعيات لا يمكن تخيله! العمل الخيري في مصر سبوبة. أحلى سبوبة. وفي كل دول العالم الثالث وحياتك! والغرب يدفع. عقدة الذنب. ومصالح وسياسات أيضاً. لكن عقدة الذنب موجودة مع ذلك. عقدة الذنب عندهم عظيمة. ألفريد نوبل يخترع الديناميت، ثم يحاول التكفير عن ذنبه. ولو أن الصينيين قد عرفوه قبله بزمن طويل! زين العابدين بن علي عرف حجم بزنس الجمعيات الأهلية،

فأنشأ، من الباطن، جمعيات أهلية، ومنظمات مجتمع مدني، وحقوق إنسان، ليلم أموال أوروبا! على خساب صاحب المخل. البزنس الأكثر ربحاً في عالم اليوم. ربما بعد السلاح، والأدوية، والمخدرات. رزق الهبل على المجانين! رزق الشرق على الغرب، رزق الجنوب على الشمال. عقدة الذنب. الحنين للصليب. تأنيب الضمير الأنجلوساكسوني.

يحاولون إنقاذ الدلافين. الدلافين تنفق من تلوث البحار والمحيطات، وبعضها ينتحر ألماً ويأساً. تسبح حتى الشاطىء، وتظل هناك، على الرمال، حتى تموت. حزن، اكتئاب، قنوط. قنوط يعني يأس ُأس ثلاثة. الحضارة تقضي على الكائنات. الصيد الجائر. الصيد الغشيم. شباك أساطيل الصيد الكبيرة تلم الأسماك بلا تمييز.

ونفايات السفن، وناقلات النفط. ونفايات البلاستك. التلوث البيئي. قمامة الحضارة!

لكنهم ينشئون جمعيات لإنقاذ الحيوانات، ويرصدون لها التمويلات. إحساس بالذنب. لا يستطيعون نسيان مسؤوليتهم عن المأساة! نيتشه يحتفي بملكة النسيان، ويدين عقدة الذنب. يرى أن النسيان علامة صحة، والإحساس بالذنب علامة ضعف. تحرر الفرد من المسؤولية. سوبر أخلاق. الحرية المطلقة. نيتشه يحمل اليهود مسؤولية اختراع عقدة الذنب وتأنيب الضمير، وكل القيم الزهدية. يعتقد أن الشعب اليهودي، الذي كان يحقد على روما، لم

يهدأ له بال حتى انتقم من روما انتقاماً كهنوتياً. قاموا بقلب كل القيم الرومانية الأرستقراطية رأساً على عقب؛ أصبح الفقراء، والضعفاء، والمرضى، هم الطيبون المباركون من الرب. والأقوياء، النبلاء، الأغنياء، هم الطغاة المنبوذون الملعونون.

يقسو نيتشه كثيراً على اليهود. يعتقد أن خلاص البشرية مرهون بالعودة للقيم الرومانية الأرستقراطية. الرومان النبلاء الأغنياء الذين بلغوا من القوة مبلغاً لم يصل إليه أي شعب آخر على وجه الأرض. واليهود الشعب الكهنوتي الحقود، العبقري في مجال أخلاق المسكنة والعجز. يسميها نيتشه الأخلاق الشعبية. أخلاق الدهماء. المساواة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان. حقوق الضعيف العاجز. أمراض تقضي على الحضارات القوية في عرف نيتشه. الثورة الفرنسية ثورة دهماء. الثورة الفرنسية، وحركة الإصلاح الديني الألمانية، هما من أجهضتا اليقظة الحقيقية لعصر النهضة. قامت روما قليلاً من موتها، ثم انتكست وتهودت من جديد! نابليون آخر نفس من أنفاس المقاومة، المثال النبيل لقوة روما. لكن الضعيف انتصر على القوي مرة أخرى. الأقلية القوية انهزمت أمام الأغلبية الضعيفة. الأقلية الأغنى والأجمل والأقوى، انهزمت أمام الأغلبية الأفقر والأخبث والأضعف. نيتشه قال الضعيف يهزم القوي. ينبغي أن ننتصر للقوي على الضعيف.

نعم يا عم نيتشه، صدقت، الضعيف يهزم القوي فعلاً! الدلفين شهد بأم عينيه انقراض الديناصورات. والضفادع شهدت بأم

أعينها انقراض الديناصورات. يموت القوي، ويواصل الضعيف الحياة. نفس القصة القديمة للسلحفاة والأرنب! طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. القوي يصل للذروة، ثم يسقط. قانون الحياة. الإمبراطوريات العظمى تنهار تحت وطأة ثقلها، وتصبح أمماً من الدرجة الثانية. الطليان، واليونانيون، والمصريون، والهنود، وتبقى الضفادع على قيد الحياة، من الأزل للأبد!

أخرج محب يمناه من جيب بنطلونه الجينز السماوي، وقد قبضت على بضع قطع من العملة الألمانية المعدنية. فتح قبضة يده وأحصتها عيناه.

خمسون فينجاً، وعشرون فينجاً، وقطعتان كل منهما بعشرة فينيجات. سأحتفظ بقطعة واحدة من العشرة للذكرى. قررت الحكومة الألمانية سحب المارك الألماني من السوق بعد ثلاثة أشهر، والعملة الألمانية ستحل محلها العملة الأوروبية الموحدة الجديدة؛ اليورو.

راحت أصابع اليد اليمنى لمحب تسقط من فتحة الكرة الزجاجية الكبيرة قطع العملة المعدنية. خمسون فينيجاً، ثم عشرون فينيجاً، ثم عشرة فينيجات. وأعادت يده العشرة الباقية إلى جيب بنطلونه الجينز السماوي.

هدية بسيطة يا ابن العم من كائن عمره مليون عام إلى كائن عمره أربعمائة وخمسين مليون عام، أرجو أن تساهم بأي شكل

في إنقاذ سلالتك الغالية على قلوبنا! يا صديق البحارة. يا صديق الإنسان. متأسفين معلش سامحنا!

بدأ محب يمشي في اتجاه دورات المياه، ورأى بابان متجاوران للمراحيض؛ على الباب الأيمن رمز أسود للمرأة، وعلى الباب الأيسر رمز أسود للرجل.

أحمد فرحات مخطىء، عالم الحيوان ليس مثالياً كما يظن! عندهم حقد وضغينة مثلنا. ونيتشه أيضاً مخطىء، ليست كل الحيوانات بريئة! تمارس أحياناً قوتها بغرض الحقد والضغينة، فقط لا غير! رأيت مرة على ناشونال جيوجرافك، زمرة من الأسود الإخوة يمزقون أسداً منافساً، ويلتهمونه وهو بعد على قيد الحياة! أكلوه حياً! أحد الإخوة مزق عضوه التناسلي والتهمه! المنافسة على الإناث، وعلى النفوذ، ولدت الضغينة. أسود تأكل بعضها البعض يا أحمد يا فرحات! وبحقد، وبضغينة!

ومرة شاهدت أسداً منافساً يهزم الأسد المسيطر، ويستولي على لبوته، ثم يقوم بقتل كل أشبالها أمام عينيها! لن يُربي أولاد غريمه.

الإنسان، برغم كل شيء، أرقى من الأسود يا عم نيتشه! لا نقتل الأطفال أمام أعين أمهاتهم. حتى أولئك المعاتيه الذين يرتدون الزي الباكستاني، لا أظنهم يفعلونها!

وفي عالم القرود أيضاً سلسلة لا تنتهي من الصراعات على

السلطة. من أين تظن إذن أن الإنسان قد أتى بالفكرة!

بعض سلالات القرود تأكل لحوم منافسيها! قرود آكلة لحوم! وفي عالم الطيور أيضاً يسرقون طعامهم من فم بعضهم البعض! البقاء للأقوى. والأمكر. والأسرع. بعضها يسطو على الأعشاش الجاهزة للزملاء من نفس الفصيلة. ونتعب نفسنا ليه ونبني عش من أول وجديد! طيور تنابلة! سرقة عيني عينك يا أحمد يا فرحات! ويُقال أيضاً إن الأفيال تتذكر الإساءة طيلة حياتها، وتنتقم، حتى لو مرت على الإساءة عقود! هذا هو سبب هيجانها المفاجىء. ومرة في ناشونال جيوجرافك رأيت زمرة من اللبوات يقمن بمحاصرة الأم الرئيسة لزمرة من الضباع، ويمزقنها، وهي وحيدة بعيداً عن قطيعها. ثم يعبثن بجثتها. مثلن بها، لم يأكلنها، كان قتلاً من أجل القتل فقط! حقد وضغينة ده ياعم نيتشه ولا مش حقد وضغينة! الأسود تحقد على الضباع، والضباع تحقد على الأسود. حقد دفين متبادل منذ بداية الخلق. كلاهما في نفس الحجم تقريباً. إذا كانت زمرة الضباع كبيرة فبإمكانها انتزاع الفريسة من بين أنياب الأسود. تقف الأسود المهزومة على مقربة، وتتفرج بحسرة على وليمتها المنهوبة، فتتغذى الضغينة، ويتغذى الحقد التاريخي! تتغذى الكهنوتية اليهودية. الأخلاق الشعبية يا عم نيتشه! الأضعف يهزم الأقوى!

هذه أمثلة ممتازة يجب استحضارها في أي مجادلة قادمة مع أحمد فرحات. أنت مخطىء هنا يا أحمد، الحقد والضغينة، والظلم والاستغلال، جوهر في الحيوان كما هو جوهر في الإنسان!

جوهر متأصل. عيب المثاليات أنها تعتقد أنه بالإمكان تعديل السلوك، بينما الجوهر نفسه معيوب! هذا هو الإنسان. لذلك تفشل المثاليات، تفشل دائماً، وستفشل أبداً. هذا هو الإنسان. لكي تنجح المثاليات لابد، أولاً، من تعديل الجوهر ذاته، يعني خلق جنس آخر غير الجنس البشري! روبوتات مثلاً. ولهذا تخسر الأيديولوجيات التي لا تحترم الجوهر المتأصل في الجنس البشري. إرادة القوة. التوق للربح. الاستحواذ. التطلع للمزيد. سمه طمع، سمه جشع، فليكن، ما العيب! هذا هو الإنسان. الأخلاق النيتشوية الرومانية الأرستقراطية.

ثم ما العيب في أن نقوم بتغيير انتمائنا الطبقي يا عم أحمد! نولد بأسماء وديانات لا نستطيع تغييرها، لكننا بالتأكيد نستطيع تغيير طبقتنا!

ضال طبقياً، قال! أبحث لنفسي عن الخلاص الفردي في ظل المأساة الجماعية! لكن البحث عن الخلاص طول عمره فردي يا عم أحمد! الخلاص الجماعي عندكم يعني مجتمع بلا طبقات، أي مجتمع كله من الفقراء! نشر للفقر. لم يفلح الأمر في الاتحاد السوفيتي، ولا في الصين أيام ماوتسي تونج والقفزة الكبرى للأمام أيام المجاعة الكبرى والخمسة وأربعين مليون صيني الذين ماتوا جوعاً! أنظر إلى حالها اليوم بعد أن سمحت بالملكية الفردية والقطاع الخاص، انقلب حالها في سنوات قليلة! الصين تعلمت الدرس. عرفت جوهر الإنسان. ثالث أعظم اقتصاد في العالم، وفي غضون سنوات قليلة سيصبح هو البريمو! يا دكتور أحمد،

ما تسمونه أنتم الطبقات، نسميه نحن السلم الاجتماعي، وكما هو معروف، للجميع، السلم طالع نازل. تخيل أن أحداً قد وقف على السلم مبلماً، وظل واقفاً على السلم مبلماً طوال حياته! لابد وأن الجميع سيعدونه شخصاً غير طبيعي! شاذ. ليس هذا من الطبيعة في شيء، أنتم تخالفون الطبيعة يا دكتور.

مثال الصين مفحم، ويجب استخدامه في أي نقاش مع أحمد فرحات. أغنى أغنياء العالم اليوم من رجال الأعمال الصينيين. الإنسان الصيني وجد نفسه أخيراً، وعثر على ذاته في الرأسمالية. القوة والمال والغنى. المزيد والمزيد والمزيد. الجشع. الجوهر الأصيل للعنصر الصيني تفوق، أخيراً، على المثاليات الجوفاء! كلامك صحيح يا أحمد؛ إما أن تكون سيداً، وإما أن تكون عبداً، هذا هو جوهر الرأسمالية، وهي تنتصر هنا وهناك وفي جميع أمعاء العالم بسبب هذا المبدأ، بالذات، لأنه الحقيقة الجوهرية للكائن الحي. الديانات السماوية، ذاتها، كانت من الذكاء حين أدركت ذلك. الكتب السماوية هي تِكست بوكس لجمع المال، لحيازة القوة، للاستحواذ. لا ينبغي للمرء أن يكون أسيراً للسدود الطبقية. هناك أذكياء وهناك أغبياء، والأذكياء يتطلعون إلى أعلى ويبدلون طبقتهم بالأفضل منها، من أين تظن إذن أن كل هؤلاء الأغنياء قد أتوا! صحيح القليل منهم بالوراثة، لكن الأغلبية بالمثابرة والكفاح والشطارة. ضربة حظ، زائد التنازل الأخلاقي، زائد الاحتكار. قانون الحياة، المبدأ الكوني، هكذا أراده الرب؛ سوبرماركت.

وصل محب إلى الباب الأيسر لدورة المياه، الذي أعلاه الرمز الأسود للرجل، فدفعه، ودخل.

التبول أولاً!

أحواض الغسيل على يسار محب، وفوقها المرايا. ثلاثة مراحيض التبول في عمق دورة المياه، على يمين باب الدخول، يسبقها أربع غرف كنيف.

أكره المباول، مستحيل أن أتبول في مبولة! غرف الكنيف كلها فارغة، نختار براحتنا أين نعمل راحتنا. في لهجات شمال أفريقيا، يطلقون عليه بيت الراحة، عندهم حق! ندخل ثاني باب.

دخل محب الكنيف الثاني بعد باب الدخول، وزلج الباب وراءه. أنزل حقيبة ظهره الهاندباج السوداء، ولطاها بجوار ركن الباب الناشف. رفع غطاء المرحاض الأبيض سن الفيل. تأكدت عيناه من أن قاعدة المرحاض جافة، ونظيفة. فك حزام بنطلونه الجينز السماوي، وفك أزرار البنطلون، وأنزله إلى ما دون ركبتيه، وأنزل لباسه الداخلي السِلِب الأبيض إلى ما دون ركبتيه. جلس على قاعدة المرحاض، وشرع فوراً في التبول، ممسكاً بعضوه بين السبابة والوسطى الأيمنين، كأنه ممسك بسيجارة، وموجهاً رأسه لعين المرحاض.

يا سلام يا سلام! والله عندك حق يا عم فرويد، متعة فعلاً! ولكن هل قال التغوط، فقط، هو الأمتع من الجنس، أم شمل

تصريحه ذاك التبول أيضاً؟! نراجع ذلك لاحقاً. التبول جلوساً وفقاً للإتيكيت السويسري، مثل البنات! ما إن تعتاده، حتى تعتاده. لطيف، ألطف كثيراً من المباول، ورائحتها الحمضية، والطرطشة هنا وهناك وأنت تتبول وقوفاً! العادات السويسرية هي الأرقى، أعلى إتيكيت هم السويسريون. السويسريون خدم في روايات القرن التاسع عشر الأوروبية. أو بوابون.

سرسوب خفيف في الآخر، البول الدافىء قارب على النفاد. رائحة بيرة بلس الذهبية تتصاعد من بئر المرحاض، بعد أن قامت بجولة قصيرة في المعدة والأمعاء المُحببة! رائحة شعير مختمر. يغسل الأمعاء، ويطهر مجرى البول. الكحول مطهر، سامح يقولها دائماً. صَدق، الكحول مطهر فعلاً! القطرات الأخيرة. نهز صاحب النيافة حتى يُنزل سموه آخر قطرة!

أمسك محب بعضوه وهزه ثلاثاً وهو داخل قصعة المرحاض، بسرعة وخفة، ليتخلص من آخر ما علق به من بول. نهض وكبس بسبابته اليمنى زر ماء التنظيف في كابينة المرحاض، فتدفق الماء الجديد النظيف طارداً الماء القديم الوسخ. تأكدت عيناه من أنه يترك قاعدة المرحاض جافة، ونظيفة. أعاد تغطية المرحاض الأبيض سن الفيل. رفع لباسه الداخلي السِلِب الأبيض. ركن عضوه على فخذه الأيسر، بمحاذاة كمر السِلِب، شاعراً بالفخر لطوله، وثخانته.

حتى الكحول لا يؤثر فيه! مرة كنت في بيت أحمد فرحات في

دير الملاك، ودخل ليتبول في الحمام تاركاً الباب مفتوحاً، على عادته، وسمعته وهو واقف أمام المرحاض يتبول وقوفاً، يكلم عضوه قائلاً: إطلع يا ابن الكلب ما تخفش، دي طرطرة بس!

رفع محب بنطلونه الجينز السماوي، وأغلق العراوي، ثم أغلق حزامه.

فلوسه كانت حلال والله! اشتريناه من الشواربي. كنت أتمشى هناك باحثاً عن بنطلون جينز، فشدني أحدهم من ذراعي وأدخلني بالقوة إلى دكانه، الذي لا يكاد يتسع إلا لوقوف شخص واحد! لم أغضب، ابتسمت. طريقة غريبة للبيع، لا تراها إلا في العالم الثالث. بعضهم يغضب ويتشاجر مع الباعة الذين يشدونهم شداً. غلطانين! ينبغي التحلي بالأريحية وروح الدعابة في مثل هذه المواقف. لو كنا أكثر ذكاءً، لاستثمرنا هذا الأمر وجعلناه طقساً فلكلورياً لجذب السياح. فرجة! تعالى نروح الشارع اللي بيشدوا فيه الزباين!

المصريون لا يحسنون فنون السياحة، كل همهم هو سرقة مال السواح فقط! كان هناك مرة مقال في النيويوركر عن مطعم افتتحوه حديثاً في نيويورك يعامل فيه الندل الزبائن أسوأ معاملة! ذكر المقال أن المطعم يشهد إقبالاً لا نظير له، وعليك أن تحجز قبلها بأسبوع لتعثر على طاولة شاغرة في المطعم الذي ستهان فيه! برافو عليهم والله، أذكياء! شيء جديد، موضة، قلب للمألوف. بيجيب فلوس. حلوة! قلب للمألوف بيجيب فلوس!

الأفكار دي محتاجة ناس مستريحة، مزاجها هادي والغزالة رايقة، وللأسف الناس عندنا روحها في مناخيرها!

الحالة الاقتصادية سيئة، والجميع يعاني؛ بائعون ومشترون! إدارة سيئة للاقتصاد، من يديرون الاقتصاد هواة، غير محترفين!

الدكان كان يغص بقمصان رجالي من كافة الأشكال والألوان، ولا بنطلون واحد؛ لا جينز ولا غير جينز! الولد النوبي النحيف الطويل قال بسرعة: إنت بتدور على بنطلون صح؟ عايز بنطلون جينز مش كده؟ لا أدري كيف عرف. التعامل يومياً في السوق مع خلق الله، من مختلف الأشكال والأنواع، يشحذ الفراسة. حين يعتاد المصريون اقتصاد السوق سيصبحون شطاراً. مثل الصينيين. شوية صبر، شوية شوية، خطوة خطوة. قلت وأنا أبتسم: صح مضبوط. ونظرت إلى القمصان المعلقة في المحل. سأل: عايز لون إيه؟ قلت: سماوي، بس مش عايزه ديرتي، عايز حاجة كلاسيك، وتكون رجله ستريت. نظر إلى بنطلوني، وقال: مقاس أربعة وتلاتين، صح؟ والرجل تلاتة وتلاتين، صح؟ ضحكت وقلت: تمام، برافو عليك، بس الرجل لازم تبقى تلاتة وتلاتين، اتنين وتلاتين ها تبقى قصيرة عليّا! قال: ما تقلقش، دقيقة واحدة وراجع لك.

غادر الدكان، وعاد بعد دقيقة فعلاً، ومعه بنطلون جينز سماوي، وبنطلون آخر من نفس المقاس، سماوي جداً. قال: دي ماركة ريتِرنر المشهورة، طبعاً انت عارفها؟ قلت: لأ، الحقيقة ما

سمعتش عنها قبل كده! قال: دي نوعية ممتازة. سألت: صيني؟! قال: آه صيني، بس نوعية ممتازة.

صار كل شيء الآن يصنع في الصين. ليفايز، وإيزي، وجاب، وكل الماركات الشهيرة. نقلوا مصانعهم إلى الصين. العمالة أرخص هناك، وشروط العمل متساهلة، وحقوق العمال أقل. والأرباح أكثر، طبعاً.

قلبت رجل البنطلون للداخل؛ لأتأكد من النوعية. النوعية جيدة فعلاً! النسيج من الداخل متقاطع في إكسات، لو كان خطوطاً في اتجاه واحد لكانت النوعية متواضعة. أدخلت ساعدي في خصر البنطلون، ثم فردته وقسته على طول رجلي من أول الحزام؛ فكان مضبوطاً بالشعرة. قلت: ها خد ده، بلاش التاني لإنه فاتح زيادة عن اللزوم، ها تدهوني بكام؟ قال: تسعين بس. قلت: لأ، خمسين بس. قال: لأ، مش ها ينفع والله! ومن هنا لهناك اتفقنا على خمسة وسبعين وكل منا راض عن البيعة. كلنا راض عن البيعة؛ أنا، وصاحب العلامة الأمريكاني، وصانع البنطلون الصيني، والمستورد المصري في بورسعيد، وصاحب الدكان الذي أحضر منه الولد البنطلون، والولد نفسه. الجميع سعداء والكل مبسوط. الاقتصاد الحر، مش تقولي التسعيرة الجبرية يا عم احمد! كله يخضع للعرض والطلب، وشطارة المساومات. مثل الإنسان الأول بالضبط. مثل المجتمعات البدائية الجميلة.

كنت قادراً على المساومة أكثر، وإنزال السعر لخمسة

وستين، أوحتى لستين. بس الواحد برضه لازم يكون عنده نظر، الحالة فعلاً راكدة في المحلات، وحركة البيع ضعيفة جداً! شوف الدولار بقى بكام النهارده!

رسمياً بأربعة جنيهات وخمسة عشر قرشاً، لكن من رابع المستحيلات أن تجد بنكاً واحداً يبيعك دولاراً واحداً، لا بهذا السعر، ولا بغيره!

البنك المركزي حرك السعر ثلاث مرات خلال هذا العام، حتى الآن. ثلاثة جنيهات وخمسة وثمانون في يناير. ثم ثلاثة جنيهات وتسعون في يوليو. ثم أربعة جنيهات وخمسة عشر الشهر الماضي. ومع ذلك تستفحل المشكلة أكثر وأكثر، ويرتفع الدولار أكثر وأكثر! هواة! عقليات التخطيط المركزي تدير سوقاً حرة! يا عم حرر يا عم، يا عم حرر بالكامل يا عم! جراحة يا عم، صدمة يا عم! دعه للعرض والطلب يا عم! ستة أشهر، أو أقل حتى، من المعاناة، ثم يحصل التعافي الكامل يا عم! لا، بدلاً من هذا راح البوليس يغلق شركات الصرافة، وراح البنك المركزي يضخ المزيد من الدولارات في السوق على أمل أن يتحكم في السعر. نفس الأساليب القديمة العتيقة! أحمد فرحات مخطىء بشأن رجال الحكومة المصرية، لم تتغلغل فيهم غريزة الاقتصاد الحر بعد، نكصوا عن ما تعملوه في جامعات الغرب. رجعت ريما لعادتها السرية القديمة! والعادة السرية ما تجبش عيال! لذة بلا إنجاب. وهل يصلح أمثال هؤلاء وسطاء بين رأس المال المحلي ورأس المال العالمي! ضخوا سبعة مليارات دولار

من الاحتياطي حتى الآن، والنتيجة! خسرت السبعة مليارات يا فالح، وهبط الاحتياطي من اثنين وعشرين إلى خمسة عشر، وارتفع الدولار في السوق السوداء أكثر وأكثر!

عند سيد أبو العلا مكوجي الوردة البيضا بشارع القصر العيني بسبعة جنيهات للشراء، وبثمانية للبيع.

رفع محب حقيبة ظهره الهاندباج السوداء اللاطية بجوار ركن الباب، وأعادها لكتفه الأيمن. فتح ترباس باب الكنيف، ثم فتح الباب من مقبضه الكروي؛ بلفه عكس عقارب الساعة، وخرج متجهاً إلى صف أحواض المياه.

وعند تامر عملة في شارع عدلي بسبعة جنيهات وخمسة قروش للشراء، وبثمانية للبيع. وعند مجدي عثمان بالكشك المجاور للجريون في محمود بسيوني بسبعة وسبعة للشراء، وبسبعة وخمسة وتسعين للبيع. وعند جمال سنتر لمستلزمات التصوير أربعة وأربعون شارع مجلس الشعب بسبعة وعشرة للشراء، وبثمانية للبيع. وعند المهندس الأخ ناجي فريد بشركة كمبيوتر ِونر تريد واحد وعشرون شارع منشية البكري بستة وخمسة وتسعين للشراء، وبسبعة وخمسة وثمانين للبيع. الإخوان تكسب، تجارتهم! أعط العيش لخبازه، ولو أكل نصفه.

أربعة أحواض غسيل من الخزف الأبيض سن الفيل، نظيفة، ولامعة، وفوق كل منها مرآة جلية.

المراية الحلوة نقول عليها في مصر مراية بلجيكي. أحلى شوكولاته الشوكولاته البلجيكي. أحلى حتى من السويسرية، والفرنسية. والبطاطس الفرِنش فرايز، أيضاً، أصلها بلجيكي، والفرنسيون سرقوها! لصوص حضارات! في متحف اللوفر، قسم كامل من الآثار الفرعونية المسروقة من مصر. يكذبون أيضاً كما يتنفسون! الكذب داء متأصل في الجوهر الفرنسي؛ لذلك هم الأشطر في الغزل. البريمو. سامح يقول إن الأتراك حرامية بن، سرقوا القهوة اليونانية ونسبوها لأنفسهم.

نظر محب في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة.

كبس أعلى صندوق الصابون الأبيض سن الفيل براحته اليسرى، فتلقت راحته اليمنى، الممدودة، سائل التنظيف الأزرق اللامع الدبق. فتح صنبور المياه في الحوض بأصابعه اليسرى، ودلك يديه جيداً. ثم دلك وجهه. غسل يديه تحت المياه الجارية. ثم انحنى على الحوض وغسل وجهه. اعتدل، وأغلق الصنبور بأطراف أصابعه اليمنى. عدل من حقيبة ظهره الهاندباج السوداء على كتفه الأيمن، واتجه لباب الخروج. وقف على يمين عتبة الباب، من الداخل، وكبست يمناه أعلى صندوق الهواء الساخن المجفف الأبيض سن الفيل، ومرغ كفيه في الهواء الساخن ظهراً وبطن.

فلوسي قربت تشطب واحنا لسه في عشرة منه! تكاليف الحياة تضاعفت، والمرتبات هي هي! حاجة تقرف والله! ها حتاج مشوار أول ما ارجع للأخ ناجي فريد نغير منه مِتين دولار ولا حاجة، لغاية أول الشهر. الإخوان تكسب. طوبى للإخوان لأنهم يكسبون في أوقات الأزمات!

حصلوا على سبعة عشر مقعداً في انتخابات البرلمان الأخيرة. الأمن الآن يسمح لهم بالعمل العلني، ولم تعد الجماعة محظورة، أصبحت شبه محظورة، نص نص! تفاهمات بين الإخوان والنظام. عارضوا السياسات كما تشاؤون، هاجموا الوزراء كما تشاؤون، لكن إياكم والرئيس، الرئيس خط أحمر، التزموا معه الأدب، وفي المقابل سنسمح لكم بالمشاركة في العملية الانتخابية، لكن في حدود. نظام سلطوي!

لسنا فاشية، ولا ديكتاتورية، مصر نظام سلطوي. ليس هناك أيديولوجية معينة يتبناها النظام. ومسموح لمنظمات المجتمع المدني بالعمل، في حدود، وهناك بعض الحرية، نسبياً، في التعبير، وتعددية سياسية شكلية. معارضة تحت السيطرة.

في المقابل هناك سيطرة أمنية على كل أجهزة الدولة. ورقابة. ولا يوجد تداول للسلطة. نحن نشبه ما كانته كوريا الجنوبية منذ ثلاثة عقود. سلطوية سياسية، مع ليبرالية اقتصادية. لكن العسكريين عندهم كانوا أكثر جرأة في تطبيق الاقتصاد الحر، وانظر إلى حالهم اليوم! عندنا يديرون الاقتصاد الحر

بعقلية التخطيط المركزي، ومازالو أسرى لأفكار عبد الناصر أيام الشمولية!

لم يكن وقتها لا أحزاب، ولا حرية تعبير، ولا منظمات مجتمع مدني، ولا معارضة. ورقابة وتجسس على حياة الناس الخاصة. وأيديولوجية واحدة مفروضة على الجميع. واحتكار للسلطة والقرار من قبل حزب واحد، يتغير اسمه كل خمس أو ست سنوات!

حالنا الآن يشبه حال روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة. تخبط وعدم كفاءة! مجموعة من الإصلاحيين المكتبيين من ذوي العقول التقليدية يديرون الحكومة. حكومة مكتبية تطبق السوق الحرة بآليات النظام الاشتراكي! ونفس الأساليب الأمنية تهيمن على الجميع!

يتفق الأمن مع الإخوان على عدد مقاعد البرلمان التي ستترك لهم، مسبقاً، قبل الانتخابات. والنظام مستفيد مرتين من إدماج الإخوان في العملية السياسية؛ يسيطر على أنشطتهم، التي كانت سرية، وأصبحت الآن علنية. ويخيف بهم المعارضة في الداخل. ويخيف بهم الخارج أيضاً. لا تطلبوا مزيداً من الديمقراطية، وإلا سيصل هؤلاء للسلطة في أول انتخابات حرة نزيهة ويحكموا مصر!

والشعب متدين بطبعه. كل الشعوب متدينة بطبعها! موجة

التدين تجتاح الآن جميع أمعاء العالم بعد سقوط الاشتراكية. والأزهر أخذ راحته في مصادرة الكتب والروايات! صادروا العام الماضي رواية وليمة لأعشاب البحر. يدعون أنه لا يوجد رجال دين في الإسلام، ولكن علماء في الدين. يقولون إن رجال الدين موجودون في المسيحية فقط! كذب! علماء الدين في الإسلام هم رجال دين بامتياز، رجال دين أكثر حتى كثيراً من المسيحية! جرب أن تعارض أحدهم، أو حتى مجرد أن تجادله، وشوف يا حلو اللي ها يتعمل فيك!

يكفرونك ويخرجونك عن الملة! على الأقل رجال الدين عندنا لا يكفرون أحداً! شعب متدين بطبعه! سيأتي الإخوان المسلمون في أول انتخابات حرة نزيهة. الدين يكسب! قلت مرة لأحمد فرحات: الدين يكسب يا باشا. قال لي: دينك! قلت له: دينك انت! شخر، وضحكنا كثيراً حتى سعلنا وشعرنا بآلام في رئتينا. مدخنون والضحك يؤذينا.

انتهت فترة التجفيف المضبوطة أوتوماتيكياً، فكف الهواء الساخن عن الخروج. سحب محب نصف متر، تقريباً، من ورق التجفيف من صندوق الورق الأبيض سن الفيل، من على يمين صندوق الهواء الساخن. جفف وجهه جيداً. ثم ألقى بكومة الورق المندى في سلة القمامة الطويلة السوداء، وأغلق فمها بتحرير دواستها، التي داست عليها قدمه اليمنى.

ُفتح الباب، ودخل رجل ثلاثيني بملامح أوروبية، واتجه

ناحية المباول. بطرف عينه، لمحه محب وهو يفك أزرار بنطلونه القماشي البني الغامق، تمهيداً للتبول.

إنجليزي. أو على الأقل ثقافة انجليزي. الانجليز يحبون التبول وقوفاً. المباول من أجلهم. أجلاف! الانجليز عموماً همج، زيرو في الإتيكيت.

مد محب يمناه، وسحب مقبض باب دورة المياه، وخرج.

لو كنا في مصر، لوجدت شحطاً يجلس على عتبة الحمام، وأمامه طاولة مضعضعة عليها طبق بلاستيك مشروخ به نقود معدنية. مقابل استعمال التوالِت. بدل تغوط، بدل تبول. الشخ عندنا بفلوس، إدفع تشخ! يتعاركون معك إن لم تدفع! إدفع بالتي هي أحسن. بلطجية. هل هذه مهنة!

سامح على حق فعلاً! إن أحببت معرفة حال بلد شوف حالها في الفضاء العام!

أوقات الأزمات الاقتصادية وتفشي البطالة ترى العجب! خيال الناس في مصر بائس، شطار في التقليد فقط! أول واحد فكر في استخراج نقود من الشخ، قلده بعد ذلك الآلاف! يفتح أحدهم دكان موبايلات في شارع ويكسب، فيكتظ الشارع من أوله لآخره بدكاكين موبايلات، ويخسر الجميع! كسالى! التقليد كسل. ومع ذلك شطار جداً في أوروبا والدول المتقدمة! رغم تفشي البطالة في تلك الدول أيضاً! لكن المناخ السائد هو السبب. النظام.

الفضاء العام على رأي سامح! لذلك نفشل في الداخل، وننجح في الخارج. جاشوا براين المدير الإقليمي لشِل في الشرق الأوسط قال لي مرة إن المصريين يشبهون معدن الكروم؛ لمعانه أشد بريقاً من لمعان الذهب، لكن في كل يوم عليك أن تقوم بتلميعه وإلا فقد بريقه! كان يقصد السوط، ولا شك! شد المصري كل يوم الصبح، تاخذ منه أحلى شغل، سيب المصري على راحته، يدخل عليك بحماره!

انعطف محب يساراً، وسار بجوار الحائط الموازي للحائط الزجاجي لصالة المطار.

عند بوابة ستة، تبدأ بوتيكات السوق الحرة. مربع ضخم لبوتيكات متلاصقة، لها سقف فضي معدني، وعواميد فضية معدنية. في البداية؛ كتب ومجلات،، وهدايا صغيرة وكروت بوستال. ثم ابتداءً من بوابة سبعة، ومن عند السِكيورتي تشك بوينت، تبدأ البوتيكات الحقيقية! السجائر، والخمور، والعطور. والشوكولاتات، والبقالة الحلوة. وكاميرات التصوير، والملابس، والنظارات الشمسية. نضيع بعض الوقت، ونشتري أيضاً بعض الأشياء التي تلزمنا.

رفع محب معصمه الأيسر، ونظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وثماني عشرة دقيقة. لا يزال أمامنا اثنتا عشرة

دقيقة، على الأقل. ستضيع كلها في السوق الحرة. بضائع العالم أجمع. الجمال والإغراء. لو معك مال قارون سينفد في الشراء! خصوصاً في الخمور والعطور. متعة للعين. وثقافة أيضاً. الثقافة الاستهلاكية ضرورية في عالم اليوم. خبرة. من باب العلم بالشيء. تعرف الأحدث والأغلى. أرقى ما يوجد في أسواق العالم! الأسعار هنا أغلى قليلاً من مطار القاهرة، لكن بعض الأشياء أرخص. وساعات بيبقى في سبشيال أوفرز!

في مواجهة بوابة سبعة، نظر محب إلى بوتيك له أرضية خشبية بنية فاتحة، ذو إضاءة قوية صادرة من مصابيح مدفونة في السقف.

حقائب يد حريمي. وحقائب رسمية للرجال. وحقائب سفر. وحقائب ظهر. ومحافظ جيب جلدية، وقماشية. ماركات مختلفة. لا نعرف منها سوى كالفِن كلاين. باقي الماركات ألمانية، نطقها أساساً صعب!

مر محب ببوتيك نظارات ري بان الشمسية.

إطار نظارة كبير، أحمر قرمزي، معلق في صدر البوتيك. القرمزي يجذب الزبائن، شطار! حوائط البوتيك أحجار من الطوب الأسود والبني. والديكور الداخلي هياكل معدنية مفرغة. الإضاءة معتمة، والجو كئيب. مخيف إلى حد ما. الزبائن الأوروبيون يحبون هذه الأجواء الشاذة، تجذبهم! داخل الهياكل

المعدنية المفرغة، صفوف من أشكال وموديلات متنوعة لنظارات ري بان، بألوان مختلفة؛ أحمر، وأخضر، وبنفسجي، وبني، وأسود. البوتيك فارغ، لا أثر حتى لبائع أو بائعة! ملصق أحمر، بكتابة بيضاء، داخل أحد الهياكل المعدنية المفرغة في صدر البوتيك، مكتوب عليه؛ أصلي منذ عام ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين. يعني من قبل الحرب العالمية التانية واحنا بتوع نضارات!

مر محب على بوتيك مكياج حريمي.

ماركة آرت ديكو. علب بودرة أسطوانية، بدرجات متفاوتة، للون جلد البشرة. وصفوف من أحمر الشفاه؛ من الأحمر الفاتح، إلى الأشد دكنة. ماسكرات. منتجات أخرى متنوعة للعناية بالبشرة؛ كريمات، وشامبوهات، وبلاسم، في علب أنيقة جذابة. من أكبر الأرباح في الأسواق اليوم، في أسواق جميع أمعاء العالم! الحريم ينفقن كثيراً على هذه الأشياء،ِبزنس مربح جداً. المواد الأولية لا تكلف سوى عشرة بالمائة، والباقي مكسب العلامة التجارية! أكبر نصيب من الأرباح يذهب لصاحب العلامة، طبعاً! حقوق الملكية الفكرية. سوق اليوم كله ماركات. قل لي ما ماركاتك أقل لك من أنت. والماركة البيضا تنفع في اليوم الإسود!

البوتيك الذي بعده، إماجينيريوم الأسباني، للعب الأطفال. أعرف هذه الماركة، اشتريت منها من قبل لعب لماريان ويوسف.

يغلب على الديكور اللون السماوي اللامع. شمس صفراء ضاحكة على يمين المدخل، وتحتها موتوسيكل أطفال أبيض، تركبه دمية بملابس حمراء وخوذة حمراء. الأحمر يجذب الأطفال، شطار والله! أعلى يسار المدخل، دراجة هوائية للأطفال. وتحتها، عربة حمراء، تصلح لركوب طفل صغير في الرابعة أو الخامسة. الأحمر يجذب الأطفال، شطار. المدخل، نفسه، قوس منحن لونه سماوي لامع في أبيض لامع، عليه اسم البوتيك في أعلاه. إلى يمينه، قوس تؤام، أصغر النصف تقريباً.

وقف محب على عتبة مدخل بوتيك إماجينيريوم للعب الأطفال، وشمل البوتيك من الداخل بنظرة فاحصة.

دمى أحصنة. ضفادع عالم سمسم. سلاحف. دببة. ديناصورات خضراء صغيرة، وكبيرة. سيارات. قطارات على سككها. بعض قمصان الأطفال، خضراء وبرتقالية، معلقة على شماعات. ومزيد من الموتوسيكلات.

ماريان ويوسف لديهما حجرة كاملة من الألعاب في شقة الهرم، حجرتهما مكدسة بالألعاب عن آخرها! من كل مكان كنت أسافر إليه، كنت أحضر لهما ألعاباً. أمهما أيضاً كانت تنفق الكثير في محلات لعب الأطفال الغالية في القاهرة. لا حاجة لشراء المزيد من الألعاب. تكرار ليس له معنى. لن يفرحهما. اشتريت لهما كمية ضخمة من الشوكولاته الألمانية. واشتريت لماريان سترة بناتي، زاهية الألوان، بألوان الورود؛ أصفر، وأزرق،

وأحمر، وأخضر. ستعجبها كثيراً. لشتاء القاهرة القادم. بمائة وعشرين ماركاً ألمانياً. واشتريت ليوسف بلوفراً جميلاً يكسوه الفراء، لونه بني. بثمانين ماركاً ألمانياً. من محل جاك للأزياء. محل راق، في شارع نوير فال، يبيع الأزياء الألمانية من أفضل الماركات. ملابس من القماش، والجلود، والفراء. وحتى الجينز الألماني الفاخر. بجوار محلات أرماني، وفرساتشي، وبرادا، وكارتييه، في نفس الشارع.

هناك شارع في هامبورج اسمه أصلاً شارع شتايندام، لكنهم يسمونه شارع العرب؛ الهامبورجيون أنفسهم يسمونه شارع العرب! يسكنه ويعمل به عراقيون. ولبنانيون، وسوريون. وجزائريون. وأتراك. وأفغان، وباكستانيون. ومصريون. وبنجلاديشيون وأفارقة، وكل سقط هامبورج!

شتيفان يحبه كثيراً ويذهب إليه دائماً لتناول الكباب والكفتة التركية، والكنافة بالفزدق السورية. شتيفان أكيل يحب المشاوي التركية والحلويات السورية، والشارع كله مطاعم! مطاعم حلال تركية وسورية ولبنانية! اللحوم التركية الحلال والحلويات السورية الحلال. والفلافل المصرية. والحشيش المغربي، والحشيش البعلبكي. ومقاهي الشيشة. ومحلات الملابس الرخيصة، رديئة الذوق.

مليء أيضاً بالبنسيونات الحقيرة والدعارة. شتيفان يقول إنه الشارع المفضل للسياح الإماراتيين، والقطريين. يرتادون

المطاعم التركية في الوجبات الثلاث. يأكلون اللحم الحلال، ويفسون، ثم يتوضئون ويصلون. في جامع القدس. أو يصلون حين يرجعوا إلى فنادقهم الخمس نجوم. ثم يجامعوا زوجاتهم، ويعودوا لتناول المشاوي التركية على العشاء في شارع شتايندام. وآهو كله لحم في لحم!

العزاب العرب، أو من جاءوا دون زوجاتهم، يلتقطون بغياً من آخر شارع شتايندام، تطلع معه إلى بنسيون الملاك الأزرق. شتيفان يقول إن الساعة في بنسيون الملاك الأزرق بمائة وخمسين ماركاً للبغي، وثلاثين للفندق. مائة وثمانون ماركاً ألمانياً للواحد في هامبورج. أكثر من سبعمائة جنيه مصري! عندنا في مصر بمائة جنيه، وأم حازم ترسلهن حتى باب بيتك! أجمل بنات القاهرة وأنظفهن! ومن ميدان الكيت كات، قدام العوامة، ممكن تلاقي بنات صغيرة زي القمر بخمسين بس!

أحمد فرحات يكره دفع المال مقابل الجنس. غير أخلاقي من وجهة نظره! الجنس، المفروض، أن يُمارس برغبة مشتركة من الطرفين بدون مقابل مادي.

قلت له كذا مرة إنه لا ضير في دفع مال للنساء، ولا يوجد شيء لا أخلاقي في الموضوع بالمرة، هناك بنت تحتاج للمال، أعطها ما تحتاجه، وستعطيك ما تحتاجه، لو لم تكن البنت محتاجة، لما قبلت أن تأخذ نقوداً من رجل. هل تأخذ الغنية نقوداً من الرجل لتمارس معه! وحدهن الفقيرات، والمحتاجات حاجة

حقيقية.

ثم إن المسألة كلها لا تخرج أبداً عن قانون الحياة القديم، القانون الأزلي للتبادل؛ شيء مقابل شيء. أكرم أباك وأمك لكي يكون لك خير وتكونوا طوال الأعمار على الأرض. الجنة نفسها يا عم فرحات بمقابل عندكم! إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. وفي السياسة؛ الأرض مقابل السلام. وفي الحياة؛ النساء مقابل المال. والجنس طريق ذهاب وعودة، كما تعرف ويعرف الجميع، ندفع أحياناً، ويُدفع لنا أحياناً، بشكل أو بآخر. القانون الأزلى للتبادل. تبادل السلع وتبادل الخدمات. وهذا لا ينفي أنهن يستمتعن وهن يمارسن الجنس مع الزبون، ويأتين بشهواتهن أيضاً! مرة البنت هبة قالت لي، وهي تضحك: لياقة بدنية وزيادة في الميزانية!

الدعارة حقيقة وجودية في جميع أمعاء العالم. هنا في هامبورج، شتيفان يحب الذهاب لبنسيون الملاك الأزرق. قال إن هناك واحدة اسمها سونيا، تقف وراء مكتب الاستقبال ممسكة بقلم وأمامها منبه لتسجيل عدد الدقائق التي يقضيها الزبون فوق في إحدى الغرف. إياك وأن تكسر الساعة، ولو بدقيقة واحدة، وإلا ستطالبك بثلاثين ماركاً إضافياً! قال شتيفان إن جدران الغرف هناك مطلية كلها باللون الأزرق الغامق، وفي كل غرفة سرير واحد، عليه ملاءة نظيفة، ومنشفة نظيفة، وعدد واحد واق ذكري. شتيفان عليم بتاريخ مومسات الملاك الأزرق، قال إن سونيا كانت

أصلاً بائعة هوى في الأول، لكن بعد أن تقدم بها السن أصبحت تعمل في الإدارة. قلت له إن عندنا في مصر مثل يقول: إن كبرت سونيا عرصت. ضحك، وظنني أمزح.

شتيفان يسب ويلعن أبو جدود عمدة هامبورج فولفجانج شويبله؛ لأنه يضايق بنات الملاك الأزرق، ويسعى لطردهن من شارع شتايندام؛ الذي هو شارع العرب. يريدهن أن يذهبن إلى شارع ريبر باهن. شارع سيء السمعة جداً، مليء ببيوت الدعارة، ودكاكين بيع المستلزمات والإكسسوارات الجنسية! ابن الزانية فولفجانج شويبله يقول إن المجتمع المحلي في شارع العرب مسلم، ومحافظ بطبعه، ويشتكي من وجود بنات هوى في الشارع، وهو لا يريد وجع دماغ ولا اضطرابات في الشارع. الحفاظ على الأمن الاجتماعي والسلام الإسلامي يستلزم الحكمة، والخضوع لرغبات الأغلبية المسلمة في الشارع؛ المحافظة بطبعها! يلعن أبو أمك ابن وسخة!

الوساخة كثيرة في هامبورج! رأيت في لوبي فندق جينيريتور مصاحف مجلدة تجليداً أنيقاً. سألت إبراهيم الموظف المصري في الفندق، وأنا أشير إلى المصاحف وأبتسم غير مصدق. ضحك وقال إن الفنادق في هامبورج، وخصوصاً الكبرى منها، تحرص منذ مدة على توفير نسخ من القرآن للمسلمين. قال إن لديهم أيضاً سجاجيد للصلاة لمن يريد الصلاة في الفندق.

أخبرني أنه، من عدة سنوات، نزل أحد كبار شيوخ الكويت

في فندق ماريوت هامبورج، وسأل مدير الفندق إن كان يمانع في أن يرسل له، من الكويت، نسخاً من القرآن، لأن نزلاء الفندق من المسلمين يحبون قراءة القرآن، فرحب المدير بالعرض، من باب مجاملة الضيف الكبير، ولكن بعد أسبوع وصلته فعلاً مائة نسخة مجلدة تجليداً فاخراً، ومعهم مائة سجادة صلاة فاخرة. عقب ذلك، أصبح الكثيرون من كبار شيوخ الكويت ينزلون في ماريوت هامبورج؛ الفندق الذي به القرآن، وسجاجيد الصلاة! ثم تبعهم آخرون من السعودية، وقطر، والجزائر، وتركيا! وعندما علمت باقي فنادق هامبورج بالموضوع، اشترت، وعلى حسابها، مصاحف، وسجاجيد للصلاة، وصارت تعلن عنها في نشراتها السياحية ومطوياتها الدعائية! لدينا مصاحف، وسجاجيد صلاة، وقنوات تلفزيون عربية. كل الفنادق الكبرى في هامبورج فعلت ذلك؛ ماريوت. والمِريديان. ورينيسانس. وإنتر سيتي هامبورج. وراديسون بلو. وأتلانتيك كمبينسكي. فما بالك بفندقنا المتواضع ذو النجمتين؟! لا بد وأن نجاري، نحن أيضاً، الجو! صار الكثير من المسلمين ينزلون الآن عندنا. ضحكت وقلت: ربنا يوفقكم يا عم إبراهيم، المهم إن الشغل ماشي، وإيرادات السياحة الإسلامية حلوة برضه! ضحك وقال: نشكر ربنا.

إبراهيم من السكاكيني. من المصريين الجدعان. دؤوب، وشاطر، وخدام لقمة عيشه. متزوج من ألمانية تعمل في نفس الفندق، تكبره بعشر سنوات، أو أكثر. اسمها فيرونيكا، رأيتها أكثر من مرة؛ أربعينية شقراء، بيضاء، وممشوقة القوام. لابد

وأنها ماكينة ألمانية في السرير! لكن جلدها مقشف قليلاً وعليه علامات عجز مبكر.

ثاني يوم من وصولي، وأنا عائد إلى الفندق من ورشة العمل، نظرت إلى وشم رسغه، وسألته ألم تعترض فيرونيكا على الصليب؟! على حد علمي أنهم لا يحبون كثيراً الرموز الدينية الموشومة على الجسد! قال لا لم تعترض، وقالت إنها تتفهم الأمر، وإنها بحكم عملها في مجال الفندقة رأت الكثيرين من المسيحيين المصريين في هامبورج، وكلهم الآن واشمون، ولكنها استغربت الأمر لأنها لم تعتد رؤيتنا في الماضي نحمل صلباننا على أيادينا! قلت نعم يا صديقي هذا صحيح، أنا نفسي وشمت العام الماضي فقط، سمه رد فعل إن شئت، سمه التمسك بالانتماء الأولي إن شئت، لكن المسلمين هم من بدأوا أولاً، وما نحن إلا رد فعل. كل فعل له رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه؛ قوانين الفيزياء يا صديقي، وقوانين الفيزياء هي قوانين الفيزياء، لا يمكنك كسر قوانين الفيزياء! ابتسم بحسرة، وقال: معلش، ربنا يصلح الأحوال. ربما يكون قد عاش في طفولته جواً مختلفاً نظيفاً في القاهرة. مثلي. ابتسامة الحسرة تشي بذلك. ربنا يصلح الأحوال، ماشي، بس ها يصلحها في مصر، ولا في هامبورج!

ما لا يعرفه العرص شويبله، أن المسلمين يحبون الموسات، وأن لا أحد في العالم أحرص على التردد عليهن كحرص المسلمين! يا عمي هؤلاء يأتون أوروبا، خصيصاً، لأجلهن! وفي

نفس الوقت يضطهدونهن! من باب إعمال المبدأ ليس إلا! أجلاف! رأيت عرباً في شارع شتايندام يأكلون وهم واقفون! من يأكل واقفاً جلف، كمن يتبول واقفاً! يأكلون بسرعة ولا يهنأون باللقمة. ولافتات الدكاكين والمطاعم في الشارع قبيحة، ومتداخلة في بعضها البعض! كحالهم! والشارع كله قذارة! كحالهم! وأكيد مليء بالمشاكل! حيث توجد القذارة توجد المشاكل.

عندهم في الشارع جامع اسمه جامع القدس. رأيته. شتيفان قال إنه بؤرة لتجمع المتطرفين من كل حدب وصوب. رأيت في الشارع أيضاً جمعية إسلامية، أو مركز إسلامي، أو شيء من هذا القبيل. بأموال النفط السعودي طبعاً! قال شتيفان إن به مسجدان اثنان، لا مسجداً واحداً! واحد يصلي فيه البنجلاديشيون، والثاني يصلي فيه الأفارقة السود. قال إن المبنى لم يكن في الأساس جامعاً، بل كان فندقاً في البداية، ثم صار مركزاً لبيع الألعاب الجنسية، ثم بيع فجأة لجهة مجهولة قامت بترميمه وتحويله إلى مركز إسلامي بجامعين لا جامعاً واحداً!

يومها عرض شتيفان أن ندخل سوياً بنسيون الملاك الأزرق ويأخذ كل منا فتاة. أنا كان نفسي الحقيقة، لكن السعر غالي عليّ يا عم شتيفان! ثم إن خديجة، الصراحة، قامت بالواجب أربعة وعشرين قيراطاً! خديجة عشرة على عشرة! خديجة عشرين على عشرة!

الصدر الكاعب، والقوام الفرنسي الممشوق. التوانسة شعب

لذيذ؛ يؤنثون المذكر، ويذكرون المؤنث. تذكير المؤنث لذيذ جداً، مثير جداً!

وحشتني ضحكتك يا خديجة! ضحكة طفلة شقية.

في أول صباحاتي في هامبورج، جلست إلى جوارها على مائدة الإفطار في الفندق. كانت أول مرة يتعرف فيها أفراد المجموعة على بعضهم البعض. أشارت إلى فاتح التركي، الجالس على المائدة المقابلة، وهمست في أذني قائلة إنه يشبه هاملت. سألتها: وحضرتك شفتي هاملت فين قبل كده؟! انفجرت ضاحكة؛ كأنني قلت أذكى نكتة في الكون! كل شيء يضحكها ويفرحها. براءة. شعرت أنها تحب اللهجة المصرية، تعشقها! ربما تكون ضحكت لفرحتها بسماع اللهجة المصرية، لا على التعليق نفسه. هيه، أخيراً لهجة مصرية! ضحكتي يا أستاذة، تبقي بقيتي زبونتي الليلة!

ويلما، مساعدة شتيفان، كانت تجلس على مائدتنا. قالت إنها لا تفهم من كلماتي شيئاً، ولكنها تحب جرس الكلمات، ورجتني، بحرارة وهي وتضحك، أن أتكلم كثيراً بالعربية ولا أصمت أبداً! صححت لها وقلت إن ما أنطقه مصري، وليس عربياً. سألت وهل هناك فرق بينهما؟! هززت رأسي مرتين؛ أي نعم، وأنا أبتسم.

خسارة يا حلوة، خديجة تكسب! أنا ضعيف أمام التونسيات، يا

إلهي على جمال التونسيات! والجزائريات! خصوصاً الأمازيغيات. النعيم في أحضانهن!

ونحن نتغدى جلست بجواري. رفضتْ طبق الخنزير البري المشوي، وطلبتْ من النادل لحماً بقرياً أو دجاجاً. أنا قبلت الطبق بترحاب شديد؛ أنا أحب الخنزير! الخنازير البرية دسمة جداً! وماله، زيادة الخير! لم تعلق خديجة حين شرعت في التهام اللحم الشهي الدسم، كانت تراقبني مستغربة فقط. تراقب لحم الخنزير، أكثر مما تراقبني أنا شخصياً وأنا آكله! ربما أول مرة ترى لحم خنزير. شفتي ازاي إنه عادي ما يفرقش عن أي لحمة تانية!

همست، جاداً، وقلت لها إن الخنزير، وخصوصاً البري منه، يسبب لي مشكلة كبيرة! سألت: علاش؟! قلت إنه يجعل البلبل منتصباً طيلة الليل، وذلك يؤلمني كثيراً! انفجرت ضحكتها الطفولية العابثة أمام الجميع، الذين لم يفهموا شيئاً، وقالت: لاباس عليك ربي يستر! سألتها عن إمكانية أن نثرثر معاً، إن جافاني النوم في هذه الليلة؟! ولا انت بتنام بدري يا قمر؟ كف ضحكها، واكتسى وجهها بالخبث الأنثوي، وقالت، بابتسامة حاولت أن تجعلها جادة: نخمم. ثم قالت: قـَلّع يدك عن الحلوف! باش نطلب لك هبرة، باهية برشا. شكرتها على لطفها، وأكملت طبقي الشهي.

كانت أحلى دخلة في حياتي، ليلتها كانت ليلة العمر! البنت عبقرية في الفراش! ذكاؤها الجسدي يفوق حتى جمالها الباهر!

من النادر أن يجتمع في المرأة الواحدة الاثنان. شخرت كالمصريات! مين علمك يا قمر؟! الفطرة، كيما يقولوا، معناها. من ناحية أخرى، الغريزة زاده. معناها، الشهوة ككل. تحفة الكل من بره، وتحفتين الكل من جوّه! مزيَّن من بره، ومزيَّن من داخل. أجمل جسد، وأذكى جسد. يصبحك بالخير يا خديجة! شكراً يا عم شتيفان، أنا خديجة ملت عينيّ، عش أنت مع بنات شارع العرب!

بنات تونس يتمتعن بذكاء فطري في السرير، وكيف كيف الفرنسيات، يعشقن الجنس ياسر. أيام ما نجمش ننساها، أيام مؤتمر صفاقس! مؤتمر دور مؤسسات المجتمع المدني في تعزيز التحول الديمقراطي في العالم العربي. في الوطن العربي. نمت مع أختين تونسيتين صحفيتين، جاءتا الفندق لإجراء مقابلات وكتابة مقال عن المؤتمر. الأختان معاً، وعلى نفس السرير! في فندق دنيا صفاقس. أكيد لابد نطلع لصفاقس في أول فرصة. على الصعيد الشخصي معناها ثمة معارف برشا غادي، ونجموا نقضوا وقت مزيَّن ياسر! ونزيد نطلع زاده على تونس العاصمة. نقضي يوماً هناك، على الأقل، مع خديجة. خديجة زين نساء الأرض. خديجة! محلاك ومبهاك، كيما يقولوا.

استأنف محب سيره، وتجاوز محل إماجينيريوم الأزرق للعب الأطفال. وقف أمام المحل التالي متطلعاً.

بوتيك ليدي لإكسسوارات النساء. حوائط وديكورات بنية

داكنة من الخشب. وأرضية بيج من خشب مربعات. مائدة بيضاء على يمين المدخل، يكسوها مفرش أبيض طويل، عليه فازة زجاجية، بها زهرة وحيدة زهرية اللون حولها أغصان خضراء وأوراق بنفسجية. المدخل باب زجاجي شفاف بدرفتين مفتوحتين على مصراعيهما. واجهة البوتيك نفسها بلا حوائط، ولا أعمدة. فراغ. مسدود النصف السفلي للفراغ بمدرجين خشبيين عريضين، أشبه بدولايب الأحذية، أحدهما على يمين الباب الزجاجي، والثاني على يساره. على الأرفف الأربعة لكل منهما حقائب، ومحافظ جلدية. وأحزمة خصر ملفوفة حول نفسها. داخل البوتيك، أرفف خشبية عليها حقائب أخرى، وأحزمة جلدية أخرى. وأحذية نسائية. وإشاربات. وبعض الحلي للمعاصم. ونظارات شمسية. ملصق على الدرفة اليمنى لزجاج باب البوتيك علامات كل أنواع البطاقات الائتمانية؛ الفيزا، والماستر كارد، والداينرز كلوب.

اترحمنا من شراء هدية لماري هذه المرة! لو كنا على وفاق، لكان من قلة الذوق أن أرجع لها بيدي فاضية! لكننا الآن منفصلان. تطليق لأ، لن أقف أمام قاض لأعترف بالزنا! يفعلها البعض، حين يضطرون للتطليق، لكنني لن أفعلها. لسنا في أوروبا، نحن في مصر، السمعة، الصيت! وافرض أنني رُشحت يوماً لمنصب رسمي في الحكومة، أو شيء ما شبه رسمي! وصمة عار، طبعاً، في ملفي. الحالة الاجتماعية مطلق بسبب الزنا، زان! أي منافس حقير يمكن أن يستغلها ضدي. لأ، تطليق

لأ، انفصال ماشي، لكن تطليق لأ! وأنا في العوامة، مؤقتاً، إلى حين أن تتحسن الأحوال المالية، وهي تكمل حياتها في شقة أبيها بالهرم مع الأولاد. شقة بابا، بفلوس بابا، سيادة المستشار! مرتباتهم ممتازة! نجيب صليب من القلة النادرة من المسيحيين الموجودين الآن في القضاء! لا يوجد لنا لا محافظ، ولا رئيس جامعة، ولا مناصب قيادية في الجيش ولا الشرطة. لا أظن أن لدينا حتى رئيس حي!

يوماً ما كان لنا رئيس وزراء قبطي، وكان أهم وزراء مصر من الأقباط! نحن اليوم قانعون ببضعة قضاة، ومديرين، يعدون على أصابع اليد الواحدة، في كل وزارة! فطبعاً من حق سيادة المستشار يتغر ويتكبر! وماري ابنته الوحيدة جاءت للدنيا بطلوع الروح. وطلوع الحيل! جاءت على كبر، بعد يأس. دللوها. زيادة على اللزوم!

لا ربة منزل، ولا متفوقة دراسياً، ولا حتى جميلة! عادية، لا جميلة ولا قبيحة. هكذا لأنك فاتر ولست بارداً ولا حاراً أنا مزمع أن أتقيأك من فمي.

وغبية جداً في السرير! باردة، بليدة. على الأقل القبيحة تعوض قبحها بذكاء جسدي عال في السرير!

وكسولة وتنبل وحاجة تقرف!

لا تمد يدها في البيت، لا ترفع قشة! تريد خادمة للتنظيف كل

يوم، وطباخة تطبخ مرة في الأسبوع! وباقي الأيام نأكل في المطاعم، أو دليفري بالتليفون. حياة لا تطاق!

تحملتها فقط من أجل الأولاد! لا أظنها ستكون مخلصة وهي تعيش وحدها. لا توجد امرأة مخلصة. لا يوجد رجل مخلص. طبيعة متأصلة. حقيقة ثابتة. وهوّ انا أنسى سلمى!

صادقتها أيام كنت ساذجاً. موديل جميلة، ستايل فرنساوي. أقنعتني بأنها عذراء، وظللنا شهوراً ننام معاً على هذا الأساس. إلى أن جاءت في يوم، من تلقاء نفسها، وبعد مشادة بيننا، لتخبرني بأنها في ذلك الصباح نامت مع جزار علقها بسيارته من الشارع. ركبت معه، وذهبا إلى شقته، رغم أنها أخبرته في السيارة بأنها بنت.

قالت إنه وهو يعتليها صاح فيها آمراً بخشونة: إفتحي يا مرة! قالت إنها استجابت فوراً وفتحت له ساقيها، فأدخله فيها. قالت إن الطريقة أهاجتها كثيراً! السوقية، والخشونة، والاستبداد! ذابت، واستسلمت، وباتت عبدة تحته. كانت تحكي بتلذذ، وبتشفي أيضاً. لتغيظني، لكي أبدو أحمق أمامها! إنت حمار، فضلت تنام معايا شهور ومش عارف إني مفتوحة، والجزار الوسخ اللي علقني من الشارع عرف من أول نظرة!

النسوان يا ابني! عوالم معقدة، عوالم مظلمة. قالت إنها كانت مثارة جداً وهي تخونني مع الجزار المعفن. قالت إن الفكرة في

حد ذاتها أثارتها كثيراً.

وبعدين هيّ ماري أصلاً عرفتها ازاي، مش من النت!

كانت تجري محادثة جنسية على الآي سي كيو مع أيمن رضا، ليلاً، في المركز. كنا نجهز يومها لطباعة التقرير السنوي لحالة المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العالم العربي. في الوطن العربي. وكلنا ساهرون نعمل، وأيمن رضا وحده يلعب فوق في حجرة المكتبة! طلبت منه أن يساعدنا في مراجعة المسودات، فترك المكتبة، ونزل تحت ليراجع معنا. واحتجت أنا، في لحظة ما، للملف الصحفي لحوادث الإرهاب في الجزائر، فصعدت للمكتبة ورأيت ما كان منهمكاً فيه على الكمبيوتر المفتوح! كانت تستخدم اسم وردة الربيع. اسم مبتذل! وردة الربيع، قال! دماغ ضحلة! كانا في خضم شات جنسي. دخلت أنا على الخط، وقلت إنني صديق أيمن رضا، وكلمة في حدوتة شبكت البنت!

قالت إنها من الاسكندرية، فقلت وأنا أيضاً من الاسكندرية، لكنني أقيم حالياً في القاهرة لظروف العمل. كانت سهلة جداً!

تقابلنا أول مرة أمام مقهى والي، على البحر في الإبراهيمية. تمشينا على الكورنيش، حتى كامب شيزار، وجلسنا على مقهى الريحاني. قالت وردة الربيع إن اسمها ماري، وتسكن في كفر عبده. واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي. محمد حافظ ترك لي

شقته، في لوران، لبضعة ساعات، ونمت معها في شقته. لم تكن عذراء، قالت إنها ولدت هكذا، وإن عشرة بالمائة من البنات يولدن هكذا. عادي يا مرمر ما فيش مشكلة!

بعد الواحد، حدثتني عن نفسها، وعن أبيها، وعن أمها. قررت، بعد كام يوم من التفكير، أن أطلب منها الزواج. قبطية، متعلمة، ومن عائلة ثرية. لكنني صارحتها، منذ البداية، بأنني فقير لا أملك أي مال للزواج، وإن رضيت بحالي، فسيسعدني أن تكون زوجتي. فرحت وقبلت، وضغطت على سيادة المستشار، وعلى أمها حتى وافقا.

وهي التي قررت الانتقال إلى القاهرة، كانت تتلهف على مغادرة مسكن بابا بأي شكل! وبابا أعطانا شقته في القاهرة لنعيش فيها. شقة فاخرة؛ أربع غرف، بمساحة مائة وخمسين متراً مربعاً، في شارع الأهرام، أمام ستوديو اعتماد خورشيد، وبجوار مخزن معدات يوسف شاهين، لا يقل سعرها عن مليون جنيه بأسعار اليوم! شقة سعادة المستشار. يقبضون رواتب ممتازة، فوق الممتازة!

لا، لن تأتي برجل غريب إلى الشقة! إن قررت الخيانة فستفعلها في مكان آخر، غير شقة بابا. تخاف على سمعتها، وعلى سمعة بابا سيادة المستشار! كلهن يخن؛ يخن أزواجهن، ويخن عشاقهن على السواء. ونحن أيضاً. سنة الحياة، قانون الطبيعة. لكن هذا أفضل كثيراً من التطليق على أي حال! كل

واحد يشوف حاله، انفصال بلا طلاق. من باب الحفاظ على الشكل ليس إلا، إنما هيّ تغور في ستين داهية!

سار محب بضعة خطوات، فتجاوز بوتيك ليدي لإكسسوارات النساء.

ها قد بدأ الكلام الجاد، مربع هاينمان للسوق الحرة! تربيعة ضخمة، ذات واجهات مفتوحة من الجهات الأربع، بسقيفة فضية لامعة قائمة على عواميد فضية لامعة. بوابة سوداء في منتصف فراغ الواجهة، أعلاها اسم هاينمان، ومعلق بجوارها، في الفراغ، كتابة بالأحمر ديوتي فري. خمور، وسجائر، وعطور، وشوكولاتات، وبسكويتات، وحلويات. هوّه ده الكلام!

دولاب خمور على يمين المدخل؛ مرصوصة عليه صفوف من زجاجات الخمر المتنوعة، مكتوب أعلاه عرض خاص خصم ثلاثون بالمائة. حلو!

يتلوه دولاب خمور آخر، أصغر، مكتوب عليه تسعة عشر دولاراً وتسعين سنتاً. حلو قوي!

وفي صدر التربيعة، من الداخل، دولاب أسود كبير، يحتل ربع التربيعة تقريباً؛ مصفوفة عليه زجاجات عطور من كل ماركة وشكل ولون ورائحة، بإضاءة ذهبية تنيرها من الخلف وتجعل زجاجات العرض تبرق. الإضاءة الذهبية، وبريق الزجاجات يجذبان الزبائن، شطار! الألوان مهمة جداً في جذب

الزبائن. عم حسين النوبي نادل مطعم استوريال قال لي مرة إنهم يفرشون الموائد بمفارش قرمزية؛ لأن اللون القرمزي يفتح شهية الزبائن، فيطلبون أكثر ويأكلون أكثر. لاحظت لون المفارش القرمزية أيضاً في أكبر وأغلى المطاعم في مصر وأوروبا. الله يمسيك بالخير يا عم حسين!

طيب، دولاب العطور مقسم لقسمين بالتساوي؛ أعلى اليمين مكتوب بالأبيض مِن، وأعلى اليسار مكتوب بالأبيض ِومِن. على يسار دولاب العطور، هناك دولاب بني أصغر؛ مليء بالحلويات والشوكولاتات مكتوب أعلاه بالأبيض هاينمان تشويس. وراءه، دولاب صغير أحمر، مضاء بإضاءة ذهبية، مرصوصة عليه زجاجات عطور، مكتوب أعلاه بالأبيض برايس هاي. يجذبون نوعية معينة من الزبائن بلافتة البرايس هاي، هناك من يحبون شراء البرايس هاي، ولا يشترون إلا البرايس هاي! التجول هنا متعة، الفرجة في حد ذاتها متعة! نأخذ سبت مشتروات ونسرح في الجنة؛ جنة هاينمان!

التقط محب سلة مشتروات بلاستيكية خضراء بيسراه، واتجه، متمهلاً، إلى دولاب الحلويات والشوكولاتات، الذي على يسار دولاب عرض العطور الكبير. هاينمان تشويس؛ ستة أرفف فوق بعضها البعض؛ مرصوص عليها أنواع مختلفة من الشوكولاتات، وأكياس الحلوى.

ألواح شوكولاته ريتر سبورت، البنية الدكناء، بحبات البندق

الكاملة، القطعة مائة جرام، بندق محمص من تركيا، وكاكاو من مدغشقر. شوكولاته لذيذة، ومليئة بحبات البندق الكاملة. تقدر تقول إنها بندق بالشوكولاته، لا شوكولاته بالبندق! هنا في هاينمان بدولار واحد، سبشيال أوفر! اشتريتها من هامبورج البلد، بماركين للقطعة الواحدة. أي بحوالي دولار ونصف! اشتريت كمية كبيرة لماريان ويوسف، يحبانها كثيراً، كل واحد عشر قطع. لكنها هنا بدولار واحد فقط! نأخذ ثلاث قطع لميلسّا فورد فاونديشن. وثلاث لكلوي البرِتش كاونسل، كلوي تحبها كثيراً. وبالمرة نأخذ ثلاث قطع لنجوى، نجوى تعشق الشوكولاته. تقول إن عشقها للحلويات هو المسؤول عن كبر حجم ردفيها! حكيت لها مرة عن طقوس تسمين الفتيات الصغيرات في موريتانيا؛ يسقونهن كميات مهولة من اللبن الدسم، حتى تتضخم أردافهن، وصدورهن، ويصبح لحمهن رخصاً طرياً. ذوق جمالي ريفي. ضحكت كثيراً وظنتني أهرج. وحشتيني والله يا نجوى!

عرفتها عن طريق أحمد فرحات. طلب مني أن أساعدها لأنها تتمنى الاشتراك معنا في كتابة التقرير السنوي لحالة الديمقراطية والمجتمع المدني في العالم العربي. الوطن العربي. ملتزمون في المركز بأن نقول الوطن العربي، لا العالم العربي. رغبة الدكتور شرف الدين إسماعيل! أربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه. ورغبته أيضاً أن يربي الباحثون الذقن السكسوكة مثله! قلت لأحمد: حاضر، من عنيا الاتنين، إنت تؤمر يا باشا.

أتت للمركز، في الربيع قبل الماضي، مازلت أذكر؛ ببلوزة

بيج مفتوحة الصدر وكاشفة عن فلقة الثديين الكبيرين، وجيب قصيرة ضيقة تظهر حز لباسها البيكيني وهي ماشية. لبس مقلق في القاهرة هذه الأيام، لكنها حضرت بسيارتها؛ من باب العمارة لباب المركز. جلست أمامي، ووضعت ساقاً على ساق كاشفة فخذيها. ركبتاها رائعتان، تجنن! أشعلتْ سيجارة، فأشعلتُ سيجارة. ناقشتها قليلاً، من باب التعارف، وأنا ألتهم ركبتيها، وصدرها المفتوح، وتعمدت أن تكون عيناي وقحتين، كالعادة. صدمتُ لما أدركت أن الدكتورة نجوى، الحاصلة على الدكتوراه العام الماضي في العلاقات المصرية الأمريكية في حقبة السبعينيات، لا تعرف شيئاً ذا قيمة في الحقيقة! معرفتها بالعلاقات الدولية أضعف من معرفتي بميكانيكا الطيران!

أحمد فرحات قال إن الدكتور عبد المنعم سليم هو من كتب لها رسالة الدكتوراه. العلاقات المصرية الأمريكية تخصصه. تستاهل في الحقيقة! إن ما كانش دي تبقى ضكتوره، أمال مين اللي تبقى ضكتورة!

وهيّا جت على نجوى يعني! يا ما شفنا ضكاترة من العينة دي! كل شيء ُله تمن، الحياة خد وهات، قانون التبادل الأزلي، والمرة قشطة الصراحة!

الخالق الناطق زبيدة ثروت! زبيدة، وهي زبيدة!

اقترحت عليها كتابة ثلاثة تقارير عن الحالة السنوية للمجتمع

المدني والديمقراطية في البحرين، وقطر، وسلطنة عمان. شغل لا يستغرق مني أكثر من ليلة واحدة. لكن مثلها يفرح بالعدد. آهو تلات دول مرة واحدة يا ضكتوره، إحنا عايزين نخدم بس!

وهناك المكافآت أيضاً! يعشقن المال. تريبل. ثلاث مكافآت في شغل ثلاث ساعات! إطعم الفم تستحي العين. إطعم الفم يستحي الفرج! وادفع ترفع، على رأي سامح.

قالت إنها لا تعرف شيئاً عن حال الديمقراطية لا في البحرين، ولا في قطر، ولا في سلطنة عمان! وهل هناك أي ديمقراطيات في أي منهن يا حلوة! يا حلوة الجسم، يا ضعيفة العقل! أخبرتها ألا تحمل هماً، لأننا نقوم في المركز بتوثيق الأخبار الصحفية الهامة لكل الدول العربية في ملف لكل منها، وسأعطيها الملفات الصحفية الثلاثة، وكلها ملفات صغيرة للغاية، على قد كل دولة، على قد حالة الديمقراطية فيها، وطمأنتها بأنني سأشرح لها بالتفصيل كيفية كتابة التقارير الثلاثة. الإجابة النموذجية، التوقعات المرئية. مثلها ينجحن بجمالهن. جميعهن ينجحن بفروجهن، الفروج تفتح أبواب الفرج. عموماً الجمال موهبة على أي حال، لا يمكن التشكيك في هذا الحقيقة الأزلية. أحلى موهبة، أقوى موهبة، ومنذ قديم الأزل. أقوى أسهم وأقوى سندات. أكبر قوة على سطح الأرض، أقوى من المال حتى! يعني، في كثير من الأحيان، على الأقل!

واتفقنا أن أذهب إلى بيتها في الصباح التالي محملاً بالملفات.

العفو يا ست الكل هذا واجب علينا أن نحضر الملفات حتى باب بيتك. مثلك يُخدمن يا قمر، أقل واجب! مطلقة، وأم لبنت تذهب للمدرسة الابتدائية في الصباح، حلو قوي! يعني الجو ها يبقى خالي يا ضكتوره! انا وانتي لوحدنا في شقتك، يا ام فخاد حلوة!

أفطرت صباحيتها حلاوة بالشطة. دي بلدي قوي دي ياحسين! معلش، بس دي وصفة متجربة، دي وصفة سهلة دي وصفه هايلة! وذهبت إليها في شارع مصدق بالدقي. فتحتْ الباب ببنطلون سترتش أسود محزق وملزق، وبودي سماوي بأكمام قصيرة محبوك على صدرها. حمالة صدر كبيرة للصدر الكبير! فلقة ثدييها اللحيمين تظهر من تحت البودي. دخلت وأنا أحمل الملفات وألتهمها بعينين وقحتين. يجب أن تكون عينا الرجل وقحتين وهو ينظر لامرأة يشتهيها؛ هذا يذيب الثلج فوراً، يحطم السدود، يطرد الاصطناع. وصفة مجربة، دي وصفة سهلة دي وصفة هايلة!

دعتني للجلوس في حجرة الاستقبال. تشرب إيه؟ قلت: نفسي أجرب قهوتك. أجرب قهوتك يا حلوة، وسأذيقك قهوتي أنا أيضاً! سكر زيادة، يكفي أن تضعي البنصر في الكنكنة فتصبح سكر زيادة، إكسترا زيادة! استأذنتْ للذهاب للمطبخ. عشر ثوان بالضبط ولحقتها، وزنقتها في المطبخ. ضحكت بدلال: باين عليك شقي قوي! جداً، فوق ما تتخيلي! أمسكت صدرها فارتعشت كأن كهرباء سرت في جسدها؛ صدرها نقطة ضعفها! ساحت وأغمضت عينيها كمن غاب عن الوعي. دعكت صدرها أكثر،

فلم تستطع قدماها حملها، وسقطت على الأرض وأنا أسندها وهي تتأوه. كده على الأرض! دي هيّا حلاوتها كده يا حلوة! خلعت لها البودي، والبنطلون الاسترتش. ياااه على الشهوة!

تمرغنا على مشاية المطبخ كالمجانين. أتت شهوتها سريعاً، ثم بدت كمن تريد إنهاء الأمر بسرعة. ليست من أولئك اللاتي يحببن أن يأتين أكثر من مرة. لكن أنا طبعاً أخذت وقتي! من الواجب أن يطيل المرء لحظات المتعة. أخذت وقتي ولا همني، براحتي بقى!

نجوى من النساء اللاتي يعرفن قدرهن، ويعرفن قوة تأثيرهن على الرجال. تحب أن يظل الرجل أسيراً لها. تكتفي بواحد فقط، ومستحيل أن تتجاوب بعد ذلك. تحب أن تظل مرغوبة ومشتهاة. سياسة تسويق ممتازة!

كلما اشتهيتها زرتها في شقتها، صباحاً، والبنت في المدرسة. لا يفوت أسبوع بلا نجوى، مرة على الأقل!

لدي في المركز شغل كثير لها، الشغل على قفا من يشيل! تكليف بكتابة مقالات سهلة للنشرة الشهرية للمجتمع المدني باللغة العربية؛ لأنها حمارة في الانجليزي. لكنها متفوقة بامتياز في السرير! ما جدوى اللغات، والمعرفة، لمثلها! نحن نريد لحمها، لا مخها. خلي لك مخك، وادينا لحمك!

أراجع دائماً ما تكتبه، وأصلحه، لأتجنب استهزاء شرف الدين

إسماعيل، وباقي زملاء المركز، على الأخطاء الساذجة في ما تكتبه الضكتوره! أخطاء في المعلومات، ركاكة في الصياغة، جرائم في اللغة العربية، كسل بحثي لا يُوصف، لكلكة! عارفة إني بلم وراها! معلش لاجل الحلو ينسقي العليق، دكتوراه في السرير مع مرتبة الشرف!

في الصيف الماضي، قالت إن ابنتها ستذهب للمصيف في الغردقة مع طليقها. قلنا حلو، ستكون وحيدة، ويمكن زيارتها ليلاً، نعمل لها مفاجأة! ذهبت إليها ليلاً، وأخذت معي زجاجة شاتو من شاتوهات الخزين، وقبل أن أصل لبوابة العمارة، رأيت الدكتور عبد المنعم سليم ينزل من سيارته السوداء المرسيدس العيون. حوالي الثامنة مساءً. لم يرني، تواريت بسرعة، ورأيته يدخل باب عمارة نجوى. تسحبت بهدوء ودخلت، بعد أن كان قد استقل المصعد، وظللت واقفاً على عتبة المصعد حتى أشار بيان الأرقام إلى الطابق الثالث، طابق نجوى! الشقة المقابلة لها صاحبها قبطي؛ صاحب مصنع بسكويت، أغلق مصنعه بعد الإفلاس، وهاجر إلى استراليا، ولا يحضر لمصر إلا مرة كل عام أو عامين في يناير، لتمضية العيد هنا. ليس هناك إذن أي مجال للشك في أنه صعد لشقة نجوى!

يخن أزواجهن، ويخن عشاقهن على السواء. يا بختك يا دكتور، هنيئاً لك بنجوى الليلة! إنتقمت منها في أول مرة بعديها، بهدلتها في السرير، صوتها كان جايب آخر الشارع!

كامليا اللبوة قالت لي مرة بإنها أحبت أن تجرب عبد المنعم سليم، من باب المعرفة بالشيء! تتذوق طعم النوم مع مثقف وأكاديمي من العيار الثقيل، ومن حاشية النظام! ضحكت بحسرة يومها وهي تحكي، وقالت: بلا خيبة! البيه ضعيف، ويكتفي بلعق الحلويات، ولا يفعل سوى لعق الحلويات! قالت وهي تضحك إن البيه يحب أن تدس المرأة إصبعها في استه. سألتها إن كان متحرراً، أم قفلاً؟ قالت: لأ، هوّ قفل ابن قفل! خسارة، لو كان متحرراً، لكنا وجدنا له سكة، جنس جماعي، وآتي له بمن تضع إصبعها في استه! هذا الرجل مفيد جداً، ويمكن أن يفيدنا جداً. مدير مركز النيل للدراسات الاستراتيجية، وفي أي لحظة سيصير رئيساً لتحرير جريدة النيل؛ جريدة النظام. كان مستشاراً سياسياً لسمو أمير قطر، ولسموات أمراء خلايجة آخرين. ومستشار لقناة الجزيرة الإخبارية. يمكن أن ينفعنا بالتأكيد. عموماً هو في البال، وسنجد له سكة، إن عاجلاً أو آجلاً.

نأخذ أيضاً ثلاث قطع لنادية أخت نجوى. إن كانت نجوى أستاذة في السرير، فإن نادية رئيسة قسم! هذه زبيدة ثروت، وتلك برلنتي عبد الحميد!

أكبر من نجوى بعامين تقريباً. ست بيت تقليدية، لكن نار في الجنس، نار ُأس ثلاثة، نار خمس نجوم! أكيد الأختان ورثتا العبقرية من المرحومة الوالدة!

من شهر تقريباً، اشتهيت نجوى بشدة، فقالت لا، مستحيل،

لأن البنت في البيت. وكان سامح عندي في العوامة، فلم يكن من اللائق حضورها. تخشى ألسنة الناس. مطلقة وحلوة، والعين عليها، وعندها بنت صغيرة. السمعة.

ألححت بشدة، فقالت من الممكن أن نذهب لشقة أختها في الجيزة. شارع بين السرايات. نادية مطلقة، وتعيش وحدها في شقتها، وأولادها يعيشون مع أبيهم. فتحتْ الباب بروب وردي، فوق قميص نوم. الخالق الناطق برلنتي عبد الحميد! ابتسمتْ ورحبت بي. سحبتني نجوى بسرعة إلى غرفة النوم، وأكلنا بعضنا، وأنا أفكر في لحم أختها وأنا على سريرها. انتهينا بسرعة، وخرجنا للصالة. حفظت رقم التليفون؛ المكتوب على بطاقة ملصقة أسفل التليفون الأسود الآريكسون الستيناتي، كان على طاولة صغيرة في الصالة. ما يزال موجوداً في صيدليات القاهرة، والأقاليم.

نزلت مع نجوى، وأوقفت لها سيارة تاكسي، وقلت إن عندي مشوار لصديق بالجوار. وقفت عند أقرب تليفون في محل تصوير مستندات أمام بوابة تجارة جامعة القاهرة، واتصلت بتليفون نادية وقلت أنا آسف ولكن أظن أنني نسيت محفظة نقودي عندك، هل تسمحين لي بالحضور؟ قالت أهلاً وسهلاً تفضل. صعدت لشقتها. فتحت الباب بالروب الوردي فوق قميص النوم، وبابتسامة تواطؤ أنثوية تنعش قلب الرجل الخبير!

دخلت وأنا أعتذر عن الإزعاج. حلاوتها تبقى مؤدب في

الأول، وبعدين تفاجئها بالوساخة! الصدمة. حلوة جداً في الجنس! وحلوة جداً في الاقتصاد. وفي كل شيء. أجمل من الصدمة ما فيش!

قادتني إلى غرفة النوم. أنا عارف السكة يا حلوة، ده انا لسه كنت هنا، على اختك، على سريرك!

فتشنا السرير، حتى عثرت هي على المحفظة، التي كنت قد دسستها تحت الوسادة وأنا مع نجوى. ناولتها لي وهي تبتسم بسخرية: مش هيّا دي برضه! بنت الإيه، عرفت إني إتعمدت أسبها! الذكاء الأنثوي. كلانا الآن في قلب المؤامرة! يللا نخون أختك، الخيانة حلوة ما فيش كلام!

جذبت يدها الممدودة بالمحفظة، واحتضنتها بقوة. السيطرة حلوة في المواقف دي! قالت وهي تبتسم بتواطؤ: مالك، مش كنت لسه مع نجوى! قلت: كنت بفكر في لحمك وانا فوق أختك! قالت: إنت سافل وقليل الأدب! قلت لها: جداً جداً جداً فوق ما تتخيلي! ضحكت. الحلوة ضحكت! نظرت إلى عينيها، اللتين يندب فيهما رصاصة، وهمست: وانتي كمان سافلة على فكرة! ضحكت. يعني القلوب عند بعضها! قلت: بس انا سافل أكتر منك!

غمرت رقبتها، وشفتيها، بالقبلات. أختها نقطة ضعفها صدرها، ونادية نقطة ضعفها رقبتها. قالت وهي تتنهد تنهيدة تحرق القلب: مش جبت مع نجوى، عايز إيه تاني؟! شممت

أنفاسها العطرة، وقلت: جبت، بس ساعتها كانت صورتك هيّا اللي في بالي، دلوقتي انا معايا الأصل نفسه! قالت: مش ها تقدر عليّا، ها فرهدك! قلت: يا ريت!

وقد كان فعلاً! فرهدتني بنت اللبوة! نادية، على عكس أختها، تحب أن تأتي على مهلها، على أقل من مهلها! وصاحبة مزاج عال لا تكتفي بواحد، ولا اثنين، ولا حتى ثلاثة! ثمانية وثلاثون سنة، وشهوتها قوية، وتتوق لأن تفعل كل شيء، وأن يُفعل فيها كل شيء! طيلة الليل، حتى الفجر، نستريح قليلاً، ثم نقوم على بعضنا. تشخر عالياً وهي تأتي، وتحب عض رقبة الرجل الذي يمتطيها حتى تدميها! علامة، ماركة، ماركة نادية! نادية متعة، نادية متعة المتعة! نجوى مرة في الأسبوع، ونادية يا ريت كل يوم! إدمان! أذهب إليها مرتين، أو ثلاث، في الأسبوع، حسب الظروف. يا بخت من ترضى عنه نادية! نادية لا تعوض، نادية كنز لا يفنى!

وطبعاً أكيد ثلاث قطع لكامليا. كامليا علاقة استراتيجية!

بنت الكلب لم تكلفني بأي شغل أثناء عملها في شركة نوعية البيئة الدولية! ربما لأن مجال عمل الشركة بعيد، نوعاً ما، عن تخصصي. ولو أن الاقتصاد السياسي مرتبط بالبيئة، والبيئة مرتبطة بالاقتصاد السياسي، بس مين يفهم! معلش الجايات أكتر. وتفضل برضه كامليا علاقة استراتيجية!

أفضالها عليّ كثيرة، الحق يقال! آخر حركة جدعنة هي هذه الورشة؛ هي من أخبرتني بأن فريدريش ناومان ستنظم ورشة عمل في هامبورج. الخسيس ابن الكلب فرانز، مندوبهم، تقريباً مقيم عندنا في المركز ليل نهار نهار ليل، ورغم ذلك ولا أي سيرة ولا خبر! لولا كامليا لما عرفت بأمر الورشة، ولما قدمت فيها.

ورشة عمل عن كيفية استخدام كاميرة الفيديو لتوثيق انتهاكات حقوق الإنسان في دول البحر المتوسط! انتهاكات، إنت هيك؛ على رأي زياد رحباني! طريقة برضه للملمة الأموال من جيوب دافعي الضرائب الألمان! رزق الهبل على المجانين! نصيبنا نحن الفتات، وهم يكدسون الأموال في جيوبهم على حس انتهاكات حقوق الإنسان في دول البحر المتوسط! يقصدون دول جنوب المتوسط، طبعاً، والحدق يفهم!

شباب وشابات من مصر، وتونس، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، والجزائر. واليونان، ومالطا، وإسرائيل، وتركيا. تدريب على كيفية استخدام كاميرة الفيديو في توثيق انتهاكات حقوق الإنسان. إنت هيك. ولا واحد فينا، أصلاً، كان جايب معاه كاميرة فيديو، وحتى المراكز والجمعيات اللي بنشتغل فيها معظمها ما عندوش كاميرة فيديو من أساسه!

على الأقل أذكى من ورشة العمل التي حضرتها في أثينا، في مارس الماضي. كيفية استخدام محرك البحث على الإنترنت!

وطيارة رايحة، وطيارة جاية، ورايح السمبورة، وجاي من السمبورة، وكل ده على كيفية البحث على الإنترنت! طب ودي عاوزة علام!

في فيلم قديم تافه، لا أذكر اسمه، كان بين محمود المليجي وستيفان روستي منافسة للحصول على كنز ما. توم وجيري. دخل كلاهما لكباريه ووجدا الجميع يرقص على أنغام موسيقى غربية، فشرع ستيفان روستي من فوره في الهز! سأله محمود المليجي، الذي كان يقف ملاصقاً له باشمئزاز: الله، هوّه انت بتعرف ترقص الرقصة دي؟! رد ستيفان روستي بكل تعال وعنجهية: أمال! قال محمود المليجي: طب ما تعلمهالي! رد ستيفان روستي، وهو بعد مستمر في الهز: ودي عاوزة علام! َقدَّر إنك بتبيض نحاس!

سامح يقول إن الأفلام المصرية تافهة عموماً، لكن تكمن عظمتها في الغرف الجانبية، لا في صالة البيت الرئيسية، وأحياناً ما تكون عظمتها الحقيقية في الحمَّام. عنده حق والله!

كامليا الآن متفرغة لتأسيس مؤسسة ساويرس للتنمية. استقالت من شركة نوعية البيئة الدولية. ستكون مهمة جداً بالنسبة لنا في المرحلة القادمة، كامليا علاقة استراتيجية! مؤسسة آل ساويرس بجلالة قدرها، والتنمية أصلاً في صلب تخصصنا. يا ام النور!

مثلها لا تفرح بشوكولاته ريتر سبورت! لكن من باب كان في الجبل وافتكرني بحجر. هدية الإنسان ترحب له وتهديه إلى أمام العظماء. كامليا من النوعية التي تستهدفها لافتة برايس هاي! تأكل أفخر أنواع الشوكولاتات؛ الأنواع الاستثنائية، البريميم. جوليان. جيرارديللي. نوكا. جوديفا. لا ميزون دي شوكولا. لندت وسبرنجلي. العلبة الواحدة بمئات الدولارات، حاجة تعقد على رأي اللبنانيين!

نأخذ أيضاً ثلاث قطع نسبايسر بحبات البندق الكاملة؛ أم غلاف أحمر في أبيض. هنا بدولار ونصف. وقطعتان من شوسير؛ أم غلاف أحمر في أصفر. أيضاً بحبات البندق الكاملة. وأيضاً بدولار ونصف. نشكل لكامليا؛ واحدة ريتر سبورت، وواحدة نسبايسر، وواحدة شوسير. كان في الجبل وافتكرني بحجر. عشرون قطعة شوكولاته باثنين وعشرين دولاراً ونصف. كفاية شوكولاتات، ميزانية الشوكولاتات لا تسمح يا حلوين، رغم إن حبايبنا كتير!

رفع محب يسراه الممسكة بسلة المشتروات، ونظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وواحد وعشرون دقيقة.

أنزل يده بالسلة، وأخذ خطوتين لليمين، وسار بضع خطوات في ممر دولايب عرض هاينمان، حتى صار على يمينه دولاب

عرض السجائر والتبغ ومستلزماتهما، وعلى يساره دولاب عرض البن والكاكاو والشاي.

علب شاي قصديرية مكعبة ومدورة؛ خضراء، وصفراء، وحمراء. شاي تويننجز. شاي دِلما. شاي أحمد. شاي لِبتون. الباقي أنواع لا أعرفها. تايلاندية. وسيريلانكية. وهندية. وصينية. وألمانية. ما لناش في الشاي! نحن كييفة بن، لا شاي.

علب بن قصديرية مدورة ومكعبة؛ حمراء، وسوداء، وبنية، وصفراء. وباكوات مضغوطة ومسحوب منها الهواء؛ حمراء، وسوداء، وبنية، وصفراء. بن لافازا الإيطالي. بن إكسبرسو الفرنسي. بن سبرسو كلاسيكو السويسري. وأنواع أخرى من بن السبرسو من ألمانيا. وإيطاليا. وسويسرا. وفرنسا.

وبن سريع الذوبان من نسكافيه. وسيتي كافيه. وأنواع أخرى ألمانية. وإيطالية. وسويسرية. وفرنسية. نأخذ لعاطف برطماني نسكافيه جولد الألماني ذي الحبيبات المحمصة الكبيرة. أنا كييف سبرسو، وبن تركي. بن يوناني! لو سمعنى سامح أقول قهوة تركي، لأسمعنى محاضرته المقررة عن أصلها اليوناني. أحلى بن يوناني في القاهرة من عند عبد المعبود في باب اللوق. يطحن لك البن المحمص وأنت واقف. اليمني، والحبشي، والكولومبي، والبرازيلي. بأي درجة تطلبها فاتح، وسط، غامق، محروق. محوج بالحبهان فقط، أو بالحبهان وزر الورد، أو سادة. وفي الاسكندرية، البن البرازيلي؛ شرحه.

آخذ لي باكوي سبرسو لافازا كريما إى جوستو. عندي في العوامة باكو مقفول، ونصف باكو آخر مفتوح. تموين يكفينا شهرين. كيلو إلا ربع لافازا كريما إى جوستو. الباكو متين وخمسين جرام، سبشيال أوفر هنا باربعة دولار، يا بلاش! سعره العادي في أي حتة خمسة دولار.

برطمان النسكافيه الجولد الألماني مائة جرام بخمسة دولارات. نفس السعر في أي مكان في أوروبا، لا يوجد عليه تخفيض. لا يهم، عاطف سيفرح بهما كثيراً.

اعتاد شرب فنجان جولد كل ست ساعات. يبقيه متيقظاً ونشيطاً. طبيعة عمله تستلزم الانتباه والنشاط. مسكين يتعب كثيراً!

آخر مرة زرته في القصر العيني. من أسبوعين. وقفنا نتحدث في رواق المستشفى، وكان يغص بالأطباء والممرضات، وكان الجو مكهرباً. كان لدى عاطف عملية، لكن حجرة العمليات كانت مشغولة. عمليته، في الغالب، كانت جراحة لتقويم اعوجاج في العمود الفقري لحالة ما، ربما لفتاة مراهقة. هذا عين تخصصه. أشطر من يقوم بتقويم اعوجاج العمود الفقري. عملية صعبة جداً؛ يقوم بفتح الظهر بالكامل من أول فقرة عنقية حتى آخر فقرة عجزية! عاطف شاطر جداً. يجب أن يكون الجراح القبطي أشطر ثلاث مرات من المسلم حتى يُقبل وسطهم. هذا المستوى من التفوق يضعف أمامه المصريون، مهما كان الأساتذة أصحاب

الكلمة في الكلية متطرفين! المصريون عموماً ضعاف أمام التفوق. مرة في مقهى بلدي في السيدة زينب، كان التلفزيون يذيع تقريراً عن حصول المخرج كريم خوري على جائزة في مهرجان كان، وقال أحد الزبائن ضاحكاً: بس دول بيقولوا عليه خول! رد المعلم صاحب المقهى صائحاً: خول خول بس المهم انه جاب جايزة لمصر! إنت بدين أمك آهو إيرك قد كده، عملت بيه إيه! طول النهار عمال تعمل في مخلل تبيعه للبهايم اللي زيك!

كان عاطف حزيناً يومها. قال إن موعد دخوله غرفة العمليات قد تأخر كثيراً بسبب العملية التي ُتجرى فيها الآن، وأنه قد أخبرهم بأن يلغوا عمليته ويجهزوا الحالة للغد. قال وهو حزين إن زميلاً له هو الآن في غرفة العمليات ُيجري جراحة في المخ؛ لاستئصال ورم لطالبة في كلية الصيدلة، وفجأة انفجر شريان في المخ وهو يعمل. مصيبة!

كان الجو مكهرباً في المستشفى، والممرضات يهرعن هنا وهناك باكيات. قلت كان الرب في عون البنت المسكينة! قال عاطف البنت ضاعت خلاص، المساكين الحقيقيون هم أهل الفتاة والجراح! لو احتشد كل الحظ الذي في هذا العالم خلف الجراح، فإن البنت، في أحسن الأحوال، ستصاب بشلل رباعي. تخيل مشاعر الجراح الآن وهو في غرفة العمليات! يفتح الجمجمة ليستأصل ورماً، فيفاجىء بشريان في المخ ينفجر أمامه! كان الرب في عونه، قلت لهم دعوه في حاله أنا لن أدخل العمليات اليوم! مصيبة يا عم وأي مصيبة! كان أساتذتنا في الكلية يقولون

لا تحزن إن خطف منك زميل عملية؛ لأن عمره قد قصر، وعمرك أنت قد طال! العمليات تؤثر في أعصاب الجراح، وتأكل روحه. العمليات كلها خطرة، لكن عمليات المخ والأعصاب خطورتها مضاعفة لألف مرة!

مسكين! شارف على الأربعين، ومازال يهرول هنا وهناك ليجري عملية في مستشفى خاص، أو يكشف على مريض في مستوصف. ليست لديه عيادة بعد، من أين له بثمن العيادة، وتجهيزاتها! مصاريف مدرسة ابنه الخاصة تأكل كل دخله. وهل يكفي مرتب مدرس في كلية الطب للحياة الكريمة في أيامنا هذه!

ألححت عليه أن يترك البلد ويبحث عن عمل في إنجلترا، أو ألمانيا، أو سويسرا. أو حتى دبي، أو أبو ظبي. مثله ُلقطة؛ جراح عظام ممتاز، ممتاز ُأس ثلاثة! يقول إنه لن يترك القصر العيني، ولا الجامعة. الوالد، نياحاً لروحه الطاهرة، كان منى عينه أن يراه أستاذاً في القصر العيني. طالع يساري كالوالد الله يرحمه؛ يقول لن أترك مصر نحن ملح الأرض. لا أعرف إن كان يقصد قبطيته، أم يساريته؟! سيندم يوماً ما، حين لا ينفع الندم! سيفتح عينيه يوماً على الحقيقة المرة. عدد الذقون في بلدنا صار أكبر من عدد العقول. ولما كان عدد الذقون في بلدنا قد صار أكبر من عدد العقول، فإنه يترتب على ذلك قانون ميرفي؛ إذا كان هناك احتمال لأن تسوء الأمور، فإن الأمور سوف تسوء فعلاً، إذا كان هناك احتمال لأن تتدهور الأوضاع، فإن الأوضاع سوف تتدهور فعلاً.

مهنته صعبة، والمنافسة فيها لا ترحم، حروب الجراحين! وكونه قبطياً، يجعل الصراعات أقبح، والضرب تحت الحزام! الكود السري بين أطباء مصر، السر المفتوح؛ اضطهاد الأطباء الأقباط وعزلهم. يمنعون القبطي من التخصص في النساء والتوليد، طبعاً، قبطي ويكشف على نسائنا! صليبي وتنكشف عليه عورات حريمنا!

ومن المرجح في الفترة القادمة أن تزداد الذقون أكثر وأكثر، وأن تقل العقول أقل وأقل! قانون ميرفي. الدين يكسب. قلت لأحمد فرحات: الدين يكسب! قال: دينك! قلت: دينك انت! شخر يومها وضحكنا كثيراً حتى سعلنا وشعرنا بآلام في رئتينا. مدخنون. الضحك يؤذينا.

مسكين عاطف! ربنا معاه! الأيام القادمة ستكون أصعب. قانون ميرفي؛ إذا كان هناك احتمال لأن تسوء الأمور فإن الأمور سوف تسوء فعلاً. ذقون، وفساد، وبوليسية، وانعدام للمهنية، وعايزيني اكسبها! وأولاً وقبل كل شيء، إدارة زفت للاقتصاد الحر! حوكمة رديئة. صححت المصطلح لشرف الدين إسماعيل، لم يكن قد سمع به من قبل. ضعيف مهنياً!

قانون ميرفي ينفي إمكانية أي أمل في هذا البلد! قد أفلح من هاجر.

إلى استراليا هاجر فايز ميخائيل. ونجيب حبيب. وهاجر إلى

أمريكا سعد يوسف. وصادق بشارة. وسامي وسليم حنا. وناهد قيصر. وسمير صادق. ووسيم دوس وحنان. وسامي إسحاق. وشريف وستيف لم يرجعا من منحة فرنسا، وبلطا هناك في ليون. وعماد غبريال استقر في بروكسل والقشية معدن. وهاجر إلى كندا رامز حليم، وعياد، ومريان. وهاني هنري. وبطرس مجلي. ورمسيس تكلا. والولد عماد ماركو. ومرقص سليم، وباسم عطا الله. وإبراهيم مجدي. وعبد الله سعد، وشفيق بدوي. وجوزيف راح النمسا. ونادر وناتالي في فنلندة. بلد باردة جداً. مثلهما. من جمع وفق. ماذا أفعل أنا في هذا البلد يا ربنا!

أخذ محب خطوتين إلى اليمين، فأصبح أمام دولاب عرض السجائر والتبغ ومستلزماتهما.

على الرف الأول؛ علب عليها صفوف من ولاعات زيبو من مختلف الأشكال والألوان، فضية كلاسيكية، وأخرى مكسوة بالجلد، والخشب، فضي، وبني، وأسود، وأحمر، وأزرق، وأبيض. كلاسيكية بالبنزين والفتيل، ومودرن بالغاز والحجر.

الكلاسيكية بالبنزين تجعل رائحة السجائر بنزيناً، حتى ولو عمَّرتها بنوعية ممتازة من البنزين! لدى اثنان في العوامة. كففت من فترة عن استعمالهما.

تحت الزيبو، رف مليء بعلب مرصوص عليها ولاعات بِك، بالحجمين القصير والطويل بمختلف ألوان الطيف. بثلاثة

دولارات الولاعة الصغيرة! لصوص! سعرها عندنا أربعة جنيهات فقط! بِك المعروضة هنا صناعة اسبانية. في القاهرة البِك الفرنساوي الأصلية! الفرنساوي الأصلية ذات تاج معدني ذهبي، والصناعة الاسبانية ذات تاج معدني فضي.

على يسار ولاعات البِك، عدد من علب السجائر المعدنية المبططة؛ فضية، ومكسوة بالجلد، ومكسوة بالخشب. ألوان قاتمة للمدخنين، وألوان زاهية للمدخنات. اشتريت علبة سجائر معدنية فضية تذكاراً من مطار مالطا. كففت من فترة عن استعمالها. سافرت من القاهرة إلى مالطا، وعدت من مالطا إلى القاهرة، وقضيت أسبوعاً كاملاً في فاليتا، ولم يكن في جيبي وقتها سوى خمسين دولاراً فقط، وربنا ستر! تذاكر السفر ذهاب وعودة، والإقامة فول بورد، والانتقالات في مالطا، على خساب صاحب المخل. ورشة عمل عن تقنيات منظمات المجتمع المدني في مراقبة الانتخابات المحلية. ربنا يخلي الاتحاد الأوروبي ويكتّر من فلوسه، وفلوس دافع الضرائب الأوروبي! تذاكر الطيران وحدها كلفتهم أكثر من ثمانمائة دولار! حجزوا لي أولاً في طيران مالطا، مباشرة من القاهرة لفاليتا، ثم علموا أن إر مالطا قد ألغت رحلتها لذلك اليوم، فقاموا بحجز رحلة من القاهرة إلى فرانكفورت، ومن فرانكفورت إلى روما، ومن روما إلى فاليتا. لفة! والعودة من فاليتا إلى روما، ومن روما إلى فرانكفورت، ومن فرانكفورت إلى القاهرة. فسحة! اشتريت علبة السجائر تذكاراً من السوق الحرة لمطار فاليتا، وولاعة زيبو معدنية مطلية

بالأبيض عليها علم مالطا الصليب الأحمر، بخمسة دولارات. من باب الذكرى. وعدت للقاهرة وفي جيبي خمسة وأربعون دولاراً! نشكر الله ربنا سلم! أحياناً يكون المرء مفلساً. كثيراً ما يكون المرء مفلساً.

على الرف الثالث؛ صفوف وأكوام من الأنواع المختلفة لتبغ اللف. تبغ لف السجائر. وتبغ البايب. علب قصدير مدورة ومكعبة. وعلب كرتون بكل منها خمسة باكوات؛ كل باكو خمسون جراماً من تبغ الدخان الشعر المنكه، أو الخالي من النكهات. علب سوداء، وكحلية، وحمراء، للتبغ الداكن الثقيل الهافزوير، والكنتاكي. وعلب سماوية، وبيج، وصفراء، للتبغ الأخف، الذهبي الأشقر، والفِرجينيا. درم، وسامسون، وأمبرليف، وكابتن بلاك، وجولدن فِرجينيا، ولاكي سترايك، وبوركوم ِرف، وِرد فيلد. وأنواع ألمانية أخرى لا أعرفها.

عندي في العوامة باكو ونصف كابتن بلاك أحمر بنكهة الكريز للبايب. في القاهرة الباكو بخمسة وعشرين جنيهاً، هنا بثلاثة دولارات.

على الرف الرابع؛ بعض الغلايين الألمانية. معظمها من خشب الأبانوس؛ بنية، وسوداء، وبعضها مطلي بالأبيض. والبعض مطعم بالعاج. والألومينيوم. ماركة فوين. وبولو. بجوارها ركن صغير في أقصى اليسار لمستلزمات تدخين الغلايين. الفلاتر، والسّلاكات، والكبّاسات. أسعار غلايين فوين

وبولو غالية تبدأ من خمسين دولاراً. إلى مائتين وثمانين!

لدي غليونان جيدان؛ واحد تشيكي خشب أسود بمبسم عاج، والآخر ألماني فوين قديم خشب بني أحمر بمبسم أسود. ولايزال لدي ستوك كبير من الفلاتر والسّلاكات. وعندي كبّاسة تشيكي كففت عن استخدامها منذ فترة طويلة. سخيفة ولا معنى لها! إكبش التبغ بثلاثة أصابع، ملىء الثلاثة أصابع، واحشوه في فنية البايب، واكبسه بالإبهام أو السبابة؛ هكذا يكبس الرجال، بلا لعب عيال! ولازم تولع بالكبريت، مستحيل بالولاعة! الكبريت لإشعال البايب، هكذا يُشعل الرجال. بالكبريت نكهة ألذ مائة مرة.

على الأرفف الخامس، والسادس، والسابع، والثامن، صفوف وأكوام من مختلف أنواع خراطيش السجائر العالمية. مالبورو أحمر، وأبيض، و أخضر. كِنت. ميريت أصفر، وأزرق. روثمان. دنهِل. لاكي سترايك. وِنستون. إل إم أزرق، وأحمر. بول مول. كامِل. إمباسي. إيف. فيليب موريس. بارليمنت. نِكست. سالِم. فايسروي. فِرجينيا سلِم. ويندسور بلو. بنسون آند هيدجز. كابري. دافيدوف البنية الغامقة. ثلاث خمسات. جيتان المببطة الكحلي بالفلتر الكاربوني، وجيتان بلو السماوية الأصلية. كارتييه أبيض بالفلتر اللؤلؤي. شرف الدين إسماعيل يدخن الكارتييه الأبيض بالفلتر اللؤلؤي، تكلف ثروة! لديه مصدر يأتيه بها من السوق الحرة لمطار القاهرة، خرطوشة السجائر بمائة وخمسين جنيهاً! كان يدخن من قبل ميريت الأزرق منخفضة القطران والنيكوتين؛ سجائر حريمي. اللي يشرب ميريت أزرق

يبقى راجل خِرع! سيجارة كريهة جداً، لم أستطع تكملة واحدة منها! يحافظ على صحته. لماذا! كامليا تقول إنه من هواة لعق الحلويات فقط! هو أيضاً!

صديقتها الممثلة علياء، كانت معجبة به؛ لأنه يظهر في التلفزيون ويقول كلاماً كبيراً بالنسبة لعقلها الفارغ. أحبت أن تجربه في الفراش. ياترى المخ ده كله يبقى طعمه إيه في السرير؟! قالت كامليا إنها توسطت بينهما وأجرت التعارف. ثم فضحته علياء؛ البيه ضعيف، يلعق الحلويات فقط. يا دي النيلة على الرجالة!

أحدهم، أو إحداهن، علمته تدخين الكارتييه اللؤلؤي. هجر ميريت الأزرق، وشبط في العادة الجديدة! أغلى سيجارة في مصر! عالم اليوم عالم ماركات، وماركة السيجارة تحدد مستوى دخل المدخن، والبيه ابن عمدة! ويعتبر نفسه واحداً من كبار المفكرين في مصر. ويجالس الكبراء في العالم العربي. في الوطن العربي. أربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه!

الدكتورة روزي ماركة أيضاً! زوجة أمريكية، وتعمل في مكتب الأمم المتحدة بالقاهرة. عقبى لنا، كشرف الدين إسماعيل! حوت التمويلات والمنح الأجنبية. زوجته الأمريكية تساعده وتدعمه. أول من فتح باب التمويلات الأجنبية والمنح لمؤسسات المجتمع المدني في مصر. تلامذته الآن ينافسونه على تورتة التمويلات والمنح! كل منهم فتح مركزه أو جمعيته الخاصة؛ بعد

أن عرف السكة. عقبى لنا! لو الحال مشي، ممكن نفتح مركزنا الخاص في غضون ثلاث سنوات، أو خمس على أكثر تقدير! قبل التورتة ما تخلص، ما هي أكيد ها تخلص! ستؤكل حتى آخر فتفوتة، كما حدث في أوائل الانفتاح الساداتي؛ اللي لحق لحق، واللي ما لحقش فضل جربوع لغاية دلوقتي! سلّك أمورك. طوبى لمن َفتّح مخه فقد فاز. طوبة لمن َفتّح مخه، هه!

أسعار السجائر من عشرين، إلى خمسة وعشرين دولاراً للخرطوشة. عندنا أرخص بكثير!

جيتان بلو هنا بخمسة وعشرين دولاراً! الخرطوشة من شارع الشواربي؛ من أول دكان على إيدك الشمال باربعين جنيه!

الحياة في مصر مازالت أرخص. أحد مزايا التهريب، وعدم الرقابة على الأسواق. والفساد. مزايا السداح مداح. أسعار العالم الثالث. على الأقل حتى الآن، لأن الأمور مرشحة للتدهور في المستقبل القريب، قانون ميرفي؛ إذا كان هناك احتمال لأن تتدهور الأمور، فإن الأمور سوف تتدهور فعلاً. لكن حتى الآن الحياة أرخص في القاهرة. يمكن الحصول على فتاة ممتازة بما يساوي خمسة عشر دولاراً. وأحياناً بسبعة ونصف!

بعشرة جنيهات تتعشى عشوة حلوة من اللحوم، أو الدواجن، أو الأسماك. علبة المالبورو الأبيض بأربعة جنيهات، بعد فرض الزيادة الضريبية الجديدة وارتفاع سعرها. هنا في هاينمان ديوتي

فري؛ العلبة تقريباً بستة عشر جنيهاً مصرياً، بسعر الدولار في السوق السوداء الواحد بثمانية. وفي هامبورج البلد؛ العلبة تقف بحوالي أربعة دولارات، يعني اثنين وثلاثين جنيهاً! آه يا حرامية يا نصابين! صحيح أن مالبورو إيسترن كمباني أردأ من مالبورو فيليب موريس الأصلية، مالبورنا أردأ من مالبوركم، لكن ولو! آهو كله مالبورو! نفس العلامة، المهم العلامة. جيتان الفرنسية سحبت ترخيص تصنيع السيجارة الجيتان من إيسترن كمباني بعد أسبوع واحد فقط من بدء العمل في خط الإنتاج. الفهلوة المصرية! الفرنساويون اكتشفوا الغش المصري، وجيتان تريد الحفاظ على سمعة سيجارتها! فيليب موريس الأمريكاني المهم عنده المكسب فقط، ولا يعنيه في شيء الكواليتي الرديئة التي تنتج بها إيسترن كمباني سجائره.

عاطف لايزال يدخن كليوباترا سوبر. سيجارة الوالد نياحاً لروحه الطاهرة. ورث عنه اليسارية، وكليوباترا السوبر! سيجارة ثقيلة جداً، ومليئة بالخشب، والتبغ غير المفروم! تسبب سعالاً مخيفاً! عاطف يسعل سعالاً مخيفاً! والوالد، نياحاً لروحه في أحضان القديسين، كان يسعل سعالاً مخيفاً قبل أن يموت. هي المسؤولة عن جلطة الشريان التاجي. هي، وهموم الوطن. والإحباط. وخيانات الرفاق. يساري، وابنه البكر يساري، وأنا البطة السوداء في العائلة! فكر عقيم! لكن الاشتراكيين أعظم من الاشتراكية. معظمهم على الأقل. نبلاء، وحالمون. كان نياحاً لروحه يقول إن عبد الناصر أراد سيجارة وطنية في جودة كِنت،

فصنعوا له كليوباترا، وكانت جودتها في الأول تفوق جودة كِنت نفسها! ثم ماذا حصل؟! قانون ميرفي؛ إذا كان هناك احتمال لأن تسوء الأمور فإن الأمور سوف تسوء فعلاً.

مصر أكثر بلد ينطبق عليه قانون ميرفي. وطبعاً كل دول أفريقيا.

في السوق الحرة لمطار القاهرة، يعرضون نوعاً من كليوباترا السوبر، غير موجود في السوق المصرية، سوبر فعلاً! علبة ذهبية مبططة، مثل دنهيل المبططة. دخان ممتاز، لكن للتصدير فقط، للخواجات فقط! الخرطوشة بثلاثة دولارات. يبيعون الجيد للخارج، والوقيع للمصريين. دول العالم المحترمة تفعل العكس. لا يحترمون المواطن في مصر؛ أسوأ بطاطس للمصريين، وأحلى بطاطس من التي تؤكل بقشرها لأوروبا!

أحمد فرحات أيضاً يدخن كليوباترا، كليوباترا العادية. يسعل هو الآخر على نحو مخيف! لا يحب مالبورو الأبيض. بالإضافة إلى غلو سعرها، يقول إنه لا يكفيه منها ست علب يومياً حتى يتكيف. يدخن ثلاث علب كليوباترا في اليوم! يقتل نفسه. ينتحر. سيجارة سيئة، ومنفسة، ونصفها خشب وتبغ غير مفروم. ومستمرة في التدهور يوماً بعد يوم! قانون ميرفي! سامح أذكى؛ برغم يساريته، لا يدخن إلا تبغاً مفروماً. أمبرليف. يساري، وخرتي! يقول: نص فقر ونص وطنية.

باكت أمبرليف عندنا بثمانية عشر جنيهاً. هنا بأربعة دولارات، وفي هامبورج البلد بما يعادل خمسة. أربعون جنيهاً! مازالت الحياة في مصر أرخص. سامح عبقري، خسارته! لو كان طموحاً، لكان له شأن عظيم!

إن وجد بيتاً يؤويه، وصديقة جميلة، وكان معه حق الدخان؛ يضرب الدنيا صرمة. كبرت في دماغي وصعب عليّا الفن أخدت حسابي وضربتها صرمة! يكرر دائماً أن الإنسان لا يحتاج أكثر من سقف يؤويه، وصديقة جميلة، وكتاب ذكي، وأكلة حلوة، وباكيت تبغ. وموسيقى جيدة، ومشروب جيد إن وجد، وعلى الباقي السلام. خسارته، عبقري فعلاً، لكن كسول! من الإحباط، بعيد عنك! ومن الصدمات في الرفاق. لكنني متأكد بأنه متى تحمس، يعمل بدأب الموظفين. رأيته من قبل يعمل بدأب، بإفراط. ليتها كانت عادة عنده، لكان له شأن عظيم! مثقف من العيار الثقيل! على مستوى العالم، لا على مستوى مصر فقط. أقوى حتى من الأوروبيين، ومن الانجليز الذين عاشرتهم في لندن. وباحث ممتاز. ممتاز ُأس ثلاثة! خسارته!

عليّ إقناعه بالعمل في مشروع الأفلام التسجيلية. وافق عندما تكلمنا في الموضوع وهو عندي في العوامة، لكن يجب الطرق على الحديد وهو ساخن، قبل سامح ما يبرد! هذا مجال جديد للمنح والتمويلات، لم يفتحه أحد بعد في مصر، كعكة كبيرة إن لم نسارع نحن بأكلها، فسيلتهمها الآخرون! كنز مازال بابه مغلقاً، لم يفطن أحد لبابه بعد سوى شرف الدين إسماعيل، ومرة واحدة

فقط؛ في فيلم عطيات الأبنودي، النساء والديمقراطية. المركز عندنا طلب في الفيلم مائة ألف دولار، فأخذنا تسعين، وكلفنا الفيلم أربعين ألف جنيه، فقط لا غير، أولاً عن آخر، والكل مبسوط! والباقي في جيب شرف الدين إسماعيل، ابن الذين! هذه أحلى سبوبة في عالم التمويلات اليوم؛ الأوديو فِجوال. لم ينتبه لها أحد في مصر حتى الآن سوى شرف الدين إسماعيل. زوجته تنصحه وتساعده.

شتيفان يقول إن مؤسسات تمويل الأوديو فِجوال في ألمانيا، بل وفي أوروبا كلها، تبحث اليوم عن مشاريع من مصر، ولا تجد! سيقبلون أول مشاريع تقدم لهم من مصر، مهما كان مستواها! لزوم تسديد الخانات في تقاريرهم إلى حكوماتهم وإلى الاتحاد الأوروبي؛ اسم مصر، كمستفيد من المنح، يجب أن يوضع في التقارير حتى يكون شكلهم حلو وشايفين شغلهم صح! ومصر غائبة حتى الآن عن تمويلات الأوديو فِجوال. كعكة كبيرة يجب أن نلتهم أكبر شقفة منها، من سيبادر ويفتح هذا السوق سيحتكر سوق تمويلات الأوديو فِجوال في مصر. اللي سبق أكل النبق. ضربة حظ زائد الاحتكار زائد التنازل الأخلاقي.

ومصر مليئة بالموضوعات الممتازة لأفلام تسجيلية قوية! المرأة، والبيئة، وحقوق الإنسان، والأقباط. والنوبيون. والفساد، والديمقراطية. والجماعات الإسلامية طبعاً!

الجماعات الإسلامية لوحدها يخرج منها موضوعات

لعشرات الأفلام التسجيلية القوية! لكن يجب العمل من خارج المركز، وإلا سيلتهم شرف الدين إسماعيل كل الفند في كرشه ويترك لنا الفتات!

نشكر الله، لنا علاقات جيدة بالمسؤولين عن المنح في مؤسسات الفند. وستقوى يوماً بعد يوم. لكن يجب أن نبدأ بتقديم طلب تمويل لمشروع فيلم تسجيلي في أقرب وقت ممكن. يمكن أن نحصل على التمويل بطريقة شخصية، على الأقل في الأول حتى ننشىء مركزنا الخاص. هذه أولوية أولى. سأحدد مع سامح أولاً موضوعاً يحب أن يعمل عليه، ثم أكتب أنا مقترح التمويل، ويساعدني هو بخبرته في السوق في كتابة الميزانية، الميزانية الحقيقية، هو يعرف الأجور، وتكاليف تأجير المعدات، والمونتاج، وكل الأشياء الأخرى. ويعرف أفضل الفنيين الذين يمكن أن نكلفهم بالعمل، وسيخدمونه لأنه صديقهم. بعد ذلك أضرب أنا الميزانية التي سنقدمها للممولين. الممول على عينه! دهان وش أول كذا، دهان وش تاني كذا، تقطيب الثقوب كذا، حبل ومخلة وجردل لزوم أكل وشرب الخروف كذا، ونطلب مية ألف دولار. سعر الدولار في السوق السوداء اليوم ثمانية جنيهات، ومن المتوقع أن يزداد، قانون ميرفي. وجهات التمويل لا تعرف بعد الفرق بين أجور الفنيين هنا وهناك، ولا أجور تأجير معدات التصوير وخلافه. لن يفطنوا لفترة، لكنهم سيكتشفون الأمر آجلاً؛ عندما يعرف الأغبياء السكة وتبدأ المزايدات! سيعرفون في النهاية الأسعار الحقيقية، إذا اختلف

اللصوص ظهرت السرقة! لكننا لسنا لصوصاً يا صديقي، نحن نأخذ حقنا منهم فقط! أقل من حقنا. استعمرونا وراكموا ثرواتهم من شقائنا، من ثرواتنا، من عرق أجدادنا. هذا أقل من حقنا! ولديهم ألف حق في أن يشعروا بالذنب تجاهنا! استمروا في الشعور بالذنب من فضلكم دام عزكم!

نختار موضوعاً سهل التنفيذ، ولا يكلف الكثير. خفيف في الشغل، وقوي في نفس الوقت. الموضوعات التي تناسب المزاج اليساري لسامح كثيرة. ونشرك معنا أيضاً أحمد فرحات، سيفرح! لديه ميول فنية عظيمة!

التمييز ضد المسيحيين. الجماعات الإسلامية موضوع كبير جداً يتفرع منه عشرات الأفلام التسجيلية القوية. يهود مصر. الحجاب في المجتمع المصري. التمييز ضد المرأة. تأخر سن الزواج. تلوث البيئة أيضاً موضوع كبير جداً يتفرع منه عشرات الأفلام القوية. حقوق النوبيين. المصريون المتزوجون من إسرائيليات، عددهم الآن يقارب الألفين، يقيمون في إسرائيل، معظمهم في تل أبيب. أنجبوا أطفالاً بالفعل؛ النص مصري والنص إسرائيلي، جدو ماما يا حبيبي هوّ اللي قتل جدو بابا، يا حلاوة! موضوع قوي جداً، لكن الأفضل استبعاده مؤقتاً، من المؤكد أن الأمن سيرفض وسنتعرض لمضايقات ووجع دماغ، ورايح أمن الدولة وراجع من أمن الدولة! المقرف، أن كل الموضوعات المهمة ستسبب لنا مضايقات! رايح جابر ابن حيان، راجع من جابر ابن حيان!

ينبغي العمل بحرص وتكتم في أي مشروع، لا نريد وجع دماغ! على الأقل حتى يكتمل العمل وننجز الفيلم.

موضوع المثليين نستبعده أيضاً، رغم أن من السهل جداً الحصول على تمويل له من الأوروبيين. موضوع مقرف! والأمن سيحشر بوزه! الأمن، وغير الأمن، الكل سيحشر بوزه! الإساءة لسمعة مصر، وكل تلك البلاهات!

الموالد في مصر أيضاً موضوع قوي وحلو، وجميل بصرياً! وسمعياً أيضاً. الترانيم، والابتهالات. الموالد القبطية، والإسلامية. واختلاط الأقباط بالمسلمين فيهما. عندنا المقدس مقدس، نذهب لموالد بعضنا البعض، ونتشفع لدى قديسي بعضنا البعض.

على الأقل كان الأمر كذلك، قبل طوفان الذقون والجلاليب الباكستاني! مايزال هناك بعض العقلاء هنا وهناك، لكن عدد الذقون صار أكبر بكثير من عدد العقول!

مولد جبل الطير من الممكن أن يكون فيلماً تسجيلياً رائعاً!

وسكان القرافة في القاهرة أيضاً موضوع ممتاز.

وعمالة الأطفال. أطفال جمع القطن، وأطفال جمع الياسمين. وأطفال جمع القمامة. وأطفال الورش الميكانيكية، وأطفال صناعة الجلود. وأطفال الشوارع.

استدار محب، ورجع بضع خطوات إلى صدر تربيعة هاينمان؛ حيث دولاب العطور الكبير.

الموضوعات كثيرة جداً في مصر، وكلها موضوعات قوية تصلح لأفلام تسجيلية عظيمة! الفرصة مؤكدة لأخذ تمويل لفيلم واحد على الأقل. بقليل من الشغل. نكتب مقترح تمويلي قوي، وهذه لعبتنا، وسنحصل على التمويل.

لو سامح شد حيله، لأنتجنا ثلاثة أو أربعة أفلام في العام الواحد! نأخذ التمويل من مؤسسات الأوديو فِجوال الأوروبية، ونبيع الأفلام لقنوات تلفزيونية أوروبية. من دقنه وافتله! يدفعون أسعاراً ممتازة للفيلم التسجيلي؛ من عشرين إلى ثمانين ألف دولار للعرض في القناة الواحدة! يمكن أن نصبح مليونيرات في بحر عامين أو ثلاثة!

لكن سامح كسول! الكسل المصري. المصري كالكروم، ينبغي تلميعه كل صباح لتأخذ منه أحلى شغل. ما ينقصنا هو الدأب والمواظبة. الألمان عقول متوسطة، لكن يتفوقون بسبب الدأب والمواظبة، هذا هو السر الألماني. موصوفون بالغباء في روايات القرن التاسع عشر الأوروبية!

المصري بعيد عنك تنبل! ذكي، لكن تنبل بن تنبل!

ألكس أيضاً ستساعدني في تحميس سامح. فرنسية جميلة، وذكية، وبنت ناس. وتحب كثيراً جو العوامة عندي.

سأدعوهما لقضاء جمعة وسبت في العوامة، ونستغل الوقت لاختيار موضوع للفيلم الأول، وكتابة ميزانيته. ألكس ستتحمس فوراً وستساعد. ويمكن أن تقوم بترجمة مقترح التمويل للغة الفرنسية، ونرسله لمؤسسات الأوديو فِجوال الفرنسية! لو سارت الأمور على نحو جيد يمكننا تأسيس شركة لإنتاج الأفلام التسجيلية، باب كله مكسب! منح وتمويلات. ودورات تدريبية، وورش عمل لشباب السينمائيين. ومهرجان للأفلام التسجيلية المستقلة، وهلم جرا.

يمكن حتى أن نبدأ بالشركة أولاً، ثم ومن الأرباح، نؤسس مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ويُخدّم الاثنان على بعضهما؛ أبحاثاً اقتصادية واجتماعية، ينتج عنها أفلاماً تسجيلية. يمكن أن ننافس أرقى مراكز الأبحاث في العالم!

الأوضاع في مصر الآن بيئة خصبة لدراسات اقتصادية واجتماعية قوية، وأفلام تسجيلية قوية.

ونلم اليساريين أصحاب أحمد فرحات، الذين بلا شغلة ولا مشغلة، ونشغلهم معنا! يقترضون حتى حق الشاي والقهوة على المقاهي! يرضون بقليله. ونلم شباب السينمائيين أصحاب سامح الذين بلا شغلة ولا مشغلة ونشغلهم معنا. يخرتنون حتى حق الشاي والقهوة على المقاهي! لكن هؤلاء عيونهم فارغة وطماعون. سامح يمكنه السيطرة عليهم وقت اللزوم. واللي عاجبه عاجبه، واللي مش عاجبه الباب يفوت جمل، السينمائيين

على قفا من يشيل مترصصين على القهاوي من غير شغلة ولا مشغلة!

أنا وسامح وأحمد يمكننا أن نسوي الهوائل لو اجتمعنا معاً في عمل مشترك! يا ريت! الإلحاح والتحميس! المصري كالكروم يجب تلميعه كل صباح.

عشرة رفوف مرصوصة من فوق لتحت بزجاجات العطور الحريمي، والرجالي، والإضاءة الخلفية الذهبية تغري البصر وتجعل القوارير تبرق! أصبحت لدينا الآن خبرة جيدة في العطور، نشكر الله. كثرة الشراء تعلم النصاحة. أحتاج زجاجتي عطر فقط؛ واحدة لميلسّا، وواحدة لكلوي.

حريمنا البلدي طيبات ويرضين بقليله. العطور للمصالح، والشوكولاتات للحبايب. نشوف الأول ما هو موجود هنا، والأسعار؟!

زجاجة لونها روزي، من كرستيان ديور؛ ديون إى دي تواليت، مائة ملي، بثمانية وسبعين دولاراً وأربعة وثلاثين سنتاً. في مطار القاهرة بخمسة وسبعين فقط! لكن قد لا تجدها متوفرة أحياناً، أنت وحظك! لرائحتها نكهة اليوسفندي. والياسمين. وخشب الصندل. والليمون أيضاً؛ الليمون أساسي في تركيب كل العطور.

اووو! شانِل رقم تسعة عشر! إى دي بارفان من كوكو شانِل،

زجاجة أخضر فاتح. هذه بالتأكيد لن نجدها في مطار القاهرة! عطر كلاسيكي من شانِل، كلاسيكي جداً! أصبح من النادر العثور عليه في الأسواق الحرة للمطارات! ابتكرته معامل شانِل في السبعينيات. مائة ملي بمائة وتسعة دولارات، تستاهل طبعاً! رائحة معقدة للغاية، تجمع بين النقيضين؛ الرقة والحدة، في هارمونية نادرة! أرقى ابتكارات شانِل في مجال العطور، وأجملها! البخة الواحدة تدوم لعدة أيام متتالية! لها رائحة التربة المبلولة. مع كوكتيل من نكهات الزهور. كلها محضرة كيميائياً في معامل شانِل. وشذى خفيف من رائحة ليمون البرجموت. شاي الإرل جراي بنكهة ليمون البرجموت.

زجاجة فضية؛ كلينك هابي، مائة ملي، بثمانية وعشرين دولاراً.

بخاخة اسطوانية بيضاء، طويلة، بكتابة بناتي بالأحمر، والأخضر، والأصفر، والبني. سبايس ِجرلز، بدي سبراي، مائة ملي، بخمسة وعشرين دولاراً. كامليا ترش جسدها كله بها بعد الاستحمام! تستعملها كمزيل للعرق! غنية؛ مزيل عرقها بمائتي جنيه مصري! وهي أصلاً تستهلك الزجاجة الواحدة في حمامين أو ثلاثة! بترش نفسها من فوق، وتحت، وورا، وقدام. عندها ستوكات منها، خزين! لها مزيج من رائحة الفانِليا، واليوسفندي. وربما الفلفل الأحمر أيضاً!

زجاجة بيضاء، بعنق أسود طويل، وعلى صدرها مكتوب

ديرت؛ بلون التراب.ديرت من ديميتر. كولون سبراي، ثلاثون ملي، بعشرين دولاراً.

قارورة ذهبية بعنق ذهبي وسائلها ذهبي. بويم، من لانكوم باريس. مائة ملي، باثنين وسبعين دولاراً. من العطور الغالية! شممتها عدة مرات في الأسواق الحرة، من باب المعرفة بالشيء. ميزت فيها رائحة العنبر. وزهور لا أدري ما هي؟!

قارورة زرقاء حالمة عليها كتابة فضية. دافيدوف كول وتر فور ِوِمن. مائة ملي، بثلاثة وعشرين دولاراً. قارورة منفوخة من أسفل ومسحوبة لأعلى على ضيق حتى الغطاء.

هذه شكلها غريب! جسد برتقالي لامرأة بمايوه البحر، وبلا قدمين. جان بول جولتييه كلاسيك. مائة ملي، بتسعة وتسعين دولاراً! غالية جداً! هذه لا أعرفها. غطاؤها؛ رقبة المرأة، فضي معدني. عبوتها الخارجية بجوار الزجاجة؛ علبة صلصة قصديرية فضية! هذه لا أعرفها!

نجمة زرقاء لامعة، خماسية الأذرع، ترتكز على ذراعين من الأذرع الخمسة. إنجل، من تييري ماجلر. مائة ملي، باثنين وستين دولاراً. غطاؤها ذراع من الأذرع الخمسة. هذه أعرفها؛ عطر شوكولاته. وكراميل. وعسل وليمون. هات بسكوت وغمس!

وهذه القارورة الفضية ذات الزجاج المغبش، مثل جورجيو

أرماني أكوا دى جيو، أعرفها! سي كى ون، من كالفن كلاين. مائة ملي، بخمسين دولاراً. لها رائحة البنفسج، والليمون. وشذى خفيف من المسك. نشكر الله أننا اشترينا زجاجتي جورجيو أرماني أكوا دي جيوا من مطار القاهرة قبل ركوب الطائرة، عندنا بثلاثين دولاراً، وهنا أغلى بخمسة دولارات! الزجاجتان ستكفياني لعام تقريباً، ونضع منها في كل خروجة. العطور ماركات، والماركات تحدد المستويات. ُتكسب الاحترام. كالساعة، والحزام، والحذاء بالنسبة للرجل. الحياة مظاهر في مصر وجميع أمعاء العالم.

آاا، ها هي! نينا رتشي فاروتشي إى دي بارفان من نينا رتشي. خمسون ملي بسبعة وأربعين دولاراً وأربعة وسبعين سنتاً. ما هذا الرقم الغريب!

في مطار القاهرة بخمسة وأربعين فقط، لكن قد لا نعثر عليها هناك، ونقع في حيص بيص! الأفضل أن نشتريها من هنا لكي نكون في الأمان. مش فارقة كتير!

مرة قرأت في مقال أن عمرها من عمري! نزلت السوق عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين. عام النصر!

خوخ. ويوسفندي. وليمون. وقرنفل. وياسمين. وعنبر ،وخشب الصندل، ومسك. تستاهل ثمنها! ابتكار معقد من نينا رتشي. رائعة! قارورة زجاجية منفوخة من أسفل، ومسحوبة

لأعلى على ضيق، بغطاء معدني ذهبي، وسائلها أصفر كهرماني. أحفظ شذاها، وأحفظ شكلها. محفوظة في عبوتها الكرتونية الحمراء، الأحمر يجذب الزبائن. لا يعرضونها خارج عبوتها. العطور مقامات، والمقام محفوظ داخل العلبة، واللي يعرفها يشتريها وهوّ مغمض!

لكلوي، هي تعشقها. وفي حدود الميزانية.

مد محب يمناه، وأخذ بسرعة العبوة الثانية؛ المختفية خلف العبوة الظاهرة للعيان، من عطر نينا رتشي فاروتشي، وقد شعر بأنه لو تأخر قليلاً لنفدت العبوات الموجودة، مع شعور مؤكد بأنه لن يجدها، يقيناً، في مطار القاهرة. قبضت عليها راحته، ثم احتضنتها في بطنه لبضع ثوان، شاعراً بالنصر. ثم وضعها واقفة في سلة المشتروات. وتحرك خطوتين لليمين، وأجال بصره في باقي قوارير العطور.

آاا! جوتشي رش! رأيتها في حقيبة كامليا، قالت إنها نزلت السوق الأمريكية العام الماضي فقط! لم تنزل بعد إلى مصر، ولا حتى في السوق الحرة المصرية. ابتكار عطري حديث بنار الفرن! تقول إنها أصبحت موضة الثريات في أمريكا.

عبوة صندوقية، قرمزية، مبططة تشبه شريط الفيديو. شكل لافت جداً! واللون شهي يفتح النفس! بساطة تصميم العبوة مدهشة في الحقيقة! عبقرية البساطة. عبقرية السذاجة.

مائة ملي بثلاثة وأربعين دولاراً. شممتها على كامليا، وتناقشنا في رائحتها؛ كوكتيل زهور، مع سيطرة الياسمين. وهناك شذى فانليا. وطبعاً ليمون! ضحكتْ كثيراً عندما قلت لها إن أنفي يميز في شذاها رائحة الكسبرة! قالت: أقوم اعملك ملوخية! أكدت لها أن أنفي فعلاً يميز في شذاها رائحة الكسبرة، وأن هذا يهيجني كثيراً! سكسي، يللا نعمل واحد. ربما ما يهيجني بعد أكل الملوخية رائحة الكسبرة، لا الملوخية نفسها! أحمد فرحات لا يرى بائعة خضرة إلا ويقف ليشتري منها! حتى لو مش محتاج! وأنا أضحك وأقول: إنت بتهيج على الخضرة يا احمد!

مد محب يمناه، وتناول عبوة جوتشي رش الصندوقية القرمزية، الثانية، المختفية خلف العبوة الظاهرة للعيان؛ المفتوحة علبتها والموضوعة بجوار صندوق عطرها، وقد شعر بأنه لو تأخر قليلاً لنفدت العبوات الموجودة، مع شعور مؤكد بأنه لن يجدها يقيناً في مطار القاهرة. قبضت عليها راحته، واحتضنتها في بطنه لبضع ثوان، شاعراً بالانتصار. ثم وضعها واقفة في سلة المشتروات، إلى جوار عبوة نينا رتشي فاروتشي. رفع يسراه قليلاً بحرص، ونزل ببصره إلى معصمه، ونظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وثلاث وعشرون دقيقة.

أنزل يسراه إلى جواره، وتحرك بحرص؛ خشية أن تنقلب

زجاجتي العطر، عائداً إلى واجهة تربيعة هاينمان ديوتي فري؛ إلى حيث دولايب الخمرة. دولاب التسعة عشر دولاراً وتسعين سنتاً إلى يساره الآن، على بعد خمس خطوات، يتلوه دولاب خمرة الخصم ثلاثون بالمائة.

من الحكمة أن نعطي ميلسّا النينا رتشي فاروتشي، ونعطي كلوي جوتشي رش؛ لسببين يا معلم! الأول، أن نينا رتشي فاروتشي هو عطر كلوي المفضل، وبالتأكيد لديها منه زجاجة أو أكثر، وسيكون من الرائع بالنسبة لها أن تجرب جوتشي رش. خصوصاً وأنه حديث جداً في السوق، نزل أمريكا ولم ينزل مصر ولا الشرق الأوسط بعد.

أما ميلسّا فأمريكية ودائمة السفر هي وأصدقاؤها لأمريكا، ولابد أنها جربت جوتشي رش، وستفرح كثيراً بزجاجة نينا رتشي فاروتشي الكلاسيكية الأرستقراطية. الأمريكيات ضعيفات أمام كل ما هو كلاسيكي وأرستقراطي! وكلوي مثلها مثل كل الإنجليزيات؛ ضعيفة أمام الموضة، خصوصاً لو كانت وارد أمريكا!

هذا كلام عظيم!

والأهم يا ريس، أن نينا رتشي فاروتشي خمسين ملي بسبعة واربعين واربعة وسبعين، وجوتشي رش المية ملي بتلاتة واربعين، يبقى الأغلى يروح لمين يا باشا!

عذراً كلوي، لكن ميلسّا تكسب!

هدية الإنسان ترحب له وتهديه إلى أمام العظماء. الهدية حجر كريم في عيني قابلها حيثما تتوجه تفلح. نحتاج منحة الدكتوراه بشدة، ستنقلنا نقلة عظيمة!

خسارة أن ميلسّا ليس لها في صنف الرجال، وإلا لكنا عملنا معها أحلى شغل، وأريناها الفرعوني الأصلي! خسارة الحلو ما يكملش!

ورغم أنها تعلن ذلك صراحة، لكنك تجد بلهاء وحمقى يحاولون معها! لماذا الغباء! ما الهدف من مطاردة لِسبيان! حتى لو استطعت إجبارها على معاشرتك، بالقوة أو بالاغتصاب مثلاً، ما هي المتعة في ذلك وأنت متأكد من أنها تكره معاشرة الذكور! ناس غريبة والله، حاجة قذرة!

صحيح أن الاغتصاب أعلى درجات المتعة، ولكن الاغتصاب الذي هو نصف تواطؤ، نصف اغتصاب. نص تواطؤ ونص ممانعة، على وزن نص فقر ونص وطنية! ولكن الاغتصاب؛ الذي هو اغتصاب اغتصاب، ما المتعة في ذلك!

ميلسّا صفعت تلفيق شرور على وجهه أمامنا جميعاً. يستاهل، مخبر وأهبل! مع أننا قلنا له إنها لِسبيان، حمار! لماذا يشغلون هؤلاء المقرفين مرشدين!

هم أصلاً لا ينتقون إلا الحمقى والمقرفين كمرشدين!

الكل يعلم أنه مرشد. كنت أظن أنه مادام الجميع يقولون عنه مرشد، فالأغلب أن لا يكون كذلك؛ لأن المرشد لن يسمح لنفسه بأن يكون مفضوحاً لهذا الحد، والأهم أن الأمن لن يسمح بأن يكون مرشده مفضوحاً إلى هذا الحد! لكن نعمة الله أكدت الأقاويل! زوجته نفسها. طليقته. باحت بالسر لأصحابها اليساريين؛ يكتب تقارير عن زملاء العمل، والأصدقاء، والمعارف. كتب تقريراً للأمن عن نعمة الله نفسها، زوجته! الوسخ! أوسخ منك ما فيش! يشي بزوجته، أم أولاده، للأمن! كيف تحتمل نفسك يا حثالة! الحثالة التي هي أقل من الزبالة. يفرزون الزبالة، فيأخذون النفايات الصلبة على جنب، والنفايات البلاستيكية على جنب، ونفايات الزجاج على جنب، والنفايات العضوية على جنب، ثم يتبقى في الآخر كومة غريبة مقرفة، غير معروف كنهها؛ هذه هي الحثالة! حلها الوحيد أن ُتحرق، أو أن تدفن في باطن الأرض! تلفيق شرور حثالة. حتى لو شرب المحيط كله، كيف يمكن أن ينسيه أنه كتب يوماً تقريراً عن زوجته! جرسة! ينتحرون في اليابان لأتفه من ذلك بكثير، لكن جلد ابن الوسخة لابد وأن يكون ثخيناً! جلد المرشد ثخين جداً؛ حتى يحتمل نفسه أمام نفسه. من مؤهلات العمل، أهم المؤهلات، أولها! وخطابه التبريري لابد وأن يكون حاضراً دائماً، وقوياً. كيف يبررون لأنفسهم الوساخة؟! ماذا يقولون لأنفسهم؟! من الشائق جداً معرفة خطابهم التبريري.

وقف محب أمام دولاب خمرة التسعة عشر دولاراً وتسعين سنتاً.

دولاب بثلاثة عواميد متلاصقة، وسبعة أرفف في كل عامود، صفوف من خمور العالم. أطول من قامتي برف تقريباً.

أخذت عينا محب تستعرضان ما يعرفه، وما لا يعرفه، من زجاجات الخمور العالمية.

فودكا دانزكا الدنماركية في قارورتها الألومنيوم الشيك. مايزال لدينا في دولاب الخمور في العوامة واحدة سادة بالكتابة الحمراء على بطن القارورة، وأخرى بالليمون بالكتابة الصفراء على بطن القارورة.

ويسكي ِرد ليبل. اشترينا زجاجتين من محل خمور أمام فندق جينيريتور، كان عليهما عرض خاص؛ تخفيض، وكوب زجاجي بشعار ِرد ليبل، وملعقة تقليب بلاستيكية هدية من شركة ِرد ليبل. في علبة شيك. بما قيمته ثلاثون دولاراً فقط.

ماذا يوجد هنا أيضاً؟ زجاجات فودكا ثلاثمائة وستون. فودكا أبسلوت. روم أدميرال نلسون. بوربُن ِجم بم واحد لتر. بوربُن وايلد تيركي سبعمائة وخمسون ملي. روم أتلانتيكو بلاتينو. ِجن أفياشن أمريكان. ويسكي ِجنجِرز آيرش. روم بكاردي ثمانية. بكاردي موخيتو. بكاردي سوبيرير. كل هذا بتسعة عشر وتسعين، جميل!

ويسكي بارتون آيرش. بوربُن بنشمارك. بج.ِجن لندن دراي. ويسكي بيرد دوج أبل. سكوتش بلاك آند وايت.ِجن بومباي. ويسكي بلاك فلفت كانيديان. فودكا بورو. ويسكي بوني روز.ِجن بُولدوج.ِجن بُولي بُوي.ِجن دامارك. فودكا ديب إندي. ويسكي باشملز آيريش. وحشتنا المكرونة الباشامل باللحمة المفرومة! روم كاليكو جاك. سكوتش كتي شارك. روم كاليبسو. ويسكي كندا هاوس. روم كروزان. ويسكي كندا كلوب.

يااااه! بكاردي مائة وواحد وخمسون! في زجاجة سبعمائة وخمسون ملي. مائة وواحد وخمسون هي درجة قوة السُكْر. القوة المعيارية للكحول. نقسم على اثنين؛ فينتج النسبة المئوية للكحول في المشروب. خمسة وسبعون ونصف في المائة. من أقوى الرومات في العالم! يفوقه روم سانست؛ نسبة الكحول فيه أربعة وثمانون ونصف في المائة. لكنه غال، لن يعرضوه هنا بتسعة عشر وتسعين، إلا ربما المائتي ملي منه.

آاا، يا عيني يا عيني، هوّه ده الكلام يا معلم! سبريتوس ركتيفيكواني مائة وتسعون! وكمان لتر كامل! ده إيه الهنا ده! مشروب بولندي؛ لا هو ويسكي، ولا فودكا، ولا تيكيلا، ولا روم، ولا براندي، ولا ِجن، ولا أي شي! كحول فقط! كحول صاف مقطر. ليس له تصنيف آخر! وليس له طعم، إلا طعم الكحول. خطير جداً! لا يُشرب إلا مشعشعاً. الكحول الصافي لا يشرب صافياً، إياك! علامات التحذير تملأ الزجاجة؛ من فوق، ومن تحت، ومن الصدر، ومن الظهر! قابل للاشتعال. مضر

بالصحة. لا يُشرب سِك. يتعين خلطه مع مشروبات أخرى وصنع كوكتيلات منه. عصير برتقال، أو عصير طماطم، أو سفن أب، أو حتى إضافة القليل منه إلى كأس من مشروب آخر خفيف؛ لزيادة قوة السُكر. ليس أكثر من عشرين ملي بأي حال من الأحوال! كحول صاف مقطر. غريب أن يوجد هنا! لا تعرضه معظم مطارات العالم في أسواقها الحرة، يوجد فقط في محلات الخمور الكبرى في العواصم الكبرى. ويسمعك البائع خطبة طويلة عريضة من النصائح وأنت تشتريه. مشروب بولندي. من أفضل ما صنعت بولندا. السيارة البولونيز سيئة جداً وكريهة!

آااا، اوبا، يا سيدي يا سيدي! النهارده يوم السعد ولا إيه! إفر كلير! إفر كلير الأمريكاني! مائة وتسعون درجة، يعني خمسة وتسعون بالمائة تركيز الكحول. لتر كامل بتسعة عشر دولاراً وتسعين سنتاً! هذا ما يجب شراؤه يا معلم!

زجاجتان؛ واحدة لي، وواحدة لسامح. كان نفسه فيها من زمان!

زجاجتان من إفر كلير، أفضل من أن نأخذ زجاجة إفر كلير، وزجاجة سبريتوس ركتيفيكواني. جربت الاثنتين. رغم أن نسبة الكحول المذكورة على كل منهما واحدة، إلا أنني أحسست بأن إفر كلير أقوى سنة! ربما البولنديون يغشون! وربما لأنني جربت إفر كلير أولاً. نشتري الأمريكاني بدون تردد. ثم إن زجاجة

سبريتوس ركتيفيكواني اشتراكية جداً! تشبه زجاجات فودكا التموين التي كانت توزعها الحكومة السوفيتية على البطاقات قبل الانهيار! شبه زجاجات المياه المعدنية، ليس لها أية شخصية. يا جماعة اتعلموا من الأمريكان، شوف قزازة إفر كلير عاملة ازاي!

تدعوك لشرائها حتى ولو لم تكن شرّيب! مغرية! كحلي، في قرمزي، في أسود، في أصفر. القرمزي يجذب! وعلى صدرها كوز ذرة أحمر وسط شراباته الخضراء. كحول إثيلي مقطر، ومعاد تقطيره مراراً. كحول طبيعي. كحول نباتي. تحذير على يسار كوز الذرة؛ قابل جداً للاشتعال، يتداول بعناية.

مرة عمّرت منه ولاعة زيبو بدلاً من البنزين!

إن أخذت منه شفطة، وبصقتها على عود كبريت، فستنفث ناراً من فمك مثل التنين!

على يمين كوز الذرة تحذير؛ الشرب منه زيادة يعرض صحتك للخطر. قائمة تحذيرات طويلة أسفل الزجاجة. لا تعرضها للنيران. إحفظها بعيداً عن الحرارة. لا تشرب منها بإفراط. غير مخصصة لأن تشرب صافية بدون تخفيف. التحذير مكرر عدة مرات، في عدة أماكن على الزجاجة. التكرار يعلم الحمار، والحمير كثر!

أول مرة شربت منها جرعة صغيرة، شعرت بحريق في

حلقي! سعلت بشدة، وشعرت كأني أختنق وغير قادر على التنفس! وسالت سيول من السوائل وانهمرت من عينيّ وأنفي! وعرق غزير شرّ من فروة رأسي! وآلمتني معدتي كثيراً؛ كأن بها حريق، وشعرت كأنني تلقيت لكمة قوية فيها! كحول صاف مقطر يا ابني! هذه ستعجب سامح كثيراً! زجاجة له، وزجاجة لي. سنفعل بها الأهاويل مع البنات! البنات مجنونات بمثل هذه الأشياء! كوكتيلات من إفر كلير. وندعهن يجربنها سِك في الأول، فقط عشرة أو عشرون ملي على الأكثر؛ حتى يجربن الإحساس، إحساس الكحول الصافي، من باب المعرفة بالشيء. ثم الحياة كوكتيلات يا معلم!

تناولت يمنى محب، سريعاً، من على الرف الثالث زجاجتين من كحول إفر كلير، بالتتابع، كانتا مختفيتين خلف الزجاجة الظاهرة للعيان، وقد شعر بأنه لو تأخر قليلاً لنفدت الزجاجات الموجودة، مع شعور مؤكد بأنه لن يجدها، يقيناً، في مطار القاهرة. شعر بسعادة الانتصار لأنه لم يعثر عليها في محل الخمور المواجه لفندق جينيريتور. وضع الزجاجتين بحرص، واقفتين على أحد جانبي سلة المشتروات، وهو يزيح بضع قطع من الشوكولاتات كانت في طريقهما.

سبت المشتروات ثقل الآن! أريد فقط شراء شيء آخر، ثم كفى مشتروات، الميزانية خلصت تقريباً! سنعود مفلسين للقاهرة. ومالو! البضاعة الجيدة أفضل من النقود هذه الأيام. خصوصاً في القاهرة! وها نعمل بيها أحلى شغل برضه!

تيكيلا لأحمد فرحات؛ لأنه لا توجد تيكيلا في مطار القاهرة. العامود الأخير على اليمين مصفوفة عليه التيكيلا فقط. ماذا لديهم؟

سايوثا، لتر، ذهبية اللون. دون خوليو، ثلاثمائة وخمسون ملي، زرقاء اللون أشبه بزجاجات العطور. سييرا تيكيلا الفضية، لتر، هذه هي! أحمد يحبها كثيراً. بالقبعة المكسيكية الحمراء غطاءً للزجاجة. يحب أن يتناولها بالملح، وشرائح الليمون. هي في الحقيقة لا تشرب إلا بالملح وشرائح الليمون!

مسكين! نحن الآن في أيام دخول المدارس، اليوم عشرة سبتمبر. ابنتاه في المدرسة الابتدائية. الحمل ثقيل عليه، ويزداد ثقلاً يوماً بعد يوم!

سأكلفه بالمراجعة اللغوية للنشرة العربية الشهرية للمجتمع المدني، لغته العربية ممتازة. فيها مائة جنيه. ومثلها لمقاله الشهري بالنشرة. لكن هذا لا يكفي، مصاريف البنات كثيرة! ابنته الكبرى سما عندها إسهال مزمن! يضطر أحياناً للاستدانة لشراء أدوية الإسهال.

سنجد له شيئاً هنا أو هناك.

آه صحيح، نكلفه بكتابه تقرير حالة المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في المغرب. بجانب حالة الجزائر التي يكتبها كل عام. ستمائة جنيه في التقريرين، حلوين! ونكلفه بالمراجعة

اللغوية للتقرير السنوي كله. أربعمائة جنيه أخرى، حلوين. مسكين!

شرف الدين إسماعيل يكره اليساريين، ويكره الناصريين أكثر. يتململ حين يُذكر اسم أحمد أمامه ويقطب حاجبيه. يشرب من البحر! اللبنانية يقولو يبلط البحر. شغل أحمد ممتاز. وشرف الدين إسماعيل لا يحب أن يغضبني. يستغل قبطيتي أفضل استغلال في شغله؛ كبير الباحثين في المركز عندنا قبطي، يقولها لكل من يقابله هنا وهناك، في الداخل وفي الخارج؛ كبير الباحثين في المركز عندنا قبطي!

آه صحيح! يمكن أن أكلفه بكتابة حالة الأقباط في مصر، في التقرير الجديد الذي سنصدره عن حالة الأقليات في العالم العربي. الوطن العربي. لن يستطيع شرف الدين إسماعيل الاعتراض. شغل أحمد ممتاز. وكونه مسلماً هو الذي سيكتب حالة الأقباط في مصر سيكون شيئاً رائعاً! موضوعية. كتاب المدخل في علم السياسة؛ كتب فصل الفكر السياسي الإسلامي بطرس غالي، وكتب فصل الفكر السياسي المسيحي محمود خيري عيسى.

أستطيع إفحام شرف الدين إسماعيل. أفحمه كثيراً. من أسبوعين صلحت له مصطلح! كان يتحدث عن الحكم الرشيد، وكفاءة الإدارة، ويسهب ويطنب، فقلت له: يا دكتور اسمها الحوكمة! سأل: إيه؟! قلت: بقى اسمها الحوكمة دلوقتي يا دكتور،

جَفرننس. سأل: إمتى ده؟! قلت: لا ده من فترة بسيطة بس! يا كسوفي!

سأصر على أن يكتب أحمد حالة الأقباط في مصر. ثلاثمائة جنيه أخرى. يمكن أن أطلب له أربعمائة وأفاصل. ينفعوه.

يا سلام لو مشي مشروع الأفلام التسجيلية المستقلة! يريحنا كلنا ويحل مشاكلنا؛ أنا واحمد وسامح!

أجال محب بصره سريعاً في ما تبقى من زجاجات التيكيلا المعروضة أمامه.

إل خيمادور، ذهبية اللون، لتر. ألف وثمانمائة ريبوسادو، حمراء اللون، خمسمائة ملي. كامارينا بيضاء، وكامارينا ذهبية، سبعمائة وخمسون ملي. إسبوليون بيضاء، وإسبوليون ذهبية، سبعمائة وخمسون ملي، زجاجة اسطوانية منفوخة؛ مثل حاويات المواد الكيميائية.

التيكيلا ليست رخيصة دائماً، هناك أنواع يصل سعرها إلى مائتي دولار. جران بانزون بلاتينيوم، اللتر يتجاوز سعره المائتين وسبعين دولاراً!

نأخذ زجاجتين من سييرا؛ واحدة لأحمد، وواحدة لي.

وكفاية شرا كده بقى يا ابني، الميزانية!

تناولت يمنى محب، بسرعة، وبالتتابع، من على الرف الخامس للعامود الأخير، على أقصى يمين دولاب خمور التسعة عشر وتسعين؛ زجاجتين من تيكيلا سييرا، ذات القبعة المكسيكية الحمراء، كانتا مختبئتين خلف الزجاجة الظاهرة للعيان، وقد شعر بأنه لو تأخر قليلاً، لنفدت الزجاجات الموجودة، مع شعور يقيني بأنه لن يجدها في مطار القاهرة. أحس بسعادة كبيرة لأن أحمد فرحات سيفرح بزجاجة التيكيلا. وضع الزجاجتين بحرص في سلة المشتروات، واقفتين، وهو يزيح بضع قطع شوكولاته كانت في طريقهما. وراحت عيناه تستعرضان السلة؛ التي ثقلت كثيراً على يسراه.

على جانب، هناك زجاجتا كحول إفر كلير. وفي الجانب المقابل، هناك زجاجتا تيكيلا سييرا. وفي المنتصف، عبوتا عطر نينا رتشي فاروتشي، وجوتشي رش. وخلفهما، باكوان من سبرسو لافازا كريما إى جوستو. وأمام عبوتي العطر، برطمانان من نسكافيه جولد الألماني. ومتناثر حول الجميع هنا وهناك، عشرون قطعة شوكولاته.

راحت يمنى محب ترتب قطع الشوكولاته العشرين في مدرجات متراصة فوق بعضها، بحرص، خشية أن ُتكسر من فوضى البعثرة. وحسبت عيناه، وعقله، سريعاً، وزن البضاعة.

تقريباً في حدود سبعة كيلو، أكثر أو أقل قليلاً.

نقل محب السلة إلى يمناه، مريحاً ذراعه الأيسر الذي تعب. ورفع معصمه الأيسر، ونظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة. يا دوب، نحاسب على الحاجة، ونرجع على مهلنا للبوابة.

حاول بصره أن يتابع باقي الزجاجات، وأسعارها، لكن محب أصر على سحبه، وكان آخر ما رآه زجاجة تيكيلا كوراليخو، خمسون ملي.

أين الكاشيير؟! في الداخل هنا أو هناك، بالتأكيد، في مكان ما بين متاهات دولايب العرض.

سار محب في الممر الرئيسي لهاينمان ديوتي فري، متجاوزاً دولاب خمرة التسعة عشر وتسعون.

أمامنا دولاب العطور في صدر هاينمان مكتوب على أعلى اليمين ِمن وعلى أعلى اليسار ِومِن. تقريباً خمسة عشر أو عشرون خطوة، ثم ننحرف بعده إلى اليمين. يُقال إن السر في الخروج من المتاهات هو أن تواصل الانعطاف لليمين، لليمين در، فتجد نفسك في النهاية وقد خرجت بسلام. هل هو كود سري يحافظ عليه مصممو المتاهات؟!

وصل محب إلى دولاب العطور الكبير في صدر هاينمان.

تجاوزه، وانعطف يميناً.

ممر آخر. طوله تقريباً عشرون خطوة. أو خمس وعشرون. ثم ننحرف يميناً مرة أخرى.

انعطف محب عند التقاطع إلى اليمين. أبصر الكاشييرة جالسة وراء ماكينة التحصيل، في ركن قصي من أركان هاينمان ديوتي فري.

صدقوا فعلاً! الانعطاف لليمين يؤدي للنجاح. اليمين يكسب. يمينك؟ يمينك انت!

اتجه محب، دون أن يسرع، إلى ركن الكاشييرة الشابة الألمانية البيضاء الشقراء، البضة، التي تظهر أصباغ وجهها فاقعة.

مكياجك أوفر يا حلوة!

نشكر الله أنه لا يوجد طابور أمام الكاشييرة! ولو كان؟! لا يوجد هنا عضاضات للأطفال! الولد وسيم دوس قال إنه ينتظر موسم التخفيضات في أمريكا في عيد الميلاد، حتى يشتري كل احتياجاته هو وحنان. ينتظران من الموسم للموسم، ليشتريا بآلاف الدولارات، احتياجاتهما للعام المقبل كله. قال إن الطوابير تكون وقتها أمام الكاشييرات طويلة جداً جداً! مئات من أمثاله ينتظرون موسم التخفيضات، آلاف، مئات الآلاف، ملايين! وهل يُعقل أن

يقف وسيم دوس في آخر الطابور، طبعاً لا! يأخذ عضاضة بيبي، بعشرة سنتات، ويضعها فوق مشترواتهما هو وحنان؛ التي تملأ التريسكل أو التريسكلين، ويتجه ليحاسب فوراً عند الكاشيير، متجاوزاً الطابور الطويل كله! عندهم في أمريكا قانون أن أي شيء للرُضع تحاسب عليه فوراً، ولا تقف في الطابور. اتناشر كيلو بسبوسة، وحتة قشطة قد كده. وطبعاً الزبائن المصطفون في الطابور ينفجرون من الغيظ! القانون يا باشا، قانون ده ولا مش قانون! حقها ولا مش حقها! الفهلوة المصرية. القبطي يكسب! مخ مركب، دهاء ألفي عام. وماذا تفعل بالعضاضات يا عم وسيم؟! قال وهو يضحك إن حنان تحب وضعها في فمها ونحن معاً. حلوة قوي الحكاية دي، مثيرة! نجربها مع نادية. ومع كامليا، ومع كلوي. تبقى تحفة على خديجة التونسية! نجربها أيضاً مع بنات الصيد من أمام العوامة، بنات المرة الواحدة، أو المرتين.

وقف محب وسلة المشتروات في يمناه أمام الكاشييرة، وابتسم قائلاً: جود مورنج. ردت الكاشييرة، الممتلئة قليلاً، ذات المكياج الفاقع، باقتضاب: جود مورنج سير. رفع محب سلة المشتروات بكلتا يديه، سعيداً أنه سيستريح، قليلاً، من السبعة كيلو تقريباً، ووضعها أمام الكاشييرة على منضدة الحساب.

كحل أسود ثقيل، وأحمر شفاه قرمزي كثيف، لا يناسبان إطلاقاً طبيعة العمل، ولا الوقت النهاري! تشبه البنات الشغل اللاتي يقفن أمام العوامة. صدر ممتلىء جداً، جداً، مستبد! يفخر بنفسه تحت البلوزة البنية المحبوكة قصيرة الأكمام. فيها شبه من

فيفي عبده. أقرب للملامح المصرية البلدي.

أخرجت يسرى الكاشييرة المشتروات من سلة محب، بينما راحت يدها الأخرى تضرب على ماكينة الحساب.

اثنان كحول إفر كلير. اثنان تيكيلا سييرا. اثنان برطمان نسكافيه جولد ألماني. علبة عطر جوتشي رش. علبة عطر نينا رتشي فاروتشي. اثنان باكو سبرسو لا فازا كريما إى جوستو. اثنان باكو شوكولاته نسبايسر. اثنان باكو شوكولاته شوسير. خمسة عشر باكو شوكولاته ريتر سبورت.

أصابع يدها اليمنى المدربة ما زالت تضرب على الماكينة، حتى بعد أن أكملت يدها اليسرى المدربة إخراج جميع المشتروات. والآن، تارا را را رام!

قالت الكاشييرة: تو هندرد آند إت، آند إتي فور سنت. وظهر الرقم بالأخضر على الشاشة الرقمية لقفا الحَسّابة، في مواجهة محب. قال محب: أوكى. ودس يمناه في الجيب الخلفي لبنطلونه الجينز السماوي، وأخرج حافظة نقوده. شرعت الكاشييرة في وضع مشترواته في أكياس هاينمان ديوتي فري.

خفيفة ورقيقة، لكنها قوية ومتينة. مكتوب عليها وفر المال. مكتوب عليها أربعون بالمائة من بلاستيك الكيس معاد تدويره. وأكيد مكتوب عليها التحذير الشهير المكرر؛ احفظوه بعيداً عن متناول الأطفال لتجنب خطر الاختناق إلى آخره. الخمرة في

كيس كبير. والعطران في كيس صغير. والبن في كيس صغير. والشوكولاتات في كيس كبير. ثم. ربطت أذني كيس البن، ودسته في كيس الشوكولاتات. وربطت أذني كيس العطرين، ودسته في كيس الخمرة. كيسان فقط الآن، حلو.

ناولها محب مائتي دولار ورقتين، وعشرة دولارات ورقة واحدة. كبست الكاشييرة زر في الحَسّابة، فانفتح درج نقودها.

فاه ماكينة النقود!

وضعت الكاشييرة المائتي دولار الورقتين فوق أخواتها من المئات. والعشرة فوق أخواتها من العشرات. ثم التقطت أصابع يمناها من الدرج، ومن ركن النقود المعدنية، دولاراً وضعته على منضدة الحساب، وراحت أصابعها تفتش في الدرج عن باقي الفكة. قال صوت محب، مع ابتسامة ودية: ثانك يو فري مَتش، بليز كيب ذى تشِنج. نظرت إليه الكاشييرة، وقالت بسرعة، وبلا ابتسامات، وهي تغلق درج نقود الحَسّابة: ثانك يو سير.

رفعت يدا محب الكيسين من على منضدة الكاشييرة. التفت لليمين، وسار بضع خطوات ليخرج من تربيعة هاينمان ديوتي فري. وقف على العتبة، في نهاية سقيفة هاينمان، ووضع الكيسين على الأرض.

بلاط رمادي شديد النظافة واللمعان.

رفع معصمه الأيسر، ونظر في ساعته السايكو الأوتوماتك الفضية ذات المينا السماوية.

الثانية عشرة وثلاثون دقيقة. طابور الركاب الآن مصطف للتحميل. على مهلك، لا داع للعجلة، واحدة واحدة. مائة وعشرون، أو وثلاثون، راكباً سيستغرقون وقتاً! لا يليق بنا الهرولة، نفس خطوتنا المعتادة، نفس الإيقاع.

أنزل محب حقيبة ظهره الهاندباج السوداء من على كتفه الأيمن. فتح سوستتها، وتناول كيس الشوكولاتات والبن من على الأرض، ودسه فيها.

الهاندباج خالية تقريباً، إلا من جواز السفر، وتذاكر الطائرة، وعلبة السجائر، ما تزال تتسع للمزيد.

أغلق محب السوستة. وعلق سير الحقيبة على كتفه الأيسر، وتناولت يمناه كيس الخمرة والعطرين. وشرع في السير بخطى قصيرة باتجاه منفذ واحد لبوابة ثلاثة.

مايزال معنا تسعون دولاراً تقريباً. نشتري بها من مطار القاهرة زجاجة بلاك ليبل، بثلاثين. وزجاجتي كمباري، الاثنان بأربعين. من حقنا شراء ثلاثة أشياء. حقنا ولا مش حقنا!

أموت في الكمباري! ابتكروه الطليان أساساً لعلاج المعدة. يا سلام عليه بالسفن أب! وممكن بشوية إفر كلير، يا سلام يا سلام!

والبلاك ليبل للمناسبات. ممزوجاً بالكوكا كولا. إن أحببنا أن نحتفل، أو نكافىء أنفسنا، في يوم ما.

صار عندنا دولاب خمرة ممتاز في العوامة. أفضل من النقود مائة مرة! لم تعد النقود تعني شيئاً في القاهرة الآن بعد الغلاء الذي يتفاقهم يوماً بعد يوم. تضخم في الأسعار، وركود في البيع والشراء، اقتصاد مشوه! ركود تضخمي. رفيع وتخين، طويل وقصير. عقليات التخطيط المركزي تدير اقتصاداً حراً!

موظف الجمارك في مطار القاهرة سيفتح حقيبة السفر ويرى زجاجتي الِرد ليبل العرض الخاص، وأربع زجاجات خمرة في كيس هاينمان ديوتي فري من مطار هامبورج، وثلاث أخريات في كيس السوق الحرة لمطار القاهرة. سيتساخف! ها يبص من فوق لتحت! وقد يحاول إحراجنا! آخر مرة وأنا راجع من تولوز، فتح موظف الجمارك حقيبة السفر ورأي هدمتين فقط والباقي زجاجات خمرة. أشار إلى الزجاجات باستنكار واشمئزاز، وقال: إيه ده كله، بتاجر فيهم! قليل الأدب! أشرت للخمرة بيدي اليمنى، والوشم في اتجاه نظره، وقلت: ده للاستخدام المنزلي، دي خمرة كل يوم، إحنا متعودين ناخد كاس مع الغدا. انقبضت ملامحه لما شاف الصليب؛ كأنه شم رائحة بيض فاسد، أو سمك معفن! المعفنون، يظنون أن الشرب مباح في المسيحية، وأن الكنائس مملؤة بالخمور. يشرب من البحر، يبلط البحر! مطرح ما يحط راسه يحط رجليه. حقي! حقها ولا مش حقها!

صديقي الدلفين الباسم، خذ بالك من نفسك، نتمنى أن تصمد لمليون عام قادم، وعندئذ ستحل مشاكلك مع البشر من تلقاء نفسها! زوالنا أمر حتمي. إلى اللقاء يا صديق البحارة.

طابور الركاب قد اصطف فعلاً. منظمون هنا، وسيظلوا منظمين حتى يستقلوا الطائرة، ولكن حين ندخل الأجواء المصرية ستبدأ الفوضى! يقفون في ممر الطائرة، ويشرعون في إنزال الهاندباجات من الأرفف، ويبدأ الصياح والهرج والمرج. كأن هناك فيرساً في الأجواء المصرية، فيرس الفوضى! يستعجلون النزول لأرض المطار! ليه جاتكم نيلة، الفوضى وحشتكم قوي!

يا خسارة! لا حظ لنا اليوم! البنت الألمانية الحلوة قارئة الكتاب واقفة مع ولد ألماني في الطابور. صديقها؟! أين كان مختفياً؟! في الحمام؟! أم حضر متأخراً؟!

ولد معفن، ببنطلون جينز أزرق باهت ومنحول، نحيف، وغالباً معمص العينين! البنات الحلوة تنجذب للأولاد المعفنة، والبنات المعفنة تنجذب للأولاد الحلوة. قانون التجاذب المغناطيسي؛ الأقطاب المتشابهة تتنافر، والأقطاب المتنافرة تتجاذب. مرة فرج فودة، الله يرحمه، قال لي في مكتبه، قبل أن يغتالوه، إنه رأى وهو عائد من مطار قرطاج ملكة جمال تونسية تقف مع ولد معفن ويعاملها أسوأ معاملة! ثم قال حكمته العظيمة؛ عامل ملكة الجمال كأنها خادمة، وعامل الخادمة كأنها ملكة

جمال. الله يرحمه.

وقف محب في آخر طابور الركاب، وكان يفصله عن الألمانية الشقراء وصديقها، أربعة ركاب. نظر بقوة، وإلحاح، إلى جسدها من الخلف، والطابور يتحرك ببطء.

أردافها حلوة، مؤخرتها رائعة! الألمانيات يحببن أن يؤتين من الخلف. البنت التفتت، وعيناها لمحتني وأنا أبحلق في مؤخرتها. ابتسم يا ولد، فوراً، وبحلق في صدرها! عض شفتك بمجون. اظهر لها أنك تريدها. بين لها أنك وسخ! البنت حلوة، يبقى بتحب الولد الجريء، الوسخ! حولت عينيها، ونظرت لصديقها. بحلق في صدرها، وستشعر بحرارة نظراتك. إحرقها بعينيك. حلو قوي، التفتت عيناها مستطلعة، من تحت لتحت! رأت الشهوة في نظرتي الوقحة. عض شفتك مرة أخرى. مستغربة من إيه! راجل وسخ ومشتهيكي! لسه فيه أمل، البنت دي ممكن يجي منها على فكرة!

سنحاول أن نجد فرصة.

ممكن يكون صديقها تيس، أصلاً! وممكن يكون مثلي. التوانسة يقولون على المثلي يرحم عمي. لا! يقولون عليه ميبون. أنا على استعداد لأن أقوم بكليكما يا حلوة، بس ترضي! عشان خاطر عيونك نقوم بصاحبك كمان!

هل يا ترى يقصدان القاهرة؟! يا ريت!

بصت برضه من تحت لتحت! إغمز لها، عض شفتك.

الألمانيات متحفظات، عموماً، وغير معتادات على هذه الجرأة. وهذا يثيرهن أكثر! أكاد أشعر من طريقة وقفتها أنها قد بللت نفسها بالفعل!

ُأف! ما هذه الرائحة؟! عيل مسلم شخ! الله يقرفكم! عيل مسلم شخ هناك على روحه!

وطبعاً لا يوجد وقت لكي تأخذه ماما للحمام وتنظفه هناك! ستنظفه في الطائرة، وستصحبنا هذه الرائحة حتى مصر. الله يخرب بيوتكم!

ُأف!

رائحة مطار هامبورج كلها خراء!

نصار

وضعت يمنى نصار قطعة البقلاوة المطوية من جوانبها الأربعة على حشوة مكسرات البندق والفزدق في فمه، وراح يمضغها على مهل مستمتعاً بالطعم اللذيذ للجلاش الطري، ومستحلباً عسل البقلاوة المشرب بنكهة ماء الورد.

لا حاجة لشرب شفطة ماء؛ حلاوة العسل مضبوطة، بلا إفراط ولا تفريط. هادا الزلمة إبن صنعة! حلوياته أفضل كثيراً من حلويات المحال الكبرى. أفضل حلويات في القاهرة تأخذها من عربات الشوارع، وأطيب فول، وأحلى سندوتشات كبدة وسجق، وأشهى كشري. مازال لدى أصحاب عربات الشوارع ذمة. الذمة معدومة في مطاعم القاهرة!

ولا مرة أخذت حلويات من عنده وأصابتني حموضة بعد الأكل! إبن صنعة شاطر وعنده ذمة.

يقولون اللي بنى مصر في الأصل كان حلواني. جوهر الصقلي كان حلوانياً، صنايعي حلويات في صقلية.

يعرفون صنعتهم جيداً، لكنهم يغشون كثيراً، وبلا ذمة! من بنى مصر في الأصل كان حلوانياً، وأحفاده الآن خرتية؛ يعيشون

من رزق إيورهم! مصاحبة السواح؛ السائحات والسائحون، إيور للسائحات، وإيور وأستاةٌ للسائحين. المجد للإله مين!

في أوقات الأزمات، يعيش الرجال على إيورهم، والنساء من فروجهن. وكيف يمكن للإنسان أن يعيش إذا كانت باقي الطرق مسدودة! الإيور تفتح الأبواب المغلقة، والفروج تفتح أبواب الفرج، قديماً وحديثاً، هنا وفي كل مكان. وموجود بقوة في أدب نجيب محفوظ، خصوصاً في الفترة الواقعية. محجوب عبد الدائم في القاهرة الجديدة. وحسنين في بداية ونهاية. وحميدة. وإحسان. ونفيسة؛ عظيمة نفيسة! ورضوان في السكرية؛ اللهم صلي وسلم على سيدنا لوط! الترقي الاجتماعي بواسطة الإير والفرج. نوع من أنواع المصاهرة! والترقي عن طريق المصاهرة جزء لا يتجزأ من التاريخ الاجتماعي للقوة.

تاريخ مصر ليس أحداثاً متعاقبة، بقدر ما هي مُضَفَّرة. هي الآن تشبه نفسها في الثلاثينيات والأربعينيات في أعمال محفوظ؛ الحرب العالمية الثانية، والأزمة الاقتصادية الكبرى، والكساد الكبير. الخراب، وانسداد أبواب الأمل. كالدجاج نلتقط رزقنا من بين القاذورات، ولكن لا حياة إلا بالإذعان!

التقطت أصابع نصار اليمنى إصبع كنافة سيجار، من الطبق الكرتوني للحلويات الشرقية المشكلة، الذي أمامه على طاولة المقهى، والذي شارف على النفاد. دس الإصبع بكامله في فمه، وراحت أسنانه تلوكه على مهل، مستمتعاً بالطعم اللذيذ للكنافة

المقرمشة التي تشر عسلاً مشرباً بنكهة الليمون.

لا حاجة لشرب شفطة ماء، حلاوة العسل مضبوطة بلا إفراط ولا تفريط. الزلمة إبن صنعة خبير في فنه، حفيد جوهر الصقلي حلواني صقلية.

تأملت عينا نصار رواد المقهى، الجالسين على جانبي الممر، المزدحم بالطاولات والكراسي، حتى آخره المفضي إلى شارع ستة وعشرين يوليو.

هذا المصطفى طالب في طب أسنان. متخصص في الفرانكفونيات. درس في الليسيه فرانسيه، ويجيد الفرنسية كالباريسيين. يصادق الفرنساويات، والبلجيكيات، والكنديات. المقيمات، والسائحات. السائحات السائحات وما أدراك ما السائحات!.

وهذا العلاء، حكى سامح أنه حصل على منحة من وزارة الثقافة المصرية، للإقامة سنة كاملة في روما، في الأكاديمية المصرية في فيللا بورجيزي، وعلى نفقة الحكومة المصرية؛ لكتابة رواية ما، ثم عاد بعد السنة الإيطالية دون أن يكتب حرفاً واحداً! واعي، عرف الطريق أخو الشليتة! صادق وكيل وزارة الثقافة؛ المسؤول عن منح المنح. إمنحني أمنحك، وصلي وسلم على سيدنا لوط!

رفع نصار معصمه الأيسر، ونظرت عيناه في ساعته

الستيزن الذهبية ذات الأسورة الجلدية البنية.

الخامسة إلا أربع عشرة دقيقة.

الموعد مع سامح كان في الرابعة، تأخر كثيراً! ليست عادته! أتيت متأخراً نصف ساعة، حاملاً هم أن أعتذر له عن التأخير، وهو لم يصل حتى الآن بعد! ربما زحمة المواصلات. لكن المسافة ليست طويلة من الزمالك إلى باب اللوق، ثم إن ساعة الذروة انتهت، والموظفون والطلبة عادوا لبيوتهم!

المرور في القاهرة رهيب! أول مرة نزلت فيها القاهرة ورأيت حركة السير في الشوارع، فزعت! هذا ليس مروراً، هذا جيش مهزوم ينسحب في حالة فوضى!

أول ما يلفت نظر الزائر الجديد هو فوضى المرور. وكثرة عربات الأمن المركزي في الشوارع والميادين. وواجهات محلات الأجهزة الكهربائية التي تعرض شاشات تلفزيون متراصة فوق بعضها البعض، وكلها تعرض نفس القناة! وإذا دخلت أحد البنوك فستُصدم بالوقت الطويل جداً الذي يقضيه المصاروة لإجراء أي معاملة بنكية تافهة!

جيش مهزوم ينسحب في حالة فوضى!

تناولت الأصابع اليمنى لنصار فنجان القهوة المضبوط، ورشف منه آخر رشفة. أتبعها بشفطة مترعة من كوب الماء،

الذي شارف على النفاد.

قهوة سيئة! القهوة عموماً سيئة هنا في المقاهي، بن سيء! يقدمون للزبائن أردأ أنواع البن في العالم! معطن، ومغشوش. الذمة معدومة!

تناولت يمنى نصار كوب الماء، مرة أخرى، ورشف منه آخر رشفة، ليزيل طعم البن الرديء الباقي في فمه، ثم أعاد الكوب الفارغ، وراح يتمضمض جيداً؛ غاسلاً فمه، ومهيئاً إياه لاستقبال طعم جديد. تناولت يمناه آخر قطعة من البقلاوة المحشوة بمكسرات البندق والفزدق، ودستها في فمه، وراحت أسنانه تلوكها، على مهل، واستمتع بلذة الجلاش الطري، وحلاوة عسل البقلاوة المشرب بنكهة الورد. أجال نظره في ممر المقهى، مستعرضاً، من جديد، زبائن وقت العصر، المتراصين على صفي الموائد حتى شارع ستة وعشرين يوليو.

هاداك أخو الشليتة ابن مكوجي. متزوج حديثاً من صبية يابانية. يعمل سمساراً للشقق المفروشة، وتاجر عملة، ويعلم الله ماذا أيضاً!

وهاداك الأزعر، أبو أربع عيون، يحاول امتهان الصحافة، ويسعى للحصول على عضوية نقابة الصحفيين، ويقدم صديقاته الأجنبيات للصحفيين في النقابة!

وهاداك مساعد مخرج يعمل في السينما؛ مشهور بكفاءة

النكاح! عليه طلب شديد من الأجنبيات المقيمات، خصوصاً الفرنساويات. يعشقن الجنس، والإيور الكبيرة.

وهاداك الأزعر متخرج من الفنون الجميلة، ويحاول دخول المجال هو أيضاً! قد وصل من سعى! يقدم خدماته المجانية في رسم البورتريهات، والتقاط الصور الفوتوغرافية للأجنبيات، على أمل مصاحبتهن. ما يزال في بداية الطريق! يجلس إلى طاولة نبيل صاحب بازار التحرير.

نبيل من كبار خرتية القاهرة، وله تلاميذ كثر. ونعم التلمذة، التعلم على يد أستاذ الأساتيذ!

حكى سامح أن نبيل ليس محتاجاً للمصاري، يمارس الخرتنة، فقط، من باب النزاهة! النزاهة، والصحبة الحلوة، والتعرف على الثقافات الأجنبية. ويصرف من جيبه الخاص على الأجانب، حين يخرج معهم. قال سامح إنه يجيد العبرية. قال إن إسرائيلي دخل مرة عنده البازار بصحبة زوجته، وحاولا إخفاء جنسيتهما عنه، فتحدث معهما نبيل بالعبرية، وأقنعهما بأنه يهودي مصري، وأنه سعيد بمقابلتهما لأنه يعرف أنهما إسرائيليان، ففرح الأبلهان، واعترفا له بأنهما إسرائيليان فعلاً، وصدما صدمة العمر، عندما فوجئا به يجري وراءهما صائحاً: إطلعوا بره المحل يا سفاحين يا اولاد الكلب! فهرعا من البازار راكضين مذعورين.

لكن هؤلاء جميعاً خرتية مؤقتون! ليسوا محترفين، كلهم

مؤقتون؛ يمارسون الخرتنة إضافة إلى عملهم الأصلي.

نبيل صاحب بازار. هشام فنان تشكيلي ومصور فوتوغرافي. شوقي مساعد مخرج في السينما. فادي صحفي تحت التمرين. عياد سمسار شقق مفروشة وتاجر عملة. علاء يقدم نفسه بوصفه روائياً، ولا أظنه أكمل، ولو حتى، ربع رواية على بعضها طوال حياته!

وسامح سيناريست. ومحب باحث، ومعه ماجستير في الاقتصاد السياسي.

لكن أخو الشليتة، ابن الحرام، رجب الجاهل، خرتي من نوع آخر؛ خرتي محترف!

كان صبحي محمود؛ شهبندر الخرتية، يسرحه كل يوم الثامنة صباحاً من ميدان طلعت حرب، لاصطياد الأجانب. الحربوق أخو الشرموطة ترقى الآن وصار يصاحب الصبايا الأرقى؛ من اللاتي يقمن في القاهرة للدراسة أو البحث! لكنه كان، ومايزال، من الخرتية المحترفين الذين يكرسون مجمل نشاطهم للخرتنة، وليس لهم نشاط آخر!

ربما لا يكون ذلك صحيحاً على نحو دقيق، فابن الحرام يعمل مرشداً للأمن، في النهاية! إذن لديه عمل إضافي بجانب الخرتنة، ومن يدري، فربما كانت الخرتنة وسيلة فقط! ربما تم تجنيده قبل أن يصبح من صبيان صبحي محمود! المهم، في كل الأحوال،

أنهم وجدوا فيه عجينة مهيئة للعمل كمرشد جاسوس ابن حرام!

الأمن المصري يحتاج للدخول في أوساط الأجانب المقيمين هنا؛ ليعرف من هم، وماذا يفعلون؟! وأفضل من يتسلل لتلك الأوساط، بسهولة، وكفاءة، ودون لفت نظر، هو الخرتي. وأخو الشرموطة يظن أنه أذكى من الجميع وأنني لم أكشفه! لا يمكن اللعب على فلسطيني يا ابن الحرام!

عبث في محتويات دولابي، وهو عندي في البيت، ويظن أنني لم ألاحظ! الحس الأمني عند الفلسطيني يا ابن الكلب يا حربوق!

ومع ذلك، لايزال يتحرك مطمئناً، بلا خوف! طبعاً، أمن الدولة يحميه!

غالباً يراهن على أنني فلسطيني، وسأخاف من تعريض نفسي للمشاكل مع الأمن المصري. مشاكل في غنى عنها. وحيد في القاهرة بلا ظهر، ولا سند، وأسهل شيء عندهم هو اعتقالي ورمي في الحبس! ولو حتى لبضعة أيام، ليعلموني الأدب! وربما قاموا بتعذيبي وأنا محتجز. يكفي العذاب النفسي في الحبس!

ورغم ذلك، ألمحت لسامح بأن يحتاط منه ويأخذ حذره. ابتسم وقال وافرض فعلاً أنه مرشد، ما المشكلة؟! ليس أولهم، ولا آخرهم. هذه مهنة، مثل أي مهنة أخرى، ومن أقدم المهن في التاريخ؛ هي، والبغاء، وفي النهاية يفعل كل إنسان ما يستطيع

فعله لكي يظل على قيد الحياة، هذا هو واجبنا الأساسي على الأرض، ونتمنى فقط أن يذكر في تقاريره الحقيقة، وعندئذ لن يكون هناك أية مشكلة. قلت له أية حقيقة تعنيها يا أخ سامح! يا عمي ليس هناك شيء اسمه الحقيقة، هناك فقط وجهات نظر! زوايا مختلفة لرؤية نفس الشيء. حكيت له أنه بعد اغتيال إبراهام لينكون، استجوبت الشرطة الأمريكية ألفاً وخمسمائة شاهد، فلم تأت شهادة أي اثنين منهم متطابقة! وسلم لي على الحقيقة الموضوعية! ضحك وقال ولكننا لا نفعل أي شيء يهدد أمن البلد، نحن آخر من يمكن أن يقلق منهم الأمن، نحن على باب الله، نحاول فقط أن نظل على قيد الحياة. كلماته التي يرددها دائماً! مهمة الإنسان على الأرض هي أن يظل على قيد الحياة، وعليه أن يفعل ما بوسعه لتحقيق ذلك. رومانسي!

لكن محب لا يستلطف الحربوق أخو الشليتة! لم أصارحه بشكوكي، لكن محب لديه حسه الأمنى العالي، ومثلي؛ يكره المرشدين، ويكره الأجهزة الأمنية، والمخابرات. يعتقد أن رجالها شديدو السطحية، والجهل، والتفاهة. هو محق. وهناك أيضاً الفساد داخل الأجهزة الأمنية! اسأل الفلسطينية عن فساد الأجهزة الأمنية!

تناولت أصابع نصار اليمنى آخر إصبع من الكنافة السيجار، من الطبق الكرتوني الذي صار فارغاً الآن، ودسته في فمه، وراحت أسنانه تلوكه على مهل، واستمتعت حلمات التذوق في لسانه، وحنكه، لآخر مرة، بالطعم اللذيذ للكنافة المقرمشة، التي

تشر عسلاً لذيذاً منكهاً بالليمون.

والله الزلمة إبن صنعة تسلم دياتك!

نظرت عينا نصار إلى فنجان القهوة السيئة الفارغ، فاستبعد عقله، فوراً، فكرة طلب قهوة أخرى. ولمح ياسر القهوجي، بالبالطو الأبيض القصير الكالح، الذي صار من طول الاستعمال رمادياً، وهو يحاسب أحد الزبائن. انتظر حتى فرغ، وأشار له بيمناه، رافعاً كلا حاجبيه لأعلى.

وقف ياسر القهوجي أمام طاولة نصار يلملم الطبق الكرتوني الفارغ، وفنجان القهوة، وكوب الماء الفارغ. وأثناء قيامه بعمله، بسرعة معتاد عليها، طلب منه نصار كوب شاي فتلة، وشيشة تفاح.

رَكـَّب نصار ساقه اليمنى على اليسرى، وشبك أصابع يديه، التي احتضنتا ركبته الراكبة، وإبهاميه منتصبين ومشيرين إلى شخصه. وأجال بصره في رَكـْب الركبان الراكبين على الكراسي.

تستحيل الحياة في هذه المدينة، تستحيل الحياة وسط هؤلاء، ضباع تنهش لحمك حياً!

لا، ليسوا ضباعاً! الضباع تتعاون في انسجام مشترك، هؤلاء ذئاب منفردة! كل منهم يحارب الآخر، الواحد ضد الجميع،

والجميع ضد الواحد. فما بالك لو كنت غريباً عن البلد! المنافسة بينهم ضارية على الصبايا؛ يخطفونهن من بعضهم البعض.

محطات تواجدهم الثابتة هي المقاهي، وحانات وسط البلد القذرة. سراديب المدينة هي مجال حركتهم الحيوي. ونشاطهم يتداخل مع البلطجية، وموزعي المخدرات. والعاهرات والعاهرين. وتجار العملة، وسماسرة الشقق المفروشة. وأصحاب البازارات، والحانات، والمطاعم. والمخبرين وأمن الدولة. وأصحاب شركات السياحة. والنصابين، والأفاقين، وكل الأنواع الأخرى غير المتجانسة من المشبوهين! كتلة هلامية، مفككة، متأرجحة. تماماً كالمدينة التي يعيشون فيها. القاهرة في قبو العالم، وهم في قبو قبو العالم!

لا، لا يمكن الحياة وسط هؤلاء، ولا الدخول معهم في منافسة! الذكي هو من يعرف أن المعركة خاسرة منذ البداية، فيحجم عن الدخول فيها.

ثم إن حياتهم بأكملها مبنية على الصدفة! الصدفة أكثر من المهارة والحرفية. صدفة أن تجد صبية أمريكية أو أوروبية. صدفة أن تكون راغبة في شاب محلي أسمر. صدفة أن تكون غنية. صدفة أن ترضى بالإنفاق عليك. صدفة أن تستمر كل تلك الصدف السعيدة لأطول فترة ممكنة، قبل أن تزهدك الصبية. صدفة أن لا يخطفها منك خرتي آخر إيره أكبر من إيرك! صدفة أن ترضى باصطحابك معها إلى بلدها. صدفة أن تحبل منك،

فتضعها أمام الأمر الواقع. صدفة أن تكون بلهاء، صدفة أن تكون جميلة، أو على الأقل مقبولة، وليست أمنا الغولة! لا لا، جربنا حظنا هنا ولم نوفق، التجربة كانت سيئة جداً مع ميلندا!

بنت الكلب حرقت كل الجسور بيني وبين مجتمع الأمريكان في القاهرة! قالت للجميع إني قواد، وساومت أحد القوادين عليها! كاذبة! إيش مفكرة حالها يعني، مريم العدرا! نامت مع الجميع في رام الله، ونامت مع الجميع هنا! وبمقابل أيضاً، المومس!

نامت مع طلال الغانم، في مكتبه، في عمارات الأغاخان، وأعطاها مائة ورقة دعائية لشركته لتترجمها إلى الانجليزية، مقابل خمسة آلاف دولار! الورقة الواحدة بخمسين دولاراً! وأنا من قمت بالعمل كله، من الباطن، وهي راجعت فقط المصطلحات الانجليزية في النهاية، ولم تعطني إلا ألف دولار فقط، بنت الحربوق! وأخذتْ منه، فوق ذلك، خاتماً ذهبياً مرصعاً بالعقيق، وكذبت وقالت إنها اشترته من محل مجوهرات في عبد الخالق ثروت، كاذبة، أنا عرفت الحقيقة!

لماذا غضبت من حادثة القواد في المطعم، والأمريكيات كلهن مومسات! لا يحصلن على وظيفة إلا عن طريق فروجهن، لا ينلن ترقية، أو علاوة، إلا إذ قدمن فروجهن لصاحب العمل. قانون الرأسمالية، نفس القانون الإقطاعي القديم، حقوق السيد الإقطاعي على جواريه؛ يحصل الإقطاعي على حق الليلة الأولى مع العروس التي تتزوج من أقنانه، يفتحها في ليلة العرس، ثم

يتركها لزوجها، حق الفتح الإقطاعي، حق الفتح الرأسمالي! الأمريكيات يعشن من فروجهن، العمل، والحظ، والترقي الوظيفي، لصاحبات الفروج الأحلى!

نمتي مع الجميع في القاهرة، وبمقابل يا بنت الكلب! قواد المطعم، نفسه، كشفك أمام نفسك، وأراك صورتك الحقيقية! لولا التعالي الأمريكي لقبلت عرضه، ولخدمت في بيوت المصاروة؛ تكنس وتمسح وُتنكح! وكانت ستسعد بالإيور الجديدة التي ستلجها كل يوم! كانت ستتلذذ بالجنس مقابل المال، لكن في السر، دون علمي، ودون علم أصدقائها الأمريكان المتعالين.

كلهن يتشرمطن في السر! لم تصاحبني في رام الله، إلا لأعلمها الترجمة.

وعدت بالمساعدة في تسفيري لأمريكا، وراحت ترسم أحلاماً وردية بالتعاون المشترك، وترجمة كتب من العربية إلى الانجليزية، ثم إنشاء دار نشر في أمريكا بعد ذلك. لكن بنت الكلب نست كل ذلك، وراحت تتشرمط في كل مكان، أعجبتها الإيور هنا! إيش مفكرة حالك يعني مريم العدرا!

على العموم كانت تجربة وانتهت! تجربة سيئة جداً، لكن التجربة في حد ذاتها مفيدة، أياً كانت النتائج. َتعلمنا خبرات مفيدة، صحيح لم نربح، لكننا لم نخسر أيضاً. واكتسبنا خبرة، خبرة أنه لا يمكن الحياة في ها البلاد! هذه ليست بلداً، هذا مجرد

مكان. ترانزيت! الكل هنا يحلم بالسفر، والكل ينتظر في الترانزيت فرصته للسفر.

القاهرة مكان للترانزيت. ومكان لغسيل الأشخاص أيضاً. يأتون من الصعيد وعليهم ثأر، أو هاربون من قراهم لسبب ما، ثم يُمحى كل تاريخ العار عندما يقيمون في القاهرة. القاهرة تغسل الأشخاص، تمحو العار الشخصي. الرعاع هنا يمارسون أي مهنة؛ مشروعة أو غير مشروعة، ويجمعون الأموال، ثم يعودون إلى قراهم باشاوات، ويضعون ساقاً على ساق، يشترون الأراضي ويبنون البيوت!

والأجانب أيضاً يأتون للقاهرة للغسيل؛ غسيل الأموال، وغسيل الأشخاص. ميلندا؛ أبوها صياد سمك في ميامي، وتحلم بأن تمحي عارها الشخصي وتصير مترجمة، ومثقفة من النخبة الأمريكية، وتعيش في نيويورك! أمها مازالت تعمل نادلة في مطعم وجبات سريعة! أصل وضيع!

وسدرك إني؛ أبوه فلاح جلف من سويسرا، وابنه سيصبح الدكتور المتخصص في الإسلام السياسي، والمحاضر بكبرى جامعات أوروبا وأمريكا! تفو!

وآبي؛ أبوها صاحب دكان سجائر في لويزيانا، ولاية الفقر والجريمة، والتعصب، والأمراض والأوبئة!

وشلي؛ أبوها أصلاً صرماتي!

كلهم أتوا إلى هنا لغسيل أشخاصهم. يعودون لبلادهم سفراء، وعلماء، وذوي حظ ومكانة. أو حتى يبقون هنا لوقت أطول، ليصبحوا أكثر من ذلك! الأمريكي في العالم الثالث! سيد وسط عبيده، يتحرك في إقطاعيته، وينال حقوق الليلة الأولى! أطيب أكل، وأطيب شرب، وأطيب نسوان، وأطيب مصاري! ملعون أبوكم ولاد كلب!

انتهت الأمور على خير، وهذا هو المهم. إن انتهت الأمور على خير فلا مشكلة، المهم النهايات، العبرة بالخواتيم. اتوفقنا توفيقة بنت كلب! والفضل لشهدي في الحقيقة، أنا مدين له والله! أنقذني بعد التخبط في اليأس، وبعد خبطات متتالية في الرأس، وسوء حظ رهيب. صدق من قال إن الانتماء الأولي هو الأهم! هذا ما يبقى في النهاية، هذا ما يُعوَّل عليه؛ الأهل، الأخ. خدمني خدمة العمر، بالرغم من كل خلافاتنا؛ خلافاتنا الجوهرية العميقة!

عائلة غريبة والله! أنا جبهة شعبية، وهو حمساوي، وعيسى الله يرحمه كان فتحاوياً. لكن هذا هو حال كل العوائل الفلسطينية. تعالوا يا أخوات الشليتة تعلموا الديمقراطية منا! الديمقراطية الحقيقية لا ديمقراطية الديكورات والمسرحيات!

فور أن علم برفض السفارة الإسرائيلية منحي الموافقة الأمنية للسفر لأمريكا، سعى، عنده في الدوحة، حتى استطاع توفير وظيفة لي في قناة الجزيرة! قناة الجزيرة الإخبارية؛ أقوى قناة إخبارية عربية! لديه معارف ممتازة، ورفاقه هناك كثر.

مرة، في الدار، في رام الله، كان معه مجموعة من رفاقه يتناقشون حول أحوال المسلمين المتدهورة في كل مكان، ودخلت أنا عليهم بصينية القهوة، ثم ألقيت عليهم السؤال القذيفة: هل يا ترى الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين؟! سخن الجو، وتكهرب، وسحبني شهدي للخارج، وسبني وسب الجبهة الشعبية!

لكنه لم يحقد! ساعد أخاه حين احتاج للمساعدة، حتى دون أن أطلب! صحيح، ما يبقى في النهاية هو الانتماء الأولي؛ الأهل والأخوة والعائلة.

لن أسبب له مشاكل هناك، لن أحرجه أمام رفاقه. طبعاً لن أتخلى عن قناعاتي، لكنني لن أتسبب في إحراجه أمام أحد، سأرد الجميل بصورة عملية. هو شخص طيب، لكن الإنسان وأفكاره شيئان مختلفان. وقد يكونان متضادين!

المهم أننا توفقنا توفيقة بنت كلب! باحث في مكتبة الأخبار والبرامج بقناة الجزيرة الإخبارية! وهذه مجرد بداية! بالمثابرة، وقليل من الحظ، ابن الكلب المعاند، يمكن أن نترقى هناك.

علينا أن نستكشف، أولاً، أجواء المكان، والأوضاع في القناة، ثم نتقدم لوظيفة معد للبرامج. أو مراسل للقناة في إحدى الدول العربية. أو الأوروبية. أو حتى أمريكا نفسها، لم لا! كل شيء ممكن بالعناد والمثابرة. والعلاقات الجيدة، طبعاً، قبل أي شيء!

هناك أجواء قومية واضحة في القناة. لكن هناك أيضاً نبرة

دينية عندهم! لن نغضب أحداً، سنحاول كسب ود الجميع. ولن أسبب إحراجاً لشهدي. لديه رفاق ومعارف يستطيعون خدمتنا. الجزيرة أهم قناة عربية اليوم، ومستقبلها في صعود مستمر. هي المكافئ للبي بي سي في الوطن العربي، بعد أن أغلقت السعودية البي بي سي العربية. رفضت البي بي سي طلب السعودية بالرقابة على قناتها العربية، وعلى المحتوى الذي تقدمه، ورحل معظم العاملين بها إلى الجزيرة، بعد إغلاق السعودية للقناة.

مستقبلنا المهني مضمون هناك، إن أحسنا التصرف، وإذا تجنبنا الدخول في مشاكل ومعارك جانبية لا طائل من ورائها. سنلجم لساننا. بدناش معارك مجانية متل ما صار مع رامي زعبي!

مع أنني لم أفعل شيئاً ألام عليه، ولم يكن الذنب ذنبي! كنت يومها أقف مع سامح ومحب خارج قاعة إيوارت، في انتظار بدء حفلة موسيقية للطبول الإفريقية، كانت ستقدمها فرقة كينية زائرة للجامعة الأمريكية. كنا ساعتها نتكلم في مواضيع شتى، ولا أعلم كيف تطرقنا لموضوع رامي زعبي!

كنت أشرح لهم كيف أن اليهود، بعد أن استولوا على الدور الفلسطينية، وطردوا أهلها منها، أزعجهم رؤية الصبار الذي كان يزرعه الفلسطينيون أمام بيوتهم، لأنه يذكرهم دائماً بأنهم محتلون، ومغتصبو أراض، وأن هناك جزءًا منا مايزال موجوداً أمامهم، صباح مساء يرونه أمام بيوتهم كلما دخلوا أو خرجوا، أو

فتحوا شرفة، أو ألقوا نظرة من النافذة! الصبار الفلسطيني! للصبار الفلسطيني روح تدافع عن روحنا في الأرض. صار الصبار رمزاً كريهاً، وشديد الإزعاج بالنسبة لهم! راحوا يقتلعونه من أمام الدور، لكنه نمى من جديد بعد أن اقتلعوه! اقتلعوه مرة أخرى، ونمى من جديد! وظل ينمو من جديد، بعد كل مرة يقتلعونه فيها! في النهاية، أشعلوا فيه النار، لكنه نمى من جديد بعد أن أحرقوه! آه يا أخي الصبار لقد عذبوك كما عذبوني! كلفوا خبرائهم في الزراعة بالعثور على حل لهذه المشكلة والقضاء نهائياً على الصبار الفلسطيني، لكن خبرائهم في الزراعة فشلوا، ومازالوا يفشلون!

إن كان ولابد من قتلنا فلا تقتلوا الكائنات التي صادقتنا، خذوا دمنا واتركوها كما هي، إن كان ولابد من قتلنا فلا تقتلوا صبارنا، الصبار جدنا في الأرض!

وحتى الآن مايزال الصبار الفلسطيني ينمو شامخاً أمام دورنا ويتحدى الاحتلال! قلت لهم إذا رأيتم يوماً، في الأرض المحتلة، بيتاً يهودياً وأمامه صبار، فاعلموا أن البيت أصله فلسطيني، وأن أهله قد طردوا منه على يد الاحتلال! صبارنا المقدس لا يموت! الله يلعن اليهود!

أعجبت الحكاية سامح ومحب ومجموعة الشباب الذين تحلقوا حولنا خارج قاعة إيوارت. ثم أضفت ساعتها وقلت بإنني سألت رامي زعبي إن كان لايزال أمام دارهم في تل أبيب صباراً، أم

لا؟! فاستغرب محب، وسأل؛ وهل رامي من عرب ثمانية وأربعين؟! قلت نعم، وهو خطيب ابنة أخت عزمي بشارة؛ العضو في الكنيست الإسرائيلي. استغرب الشباب وقتها. ثم رحنا نتحدث في مواضيع أخرى مختلفة، ثم دخلنا القاعة وحضرنا الحفلة.

في اليوم التالي، فوجئت برامي يهاتفني، ويعنفني لأنني قلت للشباب إنه نسيب عزمي بشارة! طيب إيش المشكلة يعني! قال إن أحداً من زملائه لم يكن يعلم بهذا الموضوع، وأنني قد تسببت له في مشكلة مع الطلبة العرب والمصاروة بالجامعة الأمريكية من أصحاب العقول الضيقة! رددت عليه بحدة أنا أيضاً! ما ذنبي أنا في كل هذه القصة! إنت خجلان من علاقتك بعزمي بشارة، لإنه عضو بالكنيست الإسرائيلي، طب أنا إيش ذنبي أنا! إيش بيعرفني إنه هاي العلاقة راح تسببلك إحراج!

عليّ أن أتعلم لجم لساني قليلاً. كثيراً! هذه من فوائد القاهرة!

الفلسطينية أرواحهم عالية، ونفوسهم طليقة، تحيا بين السماء والشجر. نولد أحراراً، طلقاء اللسان، نعبر عن ما في صدرونا بقوة وصراحة، حتى نعاشر العرب؛ فنعرف أن كلمة واحدة في غير موضعها تدمر المستقبل، والرزق، والأحلام! الكلمات! ترفعك إلى سابع سماء، أو تخسف بك وبأهلك الأرض! الكلمات.

آخر مرة كنت في شقة ألكس وسامح، كان عيد ميلادها،

وكان في الحفلة زلمة أزعر مغرور من شباب السينمائيين، من أصدقاء سامح، راح يتغطرس ويحكي عن أهمية الصورة وأولويتها في عالم اليوم، وأن الصورة قد تجاوزت الكلمات، والصورة الواحدة أبلغ من ألف كلمة، وكل هذا الهراء! قال إن الكلمة صارت اليوم ظاهرة كلاسيكية مضجرة عفا عليها الزمن! جاهل، جاهل بن جاهل! أقطع ذراعي إن كان قد قرأ كتاباً على بعضه طوال حياته!

صاح فيه أحمد فرحات، وكان ثملاً: صورة مين يا اهبل يا بتاع الفتوغرافيا! أتعرف ما معنى الكلمة؟! الكلمة نور يا اهبل! وبعض الكلمات قبور يا اهبل! مفتاح الجنة في كلمة يا اهبل! ودخول النار على كلمة يا اهبل! الكلمات قلاع شامخة يا اهبل! يعتصم بها النبل البشري، يا اهبل! الكلمة فرقان ما بين نبي وبغي، يا اهبل! بالكلمة تنكشف الغمة، يا اهبل! الكلمة زلزلت الظلم، يا اهبل! الكلمة حصن الحرية يا اهبل! إن الرجل هو الكلمة يا اهبل! شرف الله هو الكلمة يا اهبل! ضحك سامح، وضحك محب، ضحكنا جميعاً. رائع أحمد فرحات!

ثم تحدث، جاداً، مع الحمار الاستفزازي، وقال إن شخصاً عظيماً قال ذات يوم إن صورة فوتوغرافية عن مصنع لا تخبرك شيئاً على الإطلاق عن أوضاع العمال، ولا عن العلاقات بين بعضهم البعض، ولا بينهم وبين صاحب رأس المال.

وضع ياسر القهوجي صينية الشاي، وبها كوب ماء جديد

مترع، على طاولة نصار، وكانت يمناه تمسك بالشيشة من قلبها المعدني. قربها من نصار، الذي تناولت يمناه قصبة ليّ الشيشة الملفوف ثلاث مرات حول قلب الشيشة، وسلكته بلفه عكس اتجاه لفه الأول. مال ياسر القهوجي بالشيشة، ووضعها يسار نصار، حتى لا تعوق حركة الدخول والخروج من باب المقهى الواقع يمين نصار مباشرة. ثم شرع بسرعة في تجهيز الشيشة؛ فتناول الحجر الفخاري المغطى بورق القصدير المخرم بثقوب ضيقة، من على الطاسة الدائرية، وألبس قطعة ملفوفة من الورق المقوى حول فوهة القلب المعدني، ثم ثبت عليها الحجر الفخاري، وتناول، بالماشة، قطعاً متوسطة من الفحم المشتعل الرمادي المتوهج بلون برتقالي، من على الطاسة الدائرية، وراح يرصها، بالتساوي، قريباً من الحافة على أطراف سطح الفويل القصديري المخرم المغطي للحجر الفخاري المطعم بفتائل التبغ المعسل بنكهة التفاح، ثم وضع على الطاسة الماشة المسلسلة المربوطة سلسلتها في طرف الطاسة المعدنية، وتناول الشربوش، من على رفاس الشيشة، وألبسه للحجر. شكره نصار، ورد ياسر القهوجي بأدب: أي خدمة يا باشا.

شاي ليبتون أحمر فتلة مخروط جاهز للشرب، والسكر بره.

نقل نصار قصبة ليّ الشيشة من يمناه إلى يسراه، وأخذ ملء ثلاث ملاعق من سكر السلطانية الستانلستيل الصغيرة، وأضافهم، تباعاً، لكوب الشاي، وقلب الشاي عدة مرات، ثم وضع الملعقة على حافة طبق الكوب، ورفع فتلة كيس الشاي من الكوب

الزجاجي. انتظر حتى تصفت قطراته، ثم وضعه على الحافة الأخرى لطبق الكوب، مقابلاً للملعقة. تناولت الأصابع اليمنى لنصار أذن كوب الشاي، وشفط منه أول شفطة.

عظيم، الشاي الفتلة هنا رائع!

رشف رشفة أخرى. ثم ثالثة. ثم رابعة. وأرجع الكوب؛ الذي خس شايه الثلث، إلى طبقه. نقل قصبة ليّ الشيشة إلى يمناه، وقرب مبسمها المعدني من فمه، وسحب نفساً قصيراً من المعسل الدافئ المعبق بنكهة التفاح، للتأكد من أن النفس سالك، وليس ثقيلاً، ثم أنزل يده وأراحها على ركبته اليمنى.

عامل الشيشة إبن صنعة خبير في فنه، يعرف كيف يعد الشيشة جيداً! النفس سالك، ومستوى الماء في فرغ الشيشة مناسب، بلا إفراط ولا تفريط، القارورة الزجاجية مملؤة حتى ثلثيها. والرأس ليست مكتومة؛ يصير الحجر مكتوماً إذا حشوته زيادة عن اللازم، أو إذا وضعت التنباك كتلة واحدة، دون تفكيكه وتفريطه لفتائل صغيرة. وياسر أيضاً ابن صنعة؛ رص جمرات الفحم على حافة أطراف الحجر، ولم يكومها في الوسط، أو يضع الكثير منها، حتى لا يحرق المعسل، أو يفقده نكهته! النفس سالك، وهادئ، ومنكه، رائع!

ننتظر لدقيقة، حتى يسخن التنباك جيداً، قبل أن نبدأ التدخين، للحصول على أحلى مذاق لعبيق المعسل التفاحي.

نقل نصار قصبة ليّ الشيشة إلى يسراه. وتناولت يمناه أذن كوب الشاي، ورشف منه رشفة. ورشفة أخرى أطول. ثم أعاد الكوب، الذي خس شايه للنصف إلى طبقه. وأعاد مسك قصبة لي الشيشة بيمناه.

بالتأكيد لن نجلب لأنفسنا المتاعب في قطر! سنتكلم أقل. لس إز بتر. وفي حدود الموضوع فقط. مع الأخذ في الحسبان عقل المستمع الحمار، وأفكاره البالية! تعلمنا درسنا في القاهرة! لم يكن من الممكن أن نتعلم هذا في رام الله، هناك نحن على سجيتنا. لكن هذا لا ينفع في الدول العربية! مضر، شديد الضرر! ونحن في أمس الحاجة لهذه الوظيفة، في مسيس الحاجة! الجزيرة فرصة لن تعوض، وسوف نحسن استخدامها. استعمل الدبلوماسية لمرة في حياتك يا أخي، ما الضرر! المصاروة يقولون: أربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه! نربطه مطرح ما بدهون، إيش المشكلة يعني!

لما تكون بروما اعمل كما يعمل الرومان، أحكم الحكم الحكيمة! خلاصة الخبرة البشرية! المهم النتيجة، أن نحصل على وظيفة مراسل للقناة في أمريكا، أو إحدى الدول الأوروبية.

لن نغضب أحداً بالدخول في معارك جانبية، هذا حريق لن تنبعث منه أية عنقاء! حريق مجاني، حريق شخصي، أنا الخسران، وليس أي أحد آخر. طوابير من الذئاب مصطفة لخطف فرصة كهذه! لكني لن أضيعها.

قطر هي الوحيدة، الآن، التي مازالت مفتوحة أمام الفلسطينية. باقي دول الخليج ُأغلقت في وجوهنا، لم يعد مرحب بنا هناك. لم يبق لنا شيء في الخليج الجديد! هناك تتبخر أجسادنا غيمة غيمة في الفضاء! يتحمل الفلسطيني، لا فقط، أخطاء المنظمة، ولكن أيضاً كل غباء الأنظمة العربية! كنا ُنعمّر هناك أكثر لولا غباء الأنظمة العربية! دول غبية! لم يجد الله أغبى من منطقة الشرق الأوسط لينزل بها أديانه الثلاثة!

لم يعد الوضع كالسابق في الخليج. الكويت، والسعودية، والإمارات، والبحرين؛ عمرها أسلافنا الطيبون!

كنا أكثر من أربعمائة ألف فلسطيني في الكويت قبل احتلال صدام لها. كم صرنا اليوم! أقل من ستين ألفاً! طرد صدام أكثر من مائتي ألف فلسطيني؛ لأنهم رفضوا التعاون معه، وبعضهم تظاهروا ضده ورفعوا علم الكويت وصور الأمير جابر في الأحياء الكويتية، فكانت النتيجة الفصل الجماعي من وظائفهم، والاعتداء عليهم، وطردهم من الكويت!

ورغم ذلك، شن الإعلام العربي حملة شعواء على الفلسطينية، وقالوا عنا طابور خامس يحارب في صفوف قوات الاحتلال العراقية! بسبب موقف المنظمة، ورفضها حل القضية عن طريق الحرب مع العراق، وكل تلك المواءمات التي اتخذتها وقتها. طيب إحنا إيش ذنبنا! تتكسر النصال على النصال فوق رؤوسنا، وتنقلب دائماً غماً على رأس أهالينا! ليس فقط بسبب

المواءمات السياسية للمنظمة، ولكن أيضاً وقبل كل شيء، بسبب الغباء العربي! هذه بلاد لم يجد الله أغبى منها لكي يرسل إليها رسله الثلاثة!

وبعد تحرير الكويت، الكوايتة، أيضاً، طردوا من تبقى منا، غباء! ضحية قتلت ضحيتها! لم يبق في الكويت الآن سوى أقل من ستين ألف فلسطيني، بعد أن كنا أكثر من أربعمائة ألف! نحن من بنينا الكويت، الفلسطينية هم من بنوا الكويت. وكل دول الخليج وشرفك! يتباهى المصاروة بأنهم بناة الخليج، لكن هذا ليس صحيحاً، نحن من بنى الخليج! المصاروة كانوا عمالاً، وموظفين. أطباء، ومدرسين، في أحسن الأحوال. لكننا كنا العقول، والخبرات، والمستشارين. والسفراء، والمديرين. المصاروة كانوا اليد العاملة، ونحن كنا الأدمغة. كنا المخ، وهم العضلات.

ولم نكن لاجئين في الخليج، كحالنا في لبنان، لا، كنا جاليات مستقرة! وفي كثير من الأحيان كنا مواطنين!

أحمد شهاب الدين هو من أسس التعليم في الكويت. عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثون. وخليل شحيبر أنشئ جهاز الشرطة الكويتي. وسهيل خليل شحيبر كان سفيراً للكويت في سويسرا. وطلعت الغصين أول سفير للكويت في واشنطن. وحسن الدباغ أول سفير للكويت في لندن. وكان أول مندوب دائم للكويت في الأمم المتحدة فلسطينياً، لا أذكر اسمه.

والدكتور ناظم الغبرا كان طبيب العائلة الحاكمة في الكويت. وابنه شفيق الغبرا كان سفيراً للكويت في أمريكا. وعدنان شهاب الدين، ابن أحمد شهاب الدين، كان مندوب الكويت في الأوبك. وهاني القدومي كان مديراً لمكتب عبد الله السالم الصباح أمير الكويت. وزياد زعيتر كان مديراً لمكتب سعد العبد الله الصباح. وحنا شحيبر كان الطيار الخاص للأسرة الحاكمة.

وسليم الهنيدي كان أول من أنشئ مصانع للغاز في الكويت، وكان أيضاً وكيلاً لشركة تليفونكن الألمانية.

كان الفلسطينية في الكويت يديرون استثمارات اقتصادية، قبل الغزو العراقي، بأكثر من أحد عشر مليار دولار! سعد القدومي، وعمر القوقة، وتيسير بركات، وغيرهم الكثيرون. كنا نملك ونديرأكبر شركات للتجارة، والمقاولات، وأكبر وكالات للسفر والسياحة.

وإبراهيم شكري دبدوب؛ كان رئيساً لبنك الكويت الوطني، أكبر البنوك الكويتية. وسليمان أبو غوش كان سفيراً للكويت في الأردن. والهند، وباكستان. وزائير. وهو من وضع مناهج التعليم الكويتية لجميع المراحل الدراسية! وكان من تلاميذه كل رؤوس العائلة الحاكمة الشيخ جابر الأحمد، وسعد العبد الله، وصباح الأحمد. والشيخ سالم العلي، وجابر العلي.

وفي السعودية؛ نحن من أسسنا قطاع النفط! خضر حرز الله.

وإسماعيل الناظر. وسمير شما، وفاروق الحسيني. وجواد السقا. وحسن تيم، وعاطف سليمان، والكثيرون غيرهم. لدرجة أن أول وزير نفط سعودي، عبد الله الطريقي، طالب بمنح الفلسطينية الجنسية السعودية!

كنا مستشارين لملوك السعودية، وأمراء السعودية. رشدي ملحس، وجمال الحسيني، وفوزي أبو خضرا، وصبيح المصري، وغيرهم الكثيرون.

وكنا كبار رجال الأعمال في السعودية. عبد الغني العجو صاحب شركات العجو. ورامي أبو غزالة صاحب مطاعم البك. وعمر العقاد صاحب شركات العقاد. وصبيح المصري صاحب شركات أسترا. وعلى سعد الدين صاحب حلويات سعد الدين. وأحمد الحاطي صاحب شركات كيان العقارية. ووليد الكيالي صاحب شركات الرياض فارما. والحياة الطبية. وعبد اللطيف جميل صاحب توكيل تويوتا. عبد اللطيف جميل هو حفيد الشيخ حمد السعدي؛ من قرية كفر زيباد، الذي عُين قاضياً لبندر جدة.

وسمير الهندي صاحب شركة سمير كوداك. وأحمد الداقور صاحب شركات الداقور للإنشاءات، وشكيب الأموي مفوض شركة آرامكو؛ شركة الزيت العربية الأمريكية، وغيرهم الكثيرون؛ وكلاء لكبرى العلامات التجارية، وشركات البترول. ومحامون. ورؤوساء تحرير صحف. وأصحاب شركات بناء ومقاولات، ونقل وسياحة.

وفي الإمارات؛ نحن من كتبنا دستور الإمارات! كتبه عدي البيطار. عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعون.

وتيسير النابلسي هو من أنشئ القضاء في الإمارات. وإبراهيم سكجها هو من أسس صحيفة البيان. ورياض الشعيبي أسس تلفزيون دبي.

كنا المستشارين لحكام الإمارات؛ إبراهيم العابد، وعزت الدجاني. وجهاد قزمار. ومحمد الموسى، وسمير الأنصاري، وغيرهم الكثيرون.

نحن من بنينا الإمارات بعد أن كانت صحراء! نحن أصحاب الفضل في النهضة العقارية للإمارات! كنا أصحاب أكبر شركات مقاولات وبناء هناك! عمر عايش صاحب شركة تعمير. وعبد الله عطاطرة صاحب شركة بنيان. وعماد عبد الجابر صاحب شركات لاكاسا. ورياض كمال صاحب شركات آرابتك. وسعيد خوري صاحب شركات اتحاد المقاولون، ووليد الملاحي صاحب شركات إنتركونتننتال، وعدنان السفاريني صاحب شركات السفاريني. وعبد الحليم الموحد صاحب شركات يونك. وخلدون الطبري صاحب شركات درك آند سكل، وسعد الخياط صاحب شركات سعد الخياط.

ورياض الصادق؛ شريك خلف الحبتور في مجموعة شركات الحبتور. وسليم الصايغ صاحب شركات ناشونال للأصباغ،

وغيرهم الكثيرون من أصحاب كبرى سلاسل المطاعم، والمتاجر! صادق عثمان أبو طافش صاحب مطاعم أبو طافش، ومنير الكالوتي صاحب محلات كالوتي للذهب.

رفعت يمنى نصار قصبة ليّ الشيشة، وقربت مبسمها المعدني من فمه. سحب نفساً طويلاً هادئاً، وسمعت أذناه قرقرة ماء فرغ الشيشة وهو يرشح الدخان الذي يتخلله. كتم الدخان داخل صدره لثوان. ثم نفثه دافئاً رطباً منكهاً بالتفاح من أنفه، بلا عجلة. شعر بنشوة وصحو وانبعاث جديد.

الشيشة مضبوطة، الزلمة إبن صنعة! النفس سالك، والنكهة ممتازة، والريحة بتلعلط لعلطة! يجب ترك الشيشة لدقيقة أو اثنتين، قبل الشروع في التدخين، للحصول على أفضل دخان، وأحلى نكهة.

سحب نصار نفساً ثانياً هادئاً طويلاً. وكتمه داخل صدره لثوان. ثم نفثه على مهل من أنفه.

اشرب وانسى، دخن وتذكر! حتى لا ننسى، الذكرى مفيدة، وكثير منها ضار بالصحة!

في قطر؛ سعيد المسحال هو من أسس قطاع النفط هناك، وكان أيضاً مستشاراً لأمير قطر.

عيسى أبو عيسى كان أكبر رجل أعمال في قطر، وكان

الأمين العام لرابطة رجال الأعمال القطريين. عائلة أبو عيسى كلها من كبار رجال الأعمال هناك، صاروا يحملون الجنسية القطرية الآن.

صدقي خضر أنشئ أول مدرسة في قطر.

ظافر حلاوة، ويحي العطار، وزياد أبو عجينة. ومحمود أبو جلالة، ويعقوب بلبل؛ ملوك التجارة والأعمال في قطر، في كل المجالات، وغيرهم كثيرون.

حتى قناة الجزيرة نفسها، أسسها عدنان الشريف، وأحمد الشولي؛ بتكليف من حمد بن خليفة. عام ألف وتسعمائة وستة وتسعون.

قرب نصار مبسم الشيشة المعدني من فمه، وسحب نفسين قصيرين متتاليين، ضاماً الثاني على الأول، ونفث الدخان المعبق بنكهة التفاح من أنفه، في نفثتين متتاليتين، الثانية أطول من الأولى.

وفي البحرين يا سيدي نحن من عمرناها أيضاً! والله من أيام النكبة! عوائل فلسطينية كثيرة استقرت هناك من أيام النكبة، والكثيرون منهم حصلوا على الجنسية. ها سّع هناك آلاف من البحرينيين من أصول أصلاً فلسطينية! عائلات حبيشي، ودعيبس، والصوير.

وآخرون ذهبوا في مطلع السبعينيات، واستقروا هناك. عائلات عريقات، والوعري. وشناعة. وحجازي، وعجاوي. وتتمتو. واللبابيدي.

أحمد العريان صاحب مجمع الدانة التجاري، وصاحب دور عرض سينمائية. ومدينة ملاهي. وصاحب ألفا ماركت، ومترو.

وجميل وفا رئيس مرفأ البحرين الوطني.

سحب نصار نفساً طويلاً شديداً من مبسم الشيشة المعدني، فقرقر ماء فرغ الشيشة بقوة وهو يرشح دخان التنباك، ودون أن يحبس الدخان الدافئ المعبق بنكهة التفاح في صدره، نفث فمه نصف الدخان بقوة، ثم أغلق فمه، ونفث النصف الباقي على مهل من أنفه مسترسلاً.

عُمان! معلوماتي قليلة عن الفلسطينية هناك، للأسف! مطلوب المعرفة أكثر عن هذا الموضوع.

أعرف أن إسماعيل الرصاصي كان مدير أول مدرسة سلطانية في السلطنة. عام ألف وتسعمائة وثلاثون. في عهد السلطان تيمور بن فيصل. ثم أصبح وزيراً للمعارف. في عهد السلطان سعيد بن تيمور بن فيصل. وظل وزيراً للمعارف في عهد سلطان السلطنة السلطان سعيد بن تيمور بن فيصل. حتى عام ألف وتسعمائة وسبعين.

جميل! هناك أيضاً عبد القادر عسقلان، من نابلس، أقام في السلطنة في بدايات السبعينيات، ومنحوه جنسية السلطنة، وهو الآن رئيس بنك عمان. ورئيس شركة عمانتل، ورئيس شركة عمان للاستثمار، ومدير صندوق الودائع بالبنك المركزي العماني.

وهناك أيضاً جمال عزيز، نائب رئيس ميناء صحار، ورئيس المنطقة الحرة بصحار.

يا عمي نحن من بنينا الخليج والله، المصاروة كانوا خدماً في بلاطنا!

سحب نصار نفساً آخر قوياً، ونفثه من فمه في خط دخاني متصل مسترسل.

بنينا الخليج وعمرناه، ولم يكن هناك من يراعي حقوقنا، ولم يكن هناك من يساندنا، بنيناه تحت المعاناة! مكاتب فتح في الخليج لم تفعل لنا شيئاً! في الشتات، ونبني دولاً لغيرنا! نقيم حضارات للبدو! ومكاتب حماس هناك تدعم أعضاءها فقط! يقفون إلى جانب بعضهم البعض، ويساندون بعضهم البعض، الأعضاء فقط، وباقي الفلسطينية كل زلمة لحاله! وقبل كل ذلك وبعده، الفلسطيني معرض، في أي وقت، للطرد والتنكيل بسبب السياسة! إذا لم يعجبهم موقف معين للمنظمة، طردونا، وقطعوا أرزاقنا، وشتتونا بعد الشتات في شتات جديد! شتات مضاعف، ثم شتات

آخر، ثم آخر، ثم آخر، شتات الأبدية! وما بين شتات وشتات، يحاول الواحد منا أن يستريح قليلاً، فيجلس على خازوق! هذا قدرنا، لا راحة في أي مكان، هناك فقط تبديل عوالم، الشتات الأبدي، هذا مصيرنا! وهذا ما نحصل عليه في النهاية من العرب؛ الخوازيق! نجيب رد الجميل لنجيب!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني، ونفث نصفه أولاً من أنفه، ثم النصف الباقي من فمه. انتظر لثانيتين. ثم سحب نفساً آخر طويلاً، نفث نصفه الأول من فمه، والباقي من أنفه.

وهذا أدعى لأن نكون أكثر فطنة وحذراً في الدوحة. لم تبق إلا قطر مفتوحة لنا. سنتوخى الحذر. الفطنة والكياسة. تعلمنا الدرس في القاهرة. كل هؤلاء يتمنون مثل هذه الفرصة! يقدمون إيورهم، ليلاً نهاراً، وأستاهم أيضاً، من أجل ربع فرصة كهذه!

الصراع هنا صعب! وفي الدوحة، أيضاً، لن يكون سهلاً، يجب أن نتوقع ذلك. الفرق، هو أنني سأخوض الصراع القادم وأنا مُحمّل بمخزون جيد من الخبرة! سنجد في القناة، بالتأكيد، خليجيات، ومصريات، وجزائريات، وتونسيات. وعراقيات. ولبنانيات، وسوريات . الإيور تفتح الأبواب المغلقة، والفروج تفتح المغاليق. نحن أرواح مرهقة، والأرواح المرهقة إذا ما وجدت أي منفذ، ولو ضيق، تندفع نحوه بكل قوتها. سبل الفقراء للوصول، سبل المرهقين للوصول! هذا هو الحال اليوم، هذا هو

قانون العالم ها سَّع! ليس الذنب ذنبنا، كالدجاج نلتقط رزقنا من بين القاذورات! وهل هناك أقذر من الشرق الأوسط! ملعون أبو اليهود! لم يجد الله أغبى من هذه المنطقة لينزل فيها أديانه الثلاثة!

حسين، الأكثر وعياً بين كل شخوص بداية ونهاية، يقول: ليس الذنب ذنبنا، كالدجاج نلتقط رزقنا من بين القاذورات، ولكن لا حياة إلا بالإذعان! فيلكن إذاً. العالم هاَّسع حاله مثل الثلاثينيات والأربعينيات؛ أيام الكساد العظيم، والحرب العالمية الثانية. في أوقات الأزمات يعيش الرجال على إيورهم، وتعيش النساء من فروجهن. حسن يعيش على أموال الراقصة، وحسنين يطمح في أن يفتح له إيره الأبواب، ونفيسة تعيش من فرجها.

رائعة نفسية! روعتها تكمن في إيمانها بأن العلاقة الجسدية المأجورة أتفه من أن تؤثر في روحها! ناضجة وواعية، حكيمة والله! العلاقة الجسدية المأجور أتفه من أن تؤثر في الروح.

ليس الأفراد فقط من يعيشون على إيورهم وفروجهم، الدول أيضاً! محب زار البحرين عدة مرات، وقال إنها بعد خسارة قضيتها في التحكيم مع قطر حول حقول الغاز، أشار أحد المستشارين اللبنانية على ملك البحرين ناصحاً إياه: النسوان، والكاس! النسوان والكأس لحل أية مشكلة اقتصادية. دماغ لبنانية متكلفة بحشيشة بعلبك العظيمة!

محب حكى أن الفنادق في المنامة بها دعارة رسمية، ويعلقون

صور الصبايا في البهو الرئيسي للفندق، وتحت كل صورة رقم البنت. البنت اللي بتعجبك، بتطلع غرفتك وتطلب الريسبشن من هونيك وبتقولهم على رقمها، يبعتولك إياها على غرفتك رأساً! روسيات، ومغربيات، وجزائريات. وتايلانديات. وعراقيات. وخليجيات أيضاً! اللي بدك إياه بتلاقيه يا معلم! النسوان والكأس نصيحة المستشار اللبناني! الساعة في حضن الصبية بمائة دولار، والصبية كلها حتى الصباح معك بخمسمائة! أذكياء! حلوا مشاكلهم المادية! النسوان والكأس يحلان كل المشاكل! ذكور الخليج يذهبون إلى هناك، في العطلات الأسبوعية، والأجازات الرسمية. وغير الرسمية وشرفك! سياحة النسوان والكأس. الله لا يوفق اليهود!

سحب نصار نفساً طويلاً، على مهل، من مبسم الشيشة المعدني. كتمه في صدره قليلاً. ثم نفث الدخان المعبق بنكهة التفاح مسترسلاً من أنفه بلا انقطاع.

حسين الأكثر وعياً في بداية ونهاية يتأمل، وهو في القطار، في طريقه لاستلام وظيفته في طنطا ويقول: الحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية! لست حاقداً ولكني حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين! لست فرداً ولكني أمة مظلومة! ويتكرر، نفس الحال، بعد خمسين سنة. اثنان وخمسون سنة. أو ثلاثة وخمسون، إن حسبنا بداية عمله في بداية ونهاية. التاريخ يعيد نفسه، تاريخ أمتنا العربية ليس أحداثاً متعاقبة بقدر ما هي مُضَفَّرة! إن فهمنا ماضينا على نحو جيد، فسنفهم حاضرنا على

نحو جيد. وإن فهمنا حاضرنا على نحو جيد، فسنفهم ماضينا على نحو جيد.

أعمال نجيب محفوظ الواقعية يمكن أن ننزعها من سياقها الزمني، ونضعها في سياق الزمن الحالي، فتصمد أمام امتحان الزمن! لازالت صادقة، وتنطبق. سياقية جداً!

محفوظ قال مرة إن النهاية الحقيقية للعائلة في بداية ونهاية كانت، على أرض الواقع، نهاية سعيدة، ولكنه فضل أن يعرض قصتهم منتهية بمأساة! كانت أسرة حقيقية، يعرف أفرادها جميعاً واحداً واحداً. النهاية المأساوية تعمم الفاجعة المشتركة، وتؤكد أنه كان واعياً منذ البداية بهيكلية الشر. ظروف قاسية قاهرة خارجة عن الإرادة الحرة للإنسان الفرد. النجاح الشخصي أو الانتصار الفردي الاستثنائي لحسنين، ودخوله الجيش، وتحسين أوضاعه وأوضاع أسرته مالياً؛ كان سيحجب المأساة الجماعية. الخاتمة المأساوية تؤكد مسؤولية السياسات والأوضاع الاقتصادية عن نكبات الطبقة الوسطى. انتهاء مصير الأسرة في الرواية بفاجعة يعني التعميم. بداية ونهاية علامة في تاريخ الطبقة الوسطى العربية. كانت ولا تزال. سياقية جداً! تستحضر الرواية حال الطبقة الوسطى، ويستحضر حال الطبقة الوسطى الرواية. كان سينهدم كل هذا، لو انحاز محفوظ للنهاية السعيدة التي حصلت للأسرة على أرض الواقع؛ عندها كانت بداية ونهاية ستصبح مجرد قصة نجاح فردي استثنائي في مجتمع يعاني الشقاء!

شد نصار ثلاث شدات قصيرة، متلاحقة، من دخان المعسل المنكه بعبيق التفاح، ونفثهم في زفرة قصيرة من فمه، ثم في دخان طويل مسترسل من أنفه.

اليوم أصبح النجاح فردياً لا غير، والانتصار استثنائياً لا غير! مجتمعات العالم كلها تعاني الشقاء! ماتت الأيديولوجيا ولتحيا الفردية! ماتت الأيديولوجيا يوم مات الاتحاد السوفيتي. وحتى قبل ذلك! صار كل زلمة لحاله؛ أنا ومن بعدي الطوفان! روما الجديدة. إسبارطة التكنولوجيا وأيديولوجيا الجنون!

لم تعد توجد قضايا كبرى. إلا قضية البيئة ربما! يعبدون الذهب، ويسجدون لصنم الدولار. ربهم حاجب في بلاط الدولار! مستر ديزي يقول: التاريخ هو المليم! كان يقصد الماضي والحاضر والمستقبل. والأخ فوكوياما يغلف المقولة بغلاف أنيق ليمنحها الشرعية الأكاديمية! وصايا الإله الجديد، نهاية التاريخ؛ انتهى تاريخ الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية. انتهى صراع الرأسمالية مع أية أيديولوجيا أخرى، وتحقق لها أخيراً الانتصار الحاسم إلى أبد الآبدين! لن يكون هناك إلا المليم، إلى يوم القيامة! وأما كيسك فبالمال عَمِّر!

لتدخل يا سيد البيض عصرك الجديد! ارفع على جثتي تماثيل حرية لا ترد التحية. واحفر صليب الحديد على ظلي الحجري!

عصر الحروب الصغيرة! حروب المليم! وأما كيسك فبالمال

وحروب المليم تجعل الجميع في شقاء! التعاسة تنشأ من الحروب الصغيرة! البشرية يمكن أن تزول لا بسبب المجاعات والأوبئة، ولا حتى بسبب الحروب النووية؛ ولكن بسبب عدم وجود فكرة كبرى يلتف حولها البشر، هذا يدمر النفس الإنسانية! بلا أيديولوجيا، وبلا فكرة كبرى، لا يستطيع الإنسان تحمل الوجود! يتلاشى إن كرس وجوده، فقط، لجمع المال! المال زينة الخراب! والرأسمالية بلا أيديولوجيا، منزوعة الأيديولوجيا. كولومبس يكسر بوصلة البحر كي تستقيم أخطاء ريح الشمال! الرأسمالية حطمت الأيديولوجيا القديمة، لكنها فشلت في خلق أيديولوجيا جديدة. تعمير الأكياس بالمال لا يعمر الرأس بالأفكار.

إلى أي هاوية يا سيد البيض تأخذ شعبك؟ إلى أي هاوية يا سيد البيض تأخذنا معك؟

ستيفان تروفيموفِتش يقول في الشياطين إن الإنسانية تستطيع أن تستغني عن الخبز، وعن العلم، ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الجمال. جمال الأفكار. بدون الجمال، وبدون الأفكار، لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله. دُستويفسكي نبي! لو ولد في زمن الأنبياء لكان نبياً!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني. كتمه في صدره قليلاً. ثم نفثه من أنفه مسترسلاً دون انقطاع.

الرأسمالية حطمت الفكرة الاشتراكية، ولكنها لم تفلح في خلق فكرة جديدة، فقفزت إلى الساحة أشباه الأيديولوجيات الرجعية! أشباه أيديولوجيات زائفة ومشوهة! قانون الأواني المستطرقة! فراغ، ولا بد له من أن يُملئ، لأن العقل البشري لا يستطيع تحمل العيش في فراغ. إذا كانت الأيديولوجيا ضرورة، فلا بد وأن توجد الأيديولوجيا، أية أيديولوجيا! أشباه أيديولوجيات لاهوتية، وشعبوية، وعنصرية، وبلايا أخرى نراها ها سَّع تظهر على سطح العالم! ويكسبون أراض شاسعة في كل يوم، وفي كل مكان وشرفك! قانون الأواني المستطرقة. الوعي غائب، والعقل البشري بلا سلاح للدفاع عن نفسه؛ فتجتاحه الرجعية بكل سهولة. التطرف، والرؤى المشوهة للعالم. والانتهازية. العالم ها سَّع جالس على خازوق!

ليس الذنب ذنبنا كالدجاج نلتقط رزقنا من بين القاذورات ولكن لا حياة إلا بالإذعان! وإذا كان الشر هيكلياً، فإن الحل لا بد وأن يكون هيكلياً هو أيضاً. لن يوجد حل حقيقي إلا الحل الهيكلي. الحل هو تغيير قواعد اللعبة! لذلك يستسلم حسين الواعي، ويذعن لمصيره. لكن حسنين الحقيقي ينجح وينتصر في أرض الواقع، حتى وإن انهزم في الرواية!

سبل الفقراء للوصول! محفوظ عبد الدائم. وإحسان. وحميدة. وحسنين. ونفيسة. ورضوان في السكرية، اللهم صلي وسلم على سيدنا لوط!

سامح يكرر دائماً أنه لا يوجد ما يعيب في سعي الإنسان لكي يظل على قيد الحياة، وأن هذا هو واجبه الوحيد على سطح الأرض؛ البقاء على قيد الحياة، الحفاظ على النوع. أشرف مهمات الإنسان على الإطلاق!

شد نصار نفساً طويلاً من دخان التنباك المعبق بنكهة التفاح ونفثه من فوره من فمه مسترسلاً بلا انقطاع. أتبعه بنفس آخر طويل هادئ، نفثه على مهل من أنفه، في زفرتين متتاليتين متساويتين.

العالم اليوم هو عالم النجاح الفردي، عالم الانتصار الشخصي. إذا ماتت الأيديولوجيا فكل شيء مباح! كالدجاج نلتقط رزقنا من بين القاذورات. سيدفعون في الجزيرة ستة آلاف ريال شهرياً. ألفا دولار! الرواتب جيدة في قطر، ومع الوقت، والدأب، والعلاقات الجيدة، سيرتفع المرتب أكثر، سيصير ممتازاً!

شهدي حكى أن راتب المراسل في الجزيرة يفوق العشرة آلاف دولار! بالإضافة إلى نفقات السفر والإقامة. رواتب المذيعين أيضاً ممتازة. ستسنح فرصة هناك للترقي؛ من العمل المكتبي، للعمل كمراسل، أو كمذيع. بالدأب، والعلاقات. والهمة، الهمة لتحقيق المهمة! المستشار اللبناني قال للملك النسوان والكأس يفتحان المغاليق المغلقة.

لو عرف هؤلاء الذئاب بوظيفتي الجديدة لحقدوا وحسدوا! هذا

المعتوه علاء حصل على منحة من وزارة الثقافة لكتابة رواية فأقام سنة كاملة في الأكاديمية المصرية في روما ولم يكتب حرفاً واحداً! قالوا إنه نام مع وكيل وزارة الثقافة المسؤول عن منح المنح. سعى وحصل على فرصة ذهبية، فماذا فعل أخو الشليتة بهذه الفرصة! لم يخط حرفاً واحداً في روايته المزعومة، وعاد ليلوم وزارة الثقافة التي تحملت نفقات سفره وإقامته في روما، وراح يحكي في كل مكان أن موظفي الأكاديمية كانوا يتجسسون عليه، ويراقبون مراسلاته، ويفتشون متعلقاته، ويقيدون حريته في الخروج والدخول! فاشل، لن يفعل شيئاً مهماً في حياته، وسيظل يستنفد نفسه في العهر والأكل والشرب!

المصاروة كسالى. وكبرياؤهم ضعيفة! ليس عندهم كبرياء أصلاً! ما يعذب راسكولنيكوف في الجريمة والعقاب ليس إحساسه بالذنب، ولا الندم لارتكابه الجريمة، ولكن ما يعذبه، في الحقيقة، هو كبرياؤه الجريحة؛ لأن فكرته قد سقطت في الوحل، وخطته قد فشلت بسبب خراقته أثناء تنفيذ الجريمة! الخطأ عنده هو في التطبيق، لا في النظرية نفسها، يحتقر نفسه لضعفها، نابليون مفلس! دُمرت بسبب غبائي وخراقتي! الممارسة كشفت أنه من الفئة الدنيا، لا من الفئة العليا، من التسعة أعشار من النمل.

ويتفاقم مرضه طردياً مع تجذر شعوره بالعار؛ شعوره بأنه من فئة النمل، العبيد. عبيد شيجالوف!

سقوط أي فكرة عظيمة في التطبيق يجعلها تبدو بلهاء وفاشلة، ونجاح أي فكرة خسيسة في التطبيق يجعلها تبدو ذكية وعظيمة!

التاريخ هو المليم؛ فكرة خسيسة، لكنها ناجحة في التطبيق. عصر المال! عصر البيع والشراء، عصر البضائع؛ كل شيء بضاعة. سامح بضاعة أتلفها الهوى! لديه كبرياء، لكنه يتعامل مع الهزيمة كذريعة للانغماس في العدمية بضمير مرتاح! غارق في الاشمئزاز من كل شيء، لا يمتلك الروح القتالية الفلسطينية! أحمد فرحات أكثر حماسة منه. لكنه دون كيخوته! يواجه العالم المادي الكلبي مسلحاً بالصدق والشرف. والأحلام! بضاعة أتلفها الهوى هو الآخر! ويتلفنا جميعاً وشرفك، إن لم نكن واعين بمشروعنا الشخصي. يُقال إن نجيب محفوظ كان واعياً بمشروعه الروائي لدرجة أنه كان يفعل أي شيء يمكنه أن يدعم هذا المشروع، وينبذ أي شيء من شأنه أن يعطله، حتى في أدق التفاصيل وأتفهها! حكى الحرافيش أنك لو أقنعته بأن تغيير نوع سجائره من كِنت إلى كليوباترا من شأنه أن يؤثر إيجاباً على مشروعه الروائي، لرمى سجائره فوراً وشرع في تدخين الكليوباترا! يا عمي هؤلاء عالم يحيون من أجل مشاريعهم! كل جيل ثورة تسعتاش في مصر كانوا هيك!

شد نصار ثلاث شدات قصيرة من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهم متلاحقين تباعاً من فمه، في ثلاث زفرات قصيرة؛ بعد كل شدة زفرة.

ألفا دولار مبلغ جيد جداً كبداية، ونستطيع فعل الكثير به، ومع الوقت سيزداد! مشروعنا الشخصي الآن هو التركيز في الإعلام. السفر لأمريكا أو أوروبا سيأتي من تلقاء نفسه، لاحقاً، كنتيجة طبيعية للعمل في الإعلام، أكيد!

كان من الخطأ وضع السفر لأمريكا كمشروع في حد ذاته. السفر لأمريكا! ثم ماذا بعد ذلك؟! ماذا كنا سنعمل هناك؟! مترجمون! أصلاً المترجمون الأمريكان يأتون إلى الشرق الأوسط للبحث عن عمل!

لولا الفترة التي عشناها هنا لظلت أعيننا مغمضة. فتحنا ها سَّع!

المستقبل صار الآن للعمل الإعلامي؛ التلفزيون. عصر التلفزيون، في الوطن العربي، وفي العالم أجمع، الثالث، والثاني، والأول، والسوبر أول. عصر التلفزيون. عصر التسالي. مجتمع الفرجة. المواطن تحول إلى متفرج، متفرج ويريد أن يتسلى، وليس هناك من تسلية أفضل من الأخبار المثيرة، والبرامج الحوارية. مخدرات العصر! الأخبار، والشائعات، والقيل والقال، والعنعنات، والعرب أساتذة في العنعنات! عن فلان عن فلان عن فلان أنه قال إن فلان قال كذا عن فلان الفلاني! تراثنا كله عنعنات! نصوصنا كلها عنعنات. مقدساتنا كلها عنعنعات! والعنعنات هي تجارة اليوم الرابحة. أخبار اليوم.

السي إن إن أول من أثبتت أن الأخبار أكثر إثارة حتى من أفلام هتشكوك! نقلت حرب الخليج على الهواء مباشرة، سيداتي آنساتي سادتي إليكم الآن حرب اليوم على الهواء مباشرة!

تشويق الحروب، الفرجة على الخراب! دُستويفسكي يحكي في الشياطين عن اللذة التي يشعر بها الإنسان وهو يتأمل حريقاً. إحساس غامض مسكر من رؤية نيران الحريق وهو تشتعل وتمتد! هناك هواة لمشاهدة الحرائق. كل البشر تقريباً! رؤية الحريق توقظ غريزة التدمير الكامنة في الإنسان. رؤية الخراب مسكرة، لذيذة! وهل تفعل شاشات التلفزيون إلا ذاك! أربع وعشرون في سبعة. اشرب وانسى، تفرج على الخراب وتلذذ! لذة الفرجة على الحروب العالمية، وعلى المعارك الديكية الشخصية. وفوق ذلك يحصل مذيعو الحروب على الشهرة، وأعلى المرتبات! وكلاء الحرائق، مندوبو الخراب، مرتباتهم في القنوات الأمريكية أعلى حتى من مرتبات لاعبي الطابة، والمغنيين! غني لي شوية شوية! عالادا العونى وعالادا العونى! غني لي ياعمي غني لي، وكله عم يغني على ليلاه!

سحب نصار سحبة عميقة من مبسم الشيشة المعدني، فتخلل دخان التنباك التفاحي رئتيه. كتمه لثوان. ثم نفثه من أنفه بطيئاً مسترسلاً.

ألفا دولار في الشهر. نرسل سبعمائة لأم عيسى، وابتسام. والباقي نعيش منه. وندخر قليلاً أيضاً.

طبعاً هناك مصاريف في البداية، لازمة ولابد منها! تأجير شقة، وتأثيثها. شهدي يبحث عن مكان مناسب، بسعر جيد. وبالتأكيد سيساعد في تأثيث الشقة. لكن تظل هناك، مع ذلك، مصاريف في البداية!

وهناك أيضاً مسألة المظهر المناسب! في رام الله المظهر لا يهم كثيراً، هناك، نزن الرجال بعقولهم وألسنتهم. لكن القاهرة علمتنا أن الحياة مظاهر، هنا يزنون الرجال بملابسهم، وساعاتهم، وأحذيتهم، وهواتفهم النقالة؛ بناءً على مظهرك يعاملونك.

لابد من شراء عدة قمصان. وبدلتان، أو ثلاث، حسب الأسعار هناك. وجاكتتان، أو ثلاث، حسب الأسعار هناك. وحذاءان أو ثلاثة حسب الأسعار هناك. وأشياء أخرى لزوم المظهر الجيد، المظهر سيكون مهماً جداً في الجزيرة.

ثم هناك أيضاً مسألة العطور، والعطور الجيدة غالية الثمن!

نرسل خمسمائة لأم عيسى وابتسام، مؤقتاً، في البداية فقط، حتى نستقر، وننتهي من مصاريف البدايات، ثم نزيده بعد ذلك. الواجب المقدس. لسنا محفوظ عبد الدائم، لكنني، مع ذلك، أحترم إرادته. أفهمه جيداً، يريد أن يترقى ويصبح أفضل، والطريق أمامه مسدود. وأمام كل جيله. ضع نفسك مكانه، وقل ماذا تفعل لو كنت مكانه؟! لماذا الغطرسة والتعالي على الزلمة، وجميعنا

يفعل مثله لو كان مكانه! لو كان لديه نهمه للحياة. وحماسته، وإقدامه. يظنون أنفسهم طيبين لأن ليس لهم مخالب! راسكولنيكوف يبيح للعشرة في المائة من المتفوقين أن يفعلوا ما يريدون، والباقي نمل.

في الحقيقة، يا عم راسكولنيكوف، الواقع على سطح كوكب الأرض عكس ذلك! التسعة أعشار هم من يبيحون لأنفسهم كل شيء، والعُشر هم الأنبياء. والأغبياء. والمصلحون، والمتعففون، ومن لا مخالب لهم!

شد نصار شدة طويلة هادئة من دخان معسل التفاح ونفثه من فوره بطيئاً مسترسلاً من أنفه.

الخمسمائة دولار ستنعش حياة أم عيسى وابتسام، وستجعل حياتهما أكثر راحة! وربما تدخران منها أيضاً، أو تشتريان شيئاً للدار.

شهدي يرسل لهما ألف دولار شهرياً، ويتكفل أيضاً بالمصاريف الطارئة، وبمصاريف ابتسام بالمدرسة.

تعيشان الآن بألف دولار؛ تقسم على كلتيهما، بعد أن كانت تقسم على ثلاثتنا، استراحت أم عيسى من مصاريفي؛ كانت كثيرة والحق يقال! بيكفّي الدخان لحاله!

وفوق ألف شهدي، سأرسل لهما خمسمائة من عندي، وبعد

بضعة أشهر سأحاول زيادتها.

آن لأم عيسى أن ترتاح، تحملت الكثير، الحق يقال! الله يلعن اليهود! ولا تشتكي أبداً! لم تشتك طيلة حياتها، مستحيل أن تشتكي أم عيسى! تقول الشكوى لغير الله مذلة. واللي كتم شكواه ولم يتكلم، مجروح وضامم جناحه على الجراح اللي فيه. كبرياء كلثومي! الله يخلي لنا إياها! تحملت الكثير، في صمت، وكبرياء. مقاتلة! أم فلسطينية عن جد!

سحب نصار سحبة طويلة من مبسم الشيشة المعدني ونفثه من فوره بطيئاً مسترسلاً من أنفه.

وأما الأمهات فيمكثن في الأرض!

سحب نصار نفساً قصيراً قوياً من دخان المعسل التفاحي ونفثه بطيئاً متصلاً من أنفه.

صحيح! أما الأمهات فيمكثن في الأرض.

فتحاوية مثل زوجها، الله يرحمك يا أبي! فتحاوية بالفطرة، والتبعية. تتعاطف أحياناً مع شهدي. انفعال عابر وليست عاطفة مستقرة. تمقت الاحتلال، ولديها حس ديني فطري شعبي، لكنها في أعماقها تعي أن حماس ليست مشروعاً وطنياً فلسطينياً، وتعرف أنها مشروع أممي عابر للوطنية، فوق الوطن، فوق فلسطين. المشاريع الأممية نافية للوطن؛ شرط أساسي. لكنها

تتعاطف أحياناً مع حماس ضد الاحتلال. انفعال عابر وليست عاطفة مستقرة.

ابتسام ليست فتحاوية، ولا حمساوية، ولا جبهة شعبية، ولا أي شيء! فقدت الثقة في الجميع. لامنتمية! تقول إن الجميع كاذبون، ولا تستثني من ذلك أحداً.

معظم جيلها مثلها. لكنها تتميز عنهم بأنها تعرف طريقها، حتى وهي في هذا السن! تريد أن تدرس العلوم السياسية. تحلم بأن تدرس العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية ببيروت. شهدي يحاول إقناعها بأن تدرس في قطر، لكنها ترفض بشدة، وتسخر من الأمر!

شهدي يريد أن تكون ابتسام تحت عينيه، ووصايته، يحاول التأثير عليها، ولم يفقد الأمل بعد. يحبها ويخاف عليها، وهذا هو مفهومه للحب، الحب الإسلامي! لا يمانع في أن تدرس العلوم السياسية، أو ما شاءت، لكن بهدف تطويع ما تدرسه لخدمة المشروع الإسلامي.

كان من أوائل من تخرجوا من كلية الهندسة بجامعة قطر، يُدرّس الآن في قسم الهندسة الميكانيكة، ويحاول إقناع ابتسام بأن تدرس الهندسة. قطر الآن هي عاصمة الغاز في العالم، وهناك طلب كثيف على الخبرات التي تستطيع تشغيل وصيانة مرافق الغاز ومنشآته الصناعية.

لكن ابتسام مصرة على دراسة العلوم السياسية، تقول: مادام العالم كله عم يكذب، فراح أدرس علم الكذب!

مزحت معها مرة واقترحت عليها أن تدرس الشعر، أو الرسم. أجمل الشعر أكذبه. وهناك مدارس في فن الرسم مختصة بالخداع البصري، التضليل البصري، الكذب البصري. قالت إن الشعر لم يحرر فلسطين، ولا الرسم أعاد لنا أرضنا المسلوبة! إسرائيل سرقت أرضنا بالكذب، بالكذب وحده أولاً وقبل أي شيء. مدهش وعي البنت وهي في هذا العمر! جيلها كله مدهش، في الحقيقة!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني. كتمه في صدره لثوان. ثم نفثه من أنفه في خط دخاني طويل بطيء مسترسل.

لم يكذب أحد طوال التاريخ مثلما تكذب إسرائيل، ولا كذب قادة في العالم مثلما يكذب قادتهم! من عام ألف وثمانمائة وثمانين. بل وقبل ذلك أيضاً!

إسحاق شامير قالها بصراحة وعلى المكشوف! من أجل إسرائيل ينبغي الكذب.

وموشيه شاريت قال إن إسرائيل لا تستطيع البقاء، والاستمرار، والهيمنة، من دون الكذب. قال إن التاريخ سوف يبرر لنا هذا الكذب في النهاية!

وفي مرة من المرات قال أنا لست مؤهلاً لقيادة إسرائيل لأنني لا أكذب بشكل كاف! بالرغم من أنه هو نفسه، هذا اللاكذوب، عندما أصبح رئيساً لوزراء إسرائيل كذب على العالم أجمع وأكد بأن عبد الناصر هو من دبر فضيحة لافون لكي يعقد محاكمات صورية لليهود الأبرياء الذين سقطوا بين يديه ضحية لهذه المؤامرة المصرية الكاذبة! ثم انكشفت الحقيقة، بعد ذلك بفترة وجيزة، وعرف العالم كله أن إسرائيل هي من خططت ونفذت تفجيرات المكاتب الأمريكية والبريطانية في القاهرة والاسكندرية؛ لتخريب علاقة عبد الناصر مع أمريكا وبريطانيا! والتاريخ لم يبرر في النهاية هذا الكذب يا أخو الشليتة، بل على العكس، فضحه وفضحكم، الله يلعنكم!

نقلت يمنى نصار قصبة ليّ الشيشة إلى يسراه. وتناولت أذن كوب الشاي الزجاجي الممتلئ لنصفه تقريباً، وصبت ما تبقى من الشاي الدافئ في فمه. ثم أعادت الكوب الفارغ إلى طبقه. وتناولت قصبة ليّ الشيشة من يسراه. سحب نصار نفساً هادئاً طويلاً من دخان المعسل المنكه بعبيق التفاح، ولاحظت عيناه ماء فرغ الشيشة وهو يبقبق، وقد حال لونه إلى الأصفر الباهت من أثر رشح دخان المعسل. كتم الدخان داخل صدره لثوان. ثم نفثه أنفه على مهل دون تعجل.

قادة أمريكا أيضاً لا يعرفون سوى الكذب، ومن قديم الأزل! روزفلت قال مرة أنا على استعداد لأن أكذب كل الكذب الموجود في العالم من أجل أن أكسب في الحرب. وفي السلام أيضاً

وشرفك! يعني من أجل أن تكسب عموماً بشكل عام ياحربوق يا أخو الشليتة!

الكذب متجذر في الثقافة الأمريكية. في الشخصية الأمريكية، منذ نشأة أمريكا؛ عندهم ما يُسمى بالكذب المعمداني!

في ألف وثمانمائة وأربعة، بدأ عندهم النقاش حول مشروعية الكذب. بدأ أولاً في كنيسة في ولاية كنتاكي: هل من حق الرجل الأبيض أن يكذب على الهنود الحمر أم لا؟! والله يا جماعة نحن نريد فقط الكذب من أجل حماية الرجل الأبيض، وحريم الرجل الأبيض، ودولارات الرجل الأبيض، من الهنود الحمر! ومنذ ذلك الحين، صار الرجل الأبيض يكذب على الجميع؛ على الهنود الحمر، وعلى الأفارقة المستعبدين، وعلى الصينين، واليابانيين، والمكسيكيين، بل وعلى الرجل الأبيض نفسه! ملعون أبو الأمريكان!

وملعون أبو اليهود ألف مرة! هنري كِسنجر، اليهودي أخو الشليتة، يعترف في الكتاب الذي كان من المفترض أن أترجمه مع ميلندا؛ أوهام الحرب الباردة أمريكا وأوروبا والاتحاد السوفيتي، أنه كان يكذب بانتظام، وبصفة مستمرة وممنهجة، على حلفاء أمريكا وأصدقائها في اجتماعات حلف الناتو! كان يكذب عليهم بشأن التزام أمريكا بالدفاع عنهم عسكرياً، في حال وقوع صدام عسكري مع المعسكر الاشتراكي! قال في الكتاب إن كلماته الكاذبة كان لها مفعول السحر في طمأنة قادة الناتو. وقال

أيضاً إن كل من خلفوه في منصبه فعلوا نفس الشيء، وكرروا نفس الأكاذيب التي قالها لقادة الناتو! الله يلعن اليهود!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدنى، ونفثه، على دفعتين، من أنفه.

الأمريكان يكذبون على أنفسهم أيضاً، على أنفسهم أولاً وقبل أي أحد آخر! في نهاية فيلم الرجل الذي قتل لايبرتي فالانس يقول الصحفي الذي سمع القصة الحقيقية لعضو مجلس الشيوخ الأمريكي، واكتشف أن سمعته البطولية، هي في الحقيقة ليست من بطولته هو، بل بطولة شخص آخر ظل نكرة طيلة حياته حتى مات، يقول الصحفي، وهو يمزق الأوراق التي كتبها عن القصة الحقيقية ويلقي بها في نيران المدفأة، مبرراً رفضه نشر الحقيقة في صحيفته: نحن في الغرب الأمريكي يا سيدي، وفي الغرب الأمريكي حين تصبح الخرافة حقيقة، ننشر الخرافة. هكذا! هؤلاء هم الأمريكان يا معلم! هذه هي الصحافة الأمريكية النزيهة! هذا هو الإعلام الأمريكي على حقيقته. الفلسطينية أكثر من يعرفون حقيقة الإعلام الأمريكي الصهيوني! نحن أكثر من نعرف الكذب الأمريكي المعمداني! الجنوبيون مازالوا إلى الآن يجادلون بأنهم خسروا الحرب الأهلية الأمريكية لأنهم كانوا صادقين أكثر من اللازم! قد فاز من كذب!

أمريكا الكاذبة ورثت الكذب عن بريطانيا العظمى، أخلاق السلف ورثها الخلف! بريطانيا إمام الكاذبين! خدعت العرب،

حتى من قبل أيام الشريف حسين! ومازالت تخدعهم إلى الآن! كذبوا علينا طوال تاريخهم، ومازالوا يكذبون جهاراً نهاراً. الانجليز أصلاً كذبوا، ويكذبون، على العالم أجمع. ستالين نفسه، رفض تصديق تحذيرات تشرشل عن هجوم ألماني وشيك على الاتحاد السوفيتي، في ألف وتسعمائة وواحد وأربعين، لأن الزلمة كان يعرف الطبيعة الكذوبة لقادة بريطانيا! نفس قصة الراعي الكذوب والذئب!

سحب نصار نفساً طويلاً من دخان التفاح المعسل. كتمه قليلاً في صدره. ثم زفره، على دفعتين متساويتين، من أنفه.

ابتسام محقة، الله يوفقها، الكذب فعلاً هو محرك العالم! أقسم بالله أن أقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، ثم يأخذ في قول كل الأكاذيب الممكنة ليكسب القضية، وسلم لي على الحقيقة يا معلم! الجنوبيون يندمون إلى اليوم، ويلومون أنفسهم، لأنهم كانوا صادقين أكثر من ما ينبغي!

الله يوفقك يا ابتسام.

سأحاول إقناعها بالدراسة في مصر، لا في بيروت. عشت هناك ثلاثة أشهر، ولم أفهم أي شيء! وحتى الآن، لا أفهم شيئاً! أشك أن اللبنانية، أنفسهم، يفهمون لبنان! هذا مجتمع عصي على الفهم وشرفك! بيروت تخرج لسانها لعلماء النفس والاجتماع!

مرة في شارع فردان، رأيت واحد ديلر قواد يبصق ملء فمه

في وجه شرطي، ثم يمضي في حال سبيله! وأمام جميع الناس في الشارع! مشى بمنتهى الهدوء، بينما الشرطي، الملطخ وجهه بالبصاق، كان جسده كله يرتعش، وهو واقف مسمر مكانه! قوة نفسية تاجر الحشيشة! مجتمع غريب! أهله أنفسهم لا يفهمونه، فما بالك بالغريب!

العلاقات الإنسانية هناك معقدة جداً! بالمعنى النفسي حتى، وليس فقط بالمعنى الاجتماعي، أو السياسي. طوائف، وأحزاب، وملل، ونحل، وأعراق. وجنسيات. وعصابات كبيرة، وعصابات صغيرة. ومافيا مخدرات، وزارعو حشيشة كبار، وزارعو حشيشة صغار. وسلاح، ودعارة، ورقيق أبيض. وزعماء سياسيون. وحكماء، وعملاء. وزعماء طوائف. ومظاهرات كل يوم تطوف الشوارع لأسباب قومية كبيرة، ولأسباب خدمية ومرافقية صغيرة.

وضع المجتمع اللبناني يشبه إلى حد كبير نتائج القانون الثاني للديناميكا الحرارية؛ الذي كثيراً ما يستشهد به سامح! الفوضى الناتجة عن اجتماع عنصرين مضطربين أكبر بكثير من حاصل جمع الفوضى في كل منهما على حدة. هذا لو كانا عنصرين فقط فما بالك لو كانوا ستين، سبعين! سبعون طائفة، وحزب، وشيعة، وملة، وعرق، وجنسية، وعصابة، وزعيم، وحكيم، وعميل! لا لا لا، ابتسام يمكن أن تصاب بخلل في جهازها العصبي لو عاشت هناك! زائد أنهم يكرهون الفلسطينية! بالمجمل يعني، اللبنانية يكرهون الفلسطينية، ليست بيروت لنا! ابتسام ستتعرض هناك

لمواقف منحطة لا حصر لها! مصر أفضل بالنسبة لها، على المستوى الشخصي، وأيضاً على المستوى الأكاديمي. إن كانت تريد أن تدرس السياسة، فمصر معمل اجتماعي كبير، يمكن أن تدرس النظريات داخل أسوار الجامعة، وتخرج لتختبر فعاليتها في الشوارع. بيروت تصلح أكثر للدراسات المالية والتسويقية. اللبنانية ليست جنسية، اللبنانية مهنة. شو بتشتغل؟ لبناني. سوبرماركت. سوق حرة داخل ترانزيت في مطار. ليست حرة كثيراً، لكنها، بالتأكيد، سوق بشدة!

سأحاول إقناعها، لكنها عنيدة جداً! مثل عيسى الله يرحمه! ومثل أبي الله يرحمه. ومثل أم عيسى. وشهدي أيضاً! أنا الوحيد الشاذ في العائلة في موضوع العند وركوب الرأس!

شد نصار أربع شدات قصيرة، متلاحقة، من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهم في أربع نفثات قصيرة متساوية، بعد كل شدة نفثة؛ اثنتان من فمه بالتتابع، واثنتان من أنفه بالتتابع.

القاهرة أفضل بالنسبة لها، وبتقدر تندمج مع المصاروة أسهل.

وستحب أيضاً أن تتعرف على الثقافة هنا، وعلى الآثار، والأماكن التي تقرأ عنها. والمصاريف في القاهرة أقل من بيروت، تكاليف الحياة هنا أبسط.

شهدي وعد بالتكفل بمصاريفها في الجامعة. وأنا أيضاً

سأساهم. ابتسام مشروع مشترك! لم يعد لنا إلا العلم، ليس للفلسطيني من سلاح آخر. وقد آتي لزيارتها من حين لآخر. والله الواحد حاسس حاله من ها سَّع إنه راح يفتقد القاهرة! يفتقد كل هذا العبث والفوضى! لذيذ العبث، لذيذة الفوضى!

متعة الحياة في مدينة فوضوية؛ تصحو ليلاً وتنام نهاراً، وتضاء فيها مصابيح الشوارع نهاراً وتطفئ ليلاً!

أم عيسى قد تأتي هي أيضاً إلى هنا وتزور ابتسام من حين لآخر. لكنها بالتأكيد لن تقيم معها في مصر بالدوام، لن تترك الدار في رام الله لحالها، ستمكث هناك وحيدة تتابع إنجازات أبنائها، وتدعو لهم. أما الأمهات فيمكثن في الأرض!

زائد إنه الفرص هون أفضل بعد التخرج بالنسبة إلها. ابتسام شاطرة، وقد تجد عملاً في منظمة دولية، أو تحصل على منحة ماجستير ودكتوراه في أمريكا، أو إنجلترا، أو ألمانيا. وإذا مشى معي الحال وصار لي وضع هونيك، وقتها ممكن تجي تشتغل معي في الجزيرة! المستقبل الآن في الإعلام، عصر التلفزيون. ليش لأ!

الواحد بيحس حاله والله متفائل يا زلمة! ليش التشاؤم! ممكن التشاؤل، لكن التشاؤم لأ. كل شيء منيح إذا جاءت النهايات منيحة، والنهاية في مصر حتى الآن منيحة، رغم غدر ميلندا! الجاحدة، الله لا يوفقها! شايفة حالها على إيش الحربوقة! يلعن

طعطع! كذابون، والله زعما وشعب! الله يلعن الأمريكان!

سحب نصار نفساً طويلاً من دخان المعسل التفاحي. كتمه قليلاً في صدره. ثم زفره أنفه طويلاً بلا عجلة.

لاعبو بوكر غشاشون! يغشون، ويتلاعبون بأعصاب خصومهم بالكذب والحيلة، لا بقوة الورق! هذه هي طبيعة أي أمريكي؛ طبيعة مقامرة، راعي بقر كاوبوي يقامر الجميع، حتى قدره! كل لحظة زمنية تحمل له آمالاً بالمكسب، وتحمل تهديداً بالخسارة. لا يوجد أي وضع مضمون في القمار. ولا وجود لفكرة الرشد، الرشد ينفي القمار. إن كنت رشيداً، فلن تقامر أبداً، حتى وإن كنت تتقن اللعب!

لكن المقامر لا يمكنه أن يتقن لعبة القمار، أبداً، مهما طالت الفترة الزمنية التي يمارس فيها اللعب! لا وجود في القمار لفكرة الخبرة، الخبرة تنفي القمار! إن استمعت لصوت الخبرة، فسوف تنسحب من القمار فوراً. ولا وجود أيضاً لفكرة الإتقان، مهما بلغ المقامر من الذكاء والمهارة لا يمكنه الوثوق بأنه قد أتقن اللعب بحيث تصبح النتيجة مضمونة لصالحه. طول الممارسة لا يحقق الإتقان! أنت في مبارزة عارية مع قدرك؛ لا إتقان، ولا خبرة، على العكس، القيم السائدة عند المقامرين هي الصدفة، والمجازفة. ونفاد الصبر. والإدمان. ونبذ الوعي، وتجاهل الخبرة. والعدوانية! كاوبوي يتعامل مع الآخرين بوصفهم أبقاراً!

وتظل حمى الأمل في الانتصار وإلحاق هزيمة بالقدر مستمرة، لا تستطيع إيقافها صدمات الخسارات المتتالية! حمى منفصلة عن الخبرة التاريخية للمقامر. حتى وإن ربح المقامر، مرة، بعد خسارات متتالية، فإن ربحه ليس نتيجة لتراكم الخبرة، ولكن نتيجة لتجاهل صوتها! صوتها الذي يحثه باستمرار على الانسحاب. يا عمي انسحب يا عمي! طب بينسحب وبيروح على وين يعني! ما هوّ ما إله إلا الاستمرار على الطاولة!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني، ونفثه مسترسلاً من أنفه في دفعة واحدة.

يستمر راعي البقر في المقامرة، يستمر بالرغم من التهديدات الدائمة له من القدر؛ ما يتم ربحه، قد يضيع في أول لعبة تالية. ما من لعبة في القمار تعتمد على اللعبة السابقة لها، ليس للقمار ماض، ليس له ذاكرة؛ رمية نرد واحدة قد تقضي على كل الماضي الثقيل لكل الرميات السابقة! لذلك لا يفهم الأمريكي فكرة المشروع، لا يفهم فكرة التراكم، ولا اعتمادية اللاحق على السابق. لا يفهم إلا الصدمات، والصدفة، والمفاجآت، ورميات النرد، وهوّ وحظه! ولهذا لا يفهم، أيضاً، فكرة الأيديولوجيا وينفر منها، يكرهها ويعاديها. أيديولوجيته الوحيدة هي أيديولوجية مستر ديزي: التاريخ هو المليم!

وإذا ماتت الأيديولوجيا فكل شيء مباح، في عالم لا يعرف إلا النجاح الفردي والانتصار الشخصي! خازوق الفردانية!

مارجريت ثاتشر قالت مرة إنه لا يوجد شيء اسمه مجتمع، هناك فقط أفراد! ناقشت أحمد فرحات حول هذه المقولة، ونحن في بيت ألكس وسامح، وكان محب موجوداً. أحمد فرحات ومحب! توم وجيري. لوريل وهاردي. الفرفور والسيد!

قلت، إن وافقنا مسز ثاتشر على مقولتها بإنه لا يوجد شيء اسمه مجتمع بل أفراد فقط، إذن لا يوجد شيء اسمه دولة بل شركات فقط! ضحك محب وقال: يا ريت! لو تحولت الدولة إلى شركة لضمنا على الأقل إدارة رشيدة للأمور. قال أحمد فرحات وهذا طبعاً في مصلحة رأس المال المتهور، ولكن الطبقات الكادحة هي التي ستدفع التكاليف! قال إنه، عندئذ، سوف تهيمن الفردانية المنفلتة، وتسود الغرائز المنحطة، والعنف كسلوك وحيد بين الناس.

قال محب، ما معناه، إن التعبير الحر عن المصلحة الفردية شيء جيد، وأن الأنانية شيء مفيد على المدى الطويل؛ لأنها ستؤدي عملياً إلى صراع بين المصالح الفردية المتنوعة، ومن هنا تتحقق المصلحة المشتركة، لأن العقلانية والاستنارة تتحققان فقط حين يدرك كل فرد مصلحته ويدافع عنها، وهذا الصراع بين المصالح الفردية سينتهي في النهاية إلى تحقيق نوع من التوفيق بين مصالح الجميع، فيكسب الجميع في وضع ِون ِون سيتيوِشن.

ضحك أحمد فرحات ساخراً ورد قائلاً إن التجربة أثبتت

استحالة التوفيق بين المصالح الفردية؛ لأن المصالح الأقوى سوف تتغلب على المصالح الأضعف، وهذا واضح جداً في الغرب وفي الشرق، وفي الشمال وفي الجنوب، في قضايا مثل الدخل، والسكن، والتعليم، والرعاية الصحية. ثم ضرب مثلاً، لطيفاً، بالصراع بين مستأجر الشقة الذي يريد من مالك العقار أن يقوم بإصلاحات لكي تكون الشقة صالحة للسكن، ومالك الشقة الذي يرى أن نفقات هذه الإصلاحات تتعارض مع مصلحته في الحصول على أعلى إيجار ممكن من المستأجر دون أن ينفق شيئاً على الإصلاحات.

رد عليه محب، بسرعة، وقال ولكن إن تحققت الاستنارة لصاحب العمارة، فسوف يدرك أن إصلاح الشقة سيحقق مصلحته على المدى البعيد، لأنه سيضمن أن العقار سوف يعيش لمدة أطول، وسيكون بمقدوره أن يطالب الساكن بإيجار أعلى. لكن أحمد فرحات قال ولكن الأفراد في المجتمع الرأسمالي لا يفكرون في مصالحهم على المدى البعيد، افتح عينيك وانظر حولك! في الرأسمالية، الناس تفكر فقط في الآن وحالاً وفوراً، ومن غير العقلاني أن نتوقع أن صراعاً بين المصالح الفردية سيؤدي إلى حل توافقي يرضي جميع المصالح، ولهذا وجدت الدول؛ لأن الدولة هي التي تتحمل عبء التفكير في مصالح الجميع، ومصالح المدى البعيد.

قال محب متهكماً إذن طبقاً لكلامك، وإذا مددنا الخط على استقامته، فإن الدول الفرادى التي تتصارع في ما بينها لتحقيق

مصالحها، لا يمكن أن تصل إلى حل توافقي يضمن لها جميعاً الحد الأدنى من تلك المصالح، إلا إذا كانت هناك سلطة عليا فوق قومية هي التي تتحمل عب التفكير في مصلحة الكوكب كله! وضحك ساخراً وقال وبالتالي يا صديقي نصل إلى لب فكرتك الأممية العابرة للقومية، وهي في الحقيقة لا تختلف، في جوهرها، عن فكرة الخلافة الإسلامية وجميع الأفكار الأخرى الأممية الكلية المهلبية الحالمة بمستقبل خيالي، وتتجاهل، عن عمد، جوهر الطبيعة البشرية الأنانية الجشعة. استمر في الحلم كما تشاء يا صديقي، أما أنا فواقعي على دين العم فوكوياما، بالرغم من كراهيتك له!

لا أذكر رد أحمد فرحات، تحديداً، على هذا الحكي، ولكن أذكر أنه قال بإن معاداة النيولبرالية لكل أشكال التنظيم الاجتماعي، والإفراط في الفردانية لدرجة يتحول معها الإنسان إلى وحش جشع لا يكف عن الالتهام مثل الطفل الخامس لدرويس لِسِنج، سوف يولدان إفراطاً في الرغبات، والنهم، والجشع، والانحلال. والعنف، والشغب، والفوضى. وانهياراً للروابط الاجتماعية. وصعوداً للحركات الانفصالية، والميليشيات المسلحة خارج إطار الدولة. وقال إن الأمور سوف تنفلت على نحو غير قابل للسيطرة، إلا بالاتجاه نحو عسكرة الدولة كعلاج أخير للفوضى الفردية. وقال إن الأنظمة الغربية سوف تتجه إلى أساليب القسر والإكراه لفرض النظام بالقوة. وعلقت أنا، وقلت إن النيولبرالية العالمية السعيدة على طريقة فوكوياما ما هي إلا وهم

في وهم! ووافقني أحمد فرحات، وقال، مؤكداً، إنها وهم الأوهام، وحين سيبدأ الناس في إدراك أي وهم هي، ستقوم الأنظمة الغربية في الأغلب بمحاولة إزاحة الغضب الجماعي ذاك، وتحويله إلى مكان آخر، قد يكون في اتجاه دولة منافسة، أو مجموعة عرقية معينة، واتهام هؤلاء بأنهم هم السبب، وأنهم هم من يخلقون الفوضى، ويسببون الخراب!

سحب نصار نفسين قصيرين من دخان التنباك التفاحي، ونفثهما من فمه في نفثتين قصيرتين؛ بعد كل سحبة نفثة. أعقبهما بنفس طويل، نفثه من أنفه في بطء.

قال أحمد فرحات، يومها، إن الكثيرين من المغفلين سيُخدعون فعلاً وسينساقون وراء عسكرة المجتمع. وسألته من تقصد بالمغفلين؟! قال إنهم، ووفقاً للتصنيف النيولبرالي، هم الفاشلون الذين يعملون في مطاعم ماكدونالد وكنتاكي، وعمال البناء، ورجال المطافئ، والمدرسون، وجميع الآخرين الذين تصنفهم النيولبرالية بأنهم فاشلون، هؤلاء هم المغفلون، هم وجميع الحالمون بالثراء السريع عن طريق الاستثمار التافه في الأسهم التافهة في مجتمع تسوده أخلاقيات الجشع الرأسمالية!

قال محب ساعتها؛ ولكنكم لا تستطيعون إنكار حالة الرفاهة الاجتماعية التي تنعم بها مجتمعات الدول الاسكندنافية، مثلاً، بالرغم من أنها دول رأسمالية! ورد عليه أحمد فرحات وقال إن المسألة في الدول الاسكندنافية ليست في كونها يوتوبية، ولكن في

أنها تظل مع ذلك هي الصورة المثلى لنفس النظام الفاسد القائم على الجشع والظلم والاستغلال.

ثم استشهد بفيلم وول ستريت لأوليفر ستون الذي يحبه كثيراً، لأن كلاهما شيوعي، وقال إن هذا الفيلم العظيم قد شخص ولخص المرض الرأسمالي في وقت مبكر جداً في بدايات النيولبرالية. وأن تعاليم جوردن جيكو سمسار البورصة الشاب في وول ستريت هي: الجشع، والمزيد من الجشع، والمزيد المزيد من الجشع! والمزيد من الاستغلال، والمزيد من النهم، والمزيد من العنف. والمزيد من الوهم!

ثم التفت لسامح، وسأله هل تتذكر جملته في الفيلم التي قال فيها إننا في أمريكا لسنا في ديمقراطية، بل في سوق حرة! وابتسم سامح وأكمل الجملة التي يحفظها عن ظهر قلب: إننا لسنا في ديمقراطية، بل في سوق حرة، والسوق الحرة تقوم على بيع الوهم، هذه اللوحة اشتريتها بستين ألف دولار، وأنا الآن قادر على بيعها لو أردت بستمائة ألف، إن لعبتنا هي بيع الوهم، وهي لعبة صفرية، لا تتوقف إلا بالمكسب الكامل لنا والخسارة الكاملة للخصم!

هلل أحمد فرحات وقال: هوّه ده الله عليك يا فنان! وهل تفعل الرأسمالية طوال تاريخها إلا هذا! بيع الوهم! بيع الوهم، والتشجيع على الإفراط، والمزيد من، وأن الجشع هو الفضيلة! تعاليم جوردن جيكو تسود الآن في العالم كله في ظل وعي

مشوش للمغفلين الذين تم تزييف وعيهم، وتحويلهم إلى مجرد كائنات استهلاكية طفيلية تستهلك ما لا تحتاجه بإفراط! وخطوة أخرى إضافية كافية ليتجرد هذا الكائن الاستهلاكي بسهولة من غطائه المتحضر مكشراً عن أنياب الوحش!

تدخلت أنا متحمساً في النقاش، واقترحت أنه ربما كان علينا الاستعانة بتمييز لاكان بين المستمتع المستنير، والمستمتع المتهور؛ المستمتع المستنير هو من يحسب لذاته بحرص كي يديم المتعة ويتجنب أذاها، في حين أن المستمتع المغفل مستعد لاستهلاك كامل وجوده في إفراط مميت للذة! مدمن مخدرات يدمر ذاته! والمجتمع الاستهلاكي اليوم بات ينزلق أكثر فأكثر نحو الإفراط في المتعة اللامستنيرة، والبورنوجرافيا مثال على ذلك! الوعد في كل فيلم جديد هو جنس أكثر إفراطاً، وممارسات فوق طبيعية؛ سادية، ومازوخية، ومثلية، وشيميلية! وكله وشرفك مشروع مادامت هذه الممارسات تتم برضى تعاقدي، ومادامت تظهر لوحة في بداية الفيلم تؤكد التزام الفيلم بالقوانين الفيدرالية المرعية! شذوذ وتجارة عبيد مشروعة مادامت تتم برضى الطرفين!

أعجبت الفكرة سامح وأحمد فرحات كثيراً!

لكن محب كان في عالم آخر، انفصل عن المناقشة لما وصلت صبية فرنسية نحيفة شقراء، لا أعرفها، صديقة لألكس وصلت القاهرة من فترة بسيطة للعمل في المركز الثقافي

الفرنسي. كان يحاول التقرب منها. محب مستمتع مستنير!

سحب نصار نفسين قصيرين من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهما من فمه؛ بعد كل سحبة نفثة. ثم شد شدة عميقة، نفثها أيضاً من فمه في خط بخاري دافئ متصل.

سمعتها تسأله، بعربية بلكنة فرنسية، عن مهنته؟ أجابها، بجدية شديدة، أنا تاجر موبليا، وفي نفس الوقت أبيع بيضاً. سألته الصبية مدهوشة وما العلاقة بين البيض والموبليا؟! فرد عليها، بنفس الجدية، مستغرباً من جهل السائلة وقال ما العلاقة! ألا تعرفين يا شيري أن هناك رسومات في معابدنا الفرعونية لبيض كبير وبجواره رمح طويل؟ سألته البنت، ولم تفهم بعد أنه يهرج، حقاً؟! قال لها طبعاً شيري! إن كهنتنا يا عزيزتي هم أول من ألفوا كتباً عظيمة في فنون الجنس! كتبوها بدمائهم، ودموعهم، ولبنهم! ضحكت البنت كثيراً. علقها!

سامح وأحمد فرحات لم ينتبها للأمر، كانا غارقين في حمى مناقشة حول الأفلام الأمريكية.

سحب نصار نفساً عميقاً من دخان الشيشة. كتمه في صدره لثوان. ثم نفثه متصلاً من أنفه.

سامح كان يحكي أن هوليود الآن لم تعد كما كانت في الماضي.

كانت في ما مضى مصنعاً للأحلام، وصارت الآن مولاً للأوهام!

كانت ستوديوهاتها تحرص على قيم الموهبة. وتسلسل العمل. واحترام الخبرة. والتنظيم، والكفاءة الإدارية. والعناية بالتفاصيل. ومتانة الشخصيات الدرامية. والتماسك العضوي للدراما. والوحدة الأسلوبية للفيلم. وصارت اليوم لا تحتفي سوى بقيم الإفراط، والحشد، والفوضى. وبهرجة الصورة المنفلتة عن معناها. وإهدار التماسك العضوي. وفوضى الأساليب في الفيلم الواحد. والوقوع في غرام التكنولوجيا لذاتها. وتكريس أخلاقيات الجشع والنهب!

علق أحمد فرحات وقال إن هذا هو التجلي الفني لثقافة الإفراط الاستهلاكي. وانعكاس لطبيعة التغير الذي حدث في المجتمع الأمريكي فلم تعد الآن الأولوية للعمل المادي الذي ينتج سلعاً صناعية حقيقية، ولكن لأشكال العمل التي من قبيل المضاربات في البورصة، والاستثمارات العقارية، والسياحة. وتجارة الاتصالات. والاقتصاد الخدمي والترفيهي بشكل عام.

قال إن هذا ربما يكون هو المسؤول عن أفول الهالة التقليدية لنجوم هوليود الذين عرفناهم في الأربعينيات والخمسينيات. جون وين. وهمفري بوجارت. وجين كيلي. وهنري فوندا، وجيمس ستيوارت. وكاري جرانت، وجريجوري بك. وجيمس كاجني. وكلارك جيبل. كانت هوليود تحرص على إظهارهم في صورة

الأشجع، والأنبل، والأذكى. والأكثر خبرة ومهارة. لكن هوليود اليوم وصلت إلى القاع مع النوعيات الجديدة من أبطالها من اللصوص والمحتالين. والبلهاء والسذج. والمسوخ. حدث أفول للانبهار بهالة الخبرة، لصالح الانبهار بهالة السخافة. والحشد. والإفراط الحسي. والبهرجة البصرية. سبقت الوسيلة الغاية، وأصبحت الأدوات هي التي تستخدم صانع الفيلم، لا صانع الفيلم هو الذي يستخدم الأدوات. ساد قانون النيولبرالية على منطق صناعة الأفلام في هوليود. الصدمات العنيفة، والإفراط، وحشد كل السلع على أرفف المول!

وافقناه بشدة على ملاحظاته، واستشهد سامح بأفلام مثل الفطيرة الأمريكية. وصبيان مشاغبون. ورامبو. وسوبرمان، والرجل الوطواط. وحديقة الديناصورات. وقال إن هوليود تصور الشر والفساد في تلك الأفلام بوصفهما مسألة فردية فقط؛ مسؤول عنها رئيس العصابة، أو الديناصور، أو الشيطان. أو النازي الألماني، أو الشيوعي الروسي. أو الإرهابي الفلسطيني. وبالتالي يتكرس في وعي المشاهد أن الحل فردي، أيضاً، بصلاح الأخلاق الفردية، والقضاء على رئيس العصابة، أو الديناصور، أو الشيطان، أو النازي الألماني، أو الشيوعي الروسي، أو الإرهابي الفلسطيني. ويبقى السِستم نفسه يا معلم سليماً لا يُمس!

وقلت أنا، إن الاستمرار في الإلحاح على أن الفرد هو المسؤول، وحده، عن أوضاع الفساد والظلم والاستغلال في المجتمع، يرفع اللوم عن المسؤول الحقيقي؛ الذي هو السياسات

الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، التي تتسبب في الظلم والفقر والاستغلال.

قال أحمد فرحات إن ملاحظاتنا، أنا وسامح، ذكية للغاية لأن هوليود فعلاً تشوش وعي المشاهد وتزيفه؛ بالإحالة إلى أسباب هامشية، وصب اللعنات على الكائنات الفضائية، والديناصورات، ورؤوساء العصابات، والشياطين، والروس، والنازيين. والسود المجرمين. والمكسيكيين اللصوص. أو حتى على قلة من الفاسدين من التكنوقراط في النظام نفسه. وتعفي بذلك نمط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع من تحمل المسؤولية، وبهذا تمهد الوعي للخضوع للنموذج الاقتصادي والاجتماعي القائم أكثر وأكثر، لأنها تخاف من مقولة ماركس بأن صعود الرأي العام يكون دائماً في تعارض مع مصالح الرأسمالية.

وتحمست أنا وقلت إنه لهذا السبب يشجع رأس المال الهوليودي أفلام الحروب الأخلاقية؛ التي تزرع في وعي المشاهدين أن الصراعات هي صراعات فردية أخلاقية، لأن الحروب الأخلاقية تحافظ على المستهلكين تحت السيطرة، وتسمح لهم، في نفس الوقت، بالتنفيس عن غضبهم بدون تهديد للمصالح الرأسمالية القائمة.

أعجب الحكي أحمد فرحات وقال، مؤيداً كلامي، إن صانع الدراما الأمريكي يصور الصراع المجتمعي على أنه صراع بين

اليوتوبيا والديستوبيا، بينما في الحقيقة أن كلاهما هو صورة لنفس الوضع القائم؛ أي صراع الصورة المثالية ضد الصورة الفاسدة من نفس النظام الظالم!

سحب نصار سحبتين طويلتين من دخان التفاح المعسل، وزفرهما على مهل في زفرتين طويلتين متساويتين من أنفه؛ بعد كل سحبة زفرة.

أضافت ألكس فكرة مهمة للنقاش. كانت تنتظر لسامح وهي تحكي، لتطمئن على سلامة الفكرة، وغالباً الفكرة هي فكرته هو أصلاً! كان ينظر لها مبتسماً في حنان، وعيناه فخورتان بها وهي تتكلم.

حكت أن الكود الأخلاقي لهوليود الآن قد تغير عن ما كانه في الأربعينيات والخمسينيات. كانت هوليود تتشدد، حينها، تجاه الجنس، والمخدرات. لكنها صارت اليوم، على عكس السابق، تتسامح كثيراً معهما. واستشهدت بفيلم الفطيرة الأمريكية، وكمية الإفراط الحسي فيه. قالت إن الفيلم كله يدور عن كيفية نجاح الشباب في مضاجعة الصبايا، وأن الصراع الوحيد في الفيلم كله هو حول من يضاجع من؟ ولا يقتصر الأمر على الكلام الإباحي المكشوف، والنكات الجنسية الفاضحة، ولكن هناك أيضاً ظهور للأعضاء التناسلية للممثلين، وسخافات أخرى كثيرة، واستخدام للأقزام على نحو مقزز، وفرض ممارسات شاذة على المتفرج بوصفها شيئاً طبيعياً!

قال سامح إن هناك فيلماً أمريكياً سبق هذا الفيلم اسمه ِرسكي بزنس، البطل فيه مراهق قواد، يربح كل شيء في نهاية الفيلم، ويحل كل مشاكله المالية، بل ويتم قبوله في جامعة برنستون العريقة، بغير استحقاق، لأنه قدم رشوة جنسية للمسؤول عن قبول الطلبة بالجامعة. هذا القواد المراهق يكسب أكثر من ثمانية آلاف دولار في الليلة الواحدة؛ من جراء تحويل بيت أبويه، الغائبين، إلى ماخور لممارسة الدعارة بين أصدقائه المراهقين في المدرسة الثانوية والمومسات. يتحقق المراهق القواد، في النهاية، من الناحية الجنسية، والمالية، والاجتماعية، ويحترمه أصدقاؤه ويحرصون على مصاحبته وإرضائه.

ساعتها قال أحمد فرحات إن اللاأخلاقي صار الآن هو من يربح في هوليود. ثم قال جملة عظيمة! قال إن التعبير الفني إن لم يكن واعياً، فإنه يحول الفساد المطلق إلى قداسة، لأنه يعرض الهالة منزوعة عن كلفتها الأخلاقية! رائع أحمد فرحات! جملة جميلة، قوية! التعبير الفني إن لم يكن واعياً يحول الفساد المطلق إلى قداسة لأنه يعرض الهالة منزوعة عن كلفتها الأخلاقية.

شد نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني. كتمه لثوان في صدره. ثم نفثه من أنفه مسترسلاً.

أعجبت الجملة سامح كثيراً. وألكس! ألكس راحت تهز رأسها بشدة، عدة مرات، وتفتح عينيها على اتساعهما. أعجبتنا جميعاً. حتى محب، الذي سمعها وصارت أذنه معنا، بعد أن اطمئن أنه

علق الصبية!

قال سامح إن معظم السينمائيين في أمريكا الآن قد تحولوا إلى عبيد لرأس المال الهوليودي، وصاروا يصنعون أفلامهم بنفس طريقة حشد السلع على أرفف المولات، ودخلوا في منظومة الإنتاج العام للبضائع الاستهلاكية، حتى لم تعد تعرف الفرق بين الفيلم والإعلان الدعائي للسلعة. إلا أنه، رغم ذلك، مازال هناك بعض الفنانين الشرفاء الأكثر وعياً، المستمرون في محاولة نقد السياسات النيولبرالية. وضرب مثلاً بمايكل مور. وأوليفر ستون؛ الذي يحبه أحمد فرحات كثيراً لأنه شيوعي مثله. وحكى عن فيلم أمريكي جديد، لم نكن قد شاهدناه، اسمه نادي القتال. قال إن هذا الفيلم ينتقد أخلاقيات المجتمع الاستهلاكي، الذي يستهلك المستهلك نفسه، والذي يحول المستهلك إلى بضاعة وزبون في نفس الوقت! المستهلك العبد لصنم السلعة. وهو أيضاً فيلم عن الفراغ المعرفي لدى الجيل الحالي من الشعب الأمريكي؛ المضغوط والمطحون، والغاضب، والذي يمكن بسهولة تجنيده، وإقناعه بممارسة العنف، بسبب الفراغ المعرفي، وغياب الخريطة الإدراكية لديه.

تحمس أحمد فرحات كثيراً لمشاهدة الفيلم، فدعانا سامح لمشاهدته عنده في المساء التالي، وكان محب موجوداً أيضاً، وشاهدناه في حجرة الاستقبال، على شاشة التلفزيون العشرين بوصة، في الظلام، وأكواب البيرة، ومزة الفول السوداني المملح، والفول النابت، وكان الطقس سينمائياً جداً! أكثر حتى من حضوره في دار السينما نفسها!

ذكر سامح أن الفيلم قد عُرض قبل عامين في القاهرة، لكنه لم يحظ بإقبال جماهيري، مثل حاله عند عرضه في بقية أنحاء العالم التي عرض فيها ولم يحظ أيضاً برواج جماهيري. وقال إنه يعتقد، رغم ذلك، أن الفيلم سيكون واحداً من أهم أفلام هذا العقد، وربما يكون من الشائق مقارنته بأفلام مثل ثائر بلا قضية. والخريج. بل وحتى البرتقالة الآلية لكوبرِك!

الفيلم يحكي عن إدوارد نورتن؛ الموظف في شركة كبرى لصناعة السيارات. وظيفته هي التفاوض بشأن التعويضات الناشئة عن الحوادث التي تتسبب فيها عيوب الصناعة للسيارات التي تصنعها شركته. وهو دائم السفر هنا وهناك، لتسوية المنازعات والقضايا التي يرفعها الزبائن، بعد وقوع حوادث لهم بسيارات الشركة.

ويعاني من أرق مزمن، أرق عضال! فيذهب إلى طبيبه ليصف له دواء منوماً يساعده على النوم، لكن الطبيب يرفض؛ خوفاً على صحته! أي والله، خوفاً على صحته!

يقول له إدوارد نورتن إنه يتألم بشدة نتيجة عدم قدرته على النوم، فيرد الطبيب اللطيف ويقول له إنه لا يعرف شيئاً عن الألم الحقيقي، وإنه إذا كان يريد أن يرى الألم الحقيقي الذي يعاني منه البشر فعلاً، فعليه أن يذهب ويحضر جلسة من جلسات مجموعات الدعم النفسي لمرضى السرطان، وهناك سيرى بعينيه أناساً حقيقيين يتألمون ألماً حقيقياً!

يقول له الطبيب إن إدراك مدى المعاناة الحقيقية للناس، سوف يساعده في التغلب على الأرق واضطرابات النوم. يعني، نوع من التنوير واليقظة. يرى مدى تفاهة معاناته مقارنة بمعاناة الآخرين الذين يتألمون ألماً حقيقياً عن جد!

وفعلاً، يذهب إدوارد نورتن ويحضر مجموعة دعم نفسي لمرضى سرطان الخصية، متظاهراً بأنه هو أيضاً مصاب بسرطان الخصية! ويجدي معه الأمر، فعلاً! وتتحرر عواطفه المكبوتة، ويبكي في أحضان الرجال المصابين بسرطان الخصية، ويخفف ذلك من أرقه، ويبدأ فعلاً في الاستمتاع بالنوم الذي جافاه منذ فترة طويلة.

ثم يبدأ الإدمان، يدمن الموضوع! يصير غير قادر عن الاستغناء عن حضور مجموعات الدعم النفسي للمرضى، مرضى السرطان، والمرضى المصابين بأمراض خطيرة ومستعصية أخرى؛ سرطان الخصية، والأورام الليمفاوية. والسل. والمصابون بالطفيليات. الطفيليات الدموية، وطفيليات الدماغ. ضحكنا في مشهد في الفيلم عندما وجد إدوارد نورتن متطفلة أخرى، مثله، تحضر مجموعات الدعم النفسي، لأن الجلوس في القاعة مجاني ولا يكلفها شيئاً، مثل دخول السينما، مثلاً، بالإضافة إلى أنهم يوزعون خلال الجلسات قهوة مجانية أيضاً! يقول لها إدوارد نورتون إنه لا يريد أن يراها بعد اليوم في أي مجموعة يحضرها، لأن رؤيته لها تمنعه من الاندماج والانخراط في طقس البكاء في أحضان زملائه المرضى! يقول

لها لا أستطيع البكاء في وجود شخص مزيف آخر! ها ها ها!

ثم يتفقان في النهاية على تقسيم المجوعات بينهما. ويأخذان في المساومة! خذي الأورام الليمفاوية، والسل، وسآخذ أنا الطفيليات! لا، لن تأخذ الطفيليات كلها! يمكنك أن تأخذ الطفيليات الدموية، وأنا سآخذ طفيليات الدماغ! وخذ أنت السل، أنا لا أريد السل. لماذا لا تريدين السل؟! لأن التدخين هناك ممنوع! ها ها ها! طيب، ولكن بالتأكيد لا مجال لكِ إطلاقاً في سرطان الخصية! ها ها ها! ضحكنا كلنا وقتها!

حكى سامح أنه عند تصوير الفيلم، شرع إدوارد نورتن في البدء في عملية طويلة ومرهقة لتجويع نفسه، بينما كان براد بت، على العكس، يزيد من جرعات التمرينات الرياضية، وحمامات الشمس على الشواطئ! كان براد بت كل يوم يقترب أكثر وأكثر من الكمال، بينما إدوارد نورتن ينحدر نحو التلاشي! يا عيني على الممثلين الفاهمين!

سحب نصار نفسين طويلين من دخان المعسل المنكه بالتفاح، ونفثهما، تباعاً، من فمه في نفسين طويلين؛ بعد كل سحبة نفثة.

في إحدى سفريات إدوارد نورتن، يقابل براد بت على متن الطائرة ويتعرف عليه، جاره في المقعد المجاور. هناك مشهد حلو عندما ينهض براد بت ليذهب إلى مرحاض الطائرة، ويكون عليه أن يمر من أمام إدوارد نورتن، الجالس بجواره. يقول له

براد بت: لو سمحت يعني، سؤال في اللياقة، من بعد أذنك، عندما أمر من أمامك هل تفضل أن أعطيك مؤخرتي، أم إيري؟! ها ها ها! شوف التخيير! مؤخرتي أم إيري؟! كالمستجير من الرمضاء بالنار، ها ها ها! ما هو لازم تاخد إيشي! حتماً ولابد تاخد إيشي! والله ما بيصير يا زلمة! مؤخرتي أم إيري؟! والخيار إلك يعني في كلتا الحالتين!

براد بت صانع صابون وبائع صابون؛ صابون فاخر، من أفخر أنواع الصابون، يصنعه من شحوم الأغنياء! ها ها ها! يتسلل ليلاً إلى المستشفيات الكبرى التي يجري فيها الأغنياء البدناء عمليات شفط الدهون، ويسرق أكياس الشحوم المشفوطة، ويصنع منها الصابون الفاخر، الذي لا يقدر على شرائه إلا الأغنياء! ها ها ها! صابون مصنوع من أغلى الشحوم! لو تعرف كم دفعوا ليراكموا هذه الشحوم في أجسادهم! وكم دفعوا ليتخلصوا منها! ها ها ها! ضحكنا وقال أحمد فرحات: من دقنه وافتله! يبيع لهم دهونهم التي تخلصوا منها!

في نفس الليلة التي تعرف فيها على براد بت في الطائرة، يعود إدوارد نورتن من المطار إلى شقته، ويفاجأ بأن انفجاراً غريباً قد دمرها تماماً! تسرب غاز، على ما أتذكر، تسرب غاز من المطبخ.

يقول إدوارد نورتن إنه لا يوجد أي طعام في مطبخي، وبالرغم من هذا، فهو مليء بكل أنواع التوابل والبهارات من

جميع أنحاء العالم! نفس حال الحضارة الاستهلاكية! حضارة الرأسمالية النيولبرالية. حنة أرندت لها عبارة قوية في كتابها في العنف، تقول إننا قد وقعنا تحت لعنة ساحر جعلنا قادرين على فعل المستحيل في نفس الوقت الذي فقدنا فيه القدرة على فعل الممكن! صرنا قادرين على إنجاز أعظم الأعمال، وفي نفس الوقت عاجزين عن الاستجابة لاحتياجاتنا اليومية! توجد موبايلات، وروبوتات، وصواريخ فضاء، لكن الخبز ناقص! منزلي مليء بالتوابل، لكن لا يوجد عندي طعام!

سحب نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني، ونفثه متصلاً من أنفه.

وبسبب حياته الخاوية من أي أحد، وعدم وجود شخص يمكنه الاتصال به، أوالفضفضة معه في مصيبته تلك، يقرر إدوارد نورتن الاتصال بالغريب الذي قابله في الطائرة، وكان قد أعطاه بطاقته وفيها رقم هاتفه، ثم يتقابلان في بار، ويجري بينهما نقاش حول النزعة الاستهلاكية التي تستعبد الإنسان المعاصر.

نحن منتجات لما نشتريه! نحن نتاج سيطرة هاجس الشراء. تلفزيون بخمسمائة قناة. اسم شخص مشهور على ملابسي الداخلية. فياجرا. أوليسترا. مارثا ستيوارت، اللعنة على مارثا ستيوارت! قمصان سي كى. أحذية دكني. ربطات عنق آيكس. منزلي مليء بالتوابل ولا يوجد عندي أي طعام!

أصبحت مثل كل الناس عبداً للمظاهر، أشتري بضائع لا أحتاجها لأنها ماركات شهيرة قرأت إعلاناتها في المجلات. كنا نقرأ المجلات الإباحية، فصرنا الآن نقرأ كتالوجات البضائع الاستهلاكية!

منزلي مليء بالمكانس الكهربائية. ومناضد القهوة. والأثاث المكتبي. ودراجات التمارين الرياضية. والأرائك. وأجهزة الستريو عالية الجودة. والثياب الفخمة. وأطقم الميكروويف. وزجاجات الشامبو المستخلص من الأعشاب والجذور. ومطهرات الفم النباتية. وقوالب الصابون صديق البيئة. وحتى المصابيح الكهربائية التي عندي هي من ورق صديق للبيئة!

أتصفح كل يوم كتالوجات البضائع، وأتساءل: ما هي أواني الطهي الجديدة التي سوف أشتريها؟! اشتريتها كلها! حتى الأطباق الزجاجية صديقة البيئة، التي تمتلئ بالشوائب والفقاعات الهوائية، كدليل على أن صانعيها هم من الكادحين الشرفاء من الشعوب البدائية لا أدري من أي مكان بالعالم! بيتي مليء بالتوابل ولا يوجد عندي أي طعام!

الجريمة والفقر والقتل مسائل لم تكن تهمني! كل ما كان يهمني هو مجلات المشاهير، وملابسهم، وما يقتنونه في حياتهم العصرية. والآن ضاع كل هذا!

يقول له براد بت وهل كل هذا ضروري؟! هل هذا ضروري

لبقاء الإنسان! الإنسان في الأصل صياد، نحن صيادون، لكن حضارة اليوم حولتنا إلى جامعي سلع لا نحتاجها!

حكى سامح أن مخرج الفيلم، ديفِد فنشر، رد مرة على سؤال لأحد النقاد، وقال إن الإنسان قد ُخلق في الأصل ليكون صياداً. صياد بالغريزة، صياد في جيناته، صياد في شفرته الوراثية! لكن هذا الصياد يجد نفسه اليوم مضطراً للحياة في مجتمع التبضع! البضائع، والحوانيت، والسوق. ولا يوجد من يمارس عليه غريزة الصيد. لا يوجد من يمارس عليه غريزة القتل. لا يوجد من يمارس عليه غريزة التوق للانتصار. غريزة التغلب، غريزة القهر، الغريزة التي من أجلها وجد الإنسان على سطح الأرض. الإنسان الصياد المقاتل يحيا الآن في مجتمع مخصٍ. قلت لحظتها، فوراً، وقد تذكرت عبارة من نص لدولوز بعنوان ذئب واحد أم ذئاب عديدة: نحن نحيا في مجتمع مخصٍ، وهو خاصٍ في الوقت نفسه! ونحن مخصيون بقدر ما نحن خاصون! نحن الذئب الخاصي المخصي!

أعجبتهم العبارة جداً! سامح وأحمد فرحات يحبان دولوز. محب لم يقرأه بعد! لكنه وجدها فرصة لتأكيد ما يعيد تأكيده في كل مناسبة من أن الرأسمالية لا تفعل أكثر من أنها تحترم غريزة الصياد تلك، وأنها أدركت منذ زمن بعيد هذه الطبيعة المتأصلة في الإنسان، وتحاول فقط أن تغلف الأمور بخلاف حضاري رشيد، ولهذا فهي النظام الاقتصادي والقيمي والحضاري الذي سيستمر إلى الأبد وسيسود إلى نهاية التاريخ، وحكي من ها

النوع!

رد عليه أحمد فرحات ضاحكاً وقال وسنستمر نحن في محاولات إقناعك بأن كل هذا ليس سوى وهم كبير!

لكن أحمد فرحات كان يتجنب الدخول في مناقشات طويلة مع محب أثناء مشاهدة الفيلم. كان أكثر تركيزاً في المشاهدة. يكتفي فقط بإبداء ملاحظات سريعة. ملاحظات نافذة من حين لآخر. أو يضحك. لكنه لا يسمح لحكي محب بأن يشتت انتباهه. بيكون الفوكس تبعه على إيشي واحد بس، الفيلم!

أحمد فرحات أكثر إخلاصاً في المشاهدات السينمائية، يحترم السينما كثيراً، أكثر من محب! يعدها شيئاً أكبر من مجرد تسلية فنية وانبساط. شيء كاشف للحياة. وللقيم السائدة. وللعلاقات بين الطبقات.

شد نصار نفسين طويلين من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهما، تباعاً، من أنفه في خطين متساويين؛ بعد كل شدة خط دخاني منفوث.

براد بت يقول لإدوارد نورتن: دعك من كل هذا يا رجل! كل هذا سوف ينهار! دعك من أريكتك. دعك من وسادتك المخططة بالأخضر. إنها مجرد أثاث، مجرد سلع فقط لا غير! ليست مأساة! أقول لك، لا تكن مستهلكاً مثالياً!

ضحك أحمد فرحات، ونظر لمحب وقال: سامع يا عم الحَج! وضحك محب.

الأشياء التي تملكها أصبحت تملكك! حطم تفاهاتك الأنيقة! أقول لك، انطلق وأينما ترسو السفينة أرس معها! أطلق جنونك يا رجل!

في الفيلم، عندما يخرج كلاهما من البار ويقفان في الهواء الطلق، يطلب براد بت من إدوارد نورتن أن يلكمه بقوة في وجهه، ويفعل ذلك فعلاً، يطلق جنونه! يطلق غريزة الصياد المقاتل المكبوتة بداخله. يحرر روحه. ثم ينخرطا في عراك ولكمات، ويتجمهر عدد من الرجال خارج الحانة ويشتعل حماس الجميع. ويكتشف إدوارد نورتن أنه قد ارتاح بعد هذا العراك، ويذهب لينام في بيت براد بت هنيء البال.

ثم يتكرر الأمر على نحو منتظم، ومنظم؛ يتقابل براد بت وإدوارد نورتن وبقية الرجال الذين تجمهروا خارج الحانة، في قبو إحدى الحانات، ويشكلوا نادياً للعراك، نادياً للقتال، يضربون فيه بعضهم البعض ليشعروا بعدها بالراحة وتهدأ أرواحهم!

في إحدى المرات يرى براد بت وجوهاً جديدة لرجال لم يرهم من قبل، فيعنف رجاله قائلاً إنهم قد خرقوا أول وثاني قاعدة في نادي القتال! القاعدة الأولى في نادي القتال هي أن لا تتحدث مطلقاً عن نادي القتال! والقاعدة الثانية في نادي القتال هي أن لا

تتحدث مطلقاً عن نادي القتال!

علق محب قائلاً إنها نفس القاعدة الأولى في كل المنظمات السرية والإرهابية! وقال إنها جميعاً نشأت مما ظنه أعضاؤها فكرة نبيلة، ولكنها تنتهي إلى أن تصبح شراً كارثياً. استشهدت أنا بقول لهيجل من ظاهريات الروح؛ بأن الشر ينبع من التحديق الطويل في الخير. واعترض أحمد فرحات وقال لا، ليس صحيحاً، ونيتشه كان أكثر توفيقاً في التعبير عن الحقيقة عندما قال إنك إن حدقت طويلاً في الهاوية فإن الهاوية سوف تحدق إليك! وقال سامح وهو يبتسم في خبث إن هيجل ونيتشه كلاهما كان على حق، وإنهما كانا يقصدان الشيء نفسه!

فريد من نوعه سامح والله!

سحب نصار ثلاثة أنفاس قصيرة من دخان التنباك التفاحي، ونفثهم من أنفه في نفثة واحدة طويلة.

يتطور الأمر أكثر وأكثر، وتظهر فروع لنادي القتال في كل مكان في أمريكا، في كل مدينة، وفي كل بلدة في جميع أنحاء أمريكا! وتصبح أندية القتال كلها تحت قيادة براد بت. أندية قتال يتقابل فيها الرجال لكي يتعاركوا بالأيدي ويضربوا بعضهم بعضاً. أندية قتال تعادي المادية والنزعة الاستهلاكية. أندية قتال تسعى لتحرير أرواح الرجال، وتحرير غريزة الصياد الموجودة داخل كل منهم.

فيلم ذكوري، والله ذكوري بامتياز! ذكور ضد الرأسمالية. ذكور ضد احتكارات الشركات الكبرى.

وينشئوا، بعد ذلك، مشروعاً يسمونه مشروع الفوضى، ويقوموا بعمليات تخريب ممنهجة ضد مصالح الشركات الرأسمالية، وضد كل مظاهر الأنشطة الاستهلاكية الاستغلالية. حتى أن ضباط الشرطة أنفسهم ينضمون لهذه المنظمة!

ثم يقومون في النهاية بتفجير مقرات شركات البطاقات الائتمانية، ليحرروا الناس من ديونهم! ويفجروا مقرات كبرى أيقونات الرأسمالية الاحتكارية! وترجع الرأسمالية إلى مرحلة الصفر!

صفق أحمد فرحات مثل الأطفال في هذا المشهد! ظننت أنه يوشك على الوقوف والهتاف بقبضة يده كأنه في مظاهرة!

سحب نصار نفسين قصيرين من دخان المعسل التفاحي، وزفرهما في زفرة واحدة طويلة متصلة من أنفه.

هناك خطاب جميل يقوله براد بت لأعضاء نادي القتال.

أرى أمامي أذكى وأقوى الرجال على الإطلاق، ثم أرى كل هذه الإمكانيات وهي تتشتت وتتبعثر، اللعنة! إن جيلاً بأكمله من الموهوبين صاروا الآن يعملون في محطات البنزين، ويخدمون على طاولات مطاعم الوجبات السريعة! لقد استعبدنا ذوو الياقات

البيضاء! لقد تملكتنا الإعلانات ودفعتنا لمطاردة الملابس والسيارات! نعمل في وظائف نكرهها لكي نشتري تفاهات لا نحتاجها!

نحن أطفال خريف التاريخ! بلا هدف ولا مأوى! بلا حرب عظمى نخوضها! ولا حتى كساد عظيم يسحقنا! إن حربنا العظمى يجب أن تكون حرباً روحية أساساً، وكسادنا العظيم هو كساد أرواحنا ذاتها!

تحمس أحمد فرحات وصاح: الفيلم ده عن الشيجالوفية! كلنا عبيد، وكلنا متساوون في العبودية! وابتسم سامح وقال: الحرية المطلقة للعُشر، وباقي التسعة أعشار ليسوا إلا قطيعاً! وقلت أنا: سيد عبد، بائع مستهلك! وابتسم محب ولم يعلق. كنا كلنا عليه ماقدر يعمل فوكس على حدا فينا! ابتسم فقط وقال: وماله، حلو برضه مش وحش، ما هيّا طول عمرها كده!

شد نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني، ونفثه متمهلاً من أنفه.

براد بت يقول في خطبته: لقد ربتنا شاشات التلفزيون لكي نؤمن بأن كلاً منا سيصبح ذات يوم مليونيراً، أو نجماً سينمائياً، لكننا أدركنا شيئاً فشيئاً أن ذلك كله محض وهم! ولهذا السبب صرنا اليوم ناقمين جداً، وغاضبين جداً جداً!

فيلم جميل! صاح أحمد فرحات وهو ينهض واقفاً وحاسماً أي

رفض: الفيلم ده اتصادر يا سامح! ثم قال مادحاً الفيلم هذا أيقونة العصر، وربما العصور القادمة! ضحك سامح ولم يعترض، بالرغم من بخله الشديد في إعارة أفلامه وكتبه! ومحب أيضاً طلب نسخة من الشريط، قبل أن يستولي عليه أحمد فرحات، ووعده سامح بنسخة له.

محب سيدرس كل المقولات الواردة بالفيلم على لسانيّ براد بت وإدوارد نورتن؛ لكي يعد ردوداً تفصيلية عنها في مناقشاته الديكية الأبدية الرواقية مع أحمد فرحات!

هذا أول شريط يتوجب الحصول عليه لمكتبة بيتي الجديد بالدوحة. بدي أزبّط مكتبة هونيك؛ كتب، وأفلام، وميوزك!

سأحاول شراءه من الدوحة، وإن لم أعثر عليه هناك، فسأدبر الحصول على نسخة منه بشكل أو بآخر!

حطم تفاهاتك الأنيقة! الأشياء التي تملكها أصبحت تملكك! نعمل في وظائف نكرهها لكي نشتري تفاهات لا نحتاجها! أقول لك انطلق وأينما ترسو السفينة أرس معها! أطلق جنونك يا رجل!

إدوارد نورتن يقول إنك لا تصبح حياً بالكامل مثلما تصبح حياً في نادي القتال، أنت في نادي القتال شخص آخر! تأتي لنادي القتال في اليوم الأول وتكون ضعيفاً مثل العجينة اللينة، ولكن بعد بضعة أسابيع تصير كالخشبة الصلبة! تأتي للقاهرة في اليوم الأول وتكون ضعيفاً مثل العجينة اللينة، ولكن بعد بضعة أسابيع

تصير مثل الخشبة الصلبة!

لا يهم في نادي القتال المكسب ولا الخسارة، وعندما ينتهي القتال لا شيء يُحَل على الإطلاق، لا شيء من ذلك يهم في نادي القتال! لا شيء من ذلك يهم في القاهرة. المهم هو القتال نفسه، وعندما تنتهي من القتال تشعر بالخلاص!

هذا الفيلم فعلاً أيقونة العصر! أنا أقاتل إذن أنا موجود! لا يوجد مثل الفلسطيني يقاتل الجميع في كل مكـ. لا يوجد مثل الفلسطيني يقاتله الجميع في كل مكان!

أنا فلسطيني إذن أنا موجود. لا يهم المكسب ولا الخسارة، المهم أنا أقاتل. وعندما ينتهي الفلسطيني من قتاله لا شيء يحل على الإطلاق. لكن لا شيء من ذلك يهم، المهم القتال في حد ذاته. الفلسطيني كالخشبة الصلبة. الخلاص في القتال.

سحب نصار نفساً عميقاً من دخان التنباك المعسل بنكهة التفاح، ونفثه طويلاً من أنفه. أتبعه بنفس آخر عميق، ونفثه أيضاً من أنفه بلا عجلة.

بعد نهاية الفيلم، قال محب إنه بعد كل هذا، وبالرغم من كل هذا، فإن الجميع يتمنى أن يهاجر إلى أمريكا، ويحيا في أمريكا، والنخب عندنا تصدع رؤوسنا في كل يوم بوجوب اللحاق بركب التقدم في أمريكا التي لا تعجبكم، صحيح أقرع ونزهي! وهذا يثبت أن الرأسمالية هي أفضل نظام لتنظيم المجتمعات توصل

إليه الإنسان إلى اليوم!

رد عليه أحمد فرحات، فوراً، وقال إنه قد فاته أن الواقع الاجتماعي يختلف عن واقع رأس المال، وأن الواقع الاجتماعي للناس قد يكون بائساً وفاسداً، في حين ُتظهر المؤشرات المالية وأسعار البورصة أن واقع رأس المال منتعش ومزدهر! وقال إن الفيلم، وبدون تغيير أي كلمة فيه، يعبر بشكل صادق عن المأزق الحالي للمجتمعات الرأسمالية!

ضحك محب وقال إنه يعرف أن أحمد فرحات ماركسياً لينينياً، فمتى صار فوضوياً! ورد عليه أحمد فرحات وقال إنه لا يؤيد فكرة مشروع الفوضى، وتفجير مباني ومقرات الشركات الرأسمالية؛ لأن ذلك ليس سوى عبثية طفولية رومانسية لن تغير شيئاً من طبيعة العلاقات بين الطبقات في المجتمع الرأسمالي. مجرد رد فعل عنيف سهل لا ينبع من تصادم مصالح حقيقي بين الطبقات، ولذلك فهو فعل عبثي ولن يقود في النهاية إلا إلى العجز!

عندها، قلت أنا، صحيح أن العنف هنا هو فعل عبثي، ولكنه أيضاً فعل بمعنى مفعول به، مثلما نقول يوم عاصف؛ فنحن نقصد أن الريح هي التي تعصف فيه، وليس هو الذي يعصف بنفسه في نفسه! فالشكل العام فاعل، ولكنه في الحقيقة مفعول به! مثل براد بيت وإدوارد نورتون وباقي شباب نادي القتال! وأيدني سامح بهزات قوية من رأسه.

وعاد أحمد فرحات ليؤكد أنه، وبالرغم من رفضه للعنف العبثي، إلا أنه مع ذلك يؤيد العنف المستنير، المحسوب، كوسيلة أثبتت نجاحها على مر التاريخ من أجل تحقيق مطالب اجتماعية ومصالح طبقية محددة، خصوصاً إذا كانت تتمتع بدعم شعبي عريض.

وقلت أنا، دافعاً هذه الحجة لمستوى أعلى؛ إنه مادام الإنسان لا يولد إلا في جماعة يتوجب عليه طاعة قوانينها لكي يعيش فيها، فليس هناك من وسيلة أخرى أمامه، في حالة رفضه لهذه القوانين، إلا أن يعمل على تغييرها بالقوة، وهنا يصبح ثورياً، أو أن يعتبر نفسه استثناءً من هذه القوانين، وهنا يصير مجرماً خارجاً عن القانون. وأن العنف الذي يوافق عليه أحمد فرحات هو الثورة، لكن العنف في نادي القتال هو عنف المجرمين الخارجين عن القانون. خصوصاً وأن الشباب في الفيلم يفتقدون لأية رؤية أيديولوجية متماسكة حول الموقف من طبيعة العلاقات بين قوى المجتمع، بمعنى أن عنفهم هو مجرد رفض لتدني مستوى الامتيازات والمتع التي يقدمها لهم المجتمع الرأسمالي، وليس رفضاً لطبيعة العلاقات نفسها بين السيد والعبد، وربما يكون ما أغاظهم هو أن السيد يترك لهم متعاً وامتيازات أقل، ولو كان السيد أكثر كرماً معهم وزاد من هذه المتع والامتيازات، فربما ما ثار حنقهم! وأن كل هذا العنف، من أوله لآخره، مازال يدور في إطار يو هاف تو سيرف سم بدي، الشيطان أو الرب، يو هاف تو سيرف سم بدي! ويظل هناك دائماً السيد الذي يقود

الحافلة! كلنا عبيد وكلنا متساوون في العبودية، يحيا شيجالوف! وابتسم محب في مرارة وقال يستحيل على رجل أن يقاتل في ثلاث جبهات في نفس الوقت، هذا ليس عدلاً على الإطلاق، كلكم عليّا ولا إيه!

شد نصار نفسين قصيرين من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهما تباعاً من أنفه؛ بعد كل شدة نفثة.

سامح قال لمحب، وهو يبتسم في هدوء، إنه من المستحيل أن يكسب في أي جدال بخصوص تعاسة إنسان اليوم الذي يحيا في عصر النيولبرالية، بغض النظر عن الظروف التي يجري فيها الجدال! وإنه لا يمكن لأي عاقل أن ينكر حالة الخصاء التي تحدث عنها نصار، والتي تزداد يوماً بعد يوم في مجتمع الاستهلاك الرأسمالي، حتى باتت القدرة على الفعل غير متاحة الآن إلا للمجرمين والخارجين عن القانون، بالرغم من كل التشدق بمسألة الحريات الليبرالية وحقوق الإنسان الفردية!

قال له يا محب هذه قنبلة موقوتة نسمع جميعاً دقاتها، ولكن يبدو أنك الوحيد الذي ينكر وجودها ويرفض سماع صوتها!

وقال له إن الفكرة التي طرحها نصار عن غياب الرؤية الأيديولوجية لدى الناس عن الأسباب الحقيقية للبؤس الذي يعيشون فيه، هي فكرة مهمة للغاية، وغياب هذه الرؤية هو المسؤول عن نجاح الدعاية الرأسمالية في تزييف وعي الناس

وتكريس وضعهم ككائنات استهلاكية!

وقال له إن أحمد فرحات كان على حق عندما قال إن هذا الكائن الاستهلاكي الجشع يصبح على بعد خطوة واحدة فقط من التجرد بسهولة من غطائه المتحضر، والتكشير عن أنيابه الوحشية. قد يأتي ذلك بصورة عشوائية نتيجة ضغوط عصبية أو نفسية. أو حتى خلل عقلي؛ كما يحدث أسبوعياً في حوادث إطلاق الناس في أمريكا للنار على المارة في الشوارع أو الزبائن في المحلات العامة والمقاهي!

وتحمست أنا وقلت منفعلاً؛ وهذا يفسر لماذا تكسب أفكار التطرف اللاهوتي والعرقي والفاشي في المجتمعات الاستهلاكية أنصاراً من الشباب في صفوفها كل يوم! لأنه في المجتمع ما بعد الأيديولوجي القائم على الإفراط في استهلاك المتعة، بإمكان أشباه الأيديولوجيات المشوهة والمشوشة أن تقفز لتسد الفراغ الأيديولوجي وتملأ المعنى الغائب لدى الناس! فبدلاً من لوم نمط العلاقات السائد في المجتمع وتحميله المسؤولية عن أوضاع الظلم والفساد الذي يعيش فيه الناس، يتم إزاحة غضبهم إلى المختلف معهم في الدين أو العرق أو الجنسية! الرأسمالية حطمت الاشتراكية ولكنها لم تفلح في خلق أيديولوجية جديدة، فقفزت إلى الساحة أشباه الأيديولوجيات الرجعية! قانون الأواني المستطرقة! فراغ ولا بد له من أن يُملئ! العقل البشري لا يستطيع أن يتحمل العيش في فراغ. وإذا كانت الأيديولوجيا ضرورة فلا بد وأن توجد الأيديولوجيا، أية أيديولوجيا! العقل البشري الآن بلا سلاح

للدفاع عن نفسه، وتجتاحه الرجعية بكل سهولة! العالم الآن جالس على خازوق!

كان أحمد فرحات صامتاً ينظر لي ولسامح بحب!

قال أخيراً لمحب، بهدوء غريب، إنه إن لم تحدث معجزة، أو كارثة، وتؤدي إلى عملية تغيير شامل للناس على نطاق واسع في كل أرجاء العالم، فإن العصر القادم سيتحول من عصر القردة الموغلة في التمدن، إلى عصر الإنسان الدجاجة!

قلت أنا ضاحكاً أو الإنسان الفأر!

وقال محب متهكماً أو الإنسان الضبع؛ الذي كانه منذ بدء الخلق، وهذا ليس بالأمر السيء كثيراً كما تظنون!

قال سامح هذا إذا ما ظل الإنسان هو الذي يقود الحافلة في المستقبل، لأن هناك احتمال كبير لأن تنتزع منه الروبوتات مسألة القيادة والسيطرة، إذا ما استمر المعدل الحالي الذي يسير به تطوير الروبوتات في معامل الشركات الكبرى! توماتيكي توماتيكي!

ضحك أحمد فرحات وقال: يعني برضه ها تفضل العلاقة هيّا السيد والعبد! وقلت أنا: السيد والفرفور!

وصاح محب قائلاً: الرأسمالية يا جماعة، ما هيّا دي

الرأسمالية! وزعلانين إني من أنصار عم فوكوياما ونهاية التاريخ!

فضحك أحمد فرحات وقال: يعني إنت رأيك إنه إكرام الميت دفنه؟ قال محب وهو يضحك: لأ فيه برضه عودة الشيخ لصباه! وضحكنا جميعاً، وقال سامح بأسى عيان ينكح في ميت! الناسُ هوسى والزمانُ أهوسُ!

ثم رفع إصبعه في الهواء، وقال بمنتهى الجدية: وإذا كان الحال كذلك، فلازم ندوش الدوشة بدوشة أدوش من دوشتها عشان ما تدوشناش! ورفع محب ذراعيه في الهواء وهزهما وهو يدفع صدره للأمام وصاح: واللي ما يدلعش نفسه ربنا يحاسبه! وضحكنا جميعاً.

شد نصار نفساً طويلاً من مبسم الشيشة المعدني، ونفثه في خط دخاني طويل على مهل من أنفه.

قرأت في كراسة سامح السرية للمعجزات؛ كلمة محب، مكتوبة بالخط الأحمر، وسهم أحمر يشير إلى قصة معينة في الصفحة. في أحد المستشفيات بألمانيا، حدث أن هناك سيدة، كتب سامح اسمها ولكنني لا أذكره، ولدت صبيين توأمين؛ أحدهما ببشرة بيضاء وعينين زرقاوين وشعر أشقر، بينما الثاني ببشرة سوداء وعينين زرقاوين وشعر أسود!

دلالة! تلخيص لشخصية محب. حُكمٌ عليه!

في صفحة أخرى غيرها، قرأت أيضاً كلمة محب بالخط الأحمر، مع سهم أحمر يشير إلى قصة أخرى. لصان نجحا في السطو على أحد البنوك في دِترويت بأمريكا، وخرجا هاربين من المبنى، ليكتشفا أن سيارتهما قد سرقت، أثناء سرقتهما للبنك بالداخل!

حُكمٌ على شخصية محب.

سألت مرة سامح لماذا تقوم بتجميع كل هذه القصص الغريبة من الصحف والمجلات، وتكتبها في كراسة واحدة؟! كراسة المعجزات! قال شيئاً من قبيل إن الإغراق في جمع تفاصيل واقعية أكثر وأكثر، يؤدي إلى جعل المادة خيالية أكثر وأكثر! أو شيء من هذا القبيل.

كراسة للخيال يعني يا زلمة! عالم خيالي يعني! من الذي قال نحن مجرد خيال في عقل الرب؟

حكى سامح، مرة، أن هذه كانت طريقة ستانلي كوبرِك في العمل، وأنه كان يجمع تفاصيل واقعية أكثر وأكثر، ليضفي على أعماله سمة الخيالية أكثر وأكثر.

قال إن اسم فيلم ُفل ميتال جاكِت، كان كوبرِك قد قرأه مرة كوصف لنوع معين من الرصاصات في كتالوج تجاري للأسلحة، كان يوزع في أحد معارض السلاح التي حضرها في أمريكا!

وقال أيضاً إن المونولوج الشهير للجنرال ريبر، في دكتور سترينجلاف، أو كيف تعلمت أن أتوقف عن مخاوفي وأن أحب القنبلة، كان مصدره، في الأصل، ندوة تلفزيونية أجرتها قناة الإن بي سي الأمريكية، واشترك فيها المندوب الدائم لأمريكا في الأمم المتحدة، وأرنولد توينبي، وهنري كِسنجر. كان عنوان الندوة إمكانية أن يقوم الاتحاد السوفيتي بتسميم مصادر المياه في أمريكا، وتضمنت المناقشات طرحاً لما جاء، في ما بعد، على لسان الجنرال ريبر في الفيلم؛ من أن الشيوعي يمكنه أن يدبر مؤامرة لإصابة الأمريكيين الذكور بالضعف الجنسي، عن طريق إضافة عنصر الفلور لمصادر المياه الأمريكية!

فيلم رائع! من أكثر الأفلام التي أحبها! حتماً ولابد شراؤه لمكتبة البيت اللي بدي أعمره بالدوحة! هذا إذا عثرت عليه هناك! عموماً سأجد طريقة للحصول عليه.

فيلم عظيم! ضغط عليه يهود أمريكا ويهود هوليود لكي يصنع لهم فيلماً عن الهولوكوست. الله يلعن اليهود! وظل كوبرِك يتملص، متعللاً بأنه لا يستطيع صنع فيلم مدته ساعتين فقط عن جرائم النازي! الله يلعن اليهود، إلا ستانلي كوبرِك! والسامريون! السامريون هم اليهود الحقيقيون، شعب عظيم! سلالة موسى الحقيقية. الباقي سلالة المفتش الكبير!

لما اشتد ضغط اليهود عليه، صنع لهم دكتور سترينجلاف أو كيف تعلمت أن أتوقف عن مخاوفي وأن أحب القنبلة. فيلم عظيم،

عن جنون الإدارة الأمريكية وحماقتها، التي لا تتورع عن توريط العالم كله في هولوكوست نووي! دكتور سترينجلاف في الفيلم فاشي بن فاشي! الفيلم كله يبين أن الفاشية هي المحرك الخفي للإدارة الأمريكية! الفاشية والغباء! الله يلعن الأمريكان!

سحب نصار نفسين من مبسم الشيشة المعدني؛ الأول قصير والثاني طويل. كتمهما في صدره لثوان. ثم زفرهما في زفرة واحدة طويلة من أنفه.

أنا من أطلقت اسم كراسة المعجزات على الوقائع الغريبة التي يجمعها سامح. جميعنا يعلم حرصه على جمع الوقائع الغريبة الاستثنائية، والصدف الإعجازية، من الصحف والمجلات الأجنبية والعربية وضمها لكراسته، التي لا يسمح لأحد مطلقاً بالاطلاع عليها!

كنا عند إيفيلين في الفيوم، وكان مشغولاً مع ألكس في الخارج، يشرح لها طريقة صنع الفخار، وتخمير الطين، وطريقة عمل دولاب التشكيل، والفرن.

ترك حقيبته مفتوحة في الدار، فالتقطت كراسة المعجزات، وقرأت ما فيها بسرعة.

لم يسامحني من وقتها! صار هناك حاجز بيننا. بالرغم من استمرار الصداقة، وبالرغم من أنني اعتذرت له كثيراً! لكن يظل ما في القلب في القلب!

لست مخطئاً! كريم حجاج؛ عبقري الجامعة الأمريكية، حكى لي أنه أيام كان يُحضِّر لنموذج محاكاة محكمة العدل العربية، ذهب لمقابلة عصمت عبد المجيد في داره، فأعطاه مسودة مشروع ميثاق محكمة العدل العربية، مكتوب فيها ملاحظات كل الدول العربية بخط اليد، وجعله يقسم على القرآن أن لا يقوم بنسخ هذه الوثيقة السرية، ولا يطلع عليها أحداً. قال كريم حجاج أن أول ما فعله، بعد أن غادر دار عصمت عبد المجيد، أنه دخل محل التصوير أسفل بناية عصمت عبد المجيد، وقام بنسخ ثلاث نسخ من المسودة!

لم يخطئ، بالعكس، قام بواجبه تجاه الحقيقة!

وكناري؛ الصحفي السكندري، نشر مذكرات طالب بعثة، للويس عوض، دون موافقته. بل حتى دون علمه! لم يخطئ بل قام بواجبه تجاه الحقيقة. هذه ملكية عامة!

سامح مخه كبير. وقلبه أكبر، في الحقيقة، وكان عليه أن يتفهم الأمر! لكنه لازال مستاء. لم يسامحني!

قلت له هذا كتاب للمعجزات! أنت تجمع كتاباً للمعجزات. هل تجمع كتاباً للمعجزات لأنك تريد أن تؤمن؟! ابتسم وقال: والله ممكن برضه! سألته وهل تعلم أنك مؤمن، أم أنك لا تعلم أنك مؤمن؟! ضحك وصاح قائلاً: أيواا! إديني في كيريلوف وانا احبك يا فننس!

المصاروة يقولون عن أنفسهم شعب متدين بطبعه! العالم هون بيستعملوا الدين في كل إيشي!

بياع العصير يعلق لافتة مكتوب عليها؛ وسقيناهم شراباً طهوراً.

والحداد؛ وألنا له الحديد.

والخياط؛ وفصلناها لهم تفصيلاً، أو ما ادري إيش!

وفي مدخل مطار القاهرة تطالعك؛ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين!

لكن سامح إن آمن، فسيكون إيمانه مختلفاً! خارج الإطار.

ابتسم وقال: يا ابني ما فيش شرقي ملحد! ترفق بإلهك يا عم نصار! ثم ضحك وقال: وبلسان كيريلوف، إنت يا نصار لا تؤمن لأنك لا تعرف أنك تؤمن! وضحكنا.

سامح حكى، مرة، بأنه استقل ميكروباصاً لفيصل، وجلس إلى جواره في المقعد شاب سلفي بجلابية وذقن شبرين، ومعه زوجته المنقبة. حكى أنه نظر في عيني الشاب فرأى فيهما طمأنينة لا حدود لها، وقال إنه حسده ساعتها على تلك الطمأنينة وتمناها لنفسه! أمثال سامح إن انقلبوا يصبحون في منتهى الخطورة! المفتش الكبير! لديه بذور دينية ضامرة. مدفونة بالداخل مثل

البذور الفرعونية التي إن رُويت بالماء تنبت بعد آلاف السنين!

سامح قال مرة عن ابن الحرام أخو الشرموطة؛ إنه يبدو كمن لو عثر على اسم الإله الأعظم! كانت هناك رائحة حسد واضحة في تصريحه!

استطعت قراءة واقعتين كتبهما في كراسة المعجزات، وعلى هامشهما اسم أخو الشرموطة رجب بالأحمر، وسهم بالأحمر يشير إلى الواقعتين.

سيارة صدمت رضيع انجليزي، ومرت إحدى عجلاتها فوق بطنه، وخرج هذا الرضيع منها سليماً دون خدش واحد!

وقصة أخرى، عن حارس في إحدى الحدائق العامة في أمريكا، صعقته الصواعق سبع مرات؛ من أوائل الأربعينيات، إلى أواخر السبعينيات، ولم يمت مع ذلك! فقد حاجبيه. واحترق شعره مرتين. وأصيب بحروق في ظهره. و فقد إصبعاً في قدمه. فقط لا غير! خسائر طفيفة!

سألته؛ وهل تعرف أنت اسم الإله الأعظم؟! ابتسم وقال هو موجود ضمن التسعة وتسعين اسماً، ولكن ربما. وسكت! ألححت عليه لكي يكمل. كانت تعبيرات وجهه كمن زل لسانه، وتورط في ما لا يحب الحديث عنه! قال، في النهاية وبعد إلحاح، هو ضمن التسعة وتسعين اسماً، ولكن ربما كان الله يفضل أن يدعوه الناس في كل عصر من العصور باسم معين، تذكيراً لهم بقيمة

مهمة تفتقدها الإنسانية في ذلك العصر. ثم قال لاحظ أن الأديان الثلاثة جميعها تحوي نفس المضامين والقيم العليا، ولكن بأثقال نسبية متفاوتة، حسب حاجة كل عصر. قلت له: إذا كان سامح شكري نفسه عم بيقول هيك، طب إيش بيقول الشيخ سالف أبو لحية! ضحك وقال: يا ابني ما فيش شرقي ملحد ترفق بإلهك يا عم نصار!

قلت له؛ ربما كانت الكلمات نفسها هي التي تحقق نفسها، ربما كان هذا هو كل السر! كلماتنا التي نتفوه بها، تتحقق! هذا هو سر الدعاء، هذا هو سر الاستجابة، ببساطة شديدة! هذا هو سر التنبؤ بالغيب، هذا هو كل السر! جوته قال مرة احذر من كلماتك، لأن ما تقوله في شبابك يتحقق في كهولتك. أدرك جوته السر!

رد وقال، وهو يبتسم، رفقاً بإلهك يا نصار، أنت لست ملحداً، أنت فقط غاضب، أو عاتب عليه، كحال الابن مع أبيه في فترة المراهقة، لكنك لست ملحداً، لا يوجد شرقي ملحد يا صديقي، لا أنا ولا حتى أنت، نحن جميعاً مؤمنون بشكل أو بآخر، وحين تهدأ روحك قليلاً ستفكر بشكل مختلف، روحك تحتاج إلى هدنة يا عم نصار!

شد نصار ثلاث شدات عميقة من دخان معسل التفاح، ونفثهم في ثلاث زفرات طويلة؛ بعد كل شدة زفرة، الأولى من فمه، والثانية والثالثة من أنفه.

قلت له ربما لأننا الآن في النهار، وإن كنا في الليل لربما وجدت روحي هادئة مستكينة! وضحكت وقلت مثل الشخصية التي عند دُستويفسكي في الشياطين؛ التي تكف عن الإيمان بالله متى طلع النهار، ثم تعود لتؤمن به في الليل! إلحاد صباحي، إيمان مسائي. قلت نتقابل مساءً حين نحب أن نتناقش في فكرة الله. ابتسم وقال ربما كان الإنسان فعلاً، وبوجه عام، عصبياً مهتاج الروح في الصباح، لكن الفلسطيني روحه غاضبة مثارة على الدوام، لاحظت ذلك في عدة أصدقاء فلسطينيين، تحتاجون لهدنة قليلة يا فلسطينية، تحتاجون لقليل من شم النـَفـَس!

سحب نصار نفساً طويلاً من دخان التنباك المعبق بنكهة التفاح، ونفثه من أنفه في خط طويل متصل.

ربما كان محقاً!

ومن أين لنا بالهدنة، من أين، والحروب مفروضة علينا؟! حروب كبيرة، وحروب صغيرة، حروب الاحتلال، وحروب لقمة العيش! حروب الحفاظ على الهوية، وحروب البقاء على قيد الحياة!

هناك سهم بالأحمر في كراسة معجزاته، مكتوب تحته بالأحمر الفلسطيني، ولا أدري إن كان يقصدني أنا، أو يقصد فلسطينياً آخر، أو كان قصده الفلسطينية بشكل عام، ولكن مادمتُ فلسطينياً فهو يقصدني أنا أيضاً على أي حال.

واقعة حدثت في إحدى مقاطعات رومانيا. كان الناس يمشون في جنازة صبية شابة ماتت في صباح نفس اليوم، وفوجئوا بالميتة تنهض من التابوت المفتوح المحمول على أكتاف الرجال، وتبحلق فيهم مذهولة، ثم تقفز مفزوعة من التابوت وتجري بأقصى سرعتها في الشارع، فتصدمها سيارة مسرعة وتقتلها في الحال!

ورأيت أيضاً سهماً آخر أحمر وبجواره كلمة الفلسطيني؛ يشير إلى قصة راسبوتين. أعرفها جيداً، وأحفظها عن ظهر قلب. أذهلتني منذ الطفولة! جريجوري راسبوتين الراهب المجنون. القديس الفاجر. راسبوتين تعني الفاجر بالروسية، كان نسوانجياً منذ طفولته، فسموه الفاجر!

نسوانجي. سكير. لص جياد. راهب في جبل آثوس باليونان. من زعماء الخالستي! الوصول إلى الله عن طريق الممارسات الجنسية! الإنسان يصبح أكثر قرباً من الله إذا ما اقترف الشهوة المحرمة! ارتكاب الخطيئة من أجل التطهر من الآثام!

الطبيب الخاص لولي العهد؛ ابن قيصر روسيا، يعالجه من مرض الهيموفيليا، سيلان دم وراثي، ورثه عن أمه؛ حفيدة الملكة فِكتوريا ملكة بريطانيا العظمى!

أعداؤه أرادوا اغتياله في سان بطرسبورج. كان اسمها في أيام القيصر نيقولا الثاني بتروجراد، وأيام روسيا السوفيتية

أسموها لينِنجراد.

اغتالوه عام ألف وتسعمائة وستة عشر. قبل اندلاع الثورة الروسية بثلاثة أشهر! راسبوتين كان مقرباً من القيصر نيقولا الثاني، القيصر كان يعتبره قديساً! ومقرباً أيضاً من زوجة القيصر، الكسندرا. كانت تناديه يا زعيم!

مجنون وخطر على ذوي المصالح، وحاشية البلاط الملكي! وإيره لا يكف عن انتهاك حرماتهم! ينتقي أجمل وأغنى نساء البلاط، ولا تستطيع أي منهن مقاومته! كاريزما جبارة! سيطرة نفسية مطلقة على ضحاياه! وإيره لا يكف عن العمل، أخو الشليتة!

دعوه إلى حفلة خاصة، وقالوا سيقدمون له سيدة بارعة الحسن، ثم بدأوا بتسميمه!

راسبوتين أكول نهم! قدموا له حلوى محشوة بسم السيانيد.

في العالم مائتا مليون نوع من السموم في الطبيعة، لم يدرس العلماء منها حتى الآن سوى خمسمائة فقط، ركّبوا منها اثنا عشر صنف من الدواء!

بدأ راسبوتين يأكل الحلوى المسمومة، في انتظار المرة! أكل منها كميات كبيرة، تكفي لقتل دزينة من الرجال، ولم تظهر عليه أية علامات على الانزعاج! قدموا له نبيذاً مسموماً، فشرب من

كؤوس النبيذ المخلوط بالسم كأساً وراء الأخرى، ولم يظهر عليه أي شيء! في النهاية، أطلق عليه الأمير فيلكس يوسوبوف أربع رصاصات من مسدسه، فاخترقت الرصاصات صدر راسبوتين، ولم تقتله مع ذلك! انهالوا على رأسه بالعصي المحشوة بالرصاص ليهشموا رأسه، ثم حملوه وألقوه في نهر نيفا المتجلد!

عندما اكتشفوا الجثة، أظهر التشريح أن سبب الوفاة هو اسفكسيا الغرق! أخو الشليتة مات مختنقاً تحت الماء؛ لعدم وجود أكسجين في قاع النهر!

راسبوتين كتب للقيصر، قبل بضعة أيام من اغتياله، خطاباً يتنبأ فيه باغتياله!

كتب في الخطاب: عندما ُتقرع الأجراس ثلاث مرات، سيعلن مقتلي، وإن كان قاتلي من الشعب فإنك ستحكم روسيا أنت وأولادك لأجيال طويلة قادمة، أما إن كان قاتلي من حاشيتك فإنك سُتقتل أنت وأولادك على يد الشعب. نبؤة! الكلمات! الكلمات تحقق نفسها بنفسها!

شد نصار نفسين قويين سريعين من مبسم الشيشة المعدني، ونفثهما من أنفه في نفثتين سريعتين؛ بعد كل شدة نفثة.

صدق سامح والله! هذا حالنا فعلاً! حال كل الفلسطينية عموماً!

إن حدقت في قلقنا الأبدي قرأت فيه حكايتنا كلها! قلقنا من

حروبنا الصغيرة، لا الكبيرة! لا تقتلنا الحروب الكبيرة، حروبنا الصغيرة هي التي تقضي علينا! حروب الثلاث وجبات والسجائر؛ كما يسميها سامح!

الحروب الكبيرة والحروب الصغيرة! الحروب الكبيرة تشحذ الهمم. توقظ الكرامة. تحي الآمال. تشعل الحماس.

الحروب الصغيرة تنشر الإحباط. والمهانة. واليأس. تمجد الروح الفردية؛ أنا ومن بعدي الطوفان!

تشيكوف كتب مرة أن أي أحمق بإمكانه الصمود في وجه الأزمات الكبرى، لكن روتين الحياة اليومية هو ما يستنزف قوانا!

احتراق المرء في لهيب الحروب الصغيرة لا تنبعث منه أية عنقاء!

وأحمد فرحات يقول إنهم لم يتمكنوا من المصريين بالحروب الكبيرة؛ الاستعمار، والاحتلال، والعدوان العسكري. لكنهم تمكنوا منهم بالحروب الصغيرة؛ حروب الثلاث وجبات والسجائر. لقمة الخبز! سنوات قليلة من الانفتاح كانت كفيلة بالنجاح فيما فشلوا فيه لعقود طويلة! سنوات قليلة من الانفتاح تكفلت بدفن مصر أكثر بكثير من كل حروب العالم!

حروب صغيرة تحصد الثمار التي لم تتمكن الحروب الكبيرة من حصادها! الحلف الفاوستي الذي نشأ بالتزاوج بين اللصوص

والبيروقراطية الفاسدة؛ حصد كل ثمار تضحيات المصريين في حروبهم الكبيرة! أحمد فرحات يقول إن الحروب الصغيرة، حروب الثلاث وجبات والسجائر، غيرت كيمياء المجتمع المصري، إلى الأبد!

قلت له صحيح كلامك، المجتمع مثله مثل أي شيء آخر؛ يحتاج للصيانة، وإذا لم تحدث هذه الصيانة، فإنه يفسد ويهترئ، ولا يعود يصلح معه لا الترقيع، ولا الترميم، ولابد من أن ترميه وتفتش عن مجتمع جديد، مثلما ترمي أي شيء عطلان أو مهترئ وتشتري جديداً بدلاً عنه! مثلما فعل عندكم محمد علي لما أراد بناء دولة حديثة، أدرك أن النخب المجتمعية الموجودة وقتها مهترئة؛ أتراك، وأرمن، ومماليك. وروم، وأجانب. وفلاحين معدمين. لا يصلح هؤلاء لبناء دولة حديثة! فأنشئ نخبة جديدة تصلح لهذه المهمة؛ الطبقة الوسطى. أنشأها بالتعليم المدني المجاني لأولاد الفلاحين، وبالتجنيد الإجباري لأولاد الفلاحين. قلت له أنتم الآن في مصر تحتاجون إلى طبقة جديدة، لأن الطبقة الوسطى عندكم ماتت واندفنت!

رأيت يومها الأسى في عينيه، كان كمن فقد عزيزاً، عاطفي أحمد فرحات! رومانسي جداً! ضحكت عندما قرأت الواقعة التي كتبها سامح في كراسة معجزاته، وكتب على هامشها فرحات بالأحمر، وسهم أحمر فوق الاسم يشير إلى الفقرة. واقعة عن جندي ياباني مخلص، ووطني، اسمه أونودا، مازلت أذكر الاسم. ظل أونودا هذا يحارب، بمفرده، في أدغال الفلبين لمدة ثلاثين

سنة كاملة، دون أن يعرف أن اليابان قد استسلمت، وأن الحرب العالمية الثانية قد انتهت! عثروا عليه في السبعينيات في غابات الفلبين، وأقنعوه بعد مجهود شاق بأن الحرب قد انتهت فعلاً! أحمد فرحات أونودا! الحرب خلصت يا زلمة! يعطيك العافية يا زلمة، لكن الحرب خلصت من زمن يا عمي!

شد نصار نفساً قوياً من مبسم الشيشة المعدني. كتمه في صدره لثوان. ثم نفثه من أنفه عل مهل في خط دخاني مسترسل أصبح الآن خفيفاً قصيراً.

الحجر قارب أن ينتهي!

كل واحد يفكر في نفسه وأحمد فرحات يفكر في الجميع! كل واحد يفكر في نفسه والشيوعي يفكر في الجميع. كل واحد يفكر في نفسه والله يفكر في الجميع. أحمد فرحات واع أكثر مما ينبغي! الوعي عنده أون باستمرار!

في الشياطين، هناك إشارات توحي بأن كيريلوف قد تردد قبل إطلاق النار على رأسه! بطرس ستيفانوفتش قال: إذا عزم أمره فسوف ينتحر فوراً، أما إذا أخذ يفكر فلن يفعل شيئاً!

المشكلة ليست في الوعي الزائف. ليست المشكلة دائماً في الوعي الزائف، بل في أن معظم الناس يتخذون قراراتهم قبل أن يبدأ عمل الوعي أصلاً ببضعة ثوان! ما قبل الوعي! إن أخذ يفكر فلن يفعل شيئاً! ينتهز كيريلوف اللحظة، ويصيح محمساً نفسه

لينهي الأمر: فوراً فوراً فوراً! فوراً قبل أن يأخذ العقل في التفكير والحسابات! عظيم كيريلوف والله! قال: إذا كان الله غير موجود فأنا الله! ثم يطلق النار على رأسه، لأن الانتحار هو الصورة القصوى التي تتجلى فيها حرية إرادته، إلوهيته، عدم خضوعه.

كل واحد يفكر في نفسه وشخوص دُستويفسكي تفكر في الجميع! كل واحد يفكر في نفسه وأحمد فرحات يفكر في الجميع.

يذكرني بحالة السمك الذي يتساقط على اليابسة بعد الإعصار! إعصار قوي وسريع؛ اسمه عمود الماء، يرفع الماء من المحيط، أو البحر، ثم يلقيه على اليابسة، فتتساقط الأسماك الحية في شوارع المدن! السماء تمطر سمكاً! السماء تمطر شيوعيين! ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال! يغنيها عبد الوهاب بمزاج عال. من أعماق القلب. الحب فيه بقائي. من المستحيل أن تحزر الجملة الموسيقية التالية عنده، استلهم طريقة موتسرت في التأليف الموسيقى، من المستحيل في أول مرة تسمع فيها موتسرت أو عبد الوهاب أن تحزر الجملة الموسيقية التالية! من المستحيل أن تحزر كيف ستكرر أم كلثوم نفس الجملة! مستحيل! حتى لو كررت الجملة الواحدة عشرين مرة! تكرار ليس ابن الكوبي بست. تكرار الخلق والابتكار. سامح حكى مرة أن هتشكوك، أيضاً، كان يتبع نفس الأسلوب. يسلك منهجاً معيناً في الإخراج السينمائي يستحيل فيه على الجمهور أن يحزر اللقطة التالية! سلطة استبدادية مطلقة يمارسها الفنان على الجمهور!

المفارقة الأبدية في علاقة الفنان بجمهوره! يحتاجه، ولا يستطيع الاستغناء عنه، لكنه في نفس الوقت يؤمن بأن الجمهور عاق بطبعه! فيتحداه بسلطة المفاجآت الاستبدادية المطلقة!

دُستويفسكي في الزوج الأبدي يقلب المثلث الفرنسي رأساً على عقب! الزوج والزوجة والعشيق. يجعل الزوج هو الذي يشعر بالخجل أمام العشيق! أصلاً بيبلش الحكي والمثلث طاير منه أهم ضلع! الزوجة ماتت سلفاً! عظيمة الزوج الأبدي!

شد نصار بقوة نفساً عميقاً من حجر المعسل التفاحي، الذي شارف على النفاد، فلم يدخل صدره إلا مقداراً ضئيلاً جداً من الدخان، نفثه بسرعة من فمه، فلم يخرج إلا خطاً هزيلاً جداً من الدخان.

الحجر نفد فجأة!

رفع نصار معصمه الأيسر، ونظر في ساعته الستيزن الذهبية ذات الأسورة الجلدية البنية.

الخامسة تقريباً، الخامسة إلا دقيقة.

حجر التفاح نفد في ربع ساعة! عامل الشيشة لم يطعمه جيداً! ليس الذنب ذنب ياسر. التطعيم الجيد للحجر يجعله يستمر لنصف ساعة كاملة. قلة ضمير! لزوم المكسب السريع. انهب واجري! انهب المنهوب؛ شعار الفلاحين الروس في ثورة ألف وتسعمائة

وسبعة عشر، أيام الحرب العالمية الأولى والحكومة المؤقتة في روسيا.

سامح تأخر كثيراً! عمروش عملها قبل هيك! لعل المانع خيراً!

في العادة أنا من يتأخر عليه، أتأخر قليلاً، ربع ساعة يمكن، أو أكثر قليلاً. هو يأتي دائماً في موعده. دائماً تقريباً. عمروش عملها قبل هيك!

شد نصار نفساً قوياً من مبسم الشيشة المعدني، فلم يدخل صدره شيئ إلا الفراغ الدافئ. نفث اللاشيء من فمه في زفرة تسليم.

لا فائدة، نفد الحجر! حجارة التفاح تنفد فجأة. حجارة المعسل؛ الزغلول، والسلوم، والقص، تأفل. الأفول أفضل، أجمل فنياً. غياب تدريجي بطيء، تحلل تدريجي بطيء. أكثر رهافة من غلاظة مفاجأة النفاد، أو الموت المفاجئ! محفوظ يفضل التحلل التدريجي البطيء لشخوصه الكبرى في رواياته الواقعية. أفول أحمد عاكف في خان الخليلي. التحلل البطيء للسيد أحمد عبد الجواد في الثلاثية. هناك شاعرية في الأفول! شاعرية قانون الوهن الحتمي للأشياء. الجانب القدري للخراب!

الأفول أقوى في التعبير عن الخراب. يتيح ملاحظة رائحة عفونة التحلل. التحلل الشخصي، والتحلل الاجتماعي. ويتجنب

الصدمات التي تميز الدراما الساخنة! أقوى ما في محفوظ تجده في لحظات البرودة، لا السخونة. عبارة عماد فكري العظيمة؛ كلما ضعف الأديب كلما لجأ للسخونة. كلما ضعف الفنان كلما لجأ للسخونة.

شد نصار نفساً قوياً جداً من مبسم الشيشة المعدني، ثم نفث الفراغ من فمه.

لا فائدة، نفد الحجر! حين ينفد الحجر ينفد الحجر!

نقل نصار قصبة ليّ الشيشة إلى يسراه، وراح يضغط عليها بقبضته المضمومة عدة مرات.

في مقال النيويوركر الذي أترجمه، أن إمساك كرة التنس باليد اليسرى، والضغط عليها لمرات متتالية، يقلل من رهاب الفشل. يطلق موجات ألفا الموجودة في النصف الأيمن من الدماغ؛ المسؤولة عن الشعور بالراحة. تكنيك أصبح يمارسه اليوم لاعبو كرة القدم في ألمانيا قبل تسديد ضربات الجزاء. يقولون إنه يفلح دائماً!

لف نصار ليّ الشيشة مرتين حول القلب المعدني الفضي، ثم أدلى قصبة الليّ لأسفل؛ بين مبسمها المعدني والأرض شبر تقريباً. ونهض.

لا أثر لأية دوخة. لو كنا دخنا زغلول، أو سلوم، أو قص،

لشعرنا بدوخة، وبخفة، وضعف في الساقين، كأننا شربنا نصف لتر بيرة! أو كأس فودكا. أقواهم القص، شديد! لم نأكل شيئاً منذ الصباح، لكن الحلويات قبل التدخين سترت الحال! تدخين الشيشة على معدة فارغة سيء للغاية!

لف نصار على يمينه، وخطا خطوتين ثابتتين لداخل المقهى. رأى ياسر القهوجي، بالبالطو الأبيض القصير الذي حال لونه من طول الاستعمال إلى رمادي؛ واقفاً وكلتا يديه في جيبي البالطو، يتكلم مع عامل النصبة؛ المنهمك في تلقيم قعري كوبين زجاجيين فارغين بالسكر، ثم بالشاي. لمحه ياسر القهوجي، فاتجه إليه.

- خلي يا باشا!

- شكراً يا برنس، كام الحساب؟! حجر تفاح، وشاي، وقهوة.

- يبقى كله تمانية ونص بس، خلي يا باشا!

- شكراً يا برنس!

مد نصار عشرة جنيهات إلى ياسر القهوجي، الذي رفع كفه الأيمن لمستوى رأسه بسرعة في ما يشبه التحية العسكرية، وهو يقول: ألف شكر يا باشا!

دار نصار على شماله، وخطا خطوتين لخارج المقهى. وقف على العتبة لبضع ثوان؛ ألقت أثناءها عيناه نظرة على بائع

سندوتشات الكبدة والسجق الواقف خلف عربته الصغيرة، المملوكة لصاحب المقهى، والمواجهة لمدخل المقهى.

في نفس المكان دائماً! في منتصف الليل، ينادي كل ليلة على قطط الشوارع المجاورة، فتأتي تتهادى، وتقف أو تجلس في أبهة وهو يلقي إليهن البواقي المتخلفة من سندوتشات الزبائن.

حرك نصار رأسه إلى اليمين قليلاً، وألقى بصره نظرة على بائع دقائق المحمول؛ أحد أقرباء صاحب المقهى، وهو جالس على كرسي خلف نصبة خشبية صغيرة، على بعد بضع خطوات من بائع سندوتشات الكبدة والسجق.

أربح تجارة في مصر الآن! سنترال خاص عشوائي! وبلا أية مصاريف! لا إيجار شهري، ولا ضرائب، ولا فواتير مياه وكهرباء، ولا أجور عمالة، ولا يحزنون! تشتري خط موبايل بزنس، سعر الدقيقة فيه عشرون قرشاً، وتبيعها بجنيه وخمسة وسبعين قرشاً! والمصاروة يعشقون الكلام، شعب الكلام! تجارة الكلام الرابحة!

سمعت أذنا نصار صوت أحد زبائن المقهى من خلفه.

- بقول لك يا ياسر، الكبّاية دي معوجة، هات كبّاية غيرها!

ها ها ها، الكبّاية معوجة!

لو كنت في بداية إقامتي بمصر لظننت الزلمة يتكلم جاداً، مش عم يمزح! ولرحنا نتساءل كيف يمكن لكوب زجاجي أي يكون معوجاً؟! الكوب مشروخ ممكن، مكسور ممكن، لكن كيف معوج! وربما دفعنا الفضول للذهاب إلى طاولته لرؤية الكوب المعوج!

يعترض المصاروة على الكوب المعوج ولا يعترضون على القهوة السيئة! لا يعترضون على المشروب ولكن على الكوب الحاوي للمشروب، لا على المحتوى ولكن على الحاوي! الشكل لا المضمون!

الزلمة عم يمزح، عم يهرج، خفة دم. وأقوى السخريات هي التي تقال بنبرة جادة!

المصاروة يطلقون على الخرتيت سيد قشطة! كيف يمكن لخيال شعب أن يسمي الخرتيت، اللي هوّه الخرتيت؛ سيد قشطة! مفارقة! المعنى اللفظي مضاد للمعنى الفعلي. الشكل مضاد للمضمون. الحاوي ضد المحتوى.

خطا نصار بضع خطوات من عتبة المقهى، ووقف أمام نصبة بائع دقائق المحمول.

شاب أسمر عشريني، قوي البنية، بقميص نصف كم مخطط بالطول كحلي في أصفر.

أشار نصار إلى تليفون محمول نوكيا؛ ألف وأحد عشر، إنتاج ألف وتسعمائة واثنين وتسعين، لونه أسود باهت، وشاشته مستطيلة خضراء صغيرة. بجوار التليفون كرتونة بنية من الورق المقوى، مثنية في شكل هرمي وقائمة على سطح النصبة، مكتوب على واجهتها بخط صغير أحمر كلمة: الدقيقه، ثم بخط أسود ضخم: 175، وبجواره بخط أحمر صغير: قرش.

- ممكن التليفون لو سمحت!

وقف بائع دقائق المحمول، وناول نصار التليفون النوكيا ألف وأحد عشر.

تليفون معفن، حقير! يفضلونه هكذا! إن ضاع، أو سُرق، فلن يحزن عليه كثيراً، ولن يمثل بالنسبة له خسارة كبيرة. كلما كان التليفون رخيصاً كان أفضل في هذا البزنس. كلما كانت أدوات العمل أرخص كلما كان أفضل. كلما كانت المواد الأولية أحقر كلما كان أفضل، تتضاعف المكاسب. الشركة أوقفت إنتاجه منذ زمن، لكنه أشهر الأنواع المستخدمة هنا في سنترالات الشوارع العشوائية.

ضغط نصار تباعاً على مفاتيح الأعداد؛ طالباً رقم الهاتف المحمول لسامح، ثم ضغط على زر أعلى الأعداد؛ مرسوم عليه رمز سماعة تليفون خضراء مقلوبة، على يمينه زر توأم؛ مرسوم عليه رمز سماعة تليفون حمراء مقلوبة. رفع التليفون إلى أذنه

اليمنى معطياً، ظهره لعربة الكبدة والسجق، وبصره موجه لامتداد ممر مقهى الشمس حتى نهايته إلى شارع ستة وعشرين يوليو.

- ألو سامح، وينك يا زلمة ناطرك من إيجي ساعة!

إيش؟! شو عم تقول! بتحكي عن جد؟!

البرجين! والبنتاجون كمان! يا عمي شو ها الحكي! من قديش صار ها الحكي؟!

مين اللي سواها، طب فيه حدا أعلن مسؤوليته؟!

طب والسي إن إن شو عم تحكي؟!

البرجين كلياتهم!

طب والخسائر بالبنتاجون؟!

لك هاي صاعقة والله!

لأ، إنت بتعرف إنه ما عندي تلفزيون بالبنسيون، وبعدين أنا صار لي ناطرك على القهوة من إيجي ساعة يا أخي!

طب سامح إذا بتسمح يعني من فضلك ممكن أمر عليك لأنه إنت بتعرف ما عندي تلفزيون بالبنسيون! أوكى عشر دقايق ربع ساعة ماكسِمم وبكون عندك، بدك إيشي؟! أوكى يلا سلام!

ضغط إبهام نصار الأيمن على زر إنهاء المكالمة. ناول بائع دقائق المحمول التليفون، ذاهلاً، غير واع بأن ابتسامة عريضة تملئ وجهه. ضغط بائع دقائق المحمول، بسرعة، وبأصابع معتادة، على عدة أزرار بالعدة، ثم رفع رأسه وقال لنصار ثلاثة جنيهات ونصف. ناوله نصار ورقة بخمسة جنيهات، أخذها منه الشاب، وناوله الباقي. دس نصار الجنيه ونصف في الجيب الأيمن لبنطلونه الجينز الأسود، وسمعت أذناه صوتاً جهورياً يصيح.

- الفلسطينين بيضربوا أمريكا يا جدعان!

نظر نصار ناحية الصوت، فرأى شاباً قدَّره، من هذه المسافة، بأنه في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات، طويلاً وضخماً، بملابس قاتمة، يقف أمام طاولة مزدحمة بالشباب الذين يدخنون الشيشة في نهاية ممر مقهى الشمس. التقطت أذناه بعض الجمل، التي راحت تتضح أكثر فأكثر وهو يقترب منهم متجهاً لنهاية الممر.

- الفلسطينيين خطفوا طيارات وبيضربوا بيها أمريكا!

- طيارات إيه؟!

- طيارات ركاب، طيارات مدنية!

- ضربوا برجين التجارة في نيويورك من شوية!

- فجروا البرجين، وكل اللي فيهم ماتوا!

- أمريكا كلها في رعب دلوقتي! ضاربين لخمة والدنيا عندهم فوضى مش عارفين يعملوا إيه!

- بيقولوا ضربوا البنتاجون كمان!

- إمتى الكلام ده؟!

- لسه من شوية آهوه!

- أمريكا بتتضرب يا جدعان!

صفق معظم زبائن مقهى الشمس من الشباب، بحماس، وتعالت بعض صيحات التكبير. وحين قارب نصار على الانتهاء من ممر الشمس، وقبل أن يخرج مباشرة إلى شارع ستة وعشرين يوليو، سمعت أذناه صوت ياسر القهوجي يصيح بصوت قوي وفرح.

- يا جماعة المشاريب كلها على حساب القهوة بهذه المناسبة السعيدة!

يا خسارة!

وأدرك نصار، وهو يتحسر، أن فمه كان متسعاً لآخره بابتسامة عريضة كاشفة لأسنانه. فأغلق فمه.

خطا بضع خطوات. ثم وقف على حافة رصيف الشارع منتظراً مرور سيارة تاكسي شاغرة.

ترى من فعلها؟! رجال والله!

يقولون إن الفلسطينية هم من فعلوها! هل أعلن أحد مسؤوليته؟! لن نعرف حتى نصل لشقة ألكس ونتابع السي إن إن من هناك!

لكن لا أحد عندنا الآن مؤهل للقيام بعمل من هذا النوع! خصونا، ولاد الشليتة! الله يلعن اليهود! ويلعن أبو الأمريكان!

السلام السلام، يا سلام سلم! يواصلون حرب الإبادة للنهاية! صفوا القضية، أولاد الكلب! ثم يطلبون السلام من الميتين! هنالك موتى ومستوطنات، وموتى وبولدوزرات، وموتى وشاشات رادار ترصد موتى يموتون أكثر من مرة في الحياة، وموتى يعيشون بعد الممات! موتى يموتون، وموتى يعيشون، وموتى يعودون، وموتى يبوحون بالسر! هنالك موتى ينامون في غرف سوف تبنونها، وموتى يزورون ماضيهم في المكان الذي تهدمون، وموتى يمرون فوق الجسور التي سوف تبنونها، وموتى يضيئون ليل الفراشات، وموتى يجيئون فجراً هادئين كما تركتهم بنادقكم!

خذوا أرض أمي بالسيف، لكنني لن أوقع باسمي معاهدة الصلح بين القتيل وقاتله!

سنهرب من زمن لم نهيء له بعد هاجسنا، ونمضي إلى وطن الطير سرباً من البشر السابقين، نطل على أرضنا من ثقوب الغيوم!

ربما مجموعة من الشباب الغاضب مازالت تجري في عروقهم دماء الرجولة! يأسوا من التوهان الفلسطيني! الفلسطينية مهرة، وشديدي الذكاء، وإن حطوا إيشي براسهم فلابد وحتماً راح ينفذوه!

الناس هنا يهرولون، يهرولون هنا وهناك بلا هدف! جيش مهزوم ينسحب في حالة فوضى! لا يعرف المصاروة كيف يمشون، يهرولون فقط! سيف الله مختار قال مرة في فيلم مصري، وكان مكلفاً بمراقبة رجل في الفيلم: الراجل ده ما بيعرفش يمشي، بيجري بس! المصاروة كلياتهم ما بيعرفوا يمشوا، بيجروا بس!

هذه الفتاة هناك تمشي مثل اليابانيات! اليابانيات يمشين كأنهن محصورات يسرعن للتواليت! وآدي مشية المحصورة يا با يا با على المحصورة! سروالها ضيق جداً! شرموطة!

لمحت عينا نصار، إلى يساره، رجلاً ثلاثينياً نحيفاً وطويلاً، فرحاً، يتجه إلى صاحب كشك سجائر على الرصيف، ويرفع يديه صائحاً مهللاً: صدام حسين بيضرب أمريكا! أكد الرجل الخبر عدة مرات لصاحب كشك السجائر الأربعيني البدين، الغير

مصدق. كبر صاحب الكشك، فرحاً، عدة مرات: الله أكبر!

صدام حسين! جائز جداً والله!

الناس فرحون هنا! تلاقيهم في رام الله ها سَّع يوزعون الحلوى في الشوارع! ويرقصون أيضاً.

الفلسطينية، أم صدام حسين؟! أم الاثنان معاً!

وربما يكون اليمين الأمريكي المتطرف! مين بيعرف!

قاموا بتفجير مبان في أوكلاهوما، من ستة أعوام تقريباً. في ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين. أمريكي من أصل أيرلندي، كاثوليكي متطرف، يميني متطرف. اسمه تيموثي مكفاي.

وممكن اللي عملها يكون مافيا المخدرات! ربما رفاق بابلو إسكوبار، الزعيم العظيم! الكولومبي اللي دوخ الأمريكان! اغتالوه في ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين. المافيا لا تنسى ثأرها، وينتقمون في الوقت المناسب. المناسب بالنسبة لهم!

وربما تكون مجموعة من الشباب الفلسطيني فعلاً.

نحتاج إلى معلومات يا زلمة! الأخبار! التلفزيون!

العالم كله فرحان ها سَّع! العالم الثالث على الأقل! يوم عيد!

سامح حكى أنها طائرات مدنية أمريكية، قاموا باختطافها

وإجبار طياريها على الاصطدام بمبنيي التجارة العالمية، ومقر البنتاجون! يوم عيد والله! الثلاثاء، الحادي عشر من سبتمبر. الخامسة عصراً الآن، يعني تقريباً عندهم العاشرة صباحاً.

وفي منتصف الأسبوع! في ساعة يكون فيها الناس على مكاتبهم! لابد وأن الضحايا بالآلاف! ممكن عشرات الآلاف!

سامح حكى أنهم هاجموا مقر البنتاجون نفسه! ينصر دين أبوكم!

وحكى أن هناك طائرات أخرى، لا يعرف أحد كم عددها، مازالت مختطفة، وتحلق فوق المدن الأمريكية، ولا يعرف أحد أين ولا متى سوف تصطدم بماذا؟! أكيد ميلندا عم ترعش هلأ في ميامي! وشلي، وآبي، ومارتن جولد مان، وخرا مان، وكل اللي اسمه مان! أخوات الشرموطة ولاد الكلب!

سامح حكى أن أمريكا غارقة في فوضى عارمة! لم ُتضرب أمريكا في عقر دارها منذ بيرل هاربر! وأيامها ردت الضربة لليابان بإلقاء قنبلتين نوويتين عليها! لكن القنابل النووية الأمريكية لن تفلح هذه المرة، على من تلقيها إن شاء الله! هذه طائرات مدنية تهاجم المباني، ولا يمكن استهداف طائرات مدنية تطير فوق رأسك بالقنابل النووية! بتتف على حالك يعني!

وسيلة النقل المدنية تتحول إلى سلاح فتاك يحيد القنابل النووية ويجعله سلاحاً صفرياً! والله هادا المخ لابد إنه مخ

فلسطيني! عفارم عليكم، ينصر دين أبوكم! يسلم المخ اللي فكر! يعطيكم ألف عافية يا شباب! يا ريت والله تحاولوا مع ميامي يا شباب يعطيكم ألف عافية!

بدنا تاكسي يا ولاد الكلب!

لمحت عينا نصار سيارة تاكسي فيات مائة وثمانية وعشرون، آتية على مهلها على الطريق، وسمعت أذناه صوت أم كلثوم يخترق الزجاج الأمامي المفتوح للسيارة: أهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم واتجمعوا يا ليل صحبة وانا معهم. أشارت الكف اليمنى لنصار بإلحاح لسيارة التاكسي الشاغرة.

مرت سيارة التاكسي من أمام نصار دون أن يلتفت السائق إليه. ولمحت عينا نصار السائق عبر الزجاج الأمامي المفتوح؛ سائق بدين بكرش، على عينيه نظارة طبية كعب كبّاية، وأزرار قميصه الأبيض مفتوحة لآخر صدره، ومنديل محلاوي رمادي بنقشة مربعات كبيرة ملفوف حول قفا عنقه.

يلعن طعطع! يا أخو الشليتة ياحربوق! إبن الكلب فاضي وما وقف! أخو الشرموطة! يلعن أبو الغباء يا زلمة!

آه، طبعاً! وقف للشرموطة هونيك! طبعاً، لساه متغدي إبن الكلب وبدّه مرة ينكحها! الحربوق أخو الشرموطة!

إمبارح ركبت مع سواق تاكسي شاب هايج، عمال يحكي إنه

بيدور من إيجي ساعة على أي لحمة ينكحها! قلت له الله يوفقك اللي بيدور بيلاقي! إخوات الشراميط!

استقلت الفتاة العشرينية الجميلة صاحبة المشية اليابانية سيارة التاكسي بجوار السائق البدين الأكرش، وأغلقت الباب. تحرك التاكسي على مهله، وعينا نصار مسمرتان عليه في حنق.

واستمر نصار يلعن.